مجموعة من الباحثين

بإشراف: ج. م. دانتزر

سورية الجنوبية

(حوران)

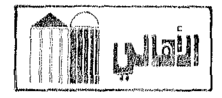
بحوث أثرية في العهدين الهلليني والروماني

تعريب

أحمد عبد الكريم

د. ميشيل عيسى

سالم العيسى



سورية الجنوبية
(حوران)

يتضمن هذا الكتاب بحوثاً أثرية، قام بها علماء من المعهد الفرنسي لعلم الآثار في الشرق الأدنى، حول المنطقة الجنوبية من سورية (حوران)، التي تمتد من جنوب دمشق إلى شمال عمان، ومن شرق جبل العرب الى تخوم فلسطين.

اعتمد الباحثون في استنتاجاتهم على اللقى الأثرية، من عمارة ونحت جدران وبرك، وخزانات مياه، وشبكات طرق، وقرى مهجورة، وخزفيات ونقود، وعلى حدود الملكيات الزراعية القديمة، وتناولوا في دراساتهم العصور النبطية والهللينية والرومانية التي مرت على هذه المنطقة.

يسر دار «الأهالي» أن تصدر هذا الكتاب بالعربية، بعد أن نُشر بإشراف الباحث ج. م. دانتزر بالفرنسية في باريس، مساهمة منها في اطلاع القاريء على التاريخ القديم لهذه المنطقة، ومساعدة الباحثين والدارسين العرب على فهم حقبة هامة من هذا التاريخ.

الناشر

سورية الجنوبية
حـــــوران

٣٠٠٠/ ١٠/ ١٩٨٨

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

مجموعة من الباحثين

بإشراف: ج. م. دانتزر

سورية الجنوبية

(حوران)

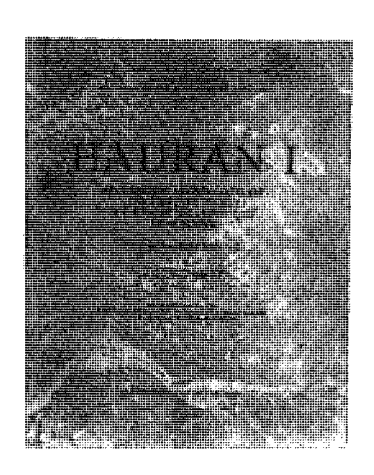
بحوث أثرية في العهدين الهلليني والروماني

تعريب

أحمد عبد الكريم

د. ميشيل عيسى

سالم العيسى



غلاف الطبعة الفرنسية
مكتبة الاستشراق لبول غوتنر
باريس ١٩٨٥

الإهداء

إلى ذكرى الأستاذ سليمان المقداد (أبو رياض)، الذي كرس حياته، للكشف عن آثار المنطقة، ومعرفة تاريخها الغني وإحياء تراثها.

المحتويات

تمهيد

«حـوران» هي الهضبـة الواقعة ، في الطرف الجنوبي من الجمهورية العربية السورية بين الحـوض الـدمشقي في الشـمال ، ومنخفض وادي الـيرمـوك وجبـال عجلون ومنخفض الأزرق ووادي السـرحـان في الجنـوب والجنـوب الشـرقي ، وتمتـد بين سفـوح جبل الشيخ الشـرقيـة ومـرتفعـات الجـولان المشرفة على وادي الأردن في الغرب والجنوب الغربي ، من جهة ، ومنطقة الحماد والصفا من بادية الشرق مروراً بجبل حوران (حالياً جبل العرب) في الشرق . وقد هيأها هذا الموقع الهام لتكون البوابة الرئيسية لبلاد الشام للقادمين من الجزيرة العربية ، وهمزة الوصل الستراتيجية بين سورية الشمالية وسورية الجنوبية .

عرفهـا الآراميـون والأنباط باسم «باثان» أو «باشان» واطلق عليها الآشوريون اسم «حـورانـو» وعـرفت في أيـام الإغـريق والـرومان باسم «أورانتس» ، وأطلق عليها الشعراء العـرب في الجـاهليـة والإسلام اسم جبلها «الأشم» «حوران» الذي أسماه أبناء بنو معروف بحق «جبـل العـرب» ورووه منـذ أن قطنـوه في القـرن الثامن عشر بدمائهم وعرق جبينهم وحولوه الى جنة بسواعدهم .

كانت حوران منذ أقدم العصور ولا تزال احدى البوابات الرئيسية المنفتحة على شبه الجزيرة العربية، تستقبل الهجرات والقوافل التجارية، فتحتضن بعضها وينطلق بعضها الآخر شمالاً الى بلاد الهلال الخصيب. وقد استوطنها أجداد العرب من الآراميين والأنباط والصفاويين، واختارها الغساسنة بعد هجرتهم من اليمن إثر انهيار سد مأرب فاستوطنوها، وجعلوا من دمشق عاصمة لمملكتهم، وفتحوا أذرعهم لأبناء عمومتهم العدنانيين في «معركة اليرموك» التاريخية الحاسمة التي جرت على بطاح حوران. فكانت مقدمة لتحرير بلاد الشام وآسيا من الاستعمار البيزنطي وقاعدة انطلاق لفتح فلسطين ومصر.

لقد أدرك الرومان أهميتها الاقتصادية والستراتيجية فجعلوا منها «أهراء» لتموين روما بالحبوب وإنارة كنائسها بزيت زيتونها، وحولوها الى «قاعدة ستراتيجية» متقدمة لينطلقوا منها تارة باتجاه البطالمة في مصر، وتارة أخرى لمواجهة الفرس في الشرق، ولمحاولة التصدي للغزوات العربية القادمة من شبه الجزيرة.

ولم يغفل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أهمية هذا الموقع الستراتيجي، عندما زج أفضل قادته في معركة اليرموك التاريخية الحاسمة، فانطلقت من قرى حوران في تل الجابية وضفاف اليرموك، جيوش الفتح الى مصر وشمالي أفريقيا وإلى بلاد الشام وآسيا الصغرى لتبني الإمبراطورية العربية . .

أقام الأنباط مملكتهم في القرون الأولى قبل الميلاد، واستتبت لهم السلطة في المنطقة الممتدة من قناة السويس الحالية، وخليج العقبة الى سهول دمشق. وجعلوا من «بصرى» عاصمة ثانية للمملكة بعد البتراء، وأقام آخر ملوكهم في «دمشق». حتى الاحتلال الروماني في أواخر القرن الأول الميلادي.

وقد أنشأوا الطرق الرئيسية التي تربط شبه الجزيرة العربية ومصر والبحر الأحمر بدمشق وتدمر وبابل، وأتقنوا أساليب الري التي أخذها عنهم الرومان. وأصبحت القوافل التجارية التي تحمل البضائع والسلع المختلفة من جميع بلدان الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا وغربي آسيا تتقاطر إلى دمشق وبصرى وتدمر ذهاباً وإياباً. لتنجز أعظم مبادلات اقتصادية وثقافية وحضارية في التاريخ.

وما أن استتب الأمر للرومان في سورية الشمالية حتى سارعوا الى ضم حوران الى «المقاطعة العربية» وجعلوا منها «درعاً» يقي جناح الإمبراطورية الجنوب الشرقي من غزوات عرب الجزيرة، وبطالمة مصر والقوات الفارسية، وحولوا مدينة «بصرى» إلى قاعدة «لقواتهم السريعة الحركة» المكونة من «الفيلق البرقاوي الروماني» الذي كان في ذلك العصر بمثابة «قوات التدخل السريع» المعروفة في هذه الأيام.

وقـد أصلح الـرومـان شبكة الطرق التي أنشأها الأنباط في سورية الجنوبية ووسعوها، وأنشأوا بعض الطـرق الستـراتيجيـة، وأقـامـوا على جوانبهـا المخافر الدائمة للأمن وسرعة الحركة والاتصال السريع وبنوا في بصرى أحد أعظم المسارح التي لا زالت تشهد حتى الآن على ازدهار المنطقة وتقدم حضارتها.

وحـاول أحـد أباطرتهم أن يجعل من «مدينة شهبا» التاريخية عاصمة إقليمية وجهزها بجميع المرافق والخدمات التي تحتاجها أهم المدن الرومانية، مما لفت انتباه بعض معارضيه وحسدهم.

شهـدت حوران ازدهـاراً عظيـماً في العصر الروماني واستمر هذا الازدهار بعد الفتح الإسـلامي طوال العصـر الأمـوي والمـرحلة الزاهرة من العصر العباسي، ولكنها مالبثت أن أخذت بالتدهور مع بداية العصر المملوكي والعثماني، بسبب عدم الاستقرار والمعاملة السيئة التي كان يلاقيها السكان المستقرون في القرى والمدن، على جيدي المرتزقة، الذين يحاولون الاستيـلاء على محاصيلهم الـزراعيـة بأبشع الوسائل واعنفها، مما أضطر بعض سكان هذه المنطقة الى الهجرة من قراهم والتحول الى البداوة للمحافظة على كرامتهم وحريتهم.

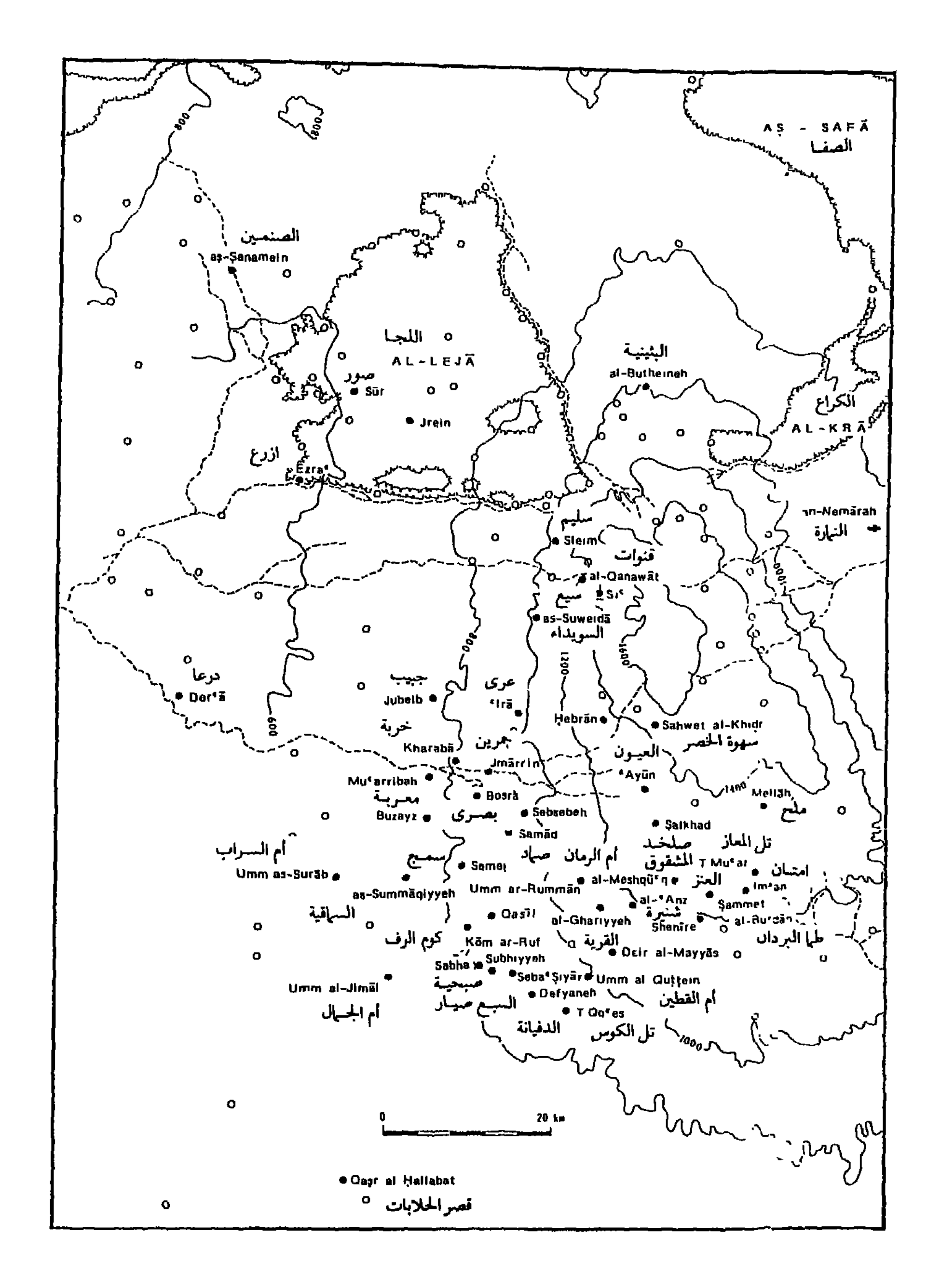
لم تتبدل هذه الأساليب الغاشمة بعد زوال الحكم العثماني وقيام الانتداب الفرنسي، بل ازدادت حدة وصلفاً في حوران وبقية المناطق السورية، مما أدى إلى تصدي أبناء المنطقة للمستعمـرين الجـدد في معظم قرى حوران وحـاولـوا الوقوف الى جانب الملك فيصل ضد مخططـات سايكس ـ بيكـو، وقتلوا في (خـربـة غزالـة) معظم أعضـاء الحكومة التي فرضها الفرنسيون على سورية، ولم يرضخوا للبطش. والغرامات والارهاب.

وفي عام ١٩٢٥ انطلقت الثـورة السـورية الكبرى، بقيادة البطل سلطان الأطرش، من فوق جبـل حوران الأشم، وبـدأ أبنـاء المنطقـة رحلة نضـالهم الطويلة، التي لم تهدأ إلا بزوال الاستعمار الفرنسي، وتحقيق استقلال سورية.

ومـع زوال الانتـداب الفـرنسي، شهدت حوران مرحلة جديدة من التطور شأنها في ذلـك شأن بقيـة المنـاطق والمدن السورية، ولكنها مالبثت أن تأثرت أكثر من غيرها، بسبب الصراع العربي الصهيوني، وقيام (اسرائيل).

وقـد أدرك سكان المنطقة خطر المطامع الصهيونية، على مياههم وأراضيهم الخصبة، فصمموا على مواجهة التحدي مع أبناء الشعب العربي السوري وقياداته الوطنية.

وتشهـد حوران اليـوم نهضـة اقتصـاديـة وثقـافيـة واجتـماعيـة أخذت تعطي ثمارها، فتحـولت منـاطق واسعـة منهـا الى مزارع نمـوذجية للأشجار المثمرة والخضار، وأصبح لها شهـرة خاصـة تضـاهي شهـرة حنطتهـا الصلبـة المعـروفـة، مما يبشر بمستقبل مشرق يليق بموقعها وطبيعتها.



الشكل رقم ١ ـ خريطة النقوش (الكتابات) النبطية

هذا ونخص بالشكر السيد محافظ درعا والمسؤولين في المحافظة، على جهودهم في نشر هذا الكتاب.

أحمد عبد الكريم

المقدمة

يقدم لنا الجنوب الأقصى من سورية ذو المناطق المتعددة والأقاليم المتنوعة، صوراً معقدة بذاتها، ومتباينة. وكلمة «حوران» أصلا تنطبق دون شك على هذه الخصائص: أول مايبدو لنا في تلك الصورة، طريق مرور القوافل الذي كان يربط منذ زمن سحيق أطراف الجزيرة العربية النائية بقلب البلاد، وبالبحر، ثم يظهر الجبل المُحاط من كل صوب بصحراء جرداء خاوية، كانت وفق العهود المتتالية، إما ملجأ ومأوى أو أرضاً مباركة للآلهة. ناهيك عن العديد من المقاطعات الصغيرة ذات الطابع الخاص. بيد أن هذا الجنوب يبقى أرضاً أضفى عليها البازلت الأسود طابع القساوة، وهذا لاينفي بأنها كانت يوماً أحد اهراء القمح في سورية، كما كانت. من جهة ثانية، منطقة بساتين وكروم وخير دليل على ذلك ظهور عناقيد العنب «شعار لا يمحى». على آثار أوابد «حوران» في كثير من الأحيان.

إن الانطلاقة الحازمة لسورية الحديثة، لم تأل جهداً في سبيل أن تخرج من السبات، منطقة كانت حتى أول هذا القرن، لا تزال هامشية ومحرومة. فمن خلال تاريخ لا يزال غارقاً في غياهب الجهل والظلام، ظهرت حقبة واحدة اخرى غنية، أيام كان فيها السلام

الـرومـاني يفـرض الأمن ويحقق الازدهـار، وعلى كل حال فالآثـارات العـديـدة والمتنـوعة الضخمة في معظمها التي تنتشر في الأرياف وتبقى مدعاة فخر وعظمة للمدن تعود كلها الى تلك الحقبة.

لم تأل البعثـات العلميـة في القرنين التاسع عشر والعشرين جهداً في العمل على كشف تلك الآثـار والتنـويـه عن مضمـونهـا. لقـد ساهم الألمان والاميركيون والفرنسيون في هذا العمـل الهـام، وذلـك الانتـاج المفيـد دومـاً حتى جاء حصادهم الأثري من كتابات ونقوش غزيراً وفيراً، معداً للتخزين كما ظهر حديثاً تنقيب أكثر منهجية وأعمق جذوراً للكشف عن خفـايـا الأزمنـة الغـابـرة. فالسلطات السورية خططت لمشروع كبير لانقاذ وترميم بصرى القديمة. وأيضاً لبرنامج كبير هو الآن قيد التنفيذ لشهباء (فيليو بوليس)، وقد أكملت تلك العمليـات من خلال بنـاء المتحف الاقليمي في السـويداء. ضمن هذا الاطار، برز برنامج الابحـاث الـذي يديـره منـذ بضـع سنـين «ج. م. دانتزر» يساعده في ذلك فريقه في المركز الـوطني للأبحـاث العلمية وهو وحدة البحث الأثري رقم (٢٠)، وهذا هو الوقت المناسب للقيـام ببحث شامـل عن منطقـة حوران الفـريـدة من نوعها، بالاستناد الى قواعد راسخة وأسس متينة، مبنية عل علم آثار لا يهمل أية طريقة ولا يتخلى عن أي خط من خطوط البحث.

يبقى المشـروع حسـاسـاً: فهـذه المنطقـة التي عرفت أول ازدهـار لها في العصـر البـرونـزي، لم تعـد إلى الانتعاش ثانية إلا في العهد الروماني[*]، وبالرغم من ذلك، فقد بقيت متطـورة بحـدٍ رسّخه ظهور منطقة الجزيرة العربية، التي كان يعيش فيها شعب خليط، كما تعـايش بها أو توالى على أراضيهـا الآراميـون والعرب بمختلف تسمياتهم «الايطوريون، الأنـبـاط - الصفـويون»[**]. وهي منطقة تعتبر نقطة تلاق بين الحضر والبدو الرحل، يرافق ظروفهـا البيئيـة عدم استقـرار طويـل الأمـد. كما هي منطقـة تمسكت تمسكاً شديداً ببنياتها الاجتـماعيـة التقليـديـة التي بها وازت القـرية مجتمع المدينة. منطقة مهدت في مجالات الفن والعمارة أو النحت لظهور علامات تحمل في مضمونها سمة ريفية تنم عن السعادة ورغد العيش.

يعتـبر هذا الكتـاب بمثـابة نقطة انطلاق مرحلة أولى في البحث، كما يكشف فهرس المواد عن امتـداد المشـروع. فانطـلاقـاً من الأسس الجيـولوجية والجغرافية، يمكن الوصول الى الدراسة الاقتصـاديـة الـريفيـة والى نمط الحياة الفردية والى دراسة طرق المواصلات فقد تعزز علم النقوش وعلم المسكوكات مثلما ازدهرت صناعة الخزفيات.

واخـيراً احتلت الآثـار العظيمـة الضخمـة مكـانها اللائق ضمن الفصول المخصصة للعمارة والنحت كما أعطى هذا المجلد الأول وضمن اطار اخترناه اهتماماً أكبر بالمرحلة التي

دعاها مؤلفوه مرحلة «ماقبل ظهور الولاية». أعني المرحلة التي سبقت نشوء ولاية الجزيرة العربية، والتي تظهر عليها بصمات حضور روما: من بومبيوس الى السلالة الفلافية؛ وهي مرحلة انتقال من شرق قديم تلاشت ملامحه وسماته الى أفق امبراطوري توطدتَ أسسه وعلا بنيانه.

يجدد هذا الكتاب بحثاً يعتبر بمثابة اللبنة الأولى في صرح أكثر اتساعاً ولا يسعنا إلاَّ أن نبث تمنياتنا الطيبة لمؤلفيه.

أرنست ويل

هوامش المترجم

*١ ـ هذا الرأي يناقض بعض البحوث التي وردت في الكتاب، فقد كانت المنطقة مزدهرة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً في عهد الأنباط في القرن الأول ق.م والأول الميلادي، قبل وصول الرومان.

*٢ ـ الصفويون: نسبة الى منطقة الصفاة الواقعة في البادية شرقي جبل حوران وهم ابناء عم الأنباط.

المدخل

عرفت المنطقة البازلتية في سورية الجنوبية التي يرتبط بها هدب ضيق في شمال الاردن منذ نشر المؤلفات الكبيرة للسادة :

«H. C. Butler, Domaszewski - Brumnovv - M. de Bojne»

نظراً لغنى آثارها الهندسية المعمارية، التي تعود في أغلبها الى العصر الروماني، هؤلاء المؤلفون تميزوا بمشاهدة العديد من الأبنية في وضعها السليم الكامل، مما ادخر لنا الأدلة الثبوتية الثمينة، ولكن لم يتسن لهم الوقت الكافي ولا الوسائل الضرورية التي تحقق دراسات معمقة حولها، حيث لم يتمكنوا من الوصول الى الشمولية والى ترجمة مجمل المشاهدات المتوضعة في الأراضي. ومنذ صدور مؤلفاتهم لم يتم أي نشر جديد عن الأبنية والعمارات في حوران بخلاف ماتم بالنسبة لدراسة علم النقوش ولتاريخ المنطقة، غير أنه في السنوات الاخيرة، ومن خلال التطور السريع للبحوث الديمغرافية والاقتصادية، فإن تسارع الأعمال الكبرى وتطور العمران الخاص، أوشك أن يطمس نهائياً بعض الآثار، خصوصاً المتواضعة منها، التي لم تكن تجلب أنظار مؤلفي القرن التاسع عشر[1]. لذا توطدت الآن فكرة العودة الى التنقيب في هذه الأراضي ولكن ضمن قواعد ثابتة ومنظور جديد.

والحقيقة لقد توفرت شروط خاصة ومناسبة، أبقت في المنطقة ليس فقط على اثار العمارة أو النحت، بل أيضاً على بقايا حسّية تشكل مجموعات قيّمة ولكن بمعيار آخر مثل؛ البنى الزراعية (من جدران وحدود لتقسيم أراضٍ زراعية ومساحات زراعية - برك وخزانات مياه) شبكة طرق للمواصلات - قرى مهجورة مع أراضيها المحجّرة. فعدد تلك الآثار وتوزعها الواحد أو المتماثل على امتداد كامل المنطقة يُتيحان ضمن هذا الاطار طرح مسألة تطوير مجموعة جغرافية تتلاءم ووسطاً طبيعياً شديد التماسك. ولكن وحدة المنطقة وجدتها تُفسَّران وفق آخر تحليل بتشكلها البركاني. أما الفوارق المتنوعة في المناظر والثروات التي تقدمها لنا، فإنها تعود الى الطبيعة، وبخاصة الى عصر التدفقات الحممية التي تحكمت في شكل التضاريس وفي تحلل البازلت - في زمن متقدم نوعاً ما - إلى تربة فخارية هي بالحقيقة أساساً لكل حياة نباتية، كما تحكمت مع المناخ في الأشكال الخاصة للشبكة الهيدروليكية ذات الينابيع النادرة وعديمة المجاري المائية الدائمية. ان دراسة ابراز المنطقة هي اذن تفحّص ردود الأسئلة النوعية، التي يطرحها هذا المحيط أو تلك البيئة، في كل مرحلة من الزمن، ليس فقط على مزارع تربية المواشي وإنما أيضاً على مهندس الطرق والقرى والمدن.

وهذا ما يدعونا لتخصيص وقت طويل من منهاج عملنا لدراسة هذا المحيط من وجهة نظر علم شكل الأرض والتربة والمستحثات والجغرافية التاريخية.

وصل ازدهار المنطقة الى أعلى مستوى خلال العهد الروماني، يبين ذلك هذا الاتساع الكبير للأراضي المزروعة، وأيضاً نمو وتضاعف عمران القرى والمدن. بينما كانت بعض الأدّلة تدعو للتصور بوجود سابق للفقر في البلاد، حيث مرت عليها فترة عدم استقرار في بعض المناطق في نهاية القرن الأول قبل الميلاد.[٣٥] إلاّ أن المنطقة عرفت وبصورة لا تدعو للشك، مرحلة من التطور البارز في العهد الروماني، ولو أنها لم تكن الأولى من نوعها[٦] لأن بعض المكتشفات الحديثة على النقوش المعدنية تدعو الى التخمين بحدوث مراحل تطور اكثر قدماً. وخلال هذه الفترة التي تم البحث والتنقيب فيها، تبين بأن سورية الجنوبية قد انتظمت بنجاح ضمن وحدة سياسية. بينما تأكدت القطيعة التي كانت تشطر المنطقة الطبيعية بين مملكة الأنباط من جهة وبين الايطوريين والسلالة الهيرودية أو ولاية سورية الرومانية من جهة ثانية، خلال نشأة الولاية العربية. وقد عُدّل هذا التقسيم بعدئذٍ مرات عديدة. فنحو عام ١٩٨ توسعت الولاية العربية من الجهة الشمالية لحوران ومن الجهة الجنوبية لـ Batanée. ثم نحو عام ٢٩٥ ب. م توسعت بالتأكيد من الجهة الشمالية لـ «Batanée ولـ «Trachonitide». غير أنه خلال نفس المدة، انحسرت الولاية العربية عن النقب - آيلا «aila» - وبترا المرتبطة بالولاية الفلسطينية، والفضل في هذا التطور أنه وحّد تدريجياً وتحت سلطة ادارية واحدة، كافة المنطقة تقريباً واضعاً حداً للانقسام بين تخوم عدة

ممالـك، حيث أصبحت الـولاية مركزاً لمجموعة جديدة. كما حقق هذا التطور، بدون أدنى شك، ازدهـاراً لتطـور اقتصـادي في المنطقـة ستتوضح معالمه ابتداء من القرن الأول للميلاد (كما سنلحظ لاحقاً).

حاولنـا دراسـة هذا التطـور من خلال مختلف المظاهر السائدة في جميع أنواع الآثارات المتعـاقبـة من الحائط الى المدينة، من العمارة الى النحت الى الخزفيات دون اهمال الكتابات والنقوش السامية واليونانية واللاتينية النادرة، تلك النقوش التي هي بصورة خاصة عديدة في المنطقـة وقـد تحاكت بشهـرتهـا مع الآثار المادية التي احتوتها، كما وفرت قواعد ثمينة في سبيل تفسيرها، ان البحث في تلك الآثار تحدد ضمن ثلاث مستويات مختلفة:

على مستـوى كامـل المنطقـة: ابتـدأت عام ١٩٧٤ سلسلة من البحـوث والتنقيب، هدفهـا تنظيم وثـائق مصـورة عن الهنـدسـة المعـماريـة والطبوغرافيا والمشتركون هم ج. م، وجـاكلين دانتـزر، وج. ب. سوديني والمهنـدسـون المعـماريـون ج. ل. بيسكـوب وبايرو، وفـر لارشيـه، وبرفقتهم الرسام ك. فيبيـر غيمغ. ومنذ عام ١٩٧٧ أتاحت زيادة عدد فريق العمل، اعادة دراسة المنطقة، على أسس جغرافية وعلى أسس علم شكل الأرض وتطوره، والبدء بإحصاء القرى والبنى الزراعية وطرق المواصلات القديمة على الواقع، وعلى صور جويـة قديمـة. وفي الوقت نفسه تم البحث عن عناصر العمارة والتركيب في المواقع وفي مستويات الأثريات وفي المتاحف، والمشتركون في البحث كانوا «فر. فيلنوف ـ فر. هوغيه ـ ت. بوزو- ج. بوليـلي ـ س. قدسي» أمـا الجغـرافي ب. جانتيـل فقد أمدنا بمساعدة فعّالة من خلال توجهاته الجديدة.

كانت منطقة القنوات ـ «سيع». المحـدودة والمـلامسة للجبل والهضبة موضوع دراسة أعمق وأبعـد لأنهـا موجهـة لرسم خريطة آثـار. وقد أنيط بالسيد ب. جانتيل بصورة خاصة دراسة المنطقة الريفية القديمة. أما السيد ر. دوسيل فقد التزم بدراسة موقع قنوات الحضري.

أخيراً أجريت بعض التحريات والتنقيبات المحدودة. كان لا غنى عنها، لاستيضاح دور ومهـام المبنى ولتثبيت نقـاط علام زمنية تستخدم أساساً لتاريخ الآثار التي أحصيت، كما فرضت علينا تلك الحفريات، كي نستطيع أن نكوّن مراجع خزفية يمكن الاستفادة منها في أعـمال التنقيب. أمـا المـبرر لانتقـائنـا الموقع الأثري فقد كان للأهمية الاقليمية لمعبده الذي حافظ أيضاً على عدد من الكتابات والنقوش التي تحمل تواريخ نستنير بها.

وقـد انضم الى اعضـاء الفـرقـة المـار ذكرها خلال هذه التنقيبات كل من السادة: F. Braemer اخصـائي آثـار M. Barret, D. Orssaud مختصـان بالآثـار الخـزفيـة J. P. Fourdim مهندس معماري و L. Coutois الذي أخذ على عاتقه الفحص الصخري للخزف.

وقـد انضم الينـا أيضـاً مساعدون آخرون، لدراسـة العمـلات النقدية Chr. Aug

والنقـوش الكتـابيـة اليـونانية واللاتينية، M. Sartre ، للنقوش السامية J. Milik, J. Starcky للآثار الجنائزية A. Sartre ، أما P. M. Blanc فقد نسخ وأعاد قسماً من الرسومات والصور.

لابـد من التنـويـه بأن عملنـا هذا تحقق بمسـاعدة قيّمة جداً، من مصلحة الآثار في الجمهورية العربية السورية ولابد من ان نعبر عن عرفاننا للسيد الدكتور بهنسي المدير العام لمصلحة الآثاروللدكتور أ. البني المدير العام لمصلحة التنقيب، وللمرحوم سليمان مقداد مدير التنقيبـات الأثـريـة لمدينـة بصـرى، والى السيد عامر مدير التنقيبات لمنطقة السويداء، لقد غمـرونـا ليس فقط بكريم ضيافتهم الحارة، ومساعدتهم لنا طيلة هذه الأيام انما أيضاً لحسن خبرتهم في الآثار وفي نمط الحياة الحالية في حوران، والمناقشات الودية معهم هي التي مكنتنا من فهم وتوجيه برنامجنا، كما أن المسؤولين في محافظتي درعا والسويداء وفي المدن والقرى مدوا الينـا يد العـون والمسـاعـدة في كافـة الظـروف. لذا يتـوجب علينـا شكـرهم جميعاً، لحسن ضيافتهم وللمودة التي أبداها جميع أهالي حوران[3] وجبل العرب.

كما أن فعالية عملنا مدينة كثيراً الى دعم المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأوسط (IFAPO) ومنـاصـرة المعهـد الفـرنسي للدراسـات العـربيـة في دمشق. كما نعـبر عن امتناننا لـ J.P. Pascual- G. Bohas- th. Bianquis- G. tate- E. will

يؤلف فريقنـا وحـدة البحث رقم (٢٠) في معهـد البحـوث الأثـريـة الـذي قدم لنـا مسـاعـدة فعّـالـة. وخـاصـة في التصـويـر المسـاحي الضوئي (زكارّيير، غيوميه. وفي رسم الخـرائـط السيـدة سانتيس أيـوتـز. لقـد منحنا المعهد الوطني للأبحاث العلمية (C.N.R.S) معـونـة ماليـة لتحقيق اخراج هذا الكتاب. كما كنا نستفيد من الدعم القوي الذي أيدتنا به وزارة العلاقات الخارجية (D. G. R. C. T) خلال جميع مراحل المنهاج حتى طباعة هذا الكتاب الـذي أخـذت على عاتقهـا انجاز القسم الأكبر منه، وأيضاً يتوجب علينا تقديم الشكر لـ Ph. Gullemin للفائدة والدعم الذي ما انفك يرفد عملنا هذا بهما.

إننـا لانقدم هنا نفس البحوث التي أصبحت موضوع نشرات خاصة سواء أكانت مؤقتة أو نهائيـة. بل النتـائـج التي هي ثمرة دراسة مجملة للمنطقة، قام بها مختلف أعضاء الفريق.

فأول سلسلة من المقـالات تضـع القـواعـد الجغـرافيـة لتطـور المنطقة وتقترح القيام بدراسة العلامات القديمة التي تبرز الاهتمامات والتحسينات التي لا تزال مسجلة في المواقع الريفية والبنى الـزراعيـة والطـرق على وجـه الخصـوص وتأريـخ تلك العـلامـات أو الآثـار يشكل الصعوبة الكبرى في هذه الدراسة. وتهتم السلسلة الثانية من المقالات بما تقدمه لنا المسكوكات والنقوش السامية واليونانية واللاتينية والخزفيات والزينات المعمارية لتكوين التسلسل التاريخي لتطـور المنطقـة ومن خلال الأنـواع المختلفـة للوثـائق وظهرت في الوقت ذاته خصائص ثقافة محليـة أصيلة قام بها النحت ليُعَـبرَ عنهـا تعبيـراً جلياً **بالطريقة المستديرة ـ المحدبة ـ ومجموعة**

كوى التماثيل الشعائرية . أما الخلاصة فسنحاول اعادة تعريف تلك الثقافة في مرحلتها الأكثر تميزاً قبل الانعطاف الذي نجم عن ظهور الولاية العربية الرومانية عام ١٠٦م، وقد أعدت جميع تلك البحوث المجمعة بالتعاون الوثيق والودي بين أعضاء الفرقة، ولكن ذلك لا يمنع من أنه في وسع المؤلفين عند الحاجة اقتراح نتائج وتفسيرات قد تكون مختلفة .

ان جميع الصور التي تعذر ايجاد أصلها قد وردت من لدن خزانة الوثائق الفوتوغرافية لوحدة البحث الأثري رقم (٢٠) .

جان ماري دانتزر

هوامش

١ ـ الاستعمال الحديث جواً للوسائل الميكانيكية القوية لرفع الأحجار في بعض القطاعات، بإزالة الجدران التي تفصل بين الحقول القديمة.

٢ ـ Batanée كانت تشمل قديما محافظة السويداء وحوران (المترجم).

Trachonitide اسم اللّجا قديماً (المترجم).

٣ ـ نحن مدينون بالمعروف إلى الجميع وبصورة خاصة الى السيد هايل عامر (متوفي) لقيامهم بمساعدتنا باستمرار كادلاء في تنقيباتنا.

هوامش المترجم

*٣ ـ ينطبق هذا التاريخ على الفترة التي حاول فيها الرومان السيطرة على جنوب سورية واخضاع الانباط، وكانت اللجا وجبل حوران أكثر من مرة مقراً للثورات التي تقاوم الاحتلال الروماني.

(لمحة عن شكل وتطور الأرض في أقاليم حوران البركانية)

«سورية الجنوبية»

١ ـ مجمل المظاهر البركانية في سورية الجنوبية:

تكتسب مناطق حوران القاتمة والحجرية خصائصها ومزاياها الأساسية، من وجود الصخور والأشكال البركانية فيها. لقد اغرقت التدفقات البازلتية التي تشكلت من تجمع طبقات حمم رقيقة تتجاوز كثافتها المتراكمة ١٠٠٠م في وسط الجبل طبوغرافيا المواقع السابقة وامتدت تلك المصطبات البازلتية البركانية من أسفل جبل حرمون حتى «نجد» في العربية السعودية بطول ٥٠٠كم تقريباً، ومن الجولان الى منطقة التلول بطول ١٨٠كم في أقصى عرض لها. وهذا يعني أنها تتجاوز من حيث العرض نطاق منطقة حوران والجزء الأكبر منها هو بركاني أساسه تشققي مرتبط بتكسرات القشرة التي نتج عنها صعود الصهارة القاعدية.

عرف الشرق الأدنى عهوداً عديدة من النشاطات البركانية، توافقت مع أزمنة مهمة جداً من تاريخه البنيوي، وقد انتاب الجانب الشرقي للبحر المتوسط ثلاثة وقائع رئيسية، (حسب المؤلف دوبير تريه ١٩٣٣ ـ ١٩٤٠)

آ ـ البازلت المنضد بشكل طبقات ضمن الرواسب البحرية، وشملت لبنان بسلسلة جباله في العصر الجوراسي الأعلى وحتى الكريتاسي الأدنى.

ب ـ الصخور الخضراء في الشمال الشرقي من سورية وهي من العصرالما يستريكتي.

جـ ـ أخيراً. انتشر العديد من الحصائر البركانية الواسعة على أرض سورية منذ العصر الميوسيني وحتى التاريخ القريب.

والعصر الأخير هذا المُقسم بدوره الى عدة أدوار، هو الذي يعرض ويحلل الأحجام الجبلية والخصائص الأساسية لمنطقة حوران ولبعض مظاهر وصف المياه فيها، يُعزى بدء تلك الانفعالات البركانية الى العهد الميوسيني، والفضل بمعرفة ذلك، يعود للكتل القارية المتوضعة في الطرف الشرقي من جبل لبنان الأوسط الذي تدفقت من أسفله أول موجات الحمم البركانية، كما توضَّح على روابص العصر (النصف الثلث) «باليوجين». هضبة بازلتية مشكلة بمجموعها منطقة حوران، امتدت ايضاً الى مابعد حدودها الجنوبية خلال العصر الميوسيني والعصر البليوسيني، والمنظر الطبيعي البركاني هذا بلغ ذروته في العصر البليزانسيني ـ «دور قديم من البليوسين» ـ (دوبيرتريه في المرجع ذاته) وكانت الحمم تسلك تشققات العصر المتجه nno-ssw (حسب الصفدي ١٩٥٦) وقد وصلت كثافة سائل الحمم في عصر الميوسين الى ٥٠٠م في منطقة دمشق، بينما وصل سائل الحمم في عصر البليوسين الى كثافة ٨٠٠م في أعلى الدرجات.

عرفت حوران في أول الدور الرابع (بونيكاروف ١٩٦٧، ص ١٦٨) تظاهرات بركانية أكثر تفجراً، كما تشهد بذلك القمم الحلزونية العديدة، وهكذا نكون ضمن اطار تظاهرات دقيقة ولّدت تدفقات من الحمم.

حدثت بعض الأطوار المحلية خلال العصر الجليدي (بليستوسين[1] وكانت آخر الاندفاعات هولوسينية وهي التي كونت شكل هضاب اللجّا الركامية المشعّثة ومن ثم هضاب الصفا والكراع، وقد اتاح الركام الحاوي للعظام في خربة الامباشي تعينياً غير مباشر لتاريخ نهائي (دوبيرتريه، دونان، ١٩٥٤).

ان هذه الطبقة المتوضعة موجودة في «الصفا» على مسافة ٧٥ كم من الجنوب الشرقي لدمشق وهي تجمع في مساحة ١٠آر حوالي ٧٠٠م٣ من العظام المكلسة التي التقطت من الحمم أو ملئت بها، ومثل هذا التجمع العظيم من العظام لايمكن أن يفسر بتكديس ٤٠ ألفاً على الأقل من الهياكل العظمية لابقار وماعز وأغنام كما تتطلب مختلف درجات التكلس التي وصلت إليها درجات حرارة تتراوح بين ٦٠٠ و١٦٠٠ درجة مئوية. وتاريخ C41 الذي قامت بتعيينه جامعة غرونانغ، يعيد وجودها الى ٤٠٧٥ ± ١٦٠ سنة، مما يدحض الفرضية القائلة بأن تلك الحيوانات فوجئت وهي حية باندفاع الحمم البركانية، كما لا يمكن الاعتقاد أيضاً بأن

شيّهـا أو صهيهـا هو ثمـرة عمل انساني في منطقة جدباء محرومة من كل مادة قابلة للاشتعال، ويمكن ان نستنتج بأن آخر ظاهـرة بركـانيـة قد أمكن تحديـد تاريخهـا. اذ يحتمل أن تكون المنطقة قد تشكلت فوق الانسكـابـات الحمميـة التي كانت لاتـزال متـوهجـة (من المعلوم أن الحمم الـبركـانيـة تستغـرق سنـين عديـدة كي تتـبرد أعـماقها، وتبدو هذه البركانية وكأنها نوع من الانتقال بين بركانية تشققية وبين بركانية نموذج هاواي، وقد تميزت بقممها المنخفضة الوسط.

تقع حوران مباشرة بالقرب من التصدعات الكبيرة لشبه الجزيرة العربية، فمن خليج العقبـة الى فـرجة (يمّـونـة) في لبنـان مروراً بغور الاردن يظهر رسم أولي كبير ليكون امتداداً لتصـدعـات الشرق الافريقي الكبير، التي يمكن أن تفسر وفق علم بنيوية الآديم الاجمالي، وكأنهـا دلائـل لفتحة شق، ورغم وجود مناطق من المصاطب البازلتية، مثل ديكان أو الأرض السيبـيريـة الحائثة، لم تعرف مثل هذه الامتدادات، وبالرغم من أن التصدعات الافريقية لم ترافق اينما كان بتظاهرات أو دلائل بركانية،عكس ماورد تبقى البركانية مرتبطة بصورة عامة بساحات الصدوع.

وقد اعتبر في بادىء الأمر، ان انخساف غور الاردن حديث العهد نوعاً ما من العصر البليـوسيني (حسب بلانكنـوهرن ـ ١٩١٤)، لذلك وضمن تلك الفرضية، سيكون الجانب الـرئيسي في المظـاهر الطبيعية البركانية سابقاً لعلم بنية الأرض، ومنذ ذلك التاريخ فُهم بأن تلك الأحداث بدأت تشيخ رويداً رويداً (حسب دوبيرتريه ١٩٦٧ ـ ص١٣).

في لبنـان حقنت صدوع عديـدة بكميـات من بازلت الجـوراسي الأعلى ومن جهـة أخـرى، تبـين الجغـرافيـة الجيـولـوجيـة في نصّهـا السنـوماني أنه في العهد الطباشيري كانت فلسطين من جهة وشرقي الاردن من جهة أخرى متميزين جلياً وبأن هناك بين هاتين المنطقتين تباين في التضـاريس شبيـه بالـذي تفحصنـاه اليـوم (المرجع ذاته)، وأخيراً فإن جيولوجية الأرض المحيطة مباشرة بالعقبة، وكتل السدود البركانية القاعدية والحمضية التي تقطِّع فيها غرانيت الهضبـة، تدل على وقـوع أحـداث رئيسيـة تكـاملت في حدود عصـر ما قبـل / الكمبري / والعصـر الكمـبري. وقـد تكوَّن بالتـدقيق ظهور التصدعات الكبرى لأخدود البحر الميت (المرجع ذاته).

وإذا ما تمسكنـا بهذا التفسـير علينـا بالأحرى التسليم بأن مختلف المراحل البركانية في المنطقـة كانت انـدفـاعـاتهـا تخضـع لتلك الأحداث الكبيرة، فالفرج التي كانت قيد التمدد والاتسـاع المستمـر، فتحت ثغـرات في القشـرة على السطـح مما ساعد على ارتفاع الصهارة القاعدية السفلى.

ما عدا أثـر الصخـور المصـدائيـة التي ظهرت في منطقة الكفر (الصفدي ١٩٥٦) فإن الحمم البركانية في حوران هي من نوع البازلت الميلانيني خاصة وتركيبها في غالب الاحيان

ميكروليتي (صفة الصخور النارية المؤلفة من بلورات مجهرية متوازية يجمعها ملاط زجاجي)، وأحياناً أوفيتي نسيج في بعض الصخور البركانية، يتميز ببلورات من البلاجيوكلاز في وسط ذي بلورات دقيقة من البيروكسين) أو دوليريتي (نسبة الى صخور بركانية تشبه البازلت، وبها بلورات كبيرة من البلاجيوكلاز تحيط به حبيبات من البيروكسين). أما المعادن الرئيسية فهي البلاجيوكلاز (معادن مؤلفة من سليكات الصوديوم والكالسيوم والالمنيوم» والاوليفين (معدن مركب من سليكات المغنزيوم) والحديد. لونه زيتوني ويكثر وجوده في الصخور النارية فوق القاعدية، والأوجيت (معدن من مجموعة البيروكسين يتركب من سليكات الالمنيوم والحديد والمغنيزيوم) والمغنيتيت (اكسيد الحديد المغناطيسي) والالمينيت (اكسيد الحديد والتيتانيوم الطبيعي) ويشكل البلاجيوكلاز نسبة من الانورتيت (سيليكات الكلسيوم والالمنيوم) تتراوح بين ٦٠ ـ ٧٠٪، كما يظهر في غالب الأحيان تحت شكل عصيات. أما الاوليفين فيظهر تحت شكل بلورات ظاهرة، بيد أن عيار الزجاج فيها يتغير كثيراً وقد يكون معدوماً، والجدول التالي الذي رتبه السيد صفدي (١٩٥٦) وأ. ف. رازفالييف (١٩٦٥) يوجز علم صخور الحمم:

الجدول رقم (١)

العمر	المنطقة	البيروكسين	الفينوكريستان	النسيج	التحديد
الهولوسيني	اللجا	أوجيت تحتوي على تيتان	بلاجيوكلاز أوليفين أوجيت	ميكروليتي	بازلت b.q.4
فيلا فرنشيان	حوران	أوجيت يحتوي على تيتان	بلاجيوكلاز أوليفين	أوفيتي	دوليريت b.q.1
فيلا فرنشيان	ساسيه	أوجيت يحتوي على تيتان	أوليفين	b. q. 1	-
	جيل	أوجيت	أوليفين	ميكروليتيك	بازلت
بليوسيني	حوران	أوجيت يحتوي على تيتان	أوليفين	أوفيتي	دوليريت b.n.2
	جيل	أوجيت يحتوي على تيتان	أوليفين	أوفيتي	b.n.2

إن الانـدفـاعـات البازلتية ليست سوى انصهارات تحت بلورية متصاعدة من الحمم على وجـه الارض، لكي تصـل تلك الصهـارات الى سطـح الأرض،وتكـوّن بتـبردها السريع تركيبهـا الميكـروليتي المتـدرج من البـازلت الى الاوليفـين، لا بد لها من أن تخترق شقـوقـاً وتصـدعـات كي تعـبر القشـرة الأرضيـة . أمـا سبب وجود تلك التشققات، فيعود للتيارات المحدّبة داخل الأرض التي تسير بفعل انقطاع «موهوروفيسي» (حسب ريتهان ١٩٦٣).

عنـدمـا يحدث تشقق في قاعـدة القشرة فإن الصهارة تدخل فيه وتأخذ بتوسيعه بفضل الضغـط الـهيدروستاتي والصهارة بالأساس هي لزجة جداً إلا أن «الفراغ الكامن» الذي نشأ عن التشقق يعمـل على خفض درجـة اللزوجـة بصـورة مبـاغتـة (المرجع ذاته ص٢٦١).

ولكـونهـا أصبحت سائلاً مائعاً فانها تغزو الفتحات والشقوق وتصل الى السطح بفضل توفر المركبـات المتبخـرة، لأن الكثافة المتوسطية للبازلت السائل الى الأوليفين دون الغازات هي أعلى بقليـل من الكثـافـة الـوسطية لقشرة الأرض، وعند امتلاء الشقوق بالصهارة الحممية فإنهـا تتـوسـع وتحـدث غرفـاً حممية بأشكال زاوية ينطلق منها مداخن اسطوانية تغذي منافذ انتشار الحرارة.

ان حوران مجردة كلياً من الأراضي الرسوبية، التي لم تظهر على السطح إلا في ثلاث قطـاعـات محيطية: في «جباب»(جنوب غرب المسمية) وفي وادي اليرموك، وفي ضواحي درعا، لذلك فإن تشكل الأرض في حوران تابع كلياً للاشكال التي حددتها الطبيعة البركانية، ولا سيـما الحمم السـائلة أو المخـروطيـة ولتطورها تحت تأثير العوامل الجوية. واذا ظهرت بعض الفـروقـات في طبيعـة أراضي حوران، فهـذا لا يعود الى تبدل في تركيب الصهارة، بل لأن الأشكـال والمـواد البركانية هشة قابلة للتفتت، تتطور بسرعة ضمن بيئة مناخية تعتبر جافة، ولكنهـا ليست صحـراويـة. وسوف ندرس بالتتالي ثلاثة أجيال من المواقع، آخذين نهاذج لها من منطقـة شهبـا، التي كانت موضـع دراسـة أرضية ومستمرين على اتصال بمواقع طبيعية ثلاثة متباينة نوعا ما.

٢ ـ الاشكال السابقة للزمن المعاصر (الشكل رقم ١)

إن الصفـا ـ الكراع ـ اللجا ـ هي تدفقات (حبات) من العصر الهولوسيني قريبة جداً من تركيبها الأساسي فإن السيدة Elysée Reclus في مؤلفها (الجغرافية العالمية) كتبت بصدد «الصفـا» بأنهـا مجمـوعـة من الفتحـات انـدفعت تدفقاتها على شكل موجات سوداء، وكل اندفاعه تشبه طبقة من الصهارة انتهت بانتفاضات جسيمة متقنفذة بسبب فرقعة الغاز، كما ينطبق هذا الـوصف على «اللجـا» التي تتيـح لنـا طبيعـة أرضهـا المشـوشة التأكد من طريقة سيـلان الحمم فيهـا. فاللجـا التي كانت تدعى قديماً (trachôn) وهي هضبة واسعة بشكل

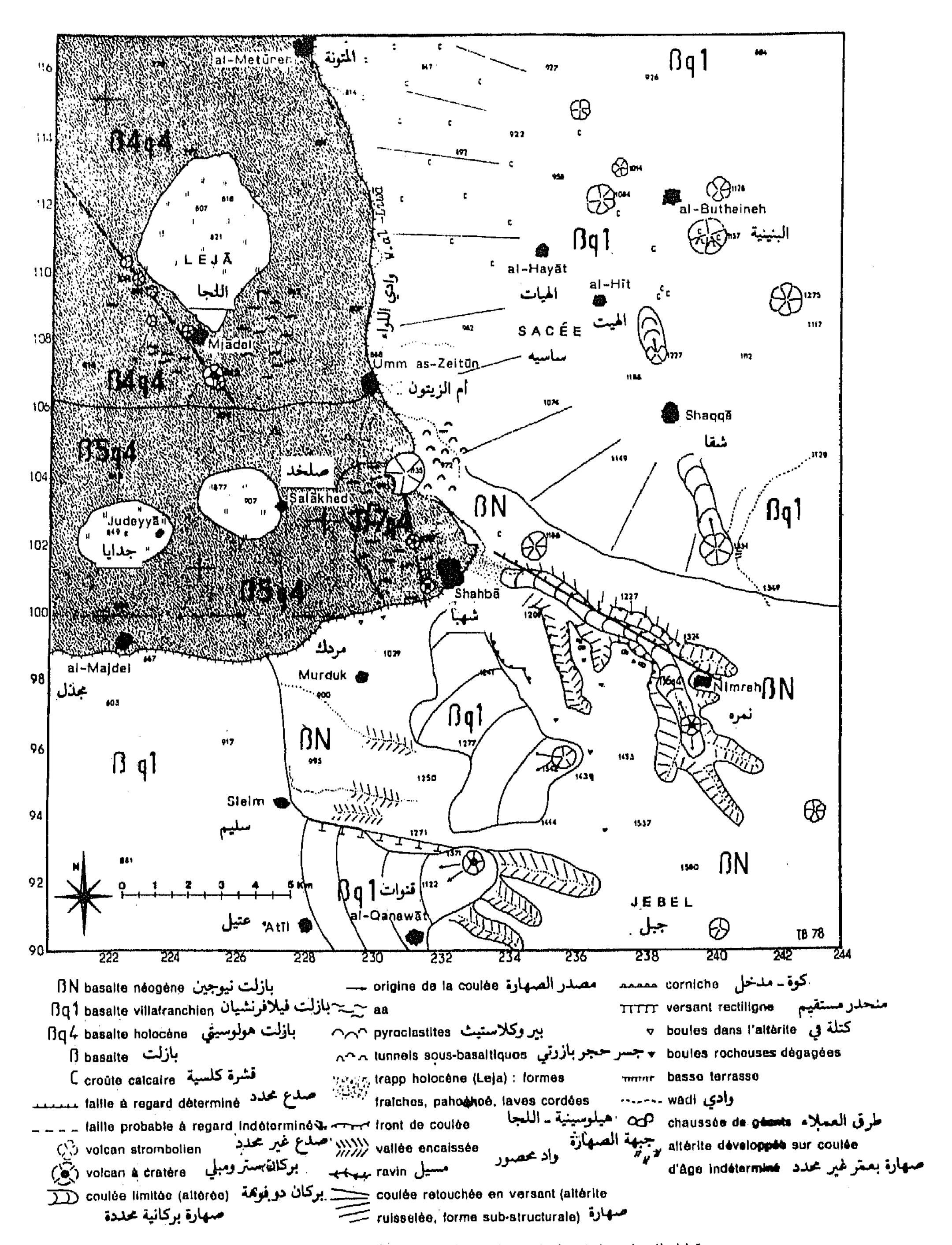


Fig. 1. — Carte géomorphologique schématique de la région de Shahbā.

الشكل رقم ١ : خريطة بيانية لشكل الأرض لمنطقة شهبا

مثلث رأس زواياه هي : (براق ـ ازرع ـ شهبا) وعلى الخريطة ذات القياس ١/٥٠٠٠٠ تبدو اللجا وكأنها هضبة شبه أفقية بارتفاع ٨٠٠م تقريباً عن سطح البحر. والواقع فإن تضاريسها ذات المقياس المتري قد أوجدت فيها طبيعة أرضية متعرجة. هناك ظاهرة تتكرر باستمرار تساهم في رتابة المجموعة التي تؤلف هذه المنطقة الوعرة، تحدبات تتراوح أطوالها بين بعض الأمتار وعشرات الأمتار. وهي مؤلفة من بلاطات كبيرة ذات تقطيعات مضلعة بسماكة ٥٠ الى ٨٠م. وترتفع من ٣ إلى ٤م وسطياً فوق المستوى الطبوغرافي وكأنها تبليط رفع من الأسفل بقوة وعنف. تكون الانتفاخات المجزّعة أحياناً منخفضة وأحياناً منتصبة جداً وبارتفاع عنيف يكون منها قبباً حقيقية منهارة أحياناً. يعرف علماء البراكين هذه الأشكال التي تحمل اسم (هامات الضغط) وتحدث نتيجة لتبدل الضغط الهدروستاتيكي للحمم خلال أوج اندفاعها. وتحت هامات الضغط تلك يُلاحظ أحياناً حفر صغيرة مملؤة بالفخار التالف وأحياناً بالـحُمَمْ الجافة اللامعة Pahoehoe أو الحمم المفتولة التي يرتبط تشكلها بتباطؤ مفاجىء في السرعة التي تنتهي الى تشكيل الثنايا (الطيات) ضمن القشرة الأرضية التي هي قيد التصلب، وتدل أقواس الدوائر في الحمم المفتولة على اتجاه التطور، اذ أن التحدب متجه الى الاسفل. تمكن السيد هـ. تازييف من تصوير مراحل تشكيل الحمم المفتولة في زائير (ريثمان ١٩٦٣) وفي بعض قطاعات اللجا تكثر هامات الضغط الى حد تشكيل سيل حقيقي. فالنقبات تأوي في غالب الاحيان تجويفات ومغارات أيضاً لا يتجاوز علو أصغرها ١م الى ٥,١م بعرض ٢ ـ ٣م وطول ١٠م. أما المُغُرْ الأخرى فهي بمثابة أنفاق تحت بازلتية تصل أحياناً الى مئات الامتار طولاً. ولا بد لتفسير تشكلها من تذكر ظاهرة عبور المراكب في هويس القناة: تتجمد الدفقة بدءاً من الاطراف، كما يمكن للحمم التي لا تزال سائلة من أن تتوقف بتأثير غشاء رقيق متصلب على شكل تحدبي ويكفي لدفقة من الحمم أن تهبط من الاعلى ثاقبة القشرة العليا لتُعبد سيلان الحمم، أما اذا توصلت الدفقة الى القرب من الاسفل فإنها ستفرغ النفق بكامله وتكثر هذه الانفاق تحت البازلتية في اللجا، ونعرف ما يشبهها ففي جزر الكناري وفي اسلندا وفي نيوزلندة، هناك نفق في «شعارة» (جنوب غرب المسمية) وواحدة على مسافة ٥,١ كم (جنوب غرب أم الزيتون). وآخريين في «وقم وداما» المذكورتان على خريطة أزرع، كانت هذه الانفاق غالباً مسكونة خلال بعض العصور مستخدمة كملاجىء للهاربين أو اللصوص. هذه الانفاق تحت البازلتية تتوفر فقط في الاندفاعات الحممية الحديثة، ويقع في اللجا أعظم نفق في حوران، الذي يبلغ عرضه ٨ ـ ١٠م وارتفاعه في بعض الأماكن ٦ ـ ٨م ويصل طوله الى بضعة كيلومترات، أن الأعظم منه هي مغارة أم الرمان، التي تقع على بعد عشر أمتار غرب وجنوب غرب صلخد والتي وصفها. دوبرتريه (١٩٢٩).

وهناك بعض التجويفات الصغيرة التي يعود مردها على ما يبدو الى انهيار قبة حميمية قد استخدمت مع الزمن كبرك أو خزانات مائية، وهي تشكل مقاطع هامة في قرية حميد (أو حماد) وقبل تكملة بناء البركة فيها امكن ملاحظة تتالي توضع الطبقات الصخرية التالية (دوبرتريه ١٩٢٩)

- حمم بركانية على السطح.
- بازلت فقاعي وبازلت متماسك بسماكة ٤م.
- طبقة من الحمم البركانية بسماكة ١٠ - ٣٠سم.
- بازلت فقاعي بسماكة ٦٠ سم.
- بازلت متماسك بسماكة ٤ - ٥م.

وعلى العموم فإن السطح الأعلى للاندفاعة الواحدة هو فقاعي بينما يكون المستوى الادنى مركباً من البازلت المتماسك، غير أن مرد وجود هذين المستويين، يعود الى انبعاث غازات صهارية في زمن التبرد. أما كثافة الاندفاعات فإنها تتراوح ما بين ٤ - ١٢م.

٢ - ١ - البراكين والانخفاضات المغلقة:

تمثل اللجا بالقياسين الكيلومتري والهيكتومتري نوعين من الأشكال: ألا وهما الطراز البركاني وطراز الانخفاضات النادرة المغلقة (الشكل رقم ١) وفي الجزء الخاص باللجا الذي يظهر على خريطة شهبا مقياس ١ / ٥٠٠٠٠ يلاحظ مجموعة براكين واضحة المعالم، متراصفة على امتداد ٥ كم قرب قرية «المجدل» يذكر (دوبرتريه ١٩٢٩) بأن بروزها قليل الظهور، ولا يحجب مشهد الحمم الرمادي الذي يحاذيها.

فهذه البراكين المنخفضة نسبياً، تشبه النماذج الاسلندية التي بدورها تشبه البراكين التي لا تزال نشيطة، ولا يتمثل فيها أشكال وطراوة براكين (شهبا) وتلول (الصفا) التي تشير الى كسر قديم في القشرة الارضية التصقت به الحمم. اعلاها (تل المهاجر) وله ثلاث فتحات الواحدة منها بأقصى الجنوب تبدو مهشمة من جهتها الجنوبية الشرقية وعلى الشمال الغربي منها نجد الفوهة الرئيسية بقطر ١٥٠ م وعمق ٦٠ م وأطرافها مؤلفة من مستويات متناوبة من البازلت الفقاعي والبازلت المتماسك أما في الشمال الغربي من (تل المهاجر) فما يشاهد من البراكين المختلفة هو من الأحجام المتواضعة وهي مشكلة خاصة من حمم بركانية.

إذا أخذنا امتداد اللجا بعين الاعتبار، لابد من الاشارة الى التفاوت بين كتلة الحمم المتوضعة وبين الحجم الصغير للصخور الفتاتية البركانية المتواجدة على ساحة اللجا. ان مقذوفات الحمم كانت تحدث بسهولة بفصل دروب الفوهات الممهدة. وبفضل الحمم

السـائلة. أمـا الانفجـارات التي احـدثت الكتل المخروطية فهي نادرة. والفتحات المهشمة يمكن تمييزها بواسطة القذفة الأولى للحمم في اتجاه ما، بينما كان الحصى البركاني يتكدس بالاتجاه الآخر.

ان الانخفاضات المغلقة في اللجا هي من النوع الغريب والمعمّى (المُلَفْز) نظراً لتبدل كتلتهـا من بعض مئـات الامتـار الى بعض الكيلومترات ولكنها بصورة خاصة عديدة ضمن نطاق دائرة اللجا الجنوبية، الانخفاض الكبير منها يقع على بعد ١٦ كم غرب شهبا وعلى مقربة من «بصر الحرير» ولا يقل عن مسافة ٨كم طولاً و٢كم عرضاً. انها انخفاضات غارت وتدنت بضعة أمتار عن الارتفاع الوسطي للحمم المغطاة بطبقة أرضية فخارية حمراء بسماكة تزيد محلياً عن ٣ أمتار وترسمها الخريطة الطبوغرافية ذات المقياس ٢٠٠٠٠٠/١ على شكل حمم فيـلا فرانش، ممـا يحدوبنـا الى الاعـتراف بأن سيـل الحمم الحـديثـة قد تجنب تلك القطـاعـات أو ميـزهـا باظهـارهـا. ولا يعـرف لماذا دارت تلك الحمم السـائلة حول تلك القطاعات سيما وأن لا عائق طبوغرافي يحول دون اجتياحها. فتلك الأراضي القابلة للزراعة وحدها في منطقة اللجا كلّها ليست ملساء تماماً ولامنبسطة كما توحي به الخريطة الطبوغرافية مقيـاس ٢٠٠٠٠٠/١ واتصـالهـا بالحمم المجـاورة ليس واضحـاً كوضـوح اتصاله بأطراف اللجا. كما نلاحظ بعض الحمم البارزة في الانخفاض الواقع في أراضي «صلخد» مثلاً.

في فرضيـة أولى يمكن تصـوّر وجـود بحيـرات ـ هي بقـايا الحوض الدمشقي محبوس الميـاه ـ لدى قذف الحمم، مما أدى الى انفجـارات وتبخـير للمياه. وشرذمة في الحمم ولا بد من عدم قبـول هذه الفـرضيـة، لأن مثـل هذه الميكـانيكية في الحركة لا تولد إلا منخفضات صغـيرة، بل تشكـل بالأحـرى تضاريس على صورة مخروطات يمكن أن يطلق عليها اسم «النثار المخروطية».

أمـا الفـرضيـة الثـانيـة، فقـد تثير الانتباه، لأن بين مرحلة فيلا فرانش وبين المرحلة الهولوسينية هناك مرحلة تَكوّن بحيرات أثرت على سورية الجنوبية وكانت معاَبقة لتوضعات الخريطة الجيولوجية q3 ومثل تلك البحيرة التي يعود تاريخها الى العصر الرباعي الحديث (راز فاليـف ١٩٦٥ ـ ص ٣٣) ربما تكون مرتبطة بسدٍ بركاني كبير يعتبر مانعاً لتصريف مياه سهل دمشق نحو شبكة الاردن. ومهما كان الوضع فإن الرسوبات البحيراتية ولدن طبقة رقيقة من الصلصال الكلي بسماكة ٨م (حسب مؤلف الصفدي لعام ١٩٦٥). والخرائط الجيولوجية لا تسـاعـد على تبيـان مدى الحدود الجنوبية لهذه الطبقة التي تمر تحت اللجا والتي هي مغطاة في شمال اللجا بتشكلات قارية اكثر حداثة (راز فاليـف q4 ـ ١٩٦٥) لذلك يمكن الاعتقاد بأن هنـاك تطـوراً كارستيـاً خفيفـاً تحت الشقـوق البازلتية الموشورية التي تسمح بترشيح المياه، كما أن هناك تحللاً عميقاً من الكاربونات أدى الى انهيار القشرة العليا المتصلبة من الحمم، ثم الى

تجزئتها وأخيراً الى اتلافها وتحولها المتسارع، هذه الفرضية احدثت في بادىء الأمر صعوبتين من الـوجهـة النظـريـة، ان تلك التطورات المختلفة تمت منذ تشكيل اللجا، أي منذ العصر الهـولـوسيني (Ponikarov ١٩٦٧ ـ ص ١٧٠) وقـد استغـرق ذلـك على مايبـدو فترة زمنية قصـيرة، كما أن سماكـة تلك الطبقـة (٨أمتـار) تبـدو غير كافيـة. على كل حال تتيح دراسة الأرض استبعاد هذه الفرضية فإذا تتبعنا على طول طريق دمشق ـ السويداء التماس بين حمم اللجـا وحُمم فيـلا فرانش فإن الصخـور الـوحيـدة المكـربنة التي تصادف هناك هي من القشرات الأرضية الكلسية التي لا تصل الى حدود المنخفض في وادي اللواء، وهذا يدعو الى ملاحظة بالتـماس الـواقـع بين الانـدفـاعـين الحميميـين، من جهة أخرى يلاحظ في «حيران» شمال المنخفض المغلق «لبصـر الحـريـر» أن بئراً بعمق ٢٠ متراً لم يلامس أسفله أي مستوى كلسي اذن يلزم أن نستنتـج بأن الطبقـات الطينيـة الكلسيـة لا تتجاوز شمال اللجا ولا يمكنها بالتالي أن تكون باعثاً لتطور كراستي خفي في الجنوب.

ولعـدم توفـر الحلول الاكثر اقناعاً، يجب التسليم مؤقتاً بأن الميوعة الزائدة للحمم مع تبـدلات الضغـط الهيـدروستـاتيكي حرضّت على خلق فراغـات داخـل قبـة الحمم وعلى الجوانب الأكثر رقةً وقد استطالت تلك الفراغات باتجاه تطور الحمم، وتوضعت بحيرات في الفجوات التي تكيفت وعملت على الاسراع في تغير المادة المصهورة التحتية، ولكن تقليص الارتفاع الكائن بين الهضبة والانخفاضات يبدو غير كاف، عكس ما هو مطلوب بين المناطق الهادئة والمناطق المشوشة، كما لا يكفي أيضاً التماس رفع الحجارة من الحقول لتسوية الفوارق.

٢ ـ ٢ الاندفاعات السائلة في شهبا:

ان المحيط المباشر لشهبا يمثل اشكالاً بركانية طرية تختلف عن الأشكال البركانية في اللجا (الشكل رقم ١) يتخلل هذا المحيط أربع مخاريط حلزونية فنية تمتد على بعد أقل من كيلو متر غرب طريق شهبا الحالي، وهي مصطفة حسب الاتجاه رقم ١٥ الوارد بالشكل رقم (١)، وقد قذفت تلك البراكين وخاصة «تل شيحان» كتلة من البير وكلاسيتت التي هي اكثر أهمية من مثيلاتها في اللجا، وهذا يؤكد ظهور اندفاعات أشد انفجاراً من النوع السترومبيلي (الحـلازتيني). ان تل شيحـان في أقصى الشمال وعلى ارتفـاع (١١٣٥م) هو بركـان غير متساوق لأن اندفاعه امتد على شكل قطع أهليلجية نحو الجنوب الغربي والشمال الشرقي على محور كبير مقداره ١,٥كم. وان فتحته التي قطرها ٣٠٠م تهشمت من الناحية الجنوبية الغربية.

أما جوانبـه التي يزيـد ميلها على ٣٠ درجة، فهي قريبة جداً من منحدرٍ موازٍ لقلعةٍ

من الـركـام تميـز بركاناً نشيطاً (حوالي ٣٥ درجة)، كما ان الحصى البركانية المستمرة كمقلع تمتد الى مسافة ٢كم الى الشمال الشرقي.

أما تل شهبا فهو مخروطي معتدل الشكل بقطر وسطي ٥٠٠م تقريباً وهو لا يسيطر الا على دائرة ٥م من الحمم حوله وخاصرته الشرقية أقل ارتفاعاً من الغربية مما يستدل بأن دفقة رئيسيـة من الحمم اتجهت نحـو الشـرق بخـلاف تل شيحـان، والفـوهـة في شهـب صغـيرة ضعيفة الملامح.

يرتفـع «تـل الجـمال» ٤٠مـتراً بقطر ٢٠٠م وله خواصر صلبة وفوهة مزدوجة تبدو أكثر تآكلاً من جاراتها وأن القمة العليا فيه تعطي منظراً اطلالياً مرده وجود نتوءات حممية مندفعة.

في أقصى الجنوب يوجد «تل قلعات» الذي يرتفع الى ٤٥م ـ وهو دائري بقطر ٢٠٠م وله فوهة صغيرة قمعية.

ان هذه البراكين هي أكثر حداثة من براكين اللجا، والحمم التي اندفعت منها، مرّت بالحقيقة فوق حمم اللجا، وعلى تلك الاندفاعية الحممية الأحدث في تلك المنطقة بُني موقع شهبا، بالتماس مع ثلاث مناطق ريفية طبيعية متباينة حددت هذه الصهارة من الجنوب بقلعةٍ موازيـة لطـريق «شهبـا ـ مردك». وهي تغطي مسـاحـة بطول ١٤ كم٢ تقريباً وبامتداد ٢كم غرب خط الـبراكـين، أمـا في الشـرق، فهي تتجـاوز طريق شهبـا ـ أم الـزيتون بمئات من الأمتار، وخلافاً لمنطقة اللجا المشكلة بصورة رئيسية من Pahoehoe أي من الحمم الملساء، فهنـا الأمـر يتعلق بـ (a-a) التي هي منطقـة سديمية مشوشة شبيهة بـ (chéires d'Auvergne) المملوءة بكتل حممية هشة، محدثة أحياناً رؤوساً أو نتوءات تعيق التقدم. وما يفسر طبوغرافية هذه المنطقـة، هو التسـارع الكـامن في سرعة السيل المندفع (المرتبط بتصدع المنحدر) الذي هشم الحمم، ومن الممكن أن خروج الغاز وحده اذا كان بمقدار عظيم، يكفي لاقرار وجود a-a حسب «Derruau» ١٩٧٤ ص ٣٠٣).

أدى التكـوين الحـديث للأشكـال المتصلة ببراكـين شهبـا الى خلل في الهيدروغرافيا (علم وصف المياه) فوادي اللواء الذي عبرته الاندفاعة الجديدة، شكل بحيرة شرق شهبا، تعـرف بنعـومـة رواسبهـا قبل اجتيازه المانع بواسطة فتحات، هي قائمة بين البازلت القديم والانـدفـاعـات الاخـيرة حسب دوبـيرتـريه (١٩٢٩ ـ ص ٢٨٢) وقد استخدم هذا الموقع لانشـاء سد مهجـور حاليـاً. وخـلال المـراحـل الأخـيرة لتشكيل «تل شيحان» تغير مجرى الوادي، حيث توضع مستوى جديد من الغرين (الطمي) الوادي، فوق المجرى القديم، الـذي يمـر شرق البركان بين البير وكلاسيتيت المتحركة والمقذوفة خلال الفورانات الأولى. فالمجرى الحالي يطوق البركان من جهة الغرب وقد أحدث نوعاً من التغيير في طبيعة الأرض (التمعدن) ضمن الحمم الحديثة حتى أم الزيتون.

٣ ـ الهضبات في منطقة «ساسية» أول الدور الرابع الـ La Sacée: Villa frnchiens

في شرق طريق «شهبا ـ دمشق» يمكن اعتبار أراضي الربع الشمالي ـ الشرقي لخريطة شهبـا، منطقـة تاريخيـة محورها قرية «شقّا» وهي منطقة «ساسيه» الخصبة ومستودع القمح في حوران مكـون من مسـاحـة منبسطـة جداً، يرتفع بشكل مائل نحو الشرق والجنوب الشرقي فيهـا حقـول مترامية الأطـراف ومحـاطة بجدران صغيرة تستثمر كل امكانيات التربة الغنية بتحـولات الحمم رغم ضعف كميـة الهطـولات المطـريـة. وترتفع فوق أرض الهضبة براكين كثـيرة، غير منتظمة الامتداد وأكثر تآكلاً من براكين شهبا. أما أهمها فيقع حول «بثينة» شمال شقّـا وهي كنـايـة عن مخروطـات حميـة منتظمـة معدومة على العموم من الفوهات تتخللها بعض المغر الصغيرة.

فمـرحلة الفيـلا فرانش هذه كما يبـدو كانت متفجـرة إذ أن تعـدد البراكين يبدو وكأنه برهـان على أن انـدفـاع الصهـارة الحممية كان يتم بصعـوبـة أكـبر من حدوثهـا في العصر البليـوسيني. كما ظهـر تطـور (ذو انفجـاريـة متنـامية) يتفق والخصائص الفيزيائية الكيميائية للصهـارات (Ritt mann ١٩٦٣). ولكن ندرة المخـروطـات العـائدة للحقب الثالث(*) تعرف أيضاً بسهولة قابليتها للكسر بالنسبة للنحات. لذا فإن بركانية منطقة ساسيه ترتقي الى أول الحقب الرابع، وهي متباينة كثيراً عن اللجا. فلا تبرز الصخور إلا نادراً. والسائد في تلك الأراضي هو كثـافـة التحـول ومجموعة النتوءات والاستطالات التي لها أثر في طبيعة الأراضي الحـاليـة، وكـل شكـل لأي حبـة سواء من الحمم المفتولة أو من الشقوق الموشورية أو القمم الضاغطة فهو معدوم بصورة طبيعية.

إذ قدر بأن المخطـط الطبـوغـرافي شرق شقّـا، القريب من تقاطع الأراضي المتبدلة يتفق مع مخطـط الهضبـة الاسـاسيـة فليس هذا ممكن بالنسبـة للمنحدر الغربي لمنطقة ساسيه لأن غياب النتؤات الصخرية رغم كونه محدوداً، يتفق مع الجزء الأعلى القممي للاندفاعه ومع كثـافـة التحـول وآثار مجرى المياه، ولأن وجود القمم الكلسية، تشير الى شكل من التآكل.

فقـد بدت شريحـة المـواد المتحـولـة المنقـولة مع طول المنحدر والمنصبة في وادي اللواء، وكأنها خفيفة بسبب بعض التبدل في الأرض وعدم وجود أعمال صالحة كمستودع مطريحول دون الانحـدار المتـآكـل، وفيـما بعـد وعلى هامش انسكـاب أهم الاندفاعات الحممية في منطقة «سـاسيـه» فقـد قذفت بعض القمم المخـروطيـة صهـارات قصـيرة فبركان «شقّا» الموجود على مسافة ٤ كم جنوب وجنوب شرق القرية نفسها، قذف نحو الشمال والشمال الغربي صهارة بطـول ٣ كم، تشـاهد بسهولة على الخريطة الطبوغرافية بفضل استمرار وجود الأشجار التي رسمت حداً ترابياً.

في جنـوب اللجـا، أي غرب طريق السـويداء، شهبا تظهر «النقرة» وهي هضبة منخفضة

تحت الافق مكونة من اندفاعات معاصرة لاندفاعات Sacée ومتشابهة معها من حيث تشكل طبيعة الأرض، رغم قلة عدد البراكين فيها.

ليست هذه هي الظواهر الوحيدة من بركانية أول الدور الرابع (فيلا فرانش) في منطقة شهبا، بل هناك صهارات أخرى معاصرة، وهي متداخلة في طبوغرافية الجبل عامة، أي في اندفاعات العصر البليوسيني وهذا ما يحملنا على دراسة المناطق المشكلة من البازلت القديم.

٤ ـ الجبل: الاندفاعات البليوسينية وأشكال التحات:

يبين الربع الجنوبي ـ الشرقي لخريطة شهبا مقياس ١/٥٠٠٠٠ بين طريق السويداء ـ شهبا ـ وادي اللواء الميول والمنحدرات الشمالية ـ الغربية للكتلة الجبلية المذكورة سابقا (انظر الشكل رقم ١). ترتفع هذه الكتلة حتى (١٨٠٣م) عن سطح البحر في «تل غينة» في الجنوب الشرقي من السويداء، أما على خريطة شهبا فلا يعلو الجزء منها إلا حتى ارتفاع ١٦٨٩ متراً فقط، ويتميز هذا الجزء بوجود وادي اللواء الذي يتجه من «نمرة» الى «شهبا» ضمن مجرى مستقيم الاتجاه من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي، والوادي ضيق في مجراه الأعلى، وسفوحه قاسية وعرة، أما انحصاره ضمن ضفتيه فلايتجاوز ١٥٠م في أعلى «نمرة» ويحدود ١٠٠م عند سفح «تل عزرائيل» والمنحدرات الصخرية تسلح السفوح بأفاريز، كما تلاحظ على جانبي ذلك المجرى الأعلى طبوغرافية هضبة محدبة تحتها روافد الوادي، وعلى مسافة (١كم) جنوب «نمرة» في وسط قاع الوادي العريض المنبسط يرتفع «تل أم جدوح» المسيطر على بعد ١٤٠م من المنخفض وهو بركان شبيه ببراكين جزيرة ستر ومبولي، له فوهة صغيرة ويصل قطره الى ٤٠٠م، تعتبر هذه الهضبة الجافة الوعرة بمجموعها كشاهد على تكون بازلت الهضبات في العصر البليوسيني. وفي أعلى سفوح وادي اللواء وروافده يمكن التعرف على الموشور الطبيعي للجزء الأعلى القممي للاندفاعته الحممية، أما في «طفرة» فيلاحظ وجود آثار أولية «لطريق العمالقة» إذا سلكناه صعوداً باتجاه الجنوب الشرقي ونحو روافد وادي اللواء، التي تُجزّىء هذه الهضب الى ما يشبه رسوم القُدَدْ المنحدرة، نجد بأن ميل مجموعة هذه الكتلة يتوافق مع الاتجاه الاساسي لتلك الاندفاعات. فالمنطقة اذن محددة بهيكلها البنيوي بكل دقة. ومن «مردك» الى «سليم» يرتبط السفح المنحدر باتجاه «النقرة» بالكتف الرئيسي لهذه الاندفاعات ولا تطاله منطقة التآكل فالتّحات والتبدلات التي تغطي تلك الاندفاعية الحممية القديمة، هي أكثر كثافة في الجنوب مما هي عليه في الشمال حيث تصبح متقطعة.

تختلف طبيعة تلك الأراضي عن أراضي اللجا، ولكن إذا استبعدنا التحولات وحالة

الاشجـار الصغـيرة. وهنـاك انـدفـاعـة متـزامنـة مع اندفاعة «قنوات» (رازفالييف ١٩٦٥) منحـدرة من «تـل الشيـخ» (١٥٤٢م) م قد انـدفعت باتجـاه الشـمال والشـمال الشرقي حتى المنعطف الكائن على طريق «مردك ـ شهبا» وتوقفت نحو الجنوب على بعد مئات الأمتار من وادي القنـوات القـديم، تلك الانـدفـاعة التي هي بعرض وسطي ٢,٥ كم ليست بالحقيقة صهـارة وادٍ، ولكنهـا بمـوجب هذا المنحـدر الكبير سايرت بمسارها انخفاضاً غير واضح في طبوغرافيا البازلت القديم.

٥ ـ معالم التبدلات المناخية:

إن موضـوع التبـدلات المنـاخية، خلال الحقب الرابع، يمثل فائدة كبرى في المناطق التي تعـرف حالياً «بالبيئة الجافة»، سيما عندما تحمل الشواهد الأثرية عن توضعات قديمة. كـون «حـوران» بركـانيـة ومن واقـع وضعها الحجري غير المميز فإنها لا تتلاءم والتكوينات الأحاثية، أي المتعلقة بعلم الحياة القديمة. واذا تركنا جانباً تفسير تلك التبدلات الذي لم يكن موضـوع دراسـات منهجيـة في غيـاب ما قدمتـه البـاليـنـولـوجية فإن حوران لا تقدم الا اتجاهين من الأبحاث:

أولهما: السطوح اللحقية.

ثانيهما: القشرة الكلسية.

٥ ـ ١ السطوح:

بخلاف شمال سورية، حيث يظهر لنا «العاصي» فيها اندماجاً نادراً للأشكال San la ville ١٩٧٩) يلاحظ فقر حوران في التكدسات الغرينية والسبب الرئيسي في ذلك يعود الى الخلل الـذي بعثـه البركانية في الهيدروغرافيا. يظهر وادي الزيدي بدرعا. الغائر في طبقات المـارن التي ترجـع الى عصـر الباليوسيني والذي يخترق طبقة صلبة رقيقة من بازلت الهضاب سطحـين منـدمجـين سويـةً (انظـر الشكـل رقم ٢) السطح الأعلى وارتفاعه ٩ أمتار كُوّن من تعـاقب الحصى الأملس، ومن مستـويـات الطمي المرتكزة على الأساس. أما على الضفة الجنـوبيـة، فالسطح مطبق على السفح. وعلى ارتفاع أربعة أمتار من السطح، يوجد المارن الايـوسيني، أمـا الافـريز البازلتي فهو فوق سرير الوادي وعلى ارتفاع ٣٠ متراً. والغريب أن حصى البازلت نادر الوجود، أما السطح السفلي الذي يبلغ ارتفاعه ١,٥م فهو اكثر تقطيعاً، ومؤلف في معظمـه من الطمي أو الفخـار، ويـلاحـظ على مسـافـة ٤ كم شمال وشمال شرق «شهبـا» سطـح منخفض متحجـر على مستـوى الصخـور الفتـاتيـة. وبـواسطـة انهيار رزم الحصى، يلاحظ وجود حصى بازلتية ملساء، مفتتة مغطاة بتراب الجزء الأعلى من السطح،

سفوح الاندفاعات، يلاحظ بأن الشق الخطي للوديان والدور البنيوي للأديم وما استجر من مراحل في الاندفاعات البركانية الجديدة، جعلت من الجيل منطقة كثيرة التعقيد. فوادي اللواء بوجه الاجمال يعتبر واد شكله خط التصدع: فشق الوادي يعود الى التصدع المتجه (جنوب ـ شرق) (شمال ـ غرب) أي على محور «تل شيحان» و«براكين المجدل». وربما وصلت قمة الازاحة في شهبا الى أكثر من ١٠٠م. ثم أخذت تتقلص باتجاه الجنوب الشرقي.

اما قاع الوادي فهو مغطى بقشرة رقيقة من الصهارة الحممية حديثة العهد ومعاصرة لاندفاعات اللّجا. (دوبيرتريه ١٩٢٩) منحدرة من «تل أم جدوح» واندفاعة هذا الوادي (بخلاف ما توحي به الخريطة الطبوغرافية) لا تتصل باندفاعات شهبا، ولكنها توقفت على مستوى «تل عزرائيل» كما يظهر ذلك في الخريطة الطبوغرافية. وطبيعة الوادي تتفق مع المنطقة الهشة للقشرة الأرضية هنا، حيث حدث في العصر الهولوسيني تيار صهارة حممية على شكل مدخنة على مقربة من التصدعات الخارجية لبازلت الهضبات.

يبدو أن هذا التطور الممثل بشكل أجوف مغطى خارجياً بالحمم. قد ظهر أيضاً في الكتلة الجبلية وتكشف منطقتا «القنوات ومفعلة» عن تربة قليلة السماكة مغطاة ببقايا صخرية ذات نتوءات. وعوضاً عن الحقول المزروعة. تنتشر أشجار السنديان الخضراء وأشجار التين وكروم العنب وكأني بها تشير الى تربة قليلة التطّور والخصوبة. إن هذا التحديد في نوعية التربة الذي يبدو واضحاً في الأرض، يتوافق مع الاندفاعه الحممية في مطلع الحقب الرابع (رازفاليف ١٩٦٥) المنحدرة من «تل المفعلاني» بطول ٦كم. وهذا التل مخروطي الشكل، واسع، يتكون من الحمم البركانية بقطر ٧٥٠م وارتفاع ١٤٠م، ولفوهته جوانب وعرة خشنة وقاع منبسط. شمال ذلك البركان وعلى مقربة من قرية «سليم» يقع منحدر مستقيم طوله ٥كم بامتداد ١٥٠م، وهو على الارجح سفح قديم لواد غمر بكامله بصهارة تل المفعلاني الحممية. ويلاحظ ان المجرى الأعلى لذلك الوادي، ما زال مشغولاً بتفرعات «وادي قنوات»، كما نلاحظ في الجنوب الشرقي لطريق «مفعلة ـ قنوات» الأودية الصغيرة التي قطعتها روافد الوادي القديم. أما في الجنوب وضمن خريطة السويداء قياس ١/ ٥٠٠٠٠، فلا يشاهد السفح الآخر. لأن الاندفاعة على ما يظهر فاضت عن الوادي، واذا اعتبر بأن «تل المفعلاني» يعود أساساً لاندفاعة العصر الفيلا فرانشي فمن الواضح أن البركان الذي نلحظه اليوم بجوانبه الوعرة الخشنة وفوهته العميقة، هو أكثر حداثة.

في الجنوب، والجنوب الشرقي من شهبا وغرب البروز المحفور في البازلت السينوزي (حقب الحياة الحديثة) يلاحظ بأن الوجيية، أي الأرض الواقعة بين الواديين لها نفس الخصائص الترابية الموجودة في منطقة «مفعلة». تربة قليلة السماكة تزرع فيها الجنبات أي

ويستمـر هذا السطـح المنخفض الـذي يصل علوه الى متر واحد حتى مسافة تزيد عن ٣٠٠ متراً، وفي بعض المواقع نرى بأن السطح نفسه يتوضع على مستوى من الصخور الفتاتية وقد يعطي التأريخ النهائي للحصى البركانية العمر الحقيقي للطمي.

ويـلاحـظ أيضاً في «قنوات» مستوى من الطمي خفيف على ارتفاع ١,٥م من سرير الوادي، مغطى بتربة أثرية غنية بالقطع الخزفية المكسرة، وتسود فيه تشكلات الميول والمنحدرات.

في البـلاد نصف الجـافـة، يعـود تفسـير ظهـور السطـوح الغرينية بنوع خاص، الى التعـاقب المتكـرر للأطـوار الجـافـة والأطـوار الـرطبة (تستثنى من ذلك السطوح القريبة من السـاحـل) معـروفة منذ زمن بعيد في افريقيا الشمالية. ولكن تسلسل الوقائع والدور الخاص بالأطـوار الجـافـة والـرطبـة في تكون الطمي والتشققات كانا موضوع خلافات شديدة. وفيما

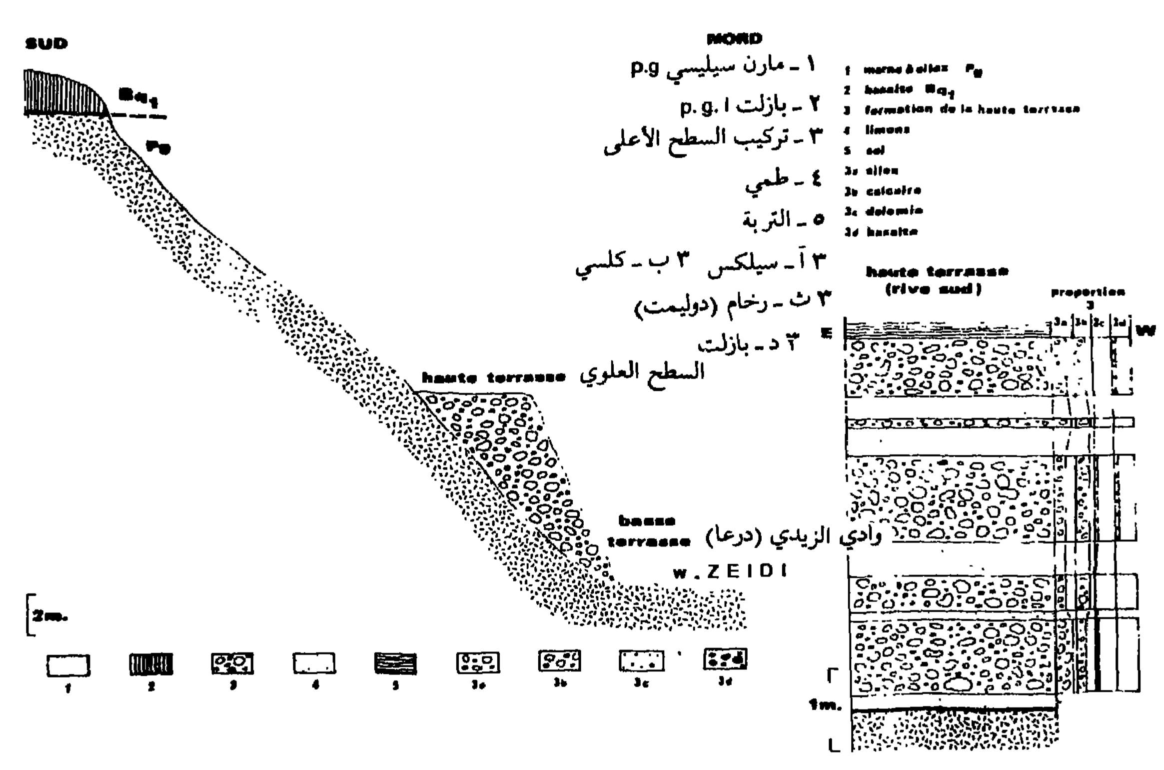


Fig. 2. — Les terrasses du Wādī az-Zeidi (Der'ā).
الشكل رقم ٢ : سطح وادي الزيدي (سرير)

يخص افريقيا الشمالية، فإن الارتباط المشترك بين الجليدية، والمطرية يبقى وحدهُ فرضية وجيهة الاحتمال، رغم الصعوبات في التفاصيل التي يعود القسم الأكبر منها للخلل في توالي مختلف الظواهر الطبيعية الناتجة عن التقلبات المناخية. (Coque ١٩٦٢ ـ ص ٤١٧).

يظهر بأن ذلك المخطط في الشرق الأوسط لا يزال محتفظاً بقيمته الكاملة (Ponikorov ١٩٦٧ ـ جدول رقم ٥ ص ١٥٠ ـ بزانسون ١٩٧٤ ـ ص٢٣٧ ـ Sanlaville ١٩٧٩)، أما حول الوضع الحالي للتقنيات الجارية عن البلاد الجافة لحوض البحر الأبيض المتوسط، يظهر أن توضع الرواسب في مرحلة تكوّن سطح مافي منطقة غير حراجية يتم خلال الدور المطري، أما التشقق فيتم في بداية الجفاف. وبالفعل تزداد قوة المجاري المائية خلال الأزمنة الرطبة، ولكن تطورات تغيّر الصخور بتأثير المناخ وتحركها على السفوح، تزداد نشاطاً بصورة موازية، كما تزداد الحمولة بأسرع من ازدياد القدرة الخالصة. وفي نهاية عصر ماطر تتقلص القدرة الجاهزة إلا أن نتاج الردميات على السفوح يبقى مشلولاً، فتناقص الحمولة أسرع من تناقص القدرة الخالصة. وهذا ما يؤدي الى الانحتات الخطي.

يبقى علينا أن نقترح التفسير الذي يترجم تشكل سطوح حوران. فإن السطح الأعلى لدرعا، في حدود ارتفاعه يتوافق مع السطح الثاني للفرات المنسوبة الى Würm (Ponikarov ١٩٦٧) ومع ذلك، اذا سلمنا جدلاً بأن هذا السطح يعود الى عصر ماطر (اورمّيا) (Wurmien) فيكون بلا شك معاصر للصخور الرسوبية البحرية لسهل دمشق (رازفاليف) ١٩٦٥ ـ ص٣٣ ـ سلسلة upper)، ولكن في لبنان يُعرَفُ طوران فقط للطمي الفريني يتصلان بعصر الـ Wurm (Besançon ـ ١٩٧٤ ص ٥٧٠).

تقدم الصناعة الحجرية عنصر تأريخ يثير القلق أكثر مما يدعو للايضاح، سيما وأن منطقة درعا قد كانت مأهولة منذ العهد الأشولي (Acheuléen) حتى العصر البرونزي الثالث (Nasrallah ـ ١٩٤٨). في علم شكل الأرض وتطوره تتيح الأحداث المحلية المصطنعة القريبة في تشكل ما، توضيح الحد الذي يبين التاريخ الفعلي، أما العوارض الأخرى فيمكن أن تظهر نتيجة لتغييرات أو تعديلات ما.

وقد اختبر الأب (Hours) خمسة أصناف التقطت من السطح الأعلى.

١ ـ حجر نيكولي من السيلكس كثير الاستدارة من العصر االباليوتيكي المتوسط (الحجر القديم) أو أقدم من ذلك.

٢ ـ شظية من السيلكس تالفة.

٣ ـ اداة من البازلت.

٤ ـ حجر صغير من السيلكس، شاذ الشكل من العصر النيليتيكي أو الباليوتيكي الأعلى.

٥ ـ حجر صغير من السيلكس ذات وجهين يحمل آثار التقصيب والاعداد.

وطالما لم يعثر في السطح الأعلى على أحداث نيوليتية فعلية فلا شيء يحول دون التمسك بالعصر الوورمي (Wurmien) مع عدم امكانية اعادة التاريخ الى أبعد من ذلك.

أما السطوح الهولوسينية المنخفضة فإن شرحها والكشف عنها يظلان كثيري الحساسية. ويمكن أن تتذرع بوجود تأرجح رطب في العصر النيوليتي، وقد كان معروفاً في الصحراء (كوك/ ١٩٦٢ ص٤١٧) إلا أن الازمات المتكررة يمكن أن تكون من منشأ بشري، اعتباراً من العصر النيوليتي سيما وأنها مرتبطة بأطوار من استصلاح الأراضي، وفي العصر الروماني عرفت إحدى هذه الأزمات في لبنان (بيزانسون ١٩٧٤ ـ ص٣٣٣).

٥ ـ ٢ القشور الكلسية:

منذ زمن بعيد لوحظ في حوران وجود قشور أرضية متفحمة وتغطي تلك القشرات الصلبة أحياناً، والهشة أحياناً أخرى جزءاً من سفح «ساسيه» شرق «المتونة» يغطي «تل الخالدية» قوقعة كلسية بكثافة تزيد عن ٥٠ سم وجميع منطقة خلخلة تبدو مغطاة بها ويتيح أحد الخنادق بمشاهدة سماكات تتجاوز المتر الواحد. . وكلما اتجهنا نحو الشمال كلما كانت القشرات أكثر صلابةً وتماسكاً. ولكن التشويش الظاهر في التكونات البحيرية، التي تبرز شمال «براق» ليست واضحة المعالم. فالأولى وضعت بصماتها على السطح طبوغرافياً بينما الأخرى تبدو بشكل طبقات. والسيد صفدي كشف عن خصائص نادرة لمنطقة ذات ثلاث مستويات:

- المستوى الأدنى وهو مشكل من العقد الصغيرة الكلسية.
- المستوى المتوسط وهو قابل للتفتت على العموم.
- ثم المستوى الأعلى. فهو قاس و Zonaire ومكاني.

وهذا الأخير يشاهد باستمرار. وفي منطقة «قرية البثينة» يلاحظ وجود قشرة متقطعة. وهي متوضعة بصورة رئيسية على منحدرات البراكين. أما حول «شقا» فالقشرات اكثر ندرة فهي تختفي باتجاه الجنوب على سوية «شهبا». ولا يمكن عزو هذه القشرات الى الاندفاعات الحاصلة في بدء الحقب الرابع. في اللجا «فتل الاحمر» مغطى بقوقعة كلسية متماسكة بسماكة متر على الأقل. وفي أسفل هذه القوقعة ترى الحمم البركانية ممزوجة بمسحوق كلسي ناعم (دوبرتريت ١٩٢٩ ـ ص ٢٨١) ويمكن مشاهدة هذه القشرة في معظم براكين «عريقة» وتلول «مجادل» وهي تتمثل في موضعها بغشاء كلسي أبيض (المرجع ذاته).

على العموم توجد هذه القشرات خاصة في منطقة (Sacée) على ارتفاع يتراوح بين ٧٠٠ ـ ١١٠٠م، وهي غير متوفرة في براكين «شهبا». وعلى شبه التأكيد فإنها تكونت قبل

الثورانات الأخيرة. لا تتوفر امكانية الدليل للوجود الواضح لهذه القشرات على البراكين، حتى يمكن تصور العلاقة الخاصة حول هذه البركانية مثلاً. وهذا يعود الى التصاعد الاندفاعي الكلسي لكتلة الأساس. ان العينات التي درسها (السيد الصفدي ١٩٥٦ - ص١٦٨) لا تبين وجود مستحاثات بحرية. ولكن من أين وجدت الإيوانات (Ca2+)? إن تبدل الفلدسباتي (صفّاح الحقول) يبعث شيئاً من هذه الايوانات. فالبازلت الوسطي يحوي (بحسب الثقل الاوكسيدي) حوالي ١٢٪ من الـ (Cao). أما بازلت حوران فعياره ينخفض قليلاً ويصل مقداره الى ١٠٪ (رازا فاليف ١٩٦٧ - ص ٥١). يمكن التساءل فيما اذا كان هذا الطمي كافياً خاصة بالنسبة للقشرات الأرضية الاكثر حداثة. والمتكونة على براكين اللجا واذا اخذنا بعين الاعتبار وجود تضاريس كلية كبيرة فوق دمشق، أي في جبل قاسيون وجبال لبنان الوسطى فإن الرياح الشمالية الغربية الناقلة للغبار الكلسي تمكنت من نقل مقادير ذات شأن.

تلك هي الفرضية المتعلقة بحركة الريح التي اقترحها السيد (R. Coque) لتفسير تكوّن القشرات الكلسية والجبصية في تونس (١٩٦٢). ولا يمكن الاعتراض على تلك النظرية، الا في المناطق المجردة من الكلس أو من المعادن الغنية بالكالسيوم، عدا هذه النظرية ظهرت فرضيات مختلفة ساعية للمناقشة في تفسير مكونات القشرات (مؤتمر ستراسبورغ ١٩٧٥ - m. vaudon clauzon C. R. ١٩٧٦). أما فرضية التربة التي هي أكثر مشايعة، فإنها تعيد تشكل القشرات الى آفاق التراب B. واذا طفت وبرزت القشرة فمعنى ذلك أن الأفق الأدنى قد جرف. أما نظرية التمعدن داخل التربة - الكلسيت يحل مكان الدولميت أو السيليس دون احداث خلل في التراكيب أو البنى - فإنها تأتي لتكمل الفرضية السابقة أكثر مما تعارض مضمونها أو مفهومها. كما يشكل تدخل طحالب البكتيريات أو الفطريات التي بإمكانها إفراز «الكلسيت»، للعنصر الأساسي للنظرية البيولوجية وفق ما يظهره الاختيار. وقد ابرزنا أيضاً صلات القشرات المتكررة مع الجريان السطحي أو تحت السطحي، وهي التي تسمى «بنظرية الجريان». وأخيراً يرى البعض أن تشكل القشرات قد يكون مصدره الترسبات المرافقة للمواد الغرينية التي تتكون فوقها.

يُرجَّح أن تكون مختلف هذه الفرضيات مكملة لبعضها البعض، اكثر من كونها متناقضة. يتطلب تكون القشرة الكلسية توفر نباتاتٍ لا غنى عنها. وبالحقيقة لا يمكن تصور تكدسات من هذا النوع دون فعالية بيولوجية نشطة (كوك ١٩٦٢ - الفصلان الثاني والثالث). اذا تم التمسك بفرضية طمي الرياح فلا بد من جهة ثانية من تواجد نباتات كثيفة كي تستطيع ان تلتقط الغبار الكلسي وتتفاعل معه. هكذا، ربما يكون الفارق المناخي الاكثر رطوبة من البيئة المناخية **الحالية هو الذي اتاح تكون تلك القشور**.

أظهـر غيـاب القشـرة فوق براكـين «شهبا» بأن القشـرات بمجمـوعهـا ليست متـوافقـة مع المنـاخ الحـالي، بينـما وجـودهـا على براكين عريقة أيان بأن البعض منها تكون خلال العصر الهولوسيني والحد الأعلى لهذه القشرات (١٢٠٠م) يتفق مع الحد الذي عنده تجاوزه يحدث الاغتسال.

على العمـوم تبـدو دراسـة القشرات الكلسية لحوران، بأنهـا تتفق مع فرضيـة المـرحلة المنـاخيـة.. الاكثـر رطـوبة خلال العصر الهولوسيني وهذا بدون شك موازٍ للعصر النيوليتيكي الغزير الأمطار والمعروف في المناطق الأخرى.

ان طبقـة الأراضي الـبركـانيـة في حوران، رغم التـماثـل السريري فهي متباينة نظراً لديمومة وتمركز الاندفاعات غير المتساوية. فمنطقة «شهبا» تجابه ثلاث مكونات في الشكل.

ـ اللجـا: وهي متحف لأشكـال بركـانيـة لما قبـل العصـر الحالي، ولكن انخفاضاتها المغلقة تبقى معمية (ملفزة) نوعا ما.

ـ أمـا منطقـة ساسيـه: فهي متأثرة بصورة أساسية بعامل التحول (التبدل) وإن تكون الـتر بـة فيهـا تكـاد أن تفقد كل خاصية بركانية، لولا وجود بعض المخروطات الستر ومثولية التي تذكر بأصلها وفي الجبل تُظهر مواد الوادي المنصُهرة تلاقي النحات الخطي مع مختلف الأطوار البركانية في بيئة أصبحت جبلية.

وتحـول ندرة الجبـال في التبـدلات المنـاخيـة دون اعـادة بنيان دقيق محدد. وربما يفسر تكـوّن سطـح درعـا الأعلى بمـرور دور مطـري «وورمي»، بينما اضطرت القشرات الكلية على التشكـل ضمن بيئـة اكثـر رطـوبـة من بيئـة أيـامنـا هذه، وبطـرق لعبت فيها الرياح دوراً. وتمّ حدوث ذلك بين تكوّن اللجا والاندفاعات الأخيرة.

فرانسيس هوغيه
باريس ـ ١٩٨٥

هوامش

١ ـ دونت تواريخ جازمة في المناطق المجاورة ليزانسون ١٩٧٤ الجدول ٢٦ تأريخ بازلت الغور الفلسطيني الجنوبي

عناصر جديدة لكتابة تاريخ مناطق وشعوب جبل حوران الجنوبي

إن الدراسة الأثرية التي باشرت بها وحدة البحث الأثري رقم (٢٠) من المركز الوطني للأبحاث العلمية حول موقع «سيع» في سورية الجنوبية، أصبحت مرغوبة وضرورية للوقوف على الشروط والاسباب التي من أجلها أنشئت مؤسسات التنقيب، في الأزمنة الغابرة. كان من المفيد حصر الملاحظات المتعلقة بالمحيط وبالسكان التي تعود لجوار الموقع مباشرة، وهذا يلزم الاتاحة بوضع الفرضيات الأولية بعد مشاهدة العناصر الرئيسية لطبيعة الأرض، وبعد استقصاء مختلف نماذج الأشكال المعمرة التي خلفتها الأجيال البشرية التي سكنتها. هكذا فإن طبيعة التربة المؤلفة من الصبات البركانية المتراكمة، والمناخ والنباتات الطبيعية وآثار الثقافات القديمة وطرق التموين بالمياه وتمركز القوى والقبور والطرق والعلاقات المتبادلة بين كل ذلك جميعاً، كانت مجالاً للتنقيب والبحث المفصل، والغرض من مثل هذا الاحصاء هو عدم ترك أي شيء مهم إن أمكن ذلك خارج حقل التقصي التاريخي ليصبح في الامكان فيما

بعد اقتراح تقسيم زمني نسبي للآثار التي خلفتها المجتمعات البشرية في الوسط الطبيعي وفي ذلك المكان المحدّد.

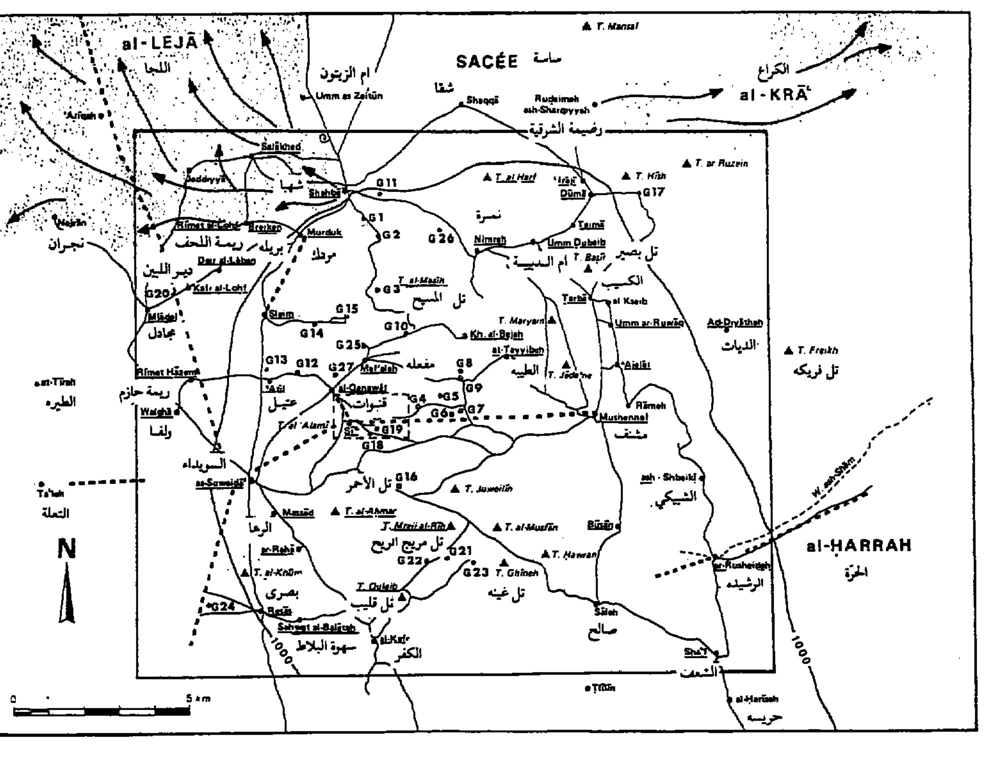
كانت ستأتي تلك الملاحظات مقتضبة، لو أن التحريات لم تمتد فيها بعد، الى دائرة أوسع (الشكل رقم ١). في الواقع أن تبدل سلم المقاييس، في حال ايضاح الاشكال الواجب معرفتها يتيح ابراز الأنماط الاكثر تنوعاً واكتمالاً من المثال أحادي الموضوع.

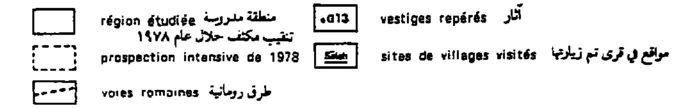
ولدى الانتقال في البحث من الأمكنة المحلية الى الاقليمية - ولو كان الاقليم جزءاً فقط من مجموعة اقاليم انطوت تحت شكل متصاعد - فقد بُذل الجهد للتمكن من الوقوف جيداً على خاصيات الموقع الأثري الذي يدرسه علماء الآثار. وتم السعي لربط جميع الأقاليم في مسألة واحدة وهي الاستيطان البشري في جبل حوران.

تشكل المنطقة قيد الدرس مستطيلاً عرضه ٢٩ كم من الشمال الى الجنوب وطوله ٣٧ كم من الشرق الى الغرب وهي تغطي الجزء الشمالي من جبل حوران (حسب الشكل رقم ١) تتضمن النقاط المرتفعة منه الواقعة على ارتفاع (١٨٠٠م) واطراف السهول العليا التي تحيط به (حتى ارتفاع ٧٥٠ متراً تقريباً)، ان فرق الارتفاع بين الجبل وجوانبه سهل الملاحظة، بسبب اندفاعات البازلت التي كانت أصل ظهوره، أما السطوح الجانبية (شرق - غرب) و(شمال - غرب) فتبين بأن هناك ارتباط واتصال في المنحدرات، ضمن الارتباط المباشر للانسكابات البركانية وقدمها.

أتاحت دراسة الجيولوجيين والجغرافيين وضع الخرائط الواضحة التي ترسم تتابع الاندفاعات الرئيسية. فإن التأثير التاريخي للاندفاعات على الآثار والرسوم الأساسية لطبيعة الأرض هي مميزة جداً. يمكن الاقتناع بها بسهولة كبيرة. اذا طابقنا الخريطة الجيولوجية مع مختلف نماذج خصائصها. وهكذا تصبح المطابقة مع جيولوجيا مختلف البنى التي نشأت أبان ظهور البيئة الزراعية مستحقة التنويه في باديء الأمر (الشكل رقم ٢).

مع ذلك فإن كامل المنطقة المدروسة هذه تحمل آثار الاستيطان البشري الكثيف، ويمكن القول أنه في كل مكان فيما عدا بعض الأمكنة التي كانت قليلة الاستيطان بصورة مميزة، نلمس آثار التنمية الزراعية التي سبق لها أن شغلت مساحة أوسع بكثير من التي يعيش فيها أناس اليوم. فالجدران الصغيرة التي تحيط بالحقول الزراعية والأبراج والآبار والخزانات والطرق الحجرية والمدافن والسطوح الزراعية جميعها تغطي ٩٠٪ من مساحة هذه المنطقة. تتواجد هذه الآثارات غالباً على مسافات كبيرة من مواطن السكن الحالية. وهي أحياناً تشهد بأن العمل المنجز فيها غير متكافيء مع النتيجة المتوقعة. وهكذا نرى بأن بعض الحقول لا تشغل سوى عشر المساحة المحددة بجدران صغيرة، أما القسم الباقي فهو مكون من نتوءات صخرية، ومع ذلك فقد استخدم السكان اليوم ولفائدتهم، البعض من تلك





الشكل رقم ١ ـ منطقة بحث وتنقيب

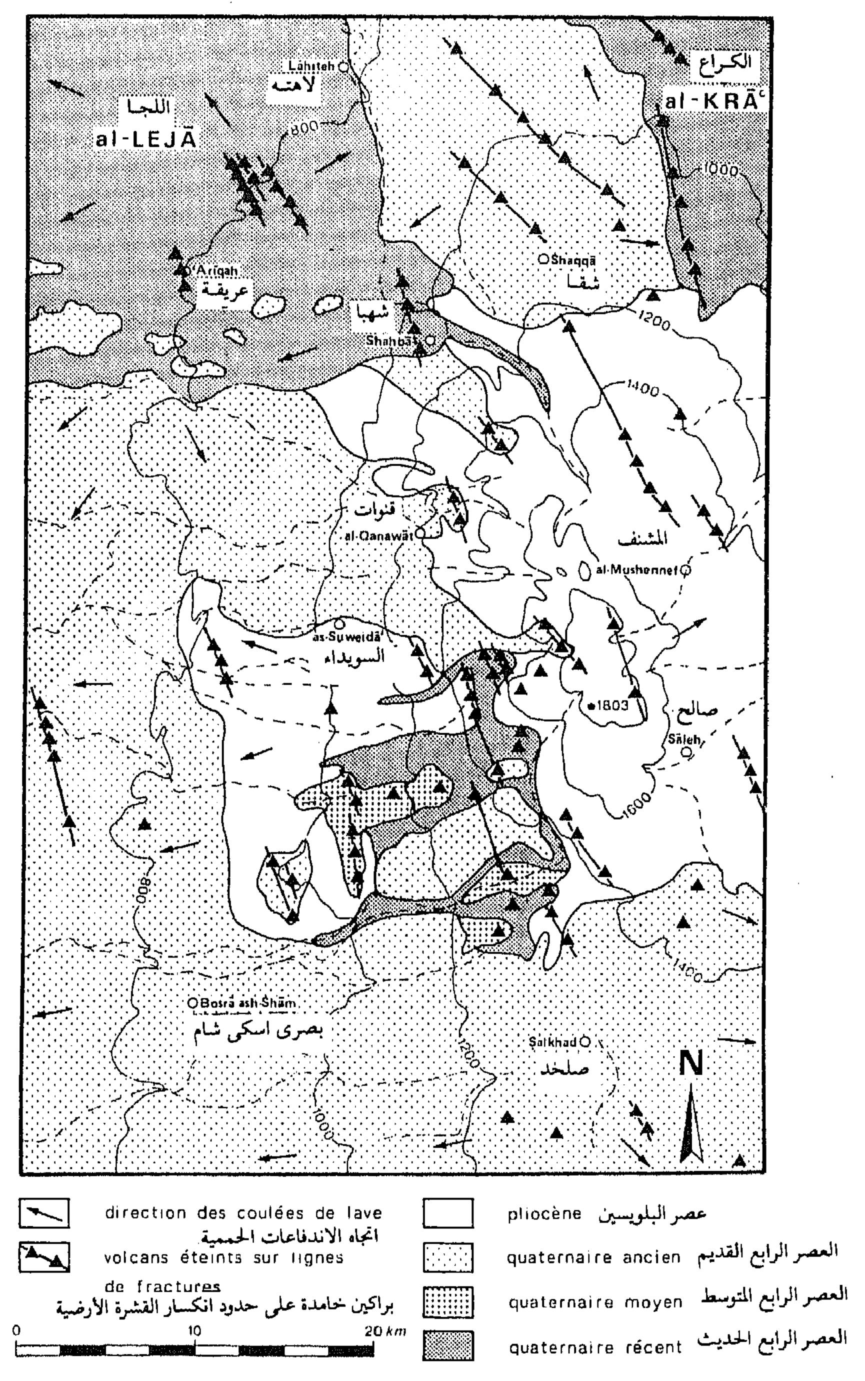


Fig. 2. — Carte géologique schématique de la zone.

الشكل رقم ٢ ـ الخريطة الجيولوجية البيانية للمنطقة

الهيئات التي يمكن ملاحظة أثرها، ولهذا السبب من الضروري اللجوء أولاً الى القيام بتقصٍ مختصر على كل ما هو متبق قبل السعي لمعرفة مايعنيه من وجهة النظر الجغرافية التاريخية.

١ ـ الدراسة التصنيفية لطبيعة البلاد:

ان جغرافية المنطقة الحالية هي مطبوعة بخاصية التنوع المحدود للأراضي، والسبب الأول يعود كما ذكرنا الى ترابط وتجانس الأساس، حيث يبرز البازلت في كل مكان، لا تتمكن فيه التربة المنحلة من حجب سطوح الاندفاعات الحممية القديمة. وهكذا حدثت الفروقات الكبيرة الأولى وفقاً لدرجة جفاف وتحول الصهارات البازلتية، ولتكوّن الفراغات لدى تنقل المواد المتحولة. وسوف تؤخذ بعين الاعتبار في نهاية المطاف طبيعة الصخور التي تشغل اندفاعاته المتدفقة أكثر من ١٠١٩ من المجموع. أما المتبقي من ذلك فهو مكوّن من الحصى ـ الرماد ـ أو التفل البركانية.

إن العناصر الاساسية التي يمتزج بعضها مع البعض الآخر هي مرتبة في الجدول رقم (١) يجب أن تكون هذه العناصر مرتبة مع عناصر أخرى أيضاً، وخاصة المساكن والطرق.

فالمنطقة كانت حصراً مأهولة بالجماعات المتوطنة، فالضيع والبيوت المعزولة ليست، فيما عدا بعض الاستثناءات، الا نتيجة للتطور الحديث جداً للمنطقة (لأقل من ٣٠ سنة) وعلى العموم، ترى البيوت الحالية متكتلة بشكل ضيق حول قلب القرية أو الحاضرة الأقدم بالوجود. ان وجود الخرائب في كل من هذه القرى، يثبت قدم سكنها وطريقة الانتقاء للمواضع المرغوب السكن فيها. ومع ذلك لا يزال حتى اليوم بعض الخرائب مهجوراً تماماً. والسبب بسيط أما لوجودها في مناطق يصعب الوصول إليها نسبياً، مما يتعذر العودة لسكناها مجدداً.

وهذا يثبت تواجداً سكنياً أكثر كثافة من اليوم، واما ان يكون اختيار موضع الابنية التي أصبحت خراباً اليوم قد ناسب نوع بناء تلاشت الحاجة اليه (الأديرة مثلاً). ان جميع مواطن السكن الحالية، قد أصبحت معروفة في النصوص القديمة. وقد ذكر أو وصف معظمها في مراجع ستورد لاحقاً حين تعالج مواضيع السكن والمياه.

ان محاور الاتصالات المهمة تحيك في هذه الأيام، شبكة متماسكة تعكس الأهمية النسبية المتعلقة بقرى العصر الحالي، ويمكن ربطها بما عرف من طرق المواصلات الكبيرة المستخدمة قديماً. خاصة خلال العصر الروماني وتظهر المقارنة في آن واحد وجود ثبات راسخ في مجمل شبكة طرق المواصلات، ووجود بعض الانحرافات في التفصيل يستحسن السعي لكشف أسبابها. وهذا سيتم ضمن فقرة خاصة لدى تحديد شروط اعدادها.

٢ ـ المناخ (الشكل رقم ٣)

قدمت محطة السويداء أهم الثوابت المناخية للمنطقة، وهي مذكورة في الشكل أدناه، ومع ذلك من المفيد الأخذ بعين الاعتبار الملاحظات الواردة من المحطات المجاورة، وخاصة محطـة «عـين العرب» على ارتفاع /١٥١٠م/ القريبة من موقع «سيع». أما محطة «صلخد» فهي مثل محطة «شهبـا» تثبت (كـما هومعـروف) أن الطـرف الغـربي لجبـل حوران يتمتـع بشـروط مناخية مماثلة.

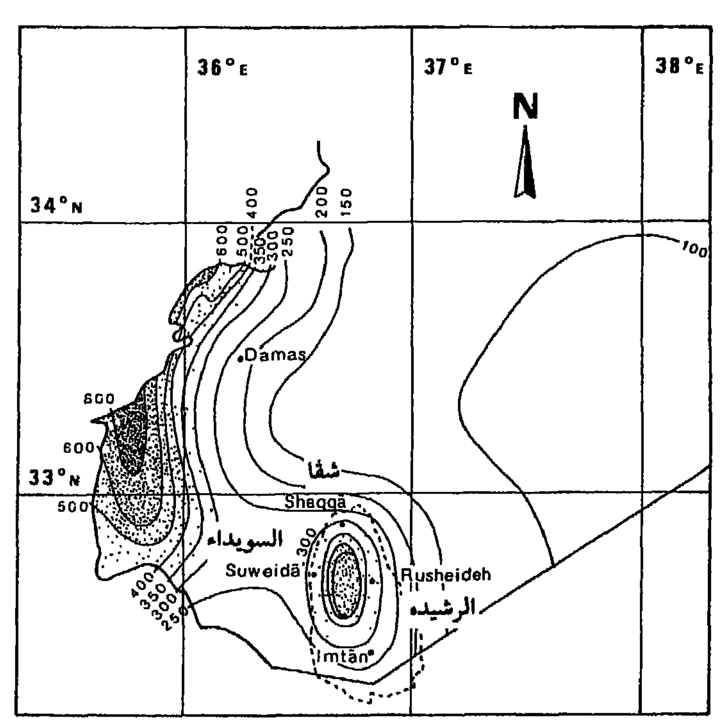


Fig. 3. — Carte schématique des précipitations

الشكل رقم ٣ ـ الخريطة البيانية لتوزع الأمطار

بعض المعطيات الأولية المتعلقة بمناخ سورية الجنوبية

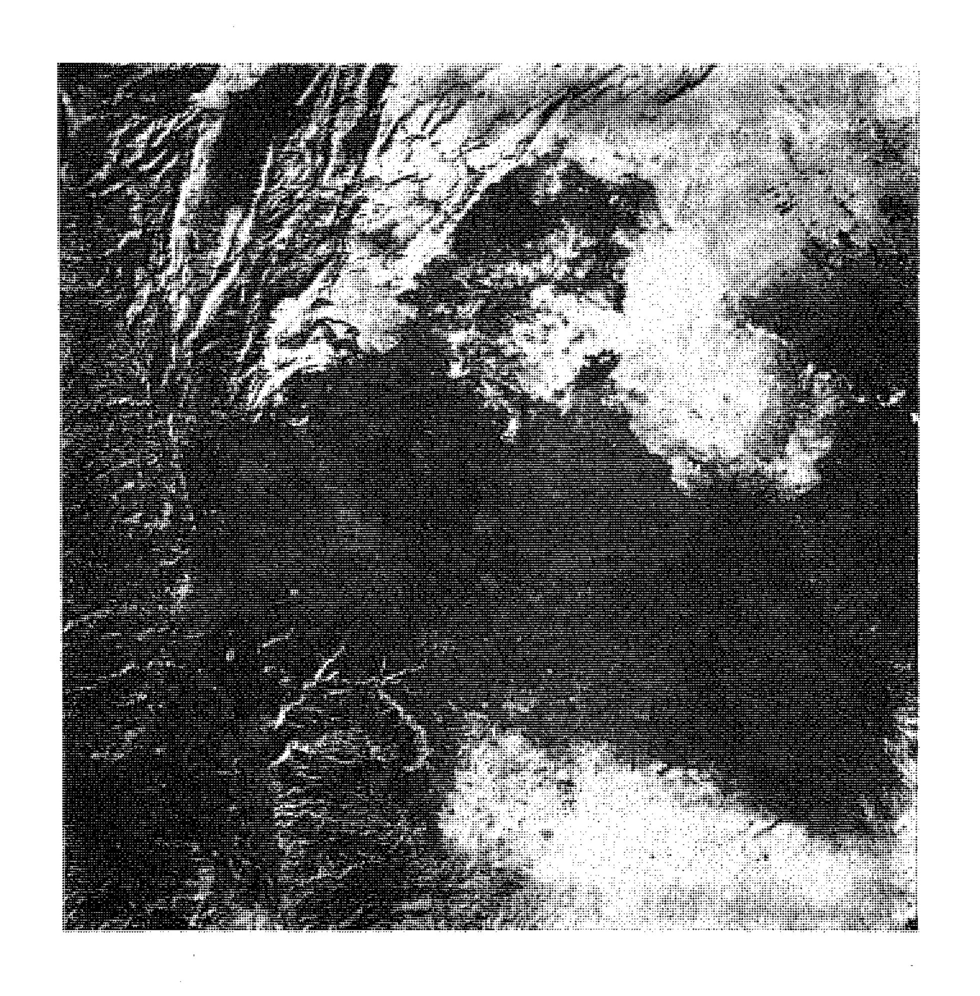
يظهـر الأثـر المنـاخي لسورية الجنوبية المستخرج بواسطة المعطيات الاحصائية للمحطات الأرصادية بعد استعمال قاعدة:

$$Q2 = \frac{2000P}{M^2 - m^2}$$

P = متوسط الهواطل المطرية سنوياً. M = درجة الحرارة الوسطية القصوى للشهر الأكثر حرارة في السنة m = درجة الحرارة الوسطى الدنيا للشهر الأكثر حرارة في السنة.
ان مركز الجبل يدخل كجزء من المناطق النصف رطبة. وان هذه الدائرة التي هي استثنائية في المنطقة بالنسبة لخط الطول والارتفاع والتي تتوافق تقريباً مع الخط المطري ٤٠٠مم بسبب ارتفاع الجبل. هي محاطة من جميع منحدرات الجبل بدائرة نصف جافة محصورة بين خطي التساطر ٣٠٠مم و٤٠٠مم وان مدن «السويداء» في الغرب و«امتان» في الجنوب و«شقا» في الشمال و«الرشيدة» في الشرق. تقع على حدود الدائرة الجافة القليلة المطر التي تغطي جميع ما تبقى من المنطقة. فيها المنحدرات في الجنوب التي تصل حتى ارتفاع ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠متر. أما الدائرة الجافة جداً فتبتدىء على بعد ٢ كم الى الشرق والشمال من الدائرة نصف جافة وتجعل من جبل العرب موقعاً متقدماً من الأراضي الخصبة باتجاه الشرق ونحو البادية السورية ـ العراقية.

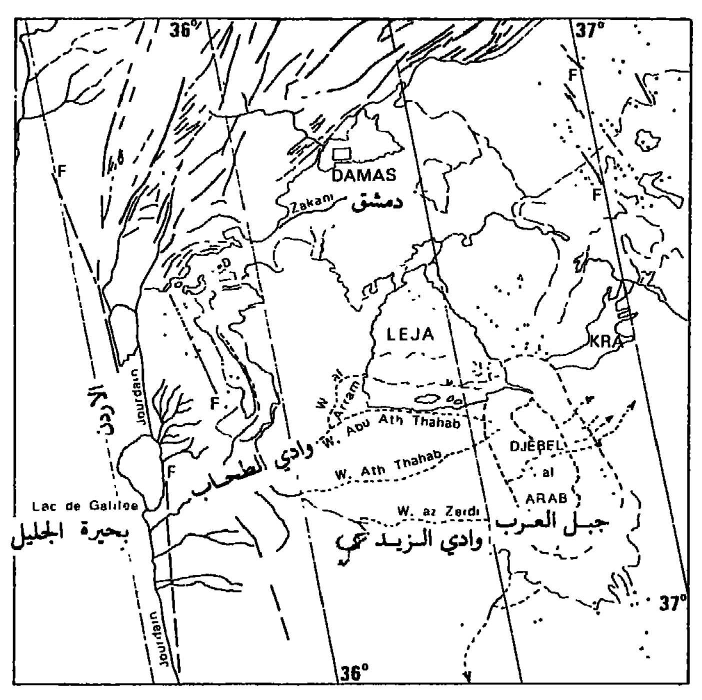
ان درجات الحرارة الدنيا للشهر الأكثر برودة (كانون الثاني) هي وسطياً (صفر) على قمة الجبل أي على ارتفاع يتجاوز (١٤٠٠م) وهي (٢°درجة) على باقي الجبل ما عدا منطقة السويداء التي تتمتع بنظام درجات حرارة مماثل للسائد في سهول حوران. أي بين ٣° و٤° وهذا مايفسر بصورة خاصة تطور نمو شجر الزيتون في هذا الجانب الغربي من الجبل. على ارتفاعات أقل من ٩٠٠متر.

فيما يتعلق بدرجات الحرارة، فالمعدلات الشهرية لفصل الشتاء معتدلة (يومان من الصقيع خلال شهر كانون الأول و٤,١ أيام خلال شهر كانون الثاني. توفر منطقة السويداء الشروط الممتازة للانبات الشبه استوائي، وتبقى موجات الصقيع التي تدل عليها أدنى درجات الحرارة (ـ ٦,٨° في كانون الثاني وـ ٦,٧° في شباط) شاذة وقصيرة جداً. أما شجر الزيتون فيمكن غرسه دون خوف، حتى لوكان على ارتفاع ١٠٠٠م ولكن عند بداية المنحدرات الدنيا لجبل حوران تختفي هذه الشجرة من الأرض. وفي محطة «عين العرب» وعلى ارتفاع ١٥٠٠م كانت درجة الحرارة الدنيا ١٤° خلال شهر كانون الثاني. وهناك وسطياً ٢٣,٢ يوم صقيع في الشهر. ومعدلات درجات الحرارة الشهرية في الصيف ليست كثيرة الارتفاع (٢٢ ـ ٢٣° من حزيران الى ايلول) وكذلك معدلات الدرجات القصوى (٢٩ ـ ٣١°). وقد قيس بشكل جيد تأثير البرودة في العلو وفي الرياح الغربية بمقارنة تلك الأرقام مع أرقام منطقة «الزلف» البعيدة نحو الشرق والأكثر انخفاضاً وعلى طرف الصحراء السورية ـ العراقية. فهي على التعاقب ٢٨ الى ٢٩° و٣٥,٧ الى ٣٧,٥°).



PI كليشة ثانية للمنطقة (نازا) لاندسات

E ۳۰۲۸۹ ـ ۷۳۱۳ ـ ٦ تاريخ ۱۹/ ۱۲/ ۷۸ و ۳۰/ ٦/ ۹۷۳



الخطوط الرئيسية للمرتفعات lignes majeures du relief — lignes de failles et volcans خطوط الفوالق والبراكين

مجموعات جيولوجية ensembles géologiques — oasis de Damas بادية دمشق

Pl. II. Croquis explicatif de la photo ci-contre.

مخطط توضيحي للصورة اعلاه PLII

هذه الصورة اعلاه تعطي المعلومات عن جزء من سورية ولبنان المأخوذة بواسطة القمر الاصطناعي على موجة الطول من ٧٠٠ الى ٨٠٠ نانومتر (القنال ٦)، تظهر فيها التجمعات بصورة دقيقة، كما تظهر المساحات المغمورة بأنواع النباتات، وقد تحددت بصورة واضحة أُخذت هذه الصورة في فصل الشتاء (١٩٧٨/١٢/١٦) حوت القليل من المعلومات عن الغطاء النباتي بالنسبة لما يمكن الحصول عليه لو التقطت في الربيع. ومع ذلك فإن التكوينات الجيولوجية كانت فيها ظاهرة اكثر من المعتاد.

وبعد المقارنة مع الخريطة الجغرافية، تبين بأن صورة القمر الاصطناعي استخرجت بعض النقاط المميزة بخلاف البعض الآخر، فإذا ظهرت اللجا (BQ4) متشابهة على الخريطة وفي الصورة فإن الاندفاعة الحممية التي هي من نفس العمر والأكثر حداثة

كما هي مطابقة للخريطة الجيولوجية حول «الكفر»، لاتظهر إلا بغموض على الصورة العائدة للقمر الاصطناعي، وفي اللجا ذاتها توجد في الجنوب كميات مختلفة من اللون الرمادي، وفي الشمال سلسلة من البقع الصغيرة البيضاء، توحي بضرورة وجود مناطق لها تحركات مختلفة متوضّعة بحسب الأسس الجيولوجية، ودراسة الأرض فقط هي التي تمكن من اعطاء المعنى لتلك الاختلافات. ولابد من الاشارة أيضاً بأن (Bq 4) أقل حداثة، تبدو باللون الرمادي - الابيض، وهذا مايقربها بصفة أكثر نغمية وانطباعاً من Q4 الفرينية الموجودة في شمال منطقة اللجا - الصفا - والشبيهة ببازلت حوران الرمادي الغامق. يتفق هذا التباين مع فحوى مادة ذات مقياس مرتفع سبق أن ذكرت من قبل الجيولوجيين، كما يوجد أيضاً دراسة مقارنة للأرض بواسطة صور جوية تمكن من اعطاء التفسير للتناقضات التي تتمتع بفعلية مضيئة.

ان كتلة جبل العرب معروفة، والجانب القاتم في الصورة هو اختلاف كثافة الضباب، ومع ذلك فهذا لا يوصل الى اسباب هذا الاختلاف. لذلك من الصعب رسم حدود الجبل إلا بصفة كيفية. كما تعرف جيداً المناطق الكلسية في الاردن التي تبدو بيضاء، وأيضاً الآثار المنطبعة بوضوح لاجتراف المنحدرات الشديدة الذي يحيط من كل جانب منخفضات الاردن.

في شمال الصورة ترى غوطة دمشق وهي تمتاز بقيمة عالية للبياض الداكن، الذي يعود للحقب الرابع (Q4) وهذه أيضاً حال البقع القاتمة للحقب الرابع الفريني (Q4) الاحدث زمناً، الموجودة جنوب وشرق الغوطة، والتي مرد لونها القاتم الى الوقائع الكثيرة التي تغمرها.

فالدائرة السهلة الملاحظة نسبياً، هي موجودة بين مجموعة «اللجا» منطقة درعا الكلسية وجبل العرب نفسه، وهنا يخص فقط زراعة سهول حوران، لأن صخورها وقراها تعطي شكلاً مرقشاً.

أما فيما يتعلق بهطول الأمطار فإن المعدل السنوي يصل الى ٣٥٠ - ٣٥٢ مم بالنسبة للسويداء، و٣٣٦مم بالنسبة لشهبا في الشمال، و٣٣٨مم بالنسبة لصلخد في الجنوب. وهذا ما يجعل المنطقة في الدائرة السهوبية. ومع ذلك تجدر الاشارة بأن الجبل بكامله بعيد عن الجفاف الكبير الناتج عن السنوات قليلة الأمطار والتي تصل فيها الهطولات الى ٢٠٠مم ومرد هذه الحصانة يعود الى ارتفاع الجبل. فالسويداء هي حقاً موجودة على الحد الذي فيه تجف المياه المنحدرة من القمم خلال السنين الجافة وهناك ثلاثة أشهر من السنة. (من كانون الثاني الى آذار) يستقبل الجبل خلالها من الأمطار اكثر من ٦٠مم، وهذا يسمح بتكوين احتياطي مائي قبل نماء الربيع بالاضافة الى ٥٦,٢مم التي يسبق هطولها خلال شهر كانون الأول، فهي بذلك تجعل خلال أربعة أشهر تقريباً الحقبة الزمنية الوسطية لهطول الأمطار

مقيدة. وفي السنين الماطرة يضاف غالباً شهران (نيسان خاصة وغالباً تشرين الثاني) بحيث يمكن الوصول الى المجموع المار ذكره، عندما يتجاوز شهر كانون الثاني ١٠٠مم، وهذا التبدل (من ٢٠٠ الى ٥٠٠مم تقريباً). هو الذي يجعل النتائج الزراعية مشكوكاً فيها.

ولكنها تبقى مشيرة للاهتمام، أما أشهر الصيف فهي تقريباً جافة من أيار الى ايلول: أي خمسة أشهر بأقل من ١٠مم. ومن هذه الخمسة قد يكون أربعة بدرجة (صفر)مم. والتبخر اليومي الوسطي هو على درجة من القوة (٥مم يومياً في أشهر ايار - تموز - آب) (و٦مم تقريباً في حزيران). ولكن هذا لايخل بنماء النباتات. ان جبل حوران موقع صالح جداً للزراعة المطرية النظامية كما هو مناسب أكثر لزراعة الاشجار المثمرة، التي يناسبها السفح الغربي من الجبل اكثر من الشرقي لاسباب واضحة مردها ميزة المناخ والطبيعة ونسبة الرياح السائدة.

أما القمم في الغرب فيمكنها حمل أشجار الكرمة حتى ارتفاعها ١٨٠٠م. ولكن السطوح المركزية العليا تبقى ملائمة لزراعة الاشجار المثمرة حتى ارتفاع اعلى من ١٥٠٠م.

ان عدم التماثل الكائن بين السفح الشرقي والسفح الغربي للجبل يبدو أكثر وضوحاً مما هو بين شمال وجنوب الكتلة الجبلية. ولعدم توفر المعطيات المناخية الواضحة يتعذر تفسير ذلك بالأرقام، ولكن المتنوعات في طبيعة وجه الأرض تعطي أفضل اثبات من أي سلسلة رقمية، تتناول هذا الفرق العام في المناخ.

٣ ـ المياه:

ان معدل المطر هو أغزر على القمم مما هو على المحيط، وليست لدينا نتائج لمراقبات «تل غينة أو تل قليب» الذي يصل الأول الى ارتفاع ١٨٠٠م، والثاني ١٧٠٠م، ومحطة «عين العرب» الواقعة جنوب خرائب «سيع» في وادي قنوات على ارتفاع ١٥٠٠م. يستقبل ٥٥٤مم من المطر أي بزيادة ٢٠مم عن السويداء التي تنخفض ٥٠٠متراً عنها. وتبعد مسافة ٦كم نحو الغرب. فالمواصفات القديمة المرتبطة بدرجة الارتفاع ليست مفاجئة، لان ميكانيكيتها قيست في مواقع اخرى. فالمواصفات القديمة تقدم غالباً معطيات نتفق كثيراً مع مايمكن تقديره من غزارة في هطول الأمطار على الأراضي المرتفعة. وقرية «الشحف» الواقعة على السفح الشرقي للجبل، وعلى ارتفاع (١٦٣٠م) تبقى مغطاة بالثلج عدة شهور، وهذا ما علمه السيد (Hascl) عنها. من العسكريين المقيمين هناك op cit ص ١٥ وأيضاً يجب الأخذ بعين الاعتبار الأيام غير الماطرة حيث يكون الجبل مغطى بالغيوم. بالوقت الذي تلمع فيه أشعة الشمس في المحيط. وبالوقت الذي يكون فيه الضباب غير كثيف وبارد الى درجة تجعله يتحول الى ندى غزير، إن نقلص حرارة الشمس تلعب دوراً لايمكن تجاهله بالنسبة للزراعة عن طريق الاحتفاظ بالمياه المتسربة.

إن جريـان الميـاه، كما يُرتاب بذلك، غير مماثل. فالجهة الغربية، المواجهة للرياح القادمة من البحر هي الاكثر شيوعاً. وتعتبر الجهات الغربية للجبل خزانا للمياه لما حولها أي أفضل مما هو بمقدور الجهات الشرقية (الشكل رقم ٧). فالعديد من الينابيع محبوسة ضمن الجبل، ومياهها تنساب حتى السهول بغزارة، بفعل الجاذبية ويُعتبر الجبل اليوم خزاناً للمياه للتزود بمياه الشرب للقرى المحلية الموجودة في محيطه بشكل معاصر. ان مخطط شبكة الري المدفونة تحت الأرض والتي توصل المياه من الجبل الى قرى السهل، تبرز بوضوح هذا الواقع. وقد ظهرت أقنية قديمة كانت تلبي الحاجة ذاتها، وفي حوزتنا براهين عديدة على ذلك، وسوف نعود فيما بعد الى معالجة هذه المسألة الخاصة.

أما بخصوص التنمية الزراعية على سبيل الحصر، فإن وضع ينابيع المياه لا يتبين بوضوح من النظرة الأولى أنه طابع مميز، فالشروط المناخية هي الوازع لغرض الزراعات، وليس الطمي النهري. فهل يمكن سقاية ماهو متعذر أبداً بسبب نقص منسوب لم يكن كافياً خلال زمن الحر، سواء في الوديان أو في حوض الوادي نفسه.

ممالاشك فيه أنه أمكن في السابق ويمكن الآن توفير المياه لبعض الحقول المميزة، وفي مواقع ملائمة لنماء جميع الأنواع، ولكن هذا يمثل جزءاً طفيفاً من الأراضي المزروعة، وعلى كل حال يجب أن تُخَصّ المنطقة المدروسة بشكل واضح، وكأنها منطقة نصف جافة ذات زراعة بعلية.

أما مياه الشرب في الحضيرة فهي طيلة العام مستخرجة من الآبار (الجب) الصغيرة بعد توفر الشروط المناسبة (لا سيما في قعر الوادي)، ولكن المياه الأكثر شيوعاً وفي المتناول، فهي مخزنة خلال الفصل الماطر في خزانات بالهواء الطلق، وعلى مقربة من القرى المسكونة.

وطريقة التخزين للمياه هذه اعطت مجالاً لاشارات متميزة في البناء

كل ذلك يقودنا الى تقصي الآثار القديمة للتوطن بالأرض، وسابقا كان لابد من بعض الكلمات لشرح الأسباب التي دعت لبقاء تلك الآثار حتى اليوم.

٤ ـ ما يعرف عن استيطان جبل العرب بالسكان الدروز وعما سبق ذلك:

كان الجبل تقريباً مأهول بالسكان في نهاية القرن السابع عشر، وكان بعض الرحل يتوافدون إليه للرعي. غير أن بعض الحضريين كانوا يقطنون بلا شك خرائب مهجورة منذ العصور السابقة، وكانت واسعة جداً بالنسبة لهم، ولكن على العموم تعتبر المنطقة ضعيفة الكثافة بالسكان.

يمكن الاستفادة من بعض الملاحظات التي دونها Wetzstein لدى مروره في المنطقة في ربيـع عام ١٨٥٨ (Wetzstein- Reisebericht صفحـة ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣) . ان الجـزء الشـرقي والجنوبي كلّه لمنحـدرات جبـل حوران كان شبيهـاً «بـالحـرّة»، أعني أن سطحـه مغطى بعبـاءة متكـاملة من الحجـارة. فسكـان الاجيـال السـابقـة جمعـوا تلك الحجارة الى كومات أو الى صفـوف (حـدود) طويلة . ابتـداء من قمة الجبل حتى البادية . وكانت الحجارة بالوقت نفسه تشكـل حدوداً للحقـول المحـدثـة . وعلّمت على الأرض حدود كل واحـد من هذه المـواقع المأهـولـة . وكلما اتجهنـا نحو الجنوب الشرقي والجنوب، تصبح كومات الحجارة أصغر وأكوام الحصى أكبر. والمنطقة كتحصيل حاصل تصبح أكثر قابلية للسكن . فالأراضي الواقعة بين «امتـان» و«عنـاق» (inak) هي بمثـابـة فردوس . والأمـر نفسـه، عن المسـافـة الممتـدة بعد ساعة سير، من شمال شرق بصـرى وحتى أم الجـمال، هذه الأقسـومـة من المنحـدرات في الشرق والجنـوب تحتـوي على حوالي ٣٠٠ قريـة ومـدينـة مهجـورة. أما المأهول منها فعددها ١٤ موقعـاً: ست استعمـرت منـذ زمن بعيـد مثـل: (شقـا ـ الهيث ـ الهيات ـ الجنينة في الشمال الغربي والقريا في الجنوب وبصرى في الجنوب الغربي)، وسبعة مواقع سكنها خلال السنتين الأخـيرتـين أسـرة القلعـاني المغـامـرين مثـل: «الـرضيمـة ـ ثيـما ـ دومـا ـ تربـا ـ أم الـرواق ـ المشنف ـ بوسـان) . ولابـد من ادراك الأمـر التالي: قطن في مدينة «بوسان» التي عدد سكانها ٨٠٠ نسمـة تقـريبـاً، ١٢ عائلة وفي «المشنف» ١٨ عائلة، وفي «ثيـما ودومـا» ١٦ عائلة تقـريباً، والتصحّـر العـام في هذه البـلاد يفـرض التساؤ ل لمعرفة ما هي الجوانب السيئة التي وقعت في تلك البلاد؟ .

يُعـزي Wetzstein ذلـك الى الجـراد، وقـد تمكن من مشـاهدة الاعداد الكبيرة منه، فقد كانت تكـرر زيـارتهـا للبلاد كل ثلاث أو أربع سنوات . وأيضاً الى نقص الامطار الذي يفقد ثلاثة محاصيـل من أصـل اثنتي عشـر. وأخيراً وبصورة خاصة، البدو الذين كانوا يغزون للسلب جميع المناطق القابلة للثلم في السهل. ومهما كانت القيمة التي تعطى اليوم لهذه الاستنتاجات الموجزة فإن التصحّر أمر واقع .

ربـما توافـد أجـداد سكـان الجبـل الحـاليـين عام ١٦٨٥ ليقيموا على تلك الأراضي المـرتفعـة. (مـوسـوعـة الاسـلام ـ مقـالـة الـدروز) فقـد كانت لبنـان مثـان من الأسر الدرزية (ربما ١٥٠٠ فرد) بسبب اضطهاد الاتراك لهم . قال (ماسكل عام ١٩٤٤) وقد توطنوا بين الأهالي المسيحيين القدماء المبعثرين بصورة خاصة على الطرف الشمالي الغربي من الجبل . وفي عام (١٧١١) على أثـر نزاع وقـع بين الـدروز أنفسهم في لبنـان اضطـر الفخذ الذي كان يلقب باليمنيّن الى الهجـرة للجبـل، وقـد بسـط الأمير الجديد «حمدان الحمدان» سيطرة الدروز على كامـل الجبـل، وخصص للوافـدين الجدد الأراضي والبيوت المجانية، شريطة أن يكونوا من

الدروز[*]. وفيما بعد، قدم وافدون جدد من جميع أنحاء سورية، طامعين في الحرية التي كان يتمتع بها السكان، استمر هذا الوضع حتى عام (١٨٥٢)، وهو التاريخ الذي خضع فيه الجبل الى جباية الضريبة، بعد انتهاء القتال مع القوات التركية الذي بدأ عام (١٨٣٨).
ومنذ ذلك التاريخ كان مرد ازدياد السكان الدروز يعود بالحصر تقريباً، الى النمو الطبيعي.
وفي نهاية عام (١٨٨٠) أصبح تعداد الجبل (٢٧٤٥٠) نسمة حسب XIII, 2 DPY Hartmann) صفحة ٦٢) في هذه الفترة تبين بأن الجبل بدأ بالنمو السكاني ولكن بكثافة أقل في الأراضي المرتفعة، فقد تعممت على المنحدرات زراعة الحبوب بأنواعها، الكرمة والأشجار المثمرة. وهذا غير مستغرب، إذا علم بأن الدروز نقلوا معهم تقنية زراعة الكرمة والزيتون - الاشجار المثمرة التي كانوا يمارسونها في لبنان، وهكذا أعيد أولاً الاستيطان في القسم الغربي ثم في سفوح الجبل الشمالية.

أثبت الرحالة تلك الموجات المتعاقبة من المهاجرين الذين استوطنوا القرى المهجورة.
كما أظهر «واد ينفتون» في دراسته لتوضع النقوش والكتابات أن الأحجار الأثرية المنقوشة كانت موجودة في الخرائب التي تعود لما قبل وصول الدروز للمنطقة. وفي الواقع فإن بعضاً من أجملها، أعيدت بأمر ليُزيِّن ويُزخرف بها بيوت شيوخ كل قرية شيدت حديثاً، (من ٢٠١٥ الى ٢٠٢١ حجراً في عرمان - ٢٢٠٣ في «تريا» - ٢٢٩٠ في حبران - ٢٣٨٢ في سليم).
وكذلك في بيوت الفلاحين (٢٠٢٢ في الحريسة ٢٠٢٣ في مَلَحْ - ٢٢٤٤ في بوسان - ٢٣٨٥ - ٢٣٨٩ في مفعلة) أو في الغالب جدران الجوامع.

لم يذكر Seetzen (١، ٨١) شيئاً عن سكان قنوات، عند مروره بها عام ١٨٠٥ Burckhardt ص ٨٨) لم يجد فيها سوى عائلتين درزيتين كانتا تقومان بزراعة واستثمار حقول التبغ عام ١٨١١ وأما Buckingham الذي تبعه عام ١٨١٦، فقد علم في حينه بعدم وجود سوى ٥ - ٦ عائلات قاطنة بين الخرائب (صفحة ٢٤٢) و Berggrer (١١ - ٦٦) اشار الى وجود ٣٠٠ ساكناً عام ١٨٢١ أغلبهم من الدروز مع بعض العائلات المسيحية، بهذا نستنتج بأن استيطان «قنوات» تجدد في بدء القرن التاسع عشر والرحالة التالون يشهدون بنمو القرية وازدياد عدد قاطنيها. لم يعط بتلر عام ١٩٠٠ أرقاماً بل ذكر في الصفحة (٣٤٦) بأن القرية الدرزية الحالية ليست كبيرة، فبيوتها متفرقة نوعاً ما، وهي محاطة بحقول الكرمة الجيدة وبالبساتين وشجيرات الزيتون التي تزرع في الأجزاء المتوسطة والمنخفضة للمساحة القديمة المغلقة، وكانت الاطلال كثيرة، لكن انقاضها ازيلت في الأجزاء المأهولة لتستخدم في بناء بلاطات السطوح والجدران الفاصلة بين منشآت مختلف الملاكين (وهذا ما أشرنا اليه في PL. 11)

يروي «بتلر» أيضاً (ص ٣٢٥ - بعثات من ١٩٠١ - ١٩٠٩) أن «الكفر» لاتحتفظ بأي بناء روماني ولكن اجزاء جميلة جداً من العصر الروماني ما تزال متوضعة في جدران البيوت



اللوحة ٣ ـ استيطان الدروز في المواقع القديمة من قنوات

صورة فوتوغرافية جوية من قبل الطيران الفرنسي للشرق (كليشة رقم ٨٠٨ تاريخ ٢/ ٩/ ١٩٣٠) اخذت تماماً جنوب قنوات يشمل الأراضي الحقلية المزروعة بالكرمة والبعض منها لايزال حديثاً. والتوطن لا يزال مستمراً من قبل العائلات الدرزية في قنوات ـ الوادي جاف ـ الطرقات بدائية فردية ـ حدود الحقول القديمة ـ جدران مهدمة وكومات من الاحجار محددة بأشجار السنديان القرمزي قطع الأرض القديمة المتداخلة قسمت الى حقول أصغر بنتيجة القسمة التي اعتادتها العائلات الدرزية.

الـدرزيـة، وفي الـوضـع يشـاهـد في قريـة «سـالـة»، حيث يوجـد أيضـاً عين ميـاه من العصـر الـرومـاني. وفي «بـوسـان» التي هي قريـة صغـيرة وحـديثـة. تلتصق في اسفـل الخراب. امـا البيـوت في الهضبـة فكـان قد أعيـد بنـاؤ هـا بصـورة متـقطعـة في بدء الـفتـح الاسـلامي ولكن القليـل منهـا آهـل بالسكـان. أمـا عن «المشـنـف» الـتي كانـت تدعـى Nela فقـد اورد بيـتـلر بأن تلك (الحـاضـرة الـقـديـمـة) المقـفـرة بالكـامـل تقـريبـاً، يتـواجـد فيـهـا معبـد صغـير وجميـل. وابنيتهـا القـديمـة الأثـريـة تشكـل مدينـة ذات حجم مرمـوق ـ أمـا قريـة «تـربـا»، فقـد تجدد سكنهـا بالكـامـل تقـريبـاً من قبـل الـدروز، وهكـذا ايضـاً قريـة «تيـما» الـتي تدمّـر فيـهـا جميع المبـاني في سبـيـل اشـادة بيـوت جديـدة، أمـا «دومـا» فقـد اصـابهـا نفس المـصـيـر، بما فيـهـا البـيـت الأثـري الجـمـيـل الـذي درسـة الـسـيـد Vogüe منـذ أربـعـين سنـة. ومـقـابـل ذلـك ما زالـت «المـالـكـيـة» ـ عام ١٩٠٩ ـ قفراء خالية.

وأصـبـحـت «طـفـحـة»، الـتي كتـب عنهـا بيـتـلر، بكـونهـا مهـجـورة خلال زيـارتـه الأولـى عام ١٩٠٠، صعـبـة الـدراسـة عام ١٩٠٩، خلال زيـارتـه الثـانيـة، لأن الـدروز اعتمـدوا دون تعـديـل يذكـر نظـام البنـاء لسـابقيهم القـدمـاء وكـذلـك بيـوتهـم المحـدثـة هي نفس طراز هيـاكـل الابـنـيـة الآثـاريـة القـديمـة جداً، تقـريـبـاً، من حيـث مواد الـبـنـاء الخـام (ص ٣٤٤). ان خربـة «الخـصـين» الـواقـعـة جنـوب «نـمـرة». و«طـفـحـة» في الـوادي المفـتـوح باتجـاه قنـوات، هي حاضـرة واسعـة استخـدمت خرائبهـا بصفـة رئيسيـة لإشـادة بيـوت للسكـن. ولم يكـن في مفـعـلة، سوى نصـف دزيـنـة من الـبـيـوت، ولـكـن حسـب بيـتـلر، لا شيء يثـبـت ويـبرهـن على وجـود قريـة قديـمـة في ذلـك المكـان، وحـتـى مدينـة شهبـا سابقـاً (فيليـوبـوليس) ما كانت تشتمـل إلا على مجموعة صغيرة من العائلات الدرزية عام ١٩٠٠.

لا منـدوحـة إذن من الاعتـراف بشمـوليـة هجرة السكان وبالتالي هجرة الحقول قبل استيطـان الـدروز إن Welzstein Butler- De Vogüe الـخ. . أشـاروا الى ان الـدروز اخذوا يسكنـون في الأمكنـة القـديمـة، التي كانت مأهـولـة، حيث وجدوا بوجه الاحتمال، بعض العـائـلات التي استمـرت في التـوطن بعد الهجرة الجماعية للمنطقة. كل شيء كان يحضهم على اتباع نفس خطى سابقيـهم التي ليست ببعيدة (من الانتفاع بالمياه ـ واستخدام الطرق

المرسومة. والحقول المحددة بواسطة الحجارة المعزّلة) واذا كان الكثير من الأبنية قد استخدم لتسهيل حياة المستوطنين الجدد، ومن الحكمة الاستفادة من تقنيتها بالدرجة الأولى. ولم تستخدم الحقول ذات البنية القديمة، وحتى بخسائر قليلة، لذلك يجب التنقيب الآن عن الآثار القديمة التي لا تزال محفوظة ضمن الهياكل البنيانية الجديدة.

٥ ـ آثار الماضي في طبيعة الأراضي الحالية:

اتاحت مشاهدة طبيعة الأراضي الحالية تحديد معالم وحدات الأبنية ذات الخصائص المفيدة. ويمكن الآن الاشارة الى آثارتوطن الأراضي القديمة، واحدة، واحدة. في جميع القرى الدرزية، ونفس الوضع يشاهد في قرية «ساله»، حيث توجد أيضاً عين مياه من العصر الروماني، وفي «بوسان» التي هي قرية صغيرة وحديثة تلتصق في أسفل الخراب، أعيد بناء بيوت الهضبة جزئياً في بداية الفتح الاسلامي، ولكن القليل منها آهل بالسكان. أما عن «المشنف» التي كانت تدعى «Nela»فقد أورد بتلر بأن تلك (الحاضرة القديمة) مقفرة بالكامل تقريباً. يتواجد فيها معبد صغيرة وجميل. وأن ابنيتها القديمة الأثرية تشكل مدينة ذات حجم مرموق. أما قرية «تربا» فقد تجدد سكانها بالكامل تقريباً من قبل الدروز، وهكذا أيضاً قرية «تيما» التي تدمر فيها جميع المباني، في سبيل اشادة بيوت جديدة. أما «دوما» فقد أصابها نفس المصير، بما فيها البيت الاثاري الجميل الذي درسه السيد Vogue منذ أربعين سنة. ومقابل ذلك مازالت «المالكية» عام (١٩٠٩) خالية قفراء.

وأصبحت «طفحة»، التي ذكرها «بتلر» بأنها كانت خالية مهجورة قبل زيارته الأولى عام ١٩٠٠ بسنوات صعبة الدراسة عام ١٩٠٩ لأن الدروز اعتمدوا دون تعديل يذكر، طرق البناء التي آلفها أجدادهم السالفون فجاءت بيوتهم مماثلة تقريباً للمباني القديمة ذات الهياكل البدائية (صفحة ٣٤٤). ان خربة «الخصين» الواقعة جنوب «نمرة»، و«طفحة» في الوادي المفتوح باتجاه قنوات، هي حاضرة واسعة، إطلالها مؤلفة بشكل رئيسي من بيوت للسكن. ولم يكن في «مفعلة» سوى ستة بيوت ولكن (حسب Butler) لا شيء يثبت ويبرهن على وجود قرية قديمة في ذلك المكان. وحتى مدينة شهبا (سابقاً فيليوبوليس) ما كانت تشتمل الا على مجموعة صغيرة من العائلات الدرزية عام ١٩٠٠.

بواسطة مراجع المؤلفات أن ترسم خريطة (راجع دوسو) عن المستوطنات وعن الآثار المكتشفة في المنطقة، وقد أمكن بالنسبة لبعض المواقع المدروسة، تحديد تاريخ الاستيطان

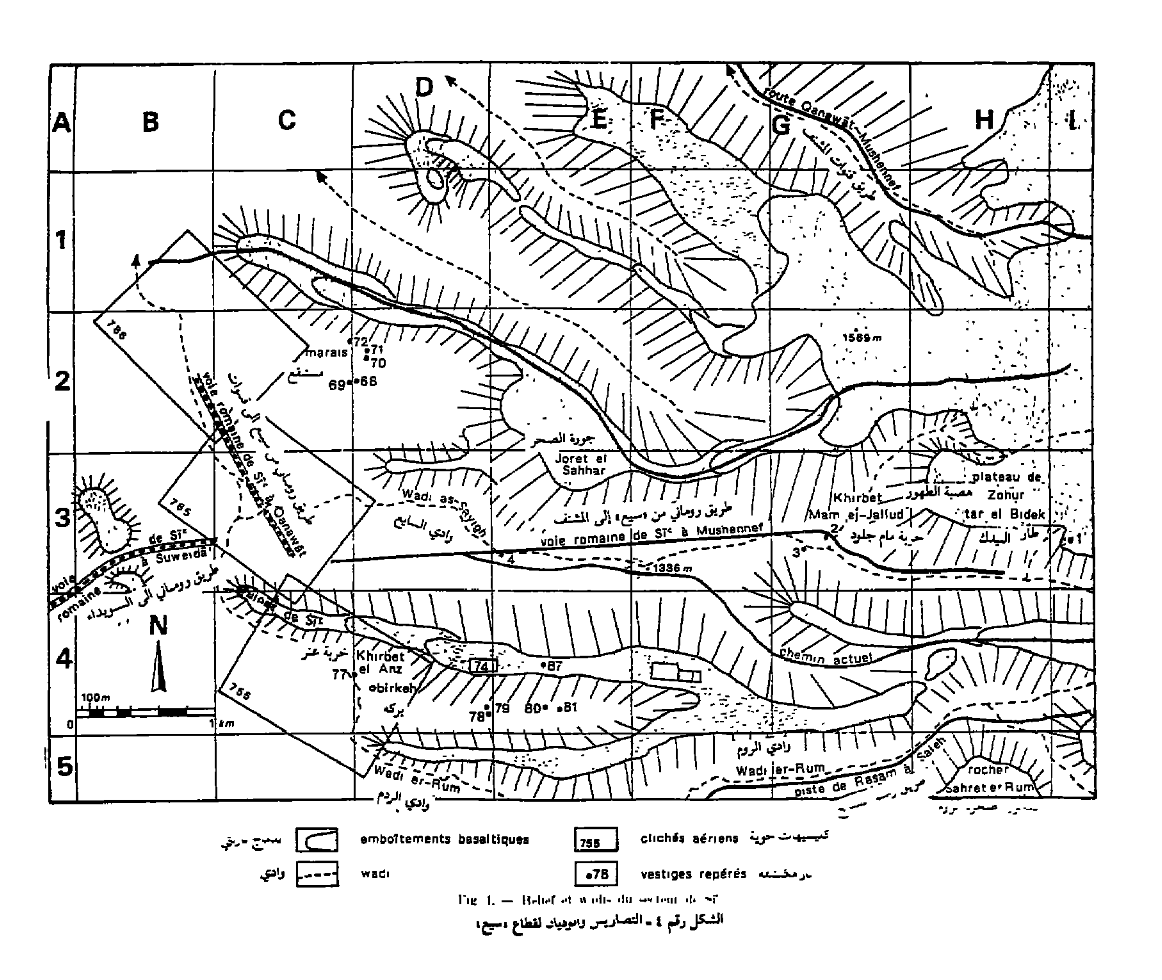


Fig. 4. — Relief et wadis du secteur de Sīʿ

الشكل رقم ٤ ـ التضاريس والوديان لقطاع «سيع»

المنظور. ومع ذلك وبسبب انعدام التنقيبات والبحوث المنهجية لا يمكن التأكد من ان تعيين التاريخ المعطى يتفق تماماً مع المدة الحقيقية لاستيطان الموقع. لهذا تكون الخريطة غير دقيقة وغير مكتملة. إلا أنها تفيد في صورتها الراهنة، عن وجود فترات طويلة من الاستيطان، فآثار عصر الصخور الكلسية والعصر البرونزي والحقبة الاغريقية والحقبة النبطية ثم الرومانية والحقبة البيزنطية والحقبات الاسلامية قد اكتشفت منذ أمد بعيد. أما ملاحظات الرحالة وعلماء الآثار المتراكمة، فقد أعطت سلسلة من النقاط بالنسبة للأرض وسلسلة من السمات بالنسبة للزمن.

ولكن ما ترك بدون جواب حتى الآن سؤالان مشتقان من ملاحظاتهم الدقيقة المنتظمة بآن واحد سواء من حيث الزمن أو من حيث الفراغ (أبنية ونقوش).

ـ السؤال الأول: ما هي الطريقة التي بموجبها تم المرور على كل من هذه المواقع من وقت لآخر؟ هل كانت المنطقة مأهولة باستمرار؟ ما هي مدة الانفصال والهجرة ان وجدت؟ ان الحقبات التي كانت كثيرة الاستيطان يمكن ملاحظتها بسهولة أكبر من ملاحظة حقبات الانحسار نظراً لوفرة الآثار التي تركتها.

ـ السؤال الثاني: ما هو مدى توسع الاستيطان البشري الذي ارتبط بالتوطن الدقيق المستنتج خلال كل حقبة من تلك الحقبات؟ هل يمكن العثور على عناصر تعود لطبيعة زمن العصور القديمة ولآثار الأراضي القديمة وطرق استيطانها؟.

فالجواب على السؤال الأول يخرج عن اختصاص الجغرافي. أما الجواب الثاني بالمقابل فيجب ألا يفوته تماماً، ونحن سنسعى في الصفحات التالية، أن نجد ما يتيح الحصول على فكرة انماط المعيشة في الماضي.

تبقى دراسة الصور الجوية مع ايضاحاتها الطبوغرافية هي الأساس بالنسبة لأجزاء المنطقة التي غطتها تلك الدراسة، فكليشهات الصور التي التقطها الطيران الفرنسي في الشرق، يتيح الحصول على منظر جزئي ولكنه ثمين جداً لأراضي طبيعية مصورة خلال اعوام (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) اذا ما قورنت مع طبيعة الأراضي الحالية، يصبح بالامكان اظهار التطور الحديث والسريع الذي شوه كثيراً من الآثار التي كانت ما تزال مرئية لخمسين عاماً خلت، أو قضى عليها.

اذن بواسطة هذه الدلائل الأولية، يمكن السعي الى استكمال المعرفة العامة لهذه المنطقة. فالنجاحات المحققة في الوصف وفي التسلسل التاريخي للخزفيات التي عثر عليها

اثناء التنقيب بفضل (عمل وحدة البحث والدراسة رقم (٢٠)، أتاحت تحديد العقبات التي يجب أن يُنسب لها المساكن التي يئمها الزوار.

ان المعلومات الملتقطة من جراء التنقيب الجغرافي الذي تم في ربيع عام (١٩٧٩) في المنطقة، قد أمكن جمعها ضمن مجموعتين: المواقع المسكونة مهما كانت طبيعتها. وآثار التوطن الزراعي للأراضي الذي سبق العصر الحالي، مهما كان هذا الزمن، وضمن هذا الاطار سيمكن العثور عليها فيما بعد، ومع ذلك من الضروري، التنويه بأنه في خريف عام (١٩٧٨) أجري تنقيب مفصل لمحيط منطقة سيع وقنوات، وقد أتاح الطابع المميز لهذا التنقيب لكونه محدود المساحة المدروسة، وضع قواعد العمل.

٥ ـ ١ التنقيب خلال عام ١٩٧٨ حول موقع «سيع وقنوات»:

تناولت التنقيبات موقعاً محصوراً مساحته ٤٠ كم² منها ٧ ـ ٨ كم² درست بكل دقة. وهي مساوية لما بين القرى من مساحة منبسطة نسبياً. وبارزة بروزاً جلياً.

كان غرض هذا التنقيب مزدوجاً، من جهة، التحميل على الخريطة بقدر ما يمكن الآثار المنبثقة منها وخاصة مختلف أنواع ونماذج البناء، ومن جهة أخرى الاستفادة من الحقبة الطويلة من هجرها والانكفاف عنها والتي عقبت استيطانها القديم، لمحاولة العثور ضمن طبيعة الأراضي الحالية، على نوعية الاستيطان القديم وخاصة الزراعي منه. . رغم عودة تأهيلها الحالي القصير الذي ازدهر منذ اكثر من قرن.

ان روايات الرحالة الذين زاروا موقع «سيع» خلال القرن الأخير كانت تجيز حقاً الافتراض بثمرة ذلك البحث، وبالفعل فقد كانوا يقولون بأن العديد من الخرائب القديمة، كانت من جهة منظورة للعيان وشهدت استيطاناً قديماً في هذا الحيز الكثيف نسبياً، ومن جهة أخرى فإن تلك الآثار وما يحيط بها كانت مقفرة ومتروكة لشأنها، لذا كان الوضع مناسباً جداً وبشكل مسبق لدراسة البنى الأثرية القديمة.

في الجنوب الشرقي من «قنوات» على طرف تلة ذات منحدرات وعرة، نشاهد موقع «سيع» القرية الخراب، بمثابة كومة من الصخور الكبيرة البازلتية. وبما أن الخرائب كانت قديمة جداً. فقد كانت موضوع نشر عام (١٨٦٢) (السيد Vogüe) وعام ١٩٠٩ السيد H. C. Butler لنلتفت الى ماروراه Mascle عنها بعد زيارته لها عام (١٩٤١) في مدخل المدينة اكتشف الطريق الرومانية الذي كان يقود الى المصايد: وعلى قمة التلة فتحة بركانية ربما أوجدتها اليد العامل، لاستخدامها كبركة عامة للمياه هذه البركة التي لم تتشوه رغم طول الزمن.

في داخل ما تبقى من الجدران يوجد مجموعة من البيوت التي تهدمت أقسامها العليا؛ وكأنها تهدمت من جراء هزات أرضية عنيفة. فالطوابق السفلية هي من الحجارة الكبيرة سيئة

التقصيب موضوعة على ربط حجري وثيق كانت الغرف ضيقة وقليلة الفائدة. أما السقوف فهي من الصفائح (الربض) البازلتية خشنة الصقل ترتكز على قناطر مشكلة السطح.

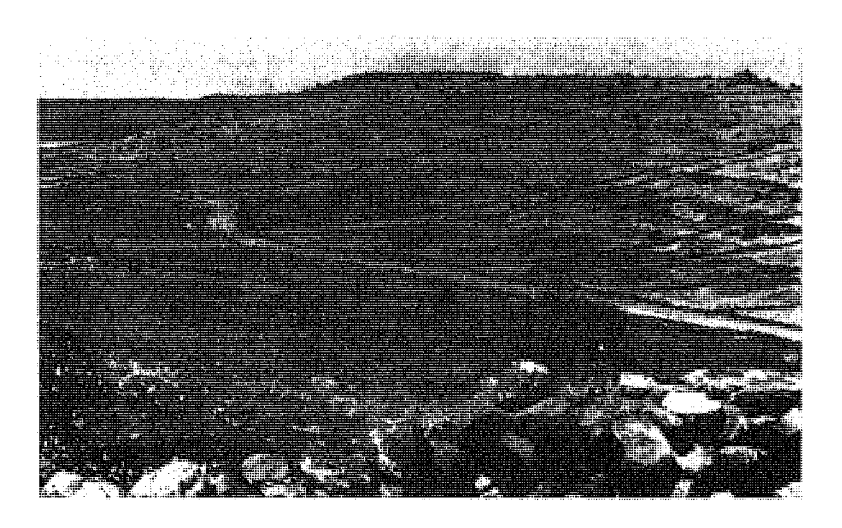
٥ ـ ١ ـ ١ استمرار طبيعة الأراضي الزراعية في محيط سيع (من حدود للحقول والآبار الترسيبية)

السمة الأكثر اثارة في الطبيعة، هي شمولية الجدران المؤلفة من حجارة صلبة على قمم التلول وعلى المنحدرات، وفي أسفل السفوح (اللوحة رقم III)، وهناك جدران متهدمة ـ جدران مبنية ـ أحجار بكومات ضخمة. أو صخور حجرية ذات مكاسر طرية. تلفت النظر، وتجعل السير عليها بطيئاً. وليس هناك حقل دون جدران تحيط به وبالتالي ليس من طريق للدخول الا وقد شق بين جدارين يصل ارتفاعها أحياناً الى مترين أو ثلاثة والسبب بذلك يعود لطبيعة الأرض. ان الاندفاعات الحممية البازلتية من عهد النيوجيني (N2) تشكل أهم تضاريس المنطقة من البازلت القديم ويعود تاريخها الى منتصف العصر البليوسيني إذن الى ٥ , ٤ ملايين سنة تقريباً والتي بسبب التحات كونت تلولاً تتدرج ارتفاعها تنازلاً من الشرق (١٦٥٠م) الى الغرب (١٢٠٠م) في قنوات. (٨٠٠م) عند أسفل جبل الدروز. وقد نتج هذا البازلت بسبب الانتشار المتتابع للاندفاعات الحممية القليلة الكثافة، الى ميلان ضعيف (٣ درجات تقريباً) وكل صهارة منها تضيف نتوءاً على طول السفوح.

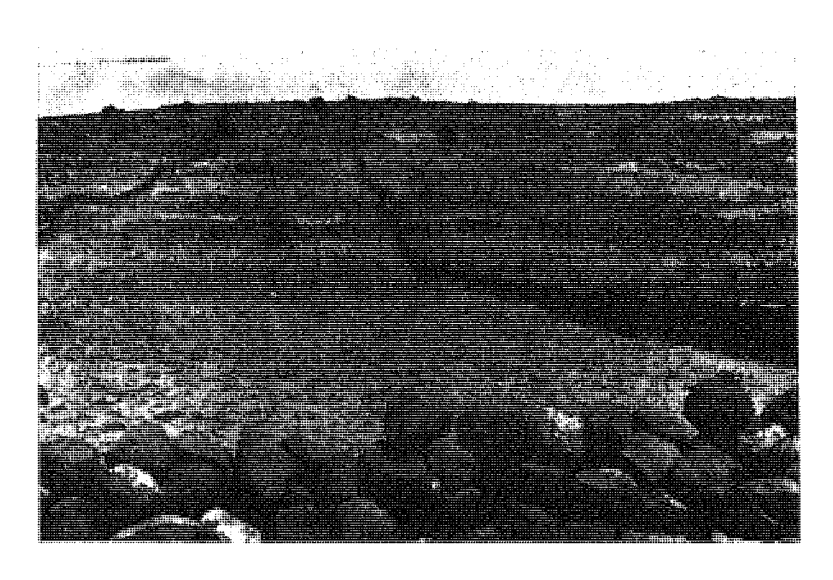
وهكذا يصبح المنحدر سلسلة من النتوءات المتتابعة التي غالباً ما تكون مقنعة (محجوبة) بالصخور التي تبرزمنها. ان كثير من الظواهر الطبيعية ساعدت على تغطية الأرض بالصخور من كافة الاحجام، وكذلك بالحصى، كما أن الكثافة الخفيفة للتحولات في الهضبة في الشرق ـ الشروط الموضوعية المميزة التي توفرت لقطع الاندفاعات الحممية المكونة للصخور الموشورية ذات المظهر المماثل في أسفل السفوح. إن النسبة الكبيرة في عناصر الطمي الناعم المشكلة أيضاً للنتوءات الناتجة يُسبب الانجرار السهل بفعل جريان المياه القوية خلال ستة أشهر من السنة (ان نصف الكسر الناعم، الذي يدخل ضمن تكون الأراضي هو من قياس نسبة الحبيبات المساوي لقياس الطمي الناعم أو لأدنى درجة).

إن التنمية الزراعية تقتضي توفر العناصر الدقيقة للتحولات الحممية. وهذه بدورها يتطلب انشاء مساحات قابلة للزراعة بعد رفع الحجارة لأول مرة، ومن الواضح أيضاً ان كل تحسين أو كل توسع لا يمكن اتمامه الا بمتابعة الجهد المباشر به.

ينبثق عن هذا العمل نتيجتان مهمتان لتكوّن الأراضي الزراعية، من جهة تعزيل الصخور وتكديسها (أو تراصفها) في هذا المكان أو ذاك ليثبت بصورة مطلقة تقريباً ترسخ



آ) صورة لوادي «سيع» شرق التجمع عند الإتجاه نحو «المشنف» كليشة ب . جانتيل



ب) وادي جنوب «سيع» شرق التجمع عند الاتجاه نحو «صالح» ـ كليشة ب . جانتيل



لوحة ٤ ـ كومات احجار الاستصلاح جدران وطرق تعود الى قطاعات أرضية قديمة بين «الرشيدة وبوسان» حسب الكليشة الحديَّة ٥٦٥ المأخوذة في ٢ حزيران ١٩٢٩ في الساعة الثامنة على ارتفاع ٢٦٠٠م. (قائد الطائرة سلفستر ـ المراقب بروار مقياس ٥٠٠٠/١ تقريباً

المناطق المفيدة، ومناطق تكديس الانقاض (اللوحة ٤)، والذي يفكر بنقل كومة من الحصى يعتبر أخرق بنظر الفلاحين (أين سيضعها ويكدسها اذن؟) وبمرور الزمن تتعاظم كومات الأحجار أو كومات الجدارن - ومن جهة أخرى يتطلب تحضير واعداد مساحة قابلة للزراعة، تعزيل الصخور والاحجار الكبرى من الأرض في بادىء الأمر، وعلى الأقل ما يمكن نقله، مع الأخذ بعين الاعتبار القوة التي تقوم بذلك، وحصر المساحة الواجب زراعتها أو انباتها. ولذلك ازيحت الصخور الى اطراف الحقل المزمع انشاؤه أو جمعت أكواماً في وسطه، والعمليتان كانتا تتمان بالتتابع أو في آن واحد (اللوحتان ٤ و٥ أ - ب) لذلك يعتبر وجود الصخور الكبيرة في أسفل الحائط أو الكومة كأمر مسلم به، وبالمقابل، لا بد من الاشارة بأن استخدام البلدوزر وحده فقط كفيل بتغيير طريقة العمل الذي سبق أن كان يتم انجازه عادة باليد. ان حجم الصخرة أو الحجر الكبير المسمى هنا، هو تقريباً ثابت، وأعظم هذه الاحجام (٦٠× ٦٠× ٦٠سم) أو ما يقارب هذا الوزن ويصل الى نفس الحجم (٢, ٠م³) والوزن (٤٠٠ كغ تقريباً) اذا كانت كثافته تقارب ٢ (اللوحة ٥ - ب) كما توجد صخور اكبر ولكنها لا تنقل على ما يبدو، الا في ظروف خاصة، مثلاً (لإبعادها من ساحة الحقل، أو لنقلها لحاجات هندسية) (انظر اللوحة الثانية).

ترفع الاحجار الصغيرة بدورها، وقد يتم رفعها مع الأحجار الكبيرة وهو أمر سهل، إلا أن ملاحظة مختلف الاكوام الحجرية تبين بأن كلاً منها قد تم بناؤه، مع العلم أن تكديس الصخور ورصها يجري بطريقة منظمة(*) أما تبيان ذلك في انشاء الجدران فهو أمر سهل، لأنها تقع تحت الحواس. ومن العبث العمل على حفظ التوازن بوضع الصخور على الحجارة الصغيرة، أما مايتعلق بأكوام الحجارة الواجب تكديسها، فلا يتم بشكل عشوائي طارىء، إذ لا بد من قرار لكيفية نقلها حيث تصادف في القاعدة السفلية للكومات احجار كبيرة أو صخور مسطرة، سواء بشكل دائري أو مربع أو بشكل مستطيلات كبيرة حتى ان الفراغ الواجب إملاؤه بالاحجار الكبيرة لا يحدّد مسبقاً، بل تترك لتتوافق مع الكمية الواجب اخلاؤها (اللوحة ٥ - ج). ان صفوف الاحجار الكبيرة يمكن صفها فوق بعضها، وهي بمجموعها من الحجم المتقارب، وكذلك تظهر في كثير من الاحيان رجام حجرية على شكل ركمة مخروطية مسطحة - وفي مراحل لاحقة تتطلب عملية ثانية من رفع الاحجار بعد انقضاء زمناً من الوقت أو حين البدء باستثمار أراضٍ كانت مهجورة يمكن لرجام الاحجار الأساسية أن تحاط بصخور جديدة أو بشحف من الحجارة أو بمختلف انواع الحصى التي تتكدس بدورها في الأسفل، وقد تكون ناجمة عن انهيار جزئي للكومة نفسها أو متأتية من تعزيل مكمل.

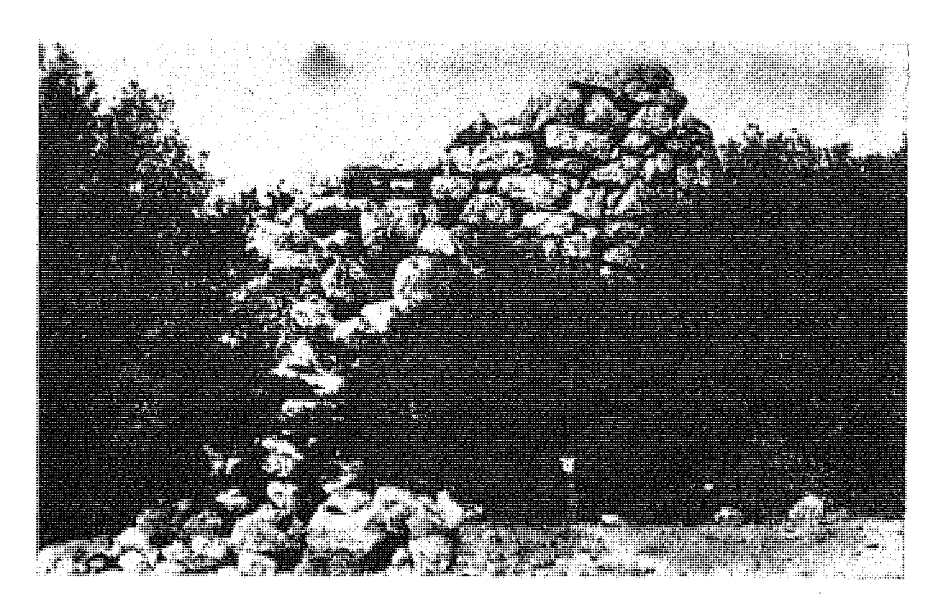
قد أطيل الشرح قليلاً حول الاحجار، لأنها تتوفر كثيراً في المنطقة التي هي قيد

الدرس، ولأنها قدمت أيضاً بُنى معمارية من نوع الرجام، فسرها البعض بالمدافن، ولكن الواقع يفرض التمييز بينهما سيما وأنها متشابهة المظهر. كما اننا سنعود الى دراسة المدافن في الفقرة اللاحقة.

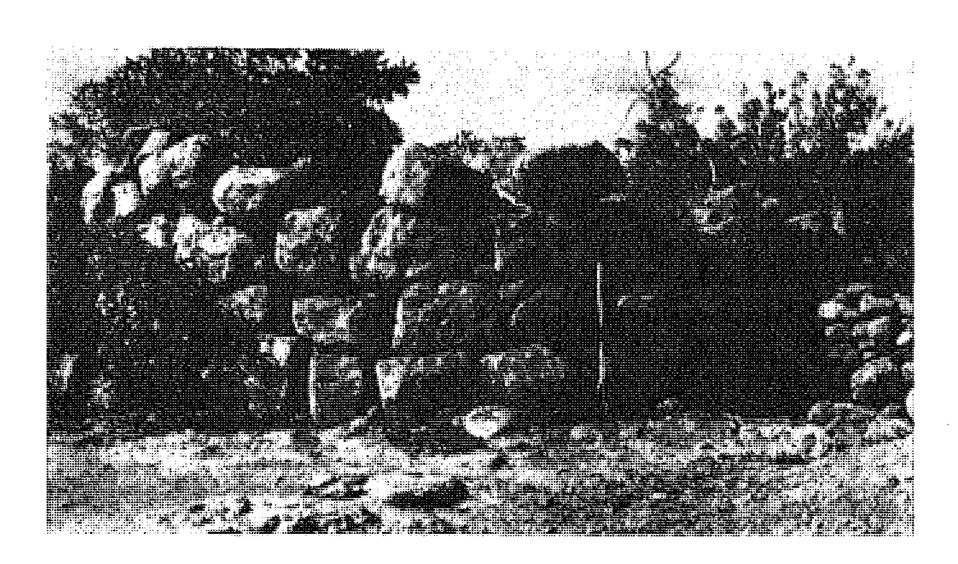
يتميز شكل الأرض الزراعية برفع الأحجار من وسط الحقول، وقد يسلم بأن هذا العمل يحدد المساحات الفارغة التي يمكن الاستفادة منها، اننا لانزال أمام كشف واظهار الآثار علماً بأن رسمه أو حسنوا به ومن الصعب أن تبرهن على صحة هذه الفرضية. بغير العقل والتفكير. لأن الثبوتات المتوفرة هي فقط التي تملي شكل الحقول واحكامها التنظيمية. وعلى العموم فإن المنطقة التي تكثر فيها أكوام الحجارة، تظهر مضلعات غير منتظمة، وتكون فيها علاقة المساحة الكلية مع المساحة المزروعة صغيرة نسبياً، وضعيفة. هذا النوع من الأراضي الزراعية الطبيعية تتفق بدقة مع الجريانات البركانية الأكثر حداثة وهذا ما يجعلها مرتبطة بطبيعة الأرض. أما في الصهارات القديمة حيث تندر الصخور، يشاهد مباشرة الترتيب في تكُون قطاعات أرضية صغيرة تصطف ضمنها صخور البازلت، يشكل هذا الاصطفاف أحد المظاهر الرئيسية الزراعية في المنطقة، ونوه عن ذلك الرحالة «ويتزستن» (راجع سوبرا صفحة ٦٠). يشهد عن الجميع، ولا شيء يحسن ابراز عموميات وبنى هذه المنطقة، إلاّ الصورة الجوية (اللوحة السادسة).

٥ ـ ١ ـ ٢ المدافن بجوار موقع سيع وقنوات

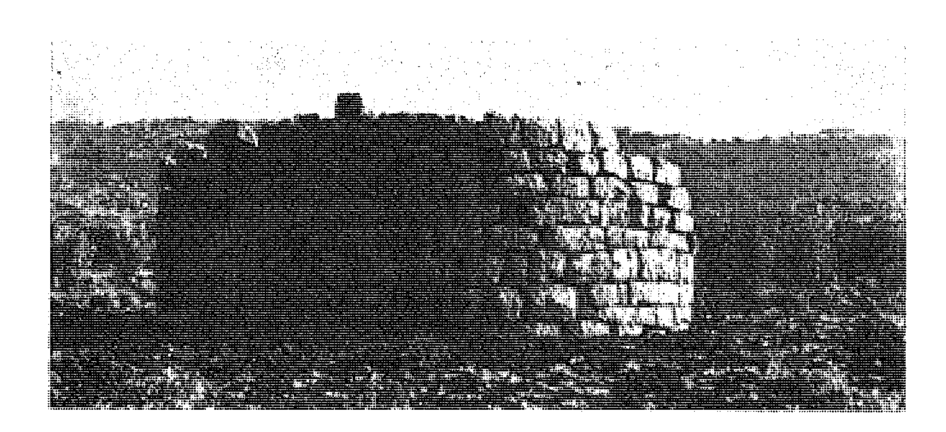
ان النموذج الذي كان سائداً في بناء القبور هي تلك الكومة المستديرة من الحجارة التي تعلوه، بقطر يتراوح بين ٤ ـ ١٦ متراً وارتفاع أعظمي يصل الى ٤م. (اللوحة الخامسة آ واللوحة السادسة). وهو مبني من أحجار كبيرة (٦٠× ٦٠× ٦٠) ذات أشكال هندسية تقريبية، وذات زوايا وسطوح مستديرة. وهي كناية عن أحجار مقتطعة من حصائر الاندفاعة الحممية التي خضعت زمناً طويلاً لعامل النحات، واستخدمت في بناء القبر كما هي. كما أنها مرتبة غالباً بصفين، بشكل تبدو فيه كل واجهة جدار على نوع من الانتظام. أما الركائز (المداميك الأساسية في الجدار) فإنها ترتد قليلاً عن بعضها البعض، لتشكل رسماً منحنياً. أما الداخل فهو فارغ سواء كان صف الجدار الداخلي كافياً أم وضع عليه كما في الرجام الكبيرة: ترتيب من الحجارة الجيدة التقصيب بشكل مستطيل ومتصل، ليتشكل منها مربعاً أبعاده ٥٠, ٤×٥٠, ٤م وعلى الغالب (وصف هذا النموذج من قبل (بتلر A-11- PPUAES صفحة ٤٠٠) وفي جميع الاحوال، يوجد عامود وسطي مستدير الشكل (بقطر ٦٠ سم) يحمل بلاطة الاغلاق المركزية التي ترتكز عليها بلاطات منحنية، محمولة بدورها على ركيزة



٥ ـ آ برج ضمن غابة سنديان الكرنس في الجنوب الغربي من «سيع»



٥ ـ ب برج بقرب الطريق الروماني «سيع ـ السويداء» على مسافة ٤٠٠ م تقريبا غرب «سيع»



٥ -ج برج مستدير بين «سيع وقنوات» كليشة ب. جانتيل.



٦ ـ آ   برج مُدمَّر في الجنوب الغربي من «سيع»



٦ ـ ب   اكوام من الاحجار في وادي قرب خربة العنز



٦ ـ ج   حائط قديم يحاذي الطريق (الطريق الروماني) الزاحف من «سيع الى المشنف» كليشة ب . جانتيل

حجـريـة جيـدة النحت بشكل خاص، لتصبح بشكل «خرجة» (en Corbellement) وحول البنـاء المغلق على نفسـه وبـدون أي نافـذة، أضيف أحجار من قطع صغيرة ممزوجة بالطين لتغطي منـذ الأسـاس كامـل بنـاء القبر، أما اليوم فالطينة لا تحمي سوى القسم السفلي من البناء، وفي نموذج من قبر آخر مجاور له نفس الأوضاع الداخلية، فإن الكسوة الخارجية المبنية من ركـائـز حجرية جيدة التقصيب، لها منظر البرج. . وبناء على ذلك، ومن خلال مرحلة التنقيب الحالية، لايمكن تمييز المخطط الداخلي للقبور الذي في أغلب الحالات، هو مؤلف من غرفة مستديرة أو مربعة.

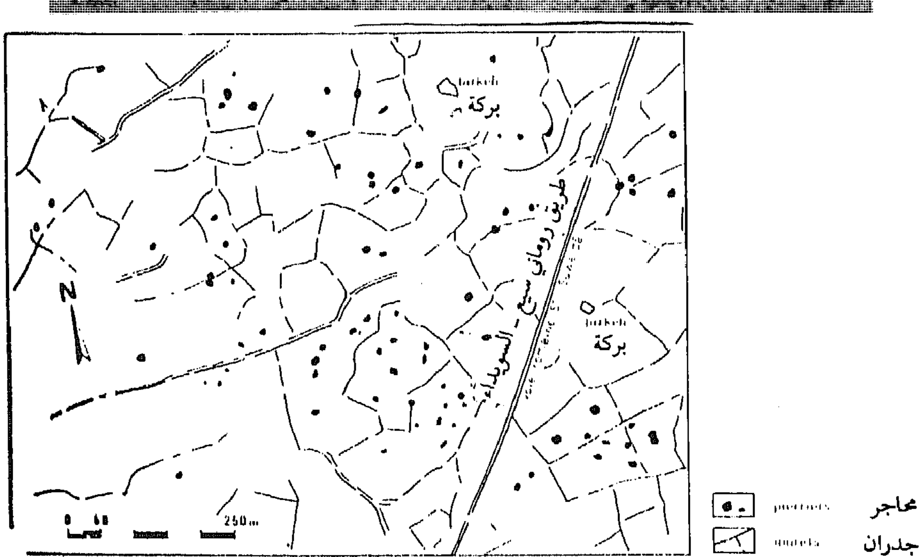
تمّ احصـاء (٧١) قبراً مستديراً ولكن رغم الاهتمام بهذا الكشف، لايمكن التأكيد من أن عدد القبور من هذا الطراز هو كامل وموجود فعلاً.

يمكن لموقـع تلك المـدافن وبعـدها من الجدران الصغيرة، أن يفيدنا بمعلومة جديدة (الصورة ٥ ـ ٨) وهنا تظهر حالتان: فإما أن يكون القبر في مجمله وسط مساحة بارزة ومحاطة بجدران صغيرة، وأما ان يكون بمحاذاة الجدار، أو تحت الجدار، أو على محور الجدار. على كل حال، لايمكن اعطاء جواب بسيط على السؤ ال التالي: هل المدافن والجدران الصغيرة في المـواقـع الزراعية معاصرة لبعضها البعض؟ فمخططات مواقع القبور وحدود الحقول تبين صحّة بعض الحالات منها. ولزيادة الايضاح يشمل تجمع تلك القبور ثلاث مناطق: قرب قرية «قنوات»، مع طول محور «قنوات ـ سيع»، وحول موقع «سيع» ولوحظ فيها بعد، وجود بعض القبـور النـادرة التي اكتشفت جنـوب موقـع «سيـع». أو على بعد من المناطق المتميزة بالكثافة. وما يلفت النظر في ذلك. هو القبر الموجود في الوادي على بعد ٥ ,٣كم شرق موقع «سيـع». قرب الخـرائب التي يطلق عليها اسم «مـام الجلود» والقبر الموجود على بعد١٠كم شرقاً على قمة التلّة. وعلى مقربة من الطريق الروماني (السويداء ـ قنوات).

يمكن التسـاؤ ل بصـدد بُعد هذه القبور عن بعضها في المنطقة، كما يمكن الافتراض أن بعض العـائـلات كانت ترغب بنـاء مدافنهـا فوق أراضيهـا عوضـاً عن بنـائها قرب قرى «قنـوات وسيـع» ومن جراء ذلـك تبعثـرت المقـابـر في الريف، فكل مالك أرض كان يسعى لامتلاك قبره بصورة منطقية ـ شريطة ان يكون لدى كل مالك وسائل بنائه. تلك الملاحظة تقـودنـا الى التنظيم الاجتماعي للقـرى في عصـر نكـاد لا نعـرف عنه شيئاً. لذا على ضوء معلوماتنا الحالية يجب ألاّ نتبع الملاحظة بالتفسير الفوري.

إن التـاريـخ الـذي عثـر عليـه في القبـور، يمكن استخدامه كتاريخ للظهور والتطور الـزراعي لهذا القطـاع، وهـو تاريخ كوّنت الجدران الصغيرة والرجام المكتشفة معالمه. ولكن هنـاك واقعـة عمليـة ربطت سلسلتـين من هذه الآثار، وهي كون القبور متواجدة في الحقول المستصلحـة برفـع أحجـارهـا، أو كونهـا ضمن رجـام. وما يمكن استخلاصه، ان النتيجة





في الجنوب الغربي لموقع «سيع» يقطع الطريق الروماني «السويداء - سيع» أقسومة من الأراضي برزت قبله. واليوم أصبحت تلك الأراضي الزراعية القديمة مهجورة. وقد عثر على آثار محاجر - جدران - طرق محدّدة - أشجار السنديان الكرمس.

الصورة بمقياس ۱/٥٠٠٠ تقريباً كليشة رقم ۷۹۲ تاريخ ۲/۹/۱۹۳۰ الساعة ۱۰,۳۰

الـزراعيـة كانت مترافقـة باشادة القبور، (وليس العكس)، وبأن نفس الجماعات هم الذين قامـوا بالعمليتـين (فإذا كانت القبور شيّدت بعد الجدران الصغيرة والرجام من قبل جماعات اجتـماعيـة مختلفـة فيصبح من الواجب تفكيك الجدران الصغيرة لاسترجاع الحجارة الكبيرة من اساساتها. وهنا لا أحد يقر بمثل تلك العملية). ولهذا حاولنا اعطاء القبور الأولى صفة الأقدمية بشكل واسع تقريباً. تاركين على عاتق المؤرخين الاهتمام بالوصف والتحديد.

٥ ـ ٢ الموقع الذي تم فيه التنقيب خلال عام ١٩٧٩ في شمال جبل حوران

نتحـدث هنـا عن (٢٧) مسكنـاً، طبيعة ومقياس كل منها مختلفان، وقد أقضينا طوعاً التنقيب في القرى الحالية، وهي قائمة كلها فوق آثار قديمة التاريخ. وكانت تلك الأثارات موضع دراسة وتمحيص منذ القرن (١٩)، ولم يكن من الفائدة السعي لتعميق المعرفة حولها في بـادىء الأمـر، عن طريق التنقيب الـذي قد يناله قليل من الحظ ليصبح أكثر انتاجية من التنقيبـات السـابقـة. ولكن اذا أضيف الى السبعـة وعشـرين هيكـلاً المكتشفـة خلال عام (١٩٧٩)، المـائـة هيكـل، والتي تم كشفها خلال عام (١٩٧٨) حول موقع «سيع وقنوات» وكـذلـك المسـاكن الضخمة البناء والتي تمت زيارتها فقط، يمكن حينئذٍ الوصول الى تغطية المنطقة تغطية جيدة نوعاً ما.

٥ ـ ٣ الطرق الرومانية وطبيعة الريف الزراعي حول سيع

تتلاقى ثلاث طرق مستقيمة نحو «سيع» الطريق الذي يربط «سيع» بالسويداء فهي تجتـاز ريفاً يكاد يكون مهجوراً في هذه الأيام. وقد أمكن مشاهدة الطريق المستقيم، الذي يقتطع قطعة من الأرض ليحتويها (لوحة ٧) ان الطريق المستقيم الذي يتوجه من «سيع» الى «المشنف» عن طريق وادي الصـايـغ، والـذي أمكن تتبعه بالصور الجوية ضمن الأربعة عشر كيلومتراً التي تفصـل هذين المـوقعين، يلاقي على بعد بعض الأمتار طريقاً قديماً كان متطابقاً باتجاهه مع أقسومة الأرض الاقدم منه. وأخيراً تجتاز الطريق الذي ينطلق من «سيع» الى «قنوات» على مسافة (٢ كم) الأقسومة (كما هو ظاهر في الشكل رقم ٥) التي بعد ٩٠٠ متر على الأكثر يتكون فيها انعطافاً صغيراً لتجنب الاصطدام بمانع طبيعي، ولكن ضمن جزء الأرض المنخفضة المنبسطـة حيث لايوجد أي مانع طبيعي يعترض المرور المستقيم للطريق. ان الملاحظة تثبت بأن المخطـط الـرومـاني المرسوم حينذاك، كان يهدف الوصول مباشرة الى المدفنين (١٣ ـ ١٤)، ولهذا السبب اضطر الى الانعطاف، ان الاحجار الكبيرة التي يتكون منها المدفن رقم (١٣) الـوارد في المخطـط، لا تزال موجـودة اليـوم في الجـدار الصغير الذي يحد الطريق الرومانية، والموضوع نفسه ينطبق على المدفن رقم (٣١) الذي هو ثالث مدفن في المحيط المجاور كما هو

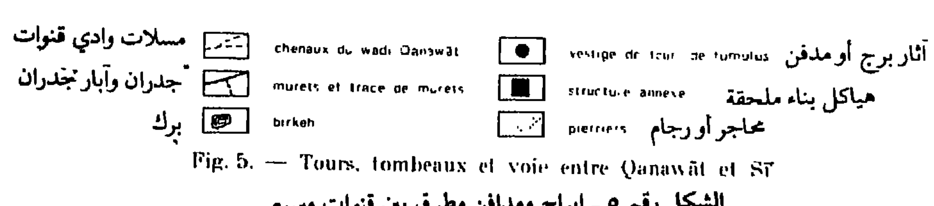


Fig. 5. — Tours, tombeaux et voie entre Qanawāt et Sī'

الشكل رقم ٥ ـ ابراج ومدافن وطرق بين قنوات وسيع

شرق الطـريق. لدينـا بعض الأدلـة التي تُتيـح الافـتراض بأن بعض هذه المـدافن الـواقعة في (وادي «سيــع») قديـمــة، يدل على ذلــك النقش النبطي حسب Res-2033 = Elitman- PPUAES IV A-106 وقد أثبت التنقيب ذلك بوجود تاريخ قديم على مدفنين من تلك المجمـوعـة، (ef-Cral. 1981-P. 98-99, DAM, 2, 1984) P. ooo ان انعطـاف الطـريق يحمـل في ذاتـه الـبرهان القيّم حول الأحداث التاريخية لهذه المجموعة. لذا يمكن الجزم بأن التنمية الزراعية للريف كانت قد ابتدأت مبكرة منذ مرحلة ما قبل عهد القرى.

ولكن هذا لايستثني أن بعض البنى الـريفيـة المشـاهـدة كانت أكثر حداثة. من جهة أخـرى، تبـينّ أن للمـدافن معنى آخـر بالنسبـة للسكان المحليين عند انشاء الطريق، ولولا ذلك، لأمكن التفكير بأن منشئية لم يترددوا في اجتيازها. وهذا يفرض بأن الأمر كان يتعلق بانشاء طريق واسع بدون توطن جديد في ريف لا يزال مزدهراً ومأهولاً بالسكان.

كانت الطرق الرومانية في المنطقة موضوع دراسات عديدة، آخرها التنقيبات التي قام بها. (the Banzout df infra) (ص ٥٥ , ٥٥) ويمكن ان يضاف الى تلك التنقيبـات بعـض الملاحظات فقط دون اضافة آثار جديدة.

ان فحص آثار الطرق المشادة، لن يكون كافياً لمعرفة شبكة المواصلات القديمة، غير أنـه قد يعطينـا فكـرة (غـير كاملة بصـدد التـدمير اللاحق) عن الأهداف التي كانت تبتغيها الهنـدسـة الـرومـانيـة، لدى اشـادتها لهذه الطرق. هل هي هندسة عسكرية أم مدنية أولاً؟ يصعب الجزم بذلك ومع ذلك فالقرارات ليست واحدة، سواء أكانت بموجب هذه أو تلك فإن ثبـات التخطيـط لديهم تبـين أنه توخى، في بادىء الأمر، السرعة في الانطلاق من نقطة محددة الى نقطـة أخـرى محددة، ومـا لوحـظ في المخطـط، يبـين أن «قنوات» هي على نقطة مسدودة (درب) شبه مستقل بالنسبة لمركز «السويداء» الذي يتمتع بأهمية أكبر (الشكل رقم ٦) من جهـة أخـرى تعتـبر «سيـع» محطة على مفرق طريق (السويداء ـ المشنف) (قنوات ـ المشنف) (قنـوات ـ السـويداء). وهذا كله وكأن «سيع» هي من الأهمية الكافية لتكون صلة الوصل بين طريق السويداء ـ «قنوات»، بعد تفادي الربط المباشر بين هاتين المدينتين. تعتبر قنـوات حائـدة بالنسبـة لشبكـة الطـرق الأسـاسية المشادة على عقدة الاتصال (السويداء ـ شهبا، السويداء ـ المشنف) ذات أهمية ولهذا ربطت هذه الشبكة بواسطة محوّلة، هل هذا يقود إلى التفكـير بأن قنـوات هي حاضـرة على جانب الخـط وليس لها صلات حقيقيـة؟ طبعـاً لا، فالعـلاقـات كانت مزدوجـة ولكنهـا لم تكن تدعـو لضرورة اشادة خاصة ومتقنة لعدم ضرورة تحمل مثل هذه النفقات.

هناك محوران تم استخدامهما بكل تأكيد، (محور قنوات ـ عتيل) و(محور قنوات مفعلة) ولايمكن في أيـامنـا هذه استسـاغـة مايمكن اضـافته شيئاً آخر سوى طرقات فردية، فالربط

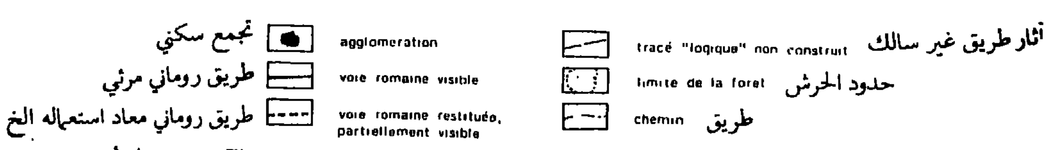


Fig. 6. — Réseau des voies du secteur Suweidā'-Qanawāt-Sī'.

الشكل رقم ٦ ـ شبكة الطرق في قطاع السويداء ـ قنوات ـ سيع

المباشر بين قنوات و«شهبا» لا يمكن أن يفرض نفسه عبر التلال بل لا بد من مروره بصورة مستقيمة باتجاه الغرب. لذلك يمكن رسم سلسلة الطرقات التي مركزها «قنوات»، كما يمكن عرض خريطة للسويداء وللمراكز التي حولها باعتماد نفس المبادىء (انظر الشكل رقم ٦).

٥ ـ ٤ استمرار الطرق الفردية

خلال التنقيب جرى تتبع عدة طرق، وهي حتى الآن، لاتزال تؤمن الاتصال مع المراكز القديمة الثابتة والمعروفة منذ زمن طويل. وعلى العموم لا تزال الخرائب سهلة المنال بواسطة نفس الطرق التي كانت موصلة اليها حينما كانت مأهولة بالسكان. كما يمكن أيضاً أن يعاد بناء القسم الأكبر من تلك الشبكة القديمة، التي حفظ جوهرها سليماً، وبخاصة ضمن المناطق المطوقة والمحصورة، حيث لا يستوجب الامر شق طريق جديد عبر أكوام الحجارة. يشاهد حول كل قرية، ملتقىً لطرقات مختلفة تماماً، تقود الى مواقع محددة، (اللوحة ٨) تصلح هذه الطرقات لسلوك المشاة والدواب ـ الخيول ـ وقطعان المواشي. وهي تقود بشكل مستقيم وممكن نحو الاتجاه المطلوب، ولا يلزمها إلا صيانات بسيطة[٣٥].

لا يزال معظم تلك الطرقات مطروقاً حتى اليوم، ومن المؤكد أن الشبكة قُوِّختْ بكاملها خلال الأربعين سنة الأخيرة، بإدخال الطرق الحديثة التي زفتت غالبيتها بالتتابع، ورغم هذه الحال لا يزال تلامس الآثار السابقة مرعياً، وهويتفق تماماً مع الصورة الفوتوغرافية المقتبسة عنها، التي امكن الحصول عليها أثناء تدقيق كليشيهات الصور الجوية لعام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ (انظر الشكل رقم ٩).

ومن الواضح أنه يصعب تماماً تحديد تاريخ انشاء هذا الطريق، أوذاك، تحديداً دقيقاً. والوسيلة الوحيدة غير المباشرة الممكن اتخاذها، هي المواقع الأثرية التي تصادف سواء في نهاية الطريق أو على طول خط الآثار القديم. أما المواقع المأهولة بالسكان من قرى وضيع وحصون، فهي على الغالب، كانت مسكونة منذ حقبة طويلة من الزمن، وتقريباً بدون انقطاع. ومن المسلم به ان الطرقات التي كانت تستخدم، لا تزال عاملة خلال تلك الحقبات نفسها.

ومع ذلك من الخطأ التصديق بأن سبب حفظ جميع الطرق القديمة، يعود لاستمرار المواصلات بين القرى «بسبب الجوار»، لأن عدة براهين واضحة بانت على الصور الجوية الفوتوغرافية، وعلى الأرض تشير الى العكس.

هناك طرقات قديمة منعزلة عن الحقول بواسطة جدران منخفضة متينة، أصبحت اليوم أجزاءاً متقطعة لعدم الاستفادة منها. رغم التملك الجديد والبناء الحديث.

٥ ـ ٥ الخزانات وجر المياه(**)

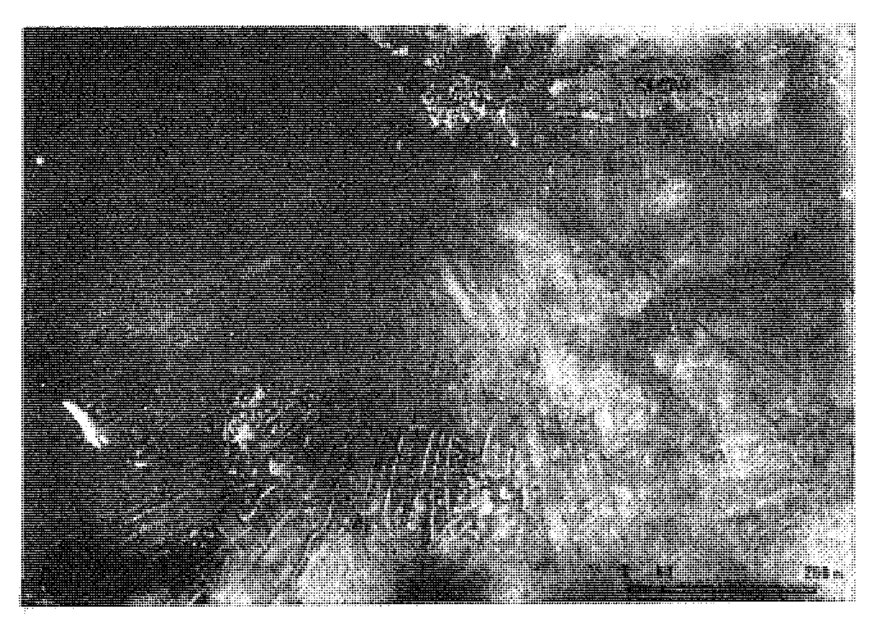
لم يعثر على أي آثار لمشاريع جر المياه (قناة ـ مياه) ورد ذكرها من قبل المؤلفين القدماء . فقـد عثر على قسم من ساقية بازلتية لاتزال باقية حتى أيامنا هذه ، كانت تجر المياه من «سيع» الى الخزان الكبير في «قنوات» ص ١٣٥ ـ «Mascle Djebel» وقد اكتشفت خلال عام ١٩٧٨ (PL. IX) . أما الأقنية الأخـرى فقـد سبق تدوينهـا ، مثـل قنـاة الجـر من «الـرحـا» الى «السـويـداء» ـ قنـاة اللواء التي لم نشـاهدها . أما البحث القيم الذي دونه Wetzsteein عن قنـاة فير ون (Firon) أي قنـاة الجـر بين «الـعـفـنـيـة ـ الـكـرك» فهـي خارجـة عن نطـاق البحث الحـالي . كما أن قنـاة الجـر (الـرُحبـة) شرق جبـل حوران فهي غير موجودة إذا صدق (Dussowd- Macler) .

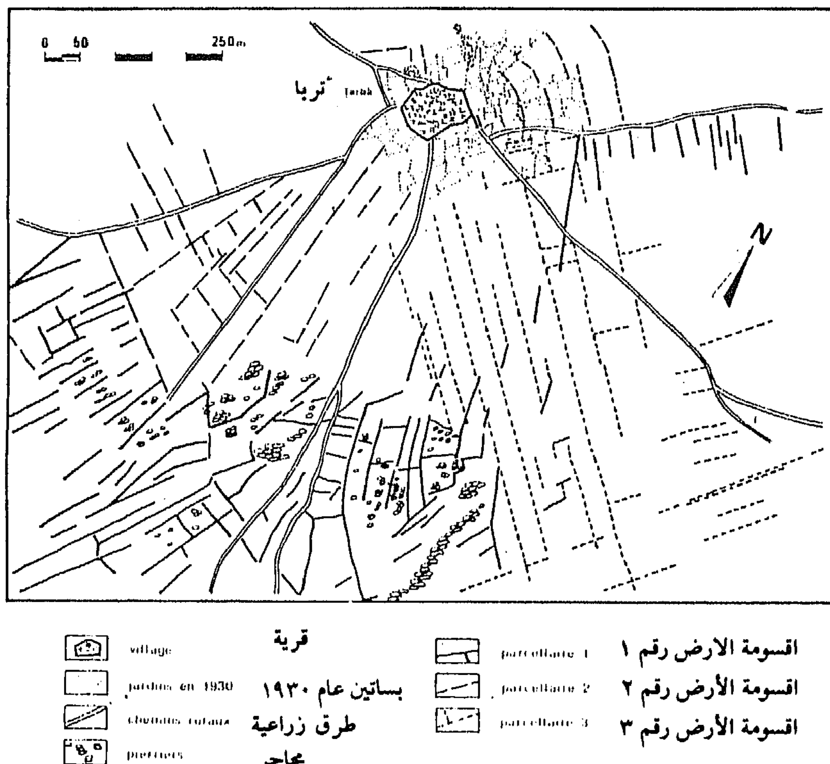
ويـالمقـابل فإن جميع ينابيع جبل حوران تقريباً ، هي اليوم محبوسة ، وكالسابق . فالمياه تجر من الجبـل إلى السهـول المحيطـة ، واذا استـوجب التعرف على أوجه التشابه بين العصر القـديم والعصـر الحـالي فيـما يخص مبـدأ وطريقة استخدام المياه . قد يصبح الأمر مغامرة اذا اقترحنا بالمقابل وضع مخططات للحقبات القديمة ، لن تتكشف الا عن وقائع محتملة . فمنذ مايقارب الخمسين سنه أخلّت التطورات الحديثة بالنظام القديم الذي لم يستثمر منه السكان الجدد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سوى جزءاً بسيطاً منه .

وقـد تكون قريتـا «سليم وولغا» مدينتـين باستمرار تدفق حياة آبارهما إبان الاحقاب الأشـد جفـافـاً من السنة وخلاف ما كانت عليه الحال سابقاً ، للأبحاث عن الأحواض التي قام بها الحاكم الفرنسي (كليمان غرانكور) (أ. ف . دزيدري ١٩٣٣ ـ ص ١٥٩ ـ ١٦١) . كما أن عيون مياه «عثيل وقنوات» تمت بجهده الشخصي .

ولكن خطـة استخـدام مياه الجبل المنطقية ابتدأت منذ خلفه الجنرال Maisset اعتباراً من عام ١٩٣٢ ، حيث قامت كل قرية فيها بركة (خزان كبير مكشوف باستجرار المياه علي أرض كتيمـة ، لتمـوينهـا بالمياه) ، وقام بعزل برك المياه المخصصة لشرب الأهالي ـ توسيعها ـ وتـزويـدهما بسلالم حجرية أو بأحجار مستديرة على الفوهات ، تلك الأعمال كانت ضرورية بلا شك ، ولا يزال القسم الأكـبر منهـا موجـوداً حتى اليـوم إلا أنها في معظم الحالات كانت تحرمنا من ادراك ومعرفة الحالة السابقة للتوسيع . ولكن طريقة استجرار وتدفق المياه وحفظها لفتت انظـار الرحالة وقد وصف Wetzsteein أربعة طرق رئيسية للعمل الطبيعي الذي أورثه الأقـدمـون الـذين كانـوا يستوطنون في منحدرات جبل حوران ، من سكن الكهوف والبيوت تحت الأرض ، والقـرى المسـورة والمحميـة بأبـراج . وقـد تطرق أيضاً الى الخزانات (البرك) وعرف عنها أربعة نماذج .

ـ المطخ : وهو عبارة عن تجويف طبيعي ذو مقعر صخري .

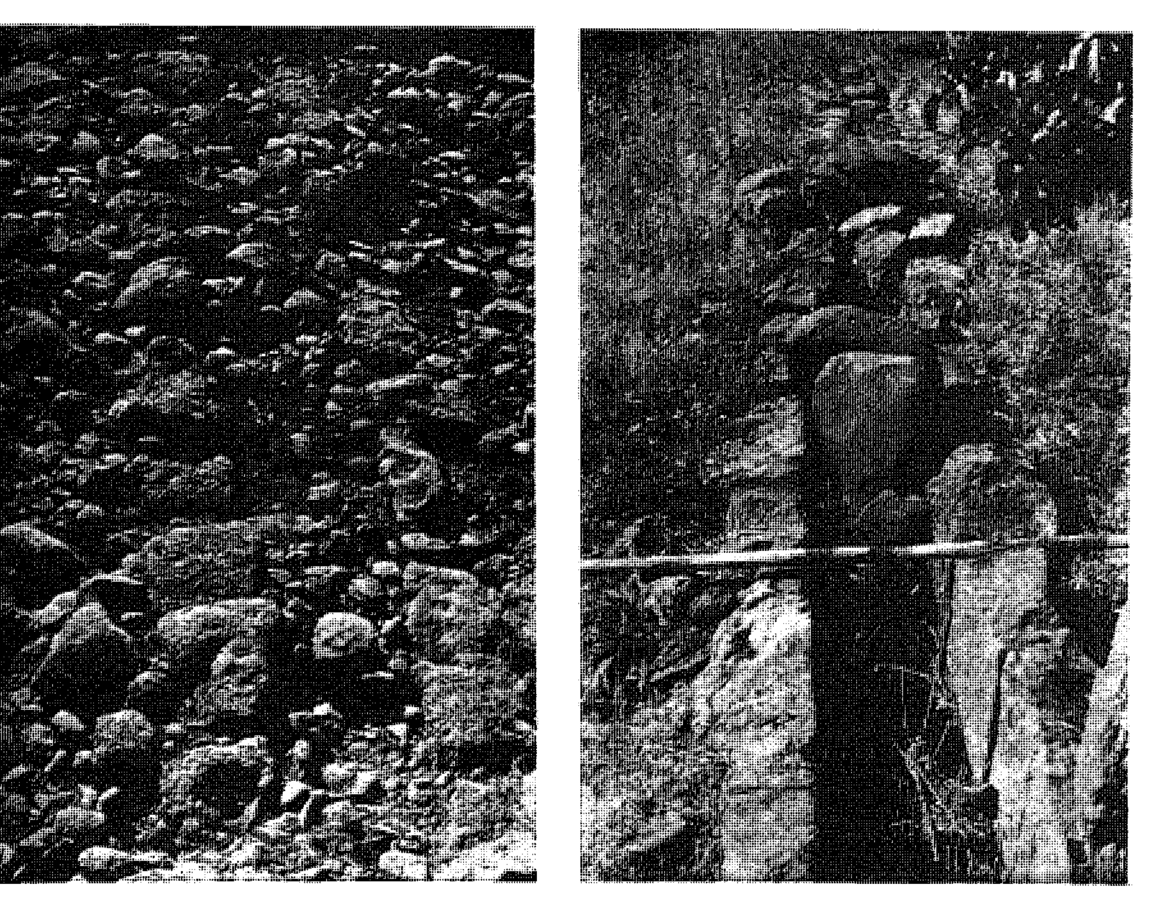




قرية — village
بساتين عام ١٩٣٠ — jardins en 1930
طرق زراعية — chemins ruraux
محاجر — pierriers
اقسومة الارض رقم ١ — parcellaire 1
اقسومة الأرض رقم ٢ — parcellaire 2
اقسومة الأرض رقم ٣ — parcellaire 3

Pl. IX. Parcellaires et réseau vicinal de Tarbâ d'après photogr. aérienne de l'Aviation française du Levant de 1930. *(Cliché U.R.A. n° 20)*

لوحة P قطع أرضية وشبكة طرق فردية في «تربا» حسب الصورة الفوتوغرافية الجوية لطيران الشرق الفرنسي خلال عام ١٩٣٠ (كليشية U. R. A رقم ٢٠)



اللوحة ١٠ قناة تجر المياه من وادي قنوات إلى البركة (الخزان الكبير) في المدينة (كليشة ب. جانفيل)

ـ البركة : وهي خزان اصطناعي مستديرة أومستطيلة مبنية بعناية وقد تكون في بعض الاحيان واسعة .

ـ الصُنع : وهو جب أو بركة صغيرة تحت سطح الأرض، محفورة في الصخر وله فتحة في الأعلى ضيقة جداً وأخيراً .

ـ الخَبْره : ويبنى في المناطق حيث يكون فيها تراب الأرض كثيفاً . يحفر داخله تجويف بعمق بعض الأمتار ويغطى ببلاطات (ربضان) طويلة من البازلت(**).

لا يزال العديد من هذه الخزانات والبرك مستعملاً حتى اليوم . والقديم جداً فيها يُرقى بناؤه الى العصر النبطي على الأقل . والبعض منها بحالة جيدة جداً ، يعود تاريخ بنائها الى العصر الروماني . وخاصة في (البجعة) الكائنة في قلب الجبل . ولكن من المفيد البحث عن تاريخ تحديد طريقة التموين بالمياه في كل حالة منها . وكيف تواصلت من جبل الى جبل ، علماً بأنها عرفت منذ الثلاثينات من القرن الحالي تبدلات عميقة .

لم يتوفر لدينا الوقت لدراسة طريقة جر المياه الى السويداء ، التي لا تزال آثارها موجودة بسبب حجم المدينة الأثارية (والسيد Mascle صفحة ٢٦٣) تحدث عن البركة القديمة المستديرة الموجودة في اعلى المدينة وعلى مقربة من أسوار القلعة النبطية التي تعاصرها ، كما يظهر . ثم تحدث عن البركة الرومانية (بركة الحاج) ذات الشكل المستطيل والكائنة جنوب دار الحكومة . إن جر المياه (في الزمن اللاحق) من ينابيع «تل غينه حتى السويداء» بطول ١٩ كم والتي تحقق عام ١٩٢٤ (زمن الانتداب الفرنسي . ومظاهر التمدن الحديثة لم تبق منها أي أثر . إلا أن المدينة كانت تمون باستمرار بمياه منحدرة من أعلى قمم جبل حوران . وقد شاهد (ج . رينو ١٨٨١ ـ ص ١٥٣)، في الفترة الواقعة بين نيسان وحزيران ١٨٨١ .

طواحين منتشرة في الأمكنة المنخفضة من السويداء ، كما أشار في الوقت نفسه الى وجود بيوت عديدة تمتلك خزانات مياه في جوانبها المنخفضة كانت تملأ عن طريق تفرعات من السواقي . (ج . رينو ١٨٨١ ص ١٥٣) وهذا الجريان السطحي بالذات هو الذي استخدم لملء الخزانين العظيمين (قطر ١٥م ارتفاع ٣٤م) اللذين بناهما الجيش الفرنسي عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ (أ. ف . ديزيديري ١٩٥٣ ص ١٦٠) وقد كانت بادية للعيان في القرن الماضي ، بعض الانشاءات الكاملة التي مسحت اليوم من المنطقة ، بعد أن كانت منتشرة هنا وهناك .

وبين «شهبا» و«نمرة» لم نتمكن من العثور على آثار مبنى سبق أن شاهده رحالة كثيرون ، وكان يدعى (قناة اللواء) وواضح أنه تم بناء سد في الجوار، عمل بالطمي الذي جرمه قبل انهدامه بفيضان عنيف على تعديل شروط الملاحظة .

مهما كان الأمريكي موضوع المياه في جبل حوران موضوعاً بارزاً بالنسبة للحياة البشرية ولقطعان المواشي . فمن أصل ١١٤ قرية أحصيت زمن الانتداب، هناك ٥٥ قرية

لم تتوفر فيها ينابيع المياه (بل استبدلتها بآبار) و١٨ قرية لم يكن فيها ينابيع أو ابار و٣٤ قرية كانت تتوفر فيها المياه لقسط من السنة فقط)ص ٣٢٤ ـ ١٩٥٥ Dufourg (الشكل رقم ٧).

والحقبات الزمنية التي لا تتوفر فيها مياه، هي بكل وضوح الأشهر الأشد حرارة. أما عودة توفر المياه فهي منوطة ببدء أمطار الخريف.

ان شمال الجبل هو الأكثر فقراً في المياه، وهو منطقة لا تتوفر فيها الينابيع. وترتبط ارتباطاً شديداً بجريان الأودية الثانوية، والواقع ذاته ينطبق على القسم الشرقي من «أم دبيب» إلى «الشحف»، ولكن مع توفر ينابيع خفيفة التدفق التي تنضب في شهر حزيران، ليستعاض عنها بالآبار التي تجف بدورها في ايلول، وعندها ينتظر سقوط المطر على القمم لاعادة تغذية الأحواض بالمياه بعد مرور عدة أيام. أما الجهة الغربية من الجبل فهي محظوظة المياه، ولكن المياه الجاهزة فيها لاتفي لتأمين حياة عصرية. (J.P.Dufoürg) روى أنه أجرى تحقيقاً خلال عام ١٩٣٤ أشار فيه الى ان تقنين المياه يتم اعتباراً من شهر أيار، وكل فرد لاينال سوى ستة ليترات يومياً لحاجاته الشخصية تبدو مثل هذه الحاجات انها مناسبة لما يمكن توقع حدوثه من تطبيقات في العهود القديمة.

مع ذلك لايمكن الجزم ان هذا الاستنتاج الذي سبق ذكره يطابق الواقع. فآثار العصر البيزنطي والروماني تبدي تشككاً حول صحة السيطرة على موضوع المياه، ويمكن اعطاء أمثلة مميّزة. نظراً لاحتمال تعاقب مواسم الجفاف في العهود القديمة. فإذا سلمنا جدلاً، بأن نقص المياه أو القحط في الأيام الحديثة سببها الضعف في تنمية غزارة الينابيع؟. بعد كل ذلك ورغم التدمير والخراب الشديد الذي نقلته الأجيال. تبقى الأبنية الباقية أو التي شوهدت في القرن (١٩) كثيرة جداً (قناة السويداء ـ قناة بين الطيبة وحمامات شهبا ـ وقناة بين قنوات وعفينة) ذكرها «تراجان» (وقناة بالجير الأحمر من سهوة الخضر حتى صلخد الخ..) لا تخلوا القرى من الخزانات المبنية. ومن البرك المشادة باعتناء وعلى الطبيعة حتى ان البعض منها موجود قبل الاستيطان الحالي.

الى جانب البرك الكبيرة ذات البناء الجيد، أوذات الأحجار المنحوتة جيداً، والتي كانت بمثابة بركة للاستعمال العمومي، والى جانب خزانات المعابد والأبنية وبيوت النبلاء التي كانت مسقوفة (بخلاف غيرها)، ظهر عدد كبير من البرك الصغيرة صالحة لخدمة الأهالي والدواجن عند موقع البيوت أو في جوارها، والسبب في عدم فاعليتها الكبيرة يعود الى كونها محفورة على أعماق بسيطة ـ وفي الصيف، كانت شريحة المياه المتبخرة منها تصل الى ٧ أو ٩مم يومياً، مما يفرغ مياه غالبيتها خلال شهر واحد على الأقل، وهذا الأمر يبدو أقل أهمية من الملاحظة التي يمكن أن نعطيها حول استخدماتها الممكنة.

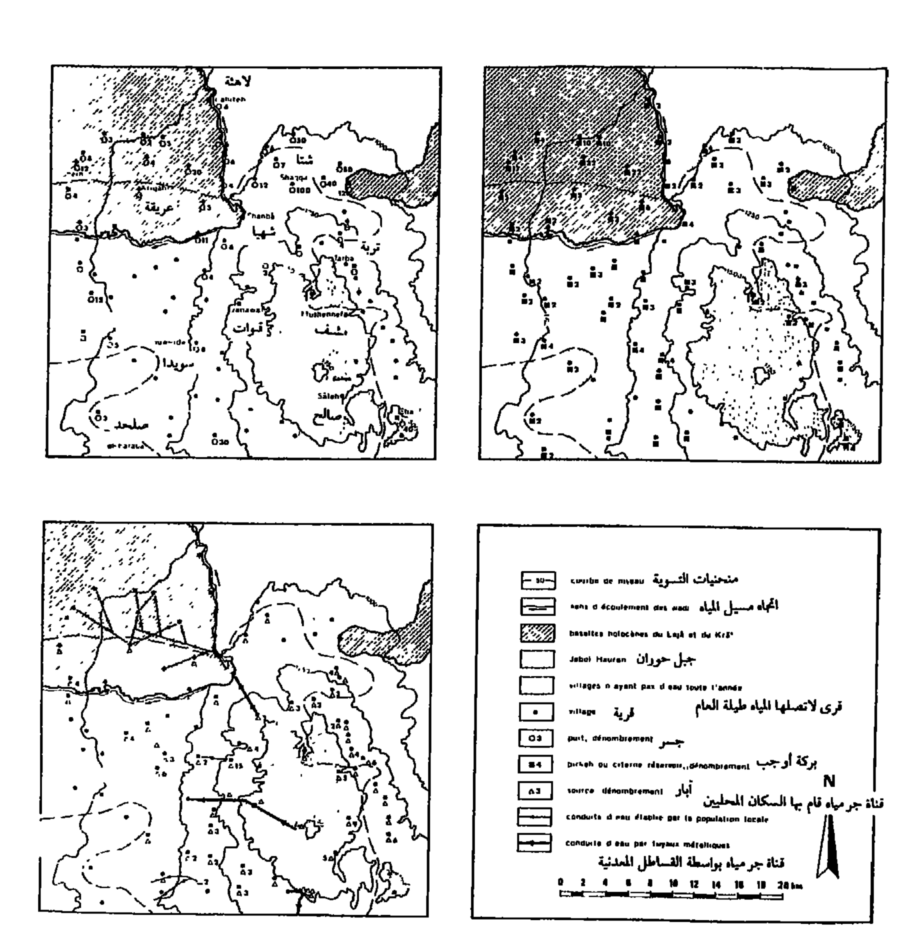


Fig 7 Alimentation en eau des villages du Djebel Druze d'après J. P. Dufourg, 1955

الشكل رقم ٧ ـ تغذية قرى الجبل بالمياه (حسب ج. ب دوفور عام ١٩٥٥)

لذا يمكن تمييز ثلاثة أنواع، قد تكون مطابقة لثلاثة طرق تملك أو انتفاع:
- الخزانات الكبيرة للمعابد أو الحمامات التي انتقلت الى السلطات العامة.
- الخزانات القروية وهي تحت تأثير السلطة الجماعية للقرية.
- الخزانات الخاصة.

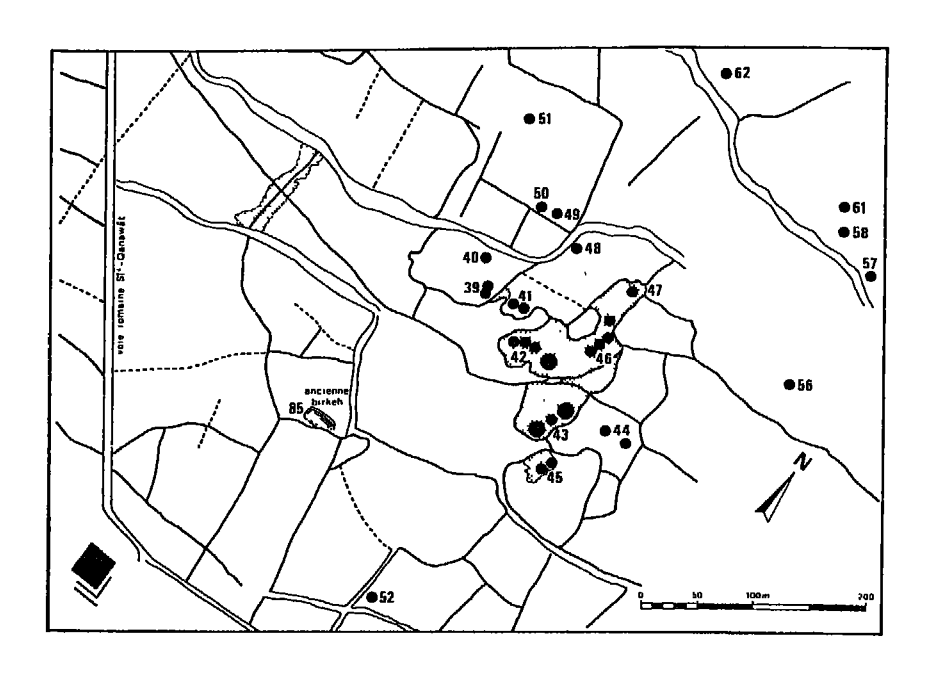
٥ - ٦ الأبراج والمعاصر (الشكل رقم ٥ - ٨)

لفتت الابـراج النظـر منـذ القـديم، وقد حمت حوران كلها في العصر الروماني بما فيها الطرق التي شيدت بمحاذاتها بفواصل منتظمة تقريباً، وقد جُعل منها (راند فليش ١٨٩٨، ص ٢٥) أبـراجـاً للرصـد مميـزة، أبراجاً ضخمة، أبراجاً مستديرة أومربعة الزوايا. وقد ذكر هذا الأخـير قبـل زيـارتـه للمنطقـة سبـل الاستفادة منها: «فمنذ عهد قريب كانت تستخدم لحراسة الينـابيـع وكـروم العنب «وقـد وضـع Butler خريطـة لواحـد منهـا (PPUAES. II A.P ص ٣٥٤) موجـود في أسفـل «تـل قليب» على المنحـدر الشـمالي، وعلى أطـارف الطـريق الـذي يصل بين قنوات «الكفر». عثر على هذا البرج عام ١٩٧٩ ولا يعتقد أنه يمكن اضافة أي شيء على ما ورد في مذكرات «بتلر». فهذه الأبراج تشبه أبراج المدافن النبطية لموقع «سيع»، من حيث طراز البناء. ولكنها ليست بالحقيقة قبور، وقد يعزى انشاؤ ها للدفاع، إلا أن تجمعها باعداد كبـيرة في مكـان واحـد، وانعـدام المـدن أو القـرى في الجوار يجعل التفسير صعباً، ولها طابع الطواحين الهوائية، ولكن تاريخ اختراع هذا النوع من الطواحين ليس معروفاً، وحتى اليوم يصعب تحديد سبب وجودها.

لوحـظ بأن البعض من هذه الأبـراج كانت قائمـة بالقـرب من المعاصر القديمة، التي سبق وجـودهـا استيطـان الـدروز في الجبل. وطراز تلك المعاصر يشبه طراز المعاصر التي تمت دراستهـا في «سيـع»، عنـد اجـراء التنقيب في أبنيتهـا. لذا من الضـروري تحديد العلاقات الوظيفية والزمنية اللازمة والكائنة بين هذه البنى والأبراج والمعاصر. وهناك أبراج أخرى، لا تنتمي الى هذا المحيط، بل نجدها منعزلة في غالب الأحيان.

٥ - ٦ - ١ الأبراج مخروطية الجذع والمتصلة بالمسكن

يذكـر بتلر (PPUAES. IIA ، ص٣٥٤) في مؤلفـه، مخطـط وارتفـاع أحـد الابراج في الجنـوبي الغـربي من سيـع (الـرسم التوضيحي ٣١٨) الذي يتصل به بناء ممتد ومنخفض، ربما استخدم للسكن، وخلال جولتنا في التنقيب لاحظنا أربعة أبراج (G16. G21. G22. G23) تعود أصلاً الى هذا الطراز.. وهناك أبراج أخرى قد يكون لها صلة بها، لولا خرابها الحالي الـذي لم يبرز معالمه الأساسية قبل أي تنقيب: «البرج الواقع على قمة بركان مفعلة - أبراج المالكية في الشمال الشرقي لجبل حوران».



●38 tumulus tombeau avec son numéro (se reporter au tableau 2) مدافن أو قبور مع ارقامها المدرجة على الجدول رقم ٢

muret de propriété ancien et muret disparu جدار الملكية قديمة - اثار الجدار

pierriers محاجر

Fig. 8. — Tumuli, tombeaux et tours au nord de SI'.

الشكل رقم ٨ - مدفن وقبور وابراج في شمال «سيع»

٥ - ٦ - ٢ الأبراج ذات الجوانب العامودية

يبدو أن هذه الأبراج أو آثار الأبراج، لها مهام تختلف عما ذكر سابقاً، وكونها مستديرة فقد أمكن السكنى فيها (Structure 50. 51. 54. 78) وهي على العموم قائمة فوق الرجام، (قد يوجد من نوعها الكثير من الأبراج الأخرى، التي يصعب التعرف عليها بسبب جدرانها المهدمة، مكونة بمجموعها كومة من الأحجار). وربما قد تكون مرتبطة باستيطان زراعي تلا بناء الرجوم وهي متواجدة فوق كامل الأراضي المزروعة اليوم بالكرمة. كما يوجد منها أيضاً جنوب «سيع» وهي متصلة بالرجوم التي تغطي أرض غابات السنديان بقرب الطريق الروماني الواصل بين «السويداء وسيع» ومن السهل التمييز بين أساسات وهياكل تلك الأبنية ذات المظهر الجميل أحياناً وبين الحديث منها الذي يستخدمها الفلاحون كمرصد صغير يرتقونه بسهولة بواسطة درج حجري.

٥ - ٦ - ٣ المعاصر

تم التعـرف على معصـرة مع خوابٍ للخـزن المؤقـت، وفقـاً لخطة بغاية الدقة، ليس فقط على أرض التنقيب بل في أراضي الـريف المجـاور، (بنيـة التنقيب رقم ٩١ ـ الشكـل رقم ٩) حيث عثـر على نفس النـوع من التصميم، الـذي في صناعته خشونة اكثر، غير أنه واضـح المعـالم: بلاطـه سليم بها فيـه الحجـر الأوسط الذي يتضمن جزءاً محفوراً. (لانعرف الهـدف منـه) يتجـه الميل العام في الأراضي المبلطة نحوفتحة جريان تقود الى خزان حجري مستـديـر، الغـرف الصغـيرة موزعة على المحيط، والتي يمكن ان نتعرف في داخلها، وقبل التنقيب على بُنى وتراكيب مماثلة لتلك التي عثر عليها في الكشف على البناء الرئيسي. جميع تلك العناصر تشابه كثيراً المعصرة التي هي موضع شك في المطابقة والتحديد.

هنـاك ايضـاً برج مجاور له علاقـة وثيقـة بالمعصرة، مبني من الحجارة المقصوبة[٦٥] بحجم صغير متوسط، وهو مزيّن وفقاً لتقنية بناء مشابهة للحجارة التي شوهدت في القرى الخراب، قد يكون هذا البرج مقراً لحارس أوبرجاً للمراقبة، وهويتزامن مع الأبراج الشبيهة له بطريقة الصنع، والمبعثرة على التل وخاصة البرج رقم ٢٩ والمجموعة رقم ٢٢، أما الهيكل رقم ٩٣ المهـدم بصـورة كاملة، يحتـوي في وسـط البلاطة الحجرية الطبيعية على ثقب مطابق للثقب المـوجـود في الهيكـل رقم ٩١ يكـاد أن يكـون له بناء مماثل وللتعميم فإن الأشكال الطريفة في المخطط للهيكل رقم ٦٦ قد تكون جزءاً من مجموعات من نفس الطراز.

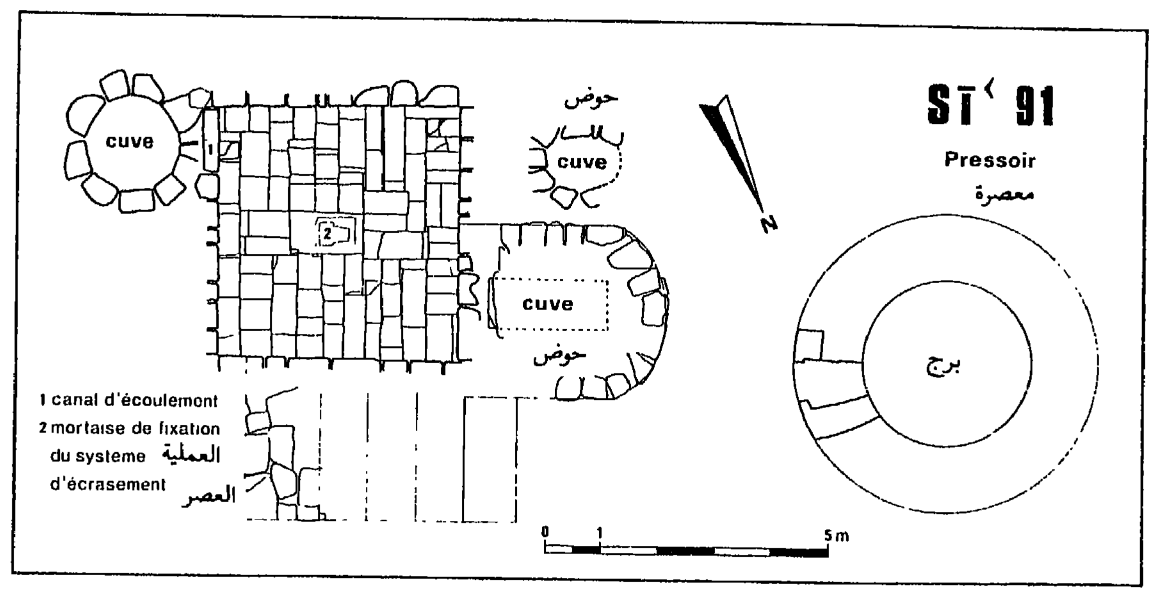


Fig. 9. — Pressoir n° 91 d'après un relevé de F. Larché, mis au net par P.M. Blanc.

الشكل رقم ٩ معصرة رقم ٩١ (حسب مخطط ف. لارشيه تم تبييضهُ من قبل ب. م. بلان)

أظهـر التنقيب معصـرتـين (الهيكل رقم ٩١ و٩٣) وربما (اثنتين اخريـين) رقم (٢٢ - ٦٦) بالاضافة الى البناء المستكشف. كان وجود كروم العنب في الريف ثابتاً. لا جدال فيه في العصر القديم مثلما هو اليوم غير أنه يصعب تحديد تاريخ واضح لزمن بناء تلك المؤسسات.

عُثـر جنـوب شهبـا (هيكـل G I) على مجمل من المعاصر المماثلة، على محيطها المباشر تشاهد آثار لمعصرة حديثة يعود تاريخها التقريبي للقرن العشرين. . إذن يشير هذا الجوار الى استمرارية ما في تنظيم الأراضي الزراعية.

٥ - ٧ الآثار المعمارية

جميـع الآثـار المعـمارية التي أمكن مشاهدتها على المنحدرات (وفي قعر الوديان أيضاً) كانت أبنية لعب فيها الحجر دوراً هاماً كاملاً. هو السقف وهو أداة الاغلاق، أما الخشب فقد كان معـدومـاً. وهـذا مايمكن ملاحظتـه في جميـع الخرائب التي تمت زيارتها. واذا ما جمعت صخور البازلت، بموجب تصانيف مختلفة. يتم الحصول للوهلة الأولى على السلسلة التالية:

١ - صخـور كبـيرة جداً خشنـة الهيئـة - مربعـة الـزوايـا - مستـديرة بصورة طبيعية في الواجهات وعلى الزوايا - يمكن أن تحمل على مجموع واجهاتها تقريباً - آثار طلاء أسود من التقشر. نتجت هذه الصخـور على مايبـدو، من تفتت طبقـات الصهـارات البـازلتية، أما الصخـور التي تحمـل الطـلاء الأسـود، فقـد تعـرضت الى جفاف مشترك مع الصخور التي خضعت لوطأة الشـروط الحـرارية والجفاف الشديد، (في نهاية الحقب الثالث وبداية الحقب الرابع) وقد بلغ حجم الصخرة الواحدة، أو تجاوز أبعادها (٣٠× ٣٠× ٣٠سم).

٢ - صخور كبيرة ذات شكل متشابه، لا تحمل أية آثار للجنزار، يتراوح حجمها بين (٣٠× ٣٠× ٣٠سم) و(٦٠× ٦٠× ٦٠سم).

٣ - أحجار كبيرة من الفئة رقم (٢) تعرضت لتقصيب خشن، خاصة على الجوانب التي لا ترى من الواجهة وهي على الحاجز، بشكل يـسمح بالحصول على نوع من الهرم المجزوع.

٤ - أحجـار متـوسطة مقاييسها أدنى من السابقة، وهي على العموم، مربعة الشكل من كل الجـوانب مع جدار مستقيم ومتـوازي السطوح تقريباً بقياس (٥٠× ٣٠× ٣٠سم)، على أعلى درجة، وغالباً بقياس (٣٠× ٢٠× ٢٠).

٥ - أحجـار متـوسطـة من أطـوال مختلفـة (من ٥٠ الى ١٢٠سم) ذات مقاطع مربعة تقريباً يتراوح طولها بين (٥٠× ٣٠م)، تستعمل كجسور للسقف وتقصيبها خشن.

٦ ـ أحجار متوسطة، مقصوبة باعتناء، لها زوايا حادة ـ واجهات منبسطة وأضلاع ظاهرة تعطي مظهراً جميلاً.

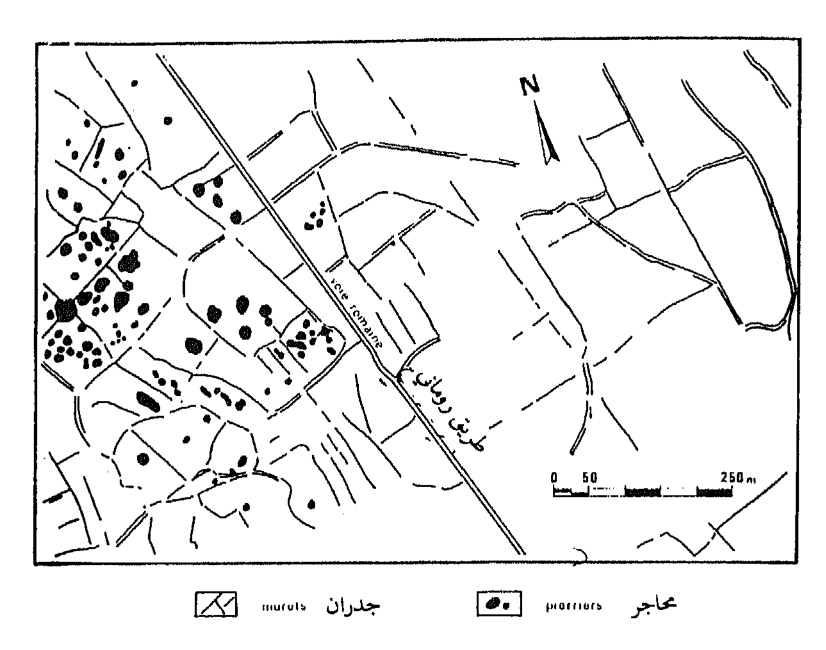
٧ ـ أحجار مختلفة تم تقصيبها خصيصاً لبناء أو لمكان محدد، طُنف، أو مفتاح عقد إللقبة اسطوانة عمود ـ ساكف ـ عتبة ـ ركيزة باب.

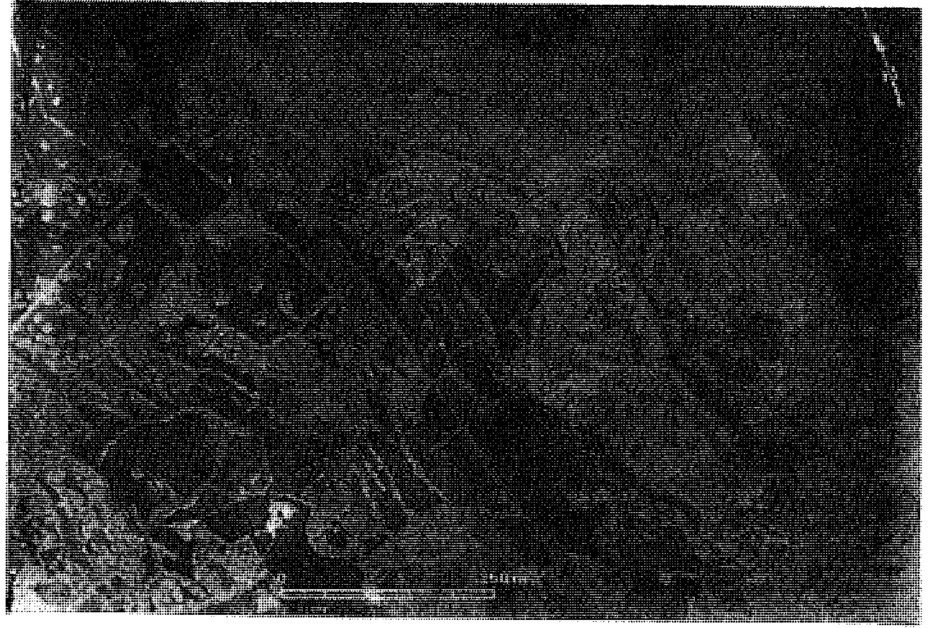
والجدير بالذكر أنه اثناء التنقيب، لم نتمكن من اكتشاف أي حجر يحمل نقشاً معيناً، ويظهر أن الاحجار المنقوشة أو التي تظهر عليها كتابة اذا وجدت، بقيت مدفونة تحت الردم، أو أنها نقلت من مكانها. من جهة أخرى، وحسب القاعدة العمودية، يوجد تماسك على درجة كافية بين المواد من أحجار غير مقصوبة استخدمت بشكل جماعي، وأحجار من نوعها قصبت بدرجة أولية، غير أنه لا بد من التنويه الى وجود الأعمدة والتيجان الكبيرة في المدفن الحجري من الفئة رقم (٢) والذي هو خليط من طراز معين من الأحجار المنتقاة بموجب الفئة رقم (٢)، ومن الأحجار المنحوتة التي يتطلبه، في بادىء الأمر الاسناد لبعض الأحجار القديمة منها ـ ويجب أن نذكر أيضاً بأن الأبنية التي بنيت جدرانها الخارجية من الأحجار رقم (١) ورقم (٢) يمكنها حمل حواجز داخلية أو بلاطات (ميازين) طويلة جيدة القصب وحسنة المظهر، مسقوفة بجسورة حجرية من الفئة رقم (٥). وبسبب الخراب الواقع لم يمكن الجزم فيما اذا كانت السقوف معاصرة ومتزامنة للجدران الصغيرة (قد يكون أعيد وضعها في زمن متأخر). يظهر المقطع العرضاني لوادي الصايغ، شرق موقع «سيع» أن السفح بكامله قد برز باستخدام مساند بعض المواد المصهورة الظاهرة لارساء جدران التنقيب أو رفع الحجارة. أما أعلى السفح، فالعمل فيه متقن وتقسيماته بأكوام صغيرة من الحجارة كثيرة ومتعددة وكأن كثافة العمل الذي انجز تتوافق وتوافر المنشآت السكنية الصغيرة التي يمكن مشاهدة البعض منها فوق طرق الهضبة البعيدة، فالمحاجر كثيرة، ومن الضروري استخلاص النتائج بمجال البحث المعماري، للذهاب بعيداً في مجال المراقبة.

٦ ـ محاولات اعادة تعمر جانب من حيز المنطقة خلال الأزمنة القديمة

فيما يخص استمرار زراعة الريف على السفوح والمرتفعات، يفترض هنا أيضاً بأن التبدلات تحددت منذ بدء الحياة العمرانية الأولى في المنطقة. واذاً، وعلى سبيل المجازفة، أعيد استيطان تلك المساحات وبقيت اليوم، آهلة، فقد تم ذلك باستخدام النمط القديم مع بعض التنظيمات في التفاصيل.

تبين اللوحة (عشرة) وضع الريف الزراعي بتاريخ (ايلول ١٩٣٠) بفعل طلعة جوية فوتوغرافية فقدت في ذلك التاريخ، وقدمت في حينها، الوسيلة التي مكنت الآن مقارنة الريف حالياً مع مظهره عام (١٩٣٠) كما أمكن تحديد ما تبقى من الريف القديم الآثاري





عمارات شرق السويداء صورة فوتوغرافية جوية من قبل الطيران الفرنسي للشرق
رقم ٨١٧ تاريخ ٢/٩/١٩٣٠

بكـل دقـة، وقـد تحقق ذلـك بفضـل الكليشيهات والزيارات للأراضي، فهي توضح مدى اتساع المناطق الحجرية التي تشاهد على الصورة باللون الرمادي الفاتح. أما الجدران (باعثة الظـل) والطـرق القديمة (المؤشر بخط رمادي مزدوج). والحقول المرفوعة احجارها (باللون القاتم) والقرى الخراب (التي هي عبارة عن أكوام باللون الرمادي الوسط والمؤشرة بدلالات صغيرة هندسية) وأحياناً المدافن حينها تكون كبيرة الحجم وواضحة بشكل مستدير مع ظل قاتم أو رمادي وسط)، ولكن كان من الواجب في جميع الأحوال الذهاب الى الموقع للتحقق من طبيعة هذه الآثار.

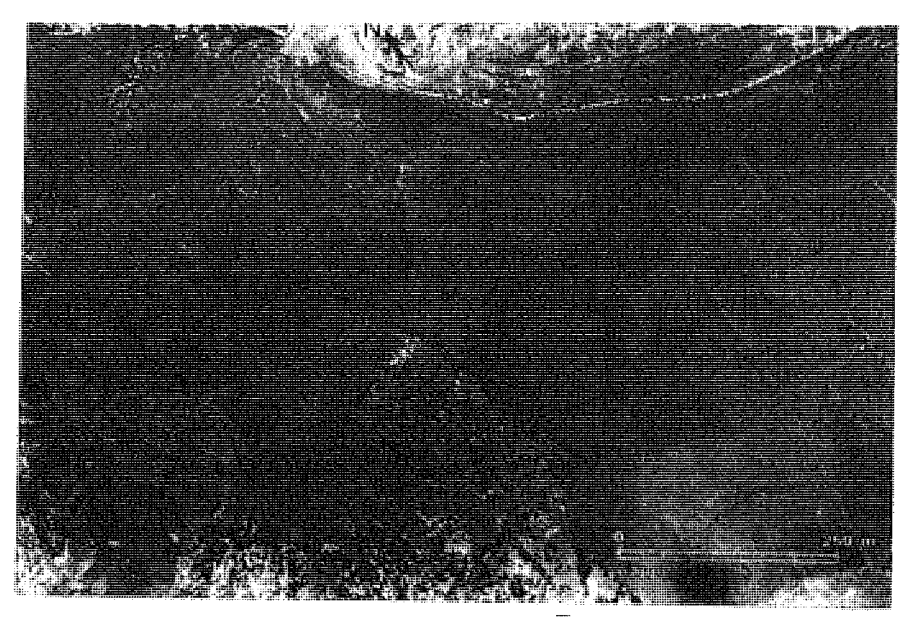
في القطـاع المنخفض من سيع (الشكل رقم ٥ ـ ٨) نعرض بالنسبة لريفها الخصائص التالية:

ـ تنظيم بناء من الأحجار، مربعة الزوايا بدون تقصيب هندسي واضح، ظهور توجيه مفصل يرتبط بالمنحدر العام للوديان، وهو يترافق تقريباً مع الأربع اتجاهات.

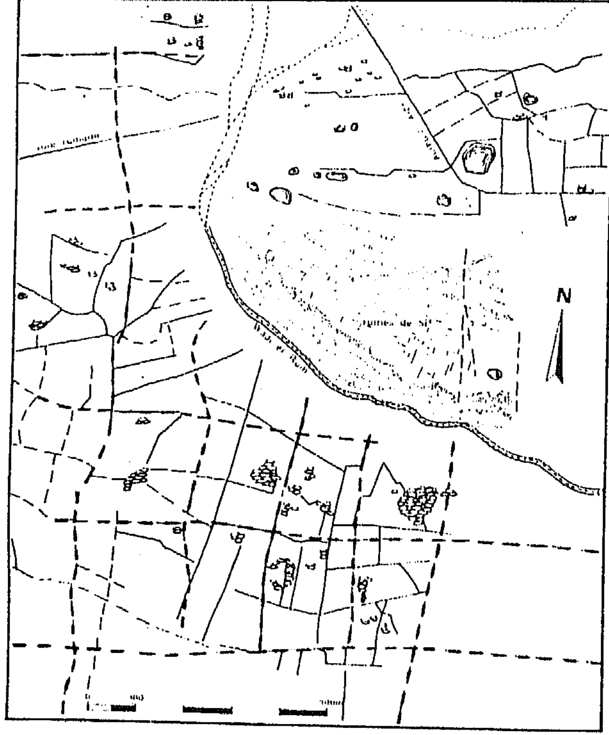
ـ نظام سير حول طريق رئيسي.

في جنوب «سيع» يلاحظ أن التنظيم أقل تعقيداً (اللوحة ١١) ويقترب بالاكثر الى ما يدعى بصـورة عامـة، زيـادة قيمـة المنحدرات. ان السفح المقابل لتلة «سيع» والذي يتمتع بمنحدر جيد، هو بصورة خاصة حسن النتيجة. فهو مخطط بنظام حقلي مربع الـزوايا ـ وذو طابع هندسي يفوق القسم الشمالي من هذا السفح. من جهة أخرى فالجهة الجنوبية الغربية للسفح مكسوة حالياً بغابة من شجرة البلوط الكرمس. مثل السفح الجنوبي للهضبة التي تمتد حتى السويداء. ومع ذلك مرّ عصر كان خلاله حيز هذه السفوح مزروعاً. لنأخذ فيما يلي: بهاتـين المـلاحظتين بحيث نحاول استخلاص بعض الفرضيات المتعلقة بالاستيطان القديم لهذه الأراضي.

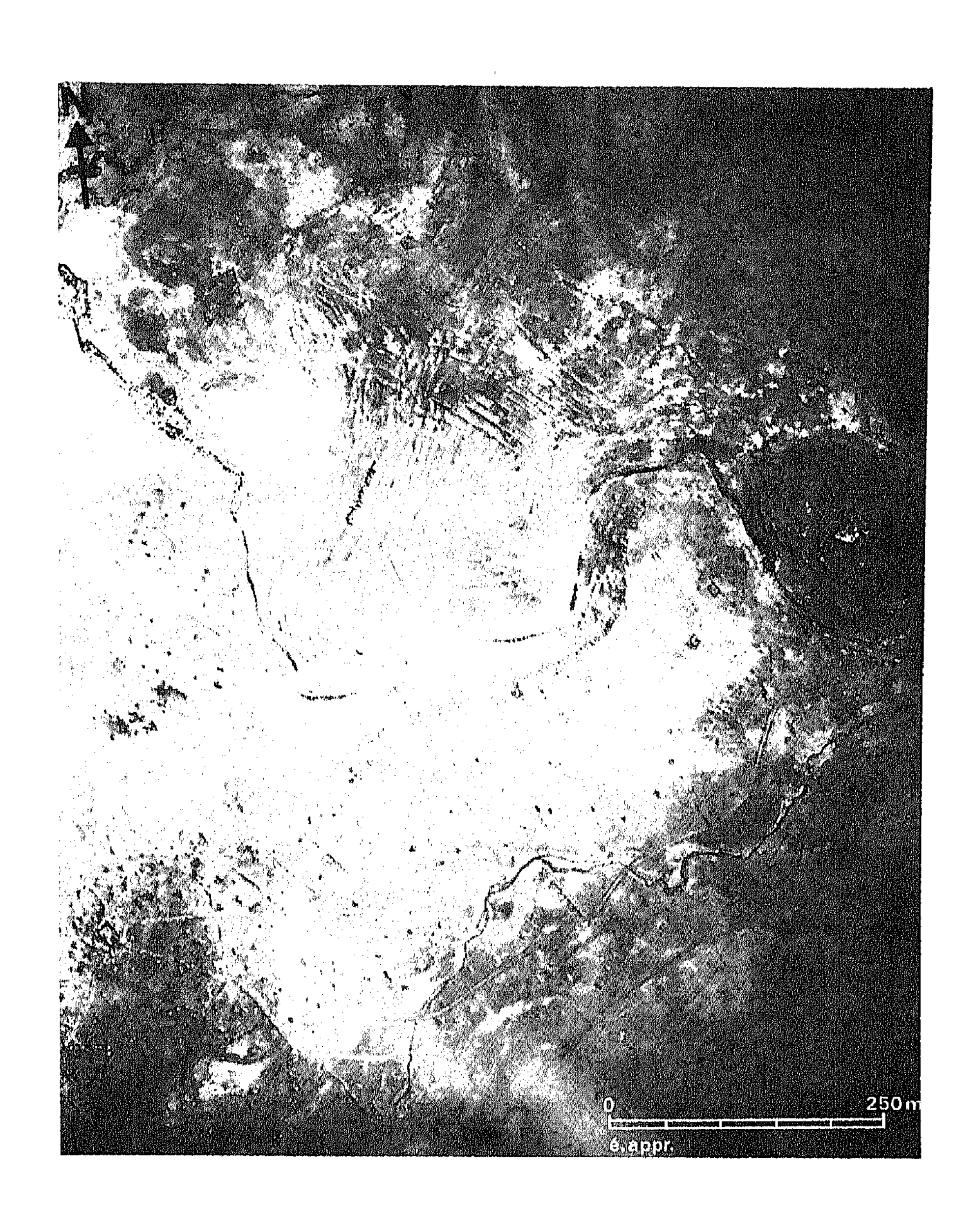
في الجنوب من موقع «سيع» حيث توجد خرائب قرية صغيرة (خربة العنز) فإن تقسيم المنحـدر الى حقـول منظمـة تقريباً لا يزال قائماً. ويشار الى ذلك بوجود محور رئيسي قديم، وهو طريق كان يصل موقع «سيع» بالسويداء. فالجدران القديمة لا تزال باقية باعداد كبيرة. والحقـول مُسيَّجـة من الأربـع جهـات. فاتحـة المجـال لدرب صغير بين كل اثنين منها، وهو حاليـاً مُكتسٍ بحـراج من شجيرات السنديان. أو استعمل كفاصل حجري من قبل الذين غادروا لاستثـمار الأرض مؤخراً. لا يوجد أي أثر لعمران جنائزي أو غيره، قام في هذه الجزء من الأرض، التي تم التنقيب فيها رغم التواجد على مقربة من «سيع» (أقل من ٥٠٠م) كان ذلك البحث في الوادي الذي يقود نحو الشرق الى منتصف التلّة التي تحمل خرائب «سيع» والتي من خلالها أمكن العثور على آثار مشابهة لآثار المدافن الكائنة في الأراضي الزراعية في الشمال. ان تنمية هذا القطاع منتظمة، ومع طول سفوح الوادي، وشوهد نفس نمط التنمية الموجود في وديان الشمال.



مستخرج صورة غابة كرمس، على أقسومة أرض جنوب تل سيع صورة جوية للطيران الفرنسي للشرق رقم ٧٧٥ تاريخ ٢/٩/١٩٣٠ (صورة U.R.A رقم ٢٠).



لوحة ١٢ آثار ري منظم للحقول جنوب غرب مجمع أبنية «سيع».



سطح وحقول قديمة على المرتفعات البازلتية شمال (مدك) طريق ترابي ضيق «السويداء ـ صالح» حسب الصور الفوتوغرافية الجوية للقوات الفرنسية في الشرق رقم ٩٨٦ تاريخ ٢١/٨/ ١٩٢٩

أمـا خرائب القـريـة الأخـرى الصغـرى ـ التي لا تتعـدى الخمسـين غرفـة (خـربـة المسكـار) البـاقيـة فوق أنف المـرتفـع الممتد باتجاه شرق تلة «سيع»، على بعد ١٢٠٠ م من مدخلها الشرقي.

في ذلك الحيز المتنامي، يوجد زاوية من غابة تتدخل جنوب خطم مرتفع سيع (اللوحة ١١) أمـا غابـة أشجـار الكـرمس دالاً كاسياً فتمتد نحو التلتين الصغيرتين المنعزلتين لتتابع باتجـاه الغـرب، خطم موقـع سيع ثم تنفصلان فيها بعد عند «سرير وادي الريم» الذي يأخذ فيـها بعـد اسم «وادي قنـوات». ان الشكـل المثلثي لهذه الزاوية، يُقوّص باتجاه موقع «سيع» حتى يلامس في اثره الطرق والجدران القديمة وحتى يطل على الأرض الزراعية. بعد ذلك وبـاتجـاه الجنـوب كان الفـراغ والحيـز الـذي هو اليـوم مكتظـاً بالأشجار، مليئاً بالبناء بنفس الطراز، الذي كان مبنياً في حيز الأراضي الزراعية الحالية. كما أن هناك آثار للطرق وللرجام العـديـدة وللحقـول القـديمة، حيث لا تزال مرئية، وهـذا يدلنا على أنه كان هناك استيطان أكثـر كثـافـة خلال عصـر تاريخي يحبب الاهتـمام بايضـاحـه ولا شك بنظرنا أن هذا الاتساع للقطـاع الـزراعي كان ممتـداً حتى السـويـداء. أما اليوم فكل تلك الأراضي تغطت بالغابة (اللوحة ١٢).

ان جميع السفوح والهضبات المشكلة من الإندفاعات الحممية مغطاة تقريباً بالجدران وعلى الهضبـات بنيت العـمارات المميـزة. أمـا المنطقـة التي أجرى فيها البحث والتنقيب فلا تشمل سوى مساحة صغيرة من الهضبات فجميع المنحدرات المشاهدة هي معزولة، بواسطة جدران حسنـة التنظيم والمظهـر العـام. ولكنهـا مفصـولـة عن بعضهـا بموجب صدر الملكية وحسب التـواء خط منحـدر السفـح. أمـا منـاطق الهضبـات فهي بكليتهـا محـاطة بجدران صخرية تحصر غالباً حقولاً زراعية تتواجد في وسطها رجمة كبيرة. وتظهر الخرائب هنا وهناك في تجمعات من البيوت المسقوفة بالربض المهدم أو من الأبراج نصف المدمرة، هذا النمط من تنظيم عمران الريف، يمتد الى أبعد من المنطقة التي جرى فيها التنقيب وحتى الجزء الأكبر من الجبـل. وهـو ليس بعيـد الشبـه عن نمـط الآثـار التي أمكن مشـاهـدتها على الهضبات الكلسية الكائنة حول عمان في الأردن، وبلا شك فإننا نجد في مكان آخر ما يشبهها والمسألة التي أثارتها أقسام سيع ـ قنوات العليا، تتجاوز بكثير نطاق تنقيبنا هذا (اللوحة ١٢).

وعلى ما يبـدو يمكن وبـدون تردد، عَزْوْرفـع الأحـجار من الحقول. وعمارة الحقول في الأراضي المرتفعة الى انماط الزراعة القديمة، حول القرى والاثارات الموجودة في الجبل مثل (الطيبـة ـ البجعـة ـ المشنف) كما أن الاصلاح لمناطق الحقول الواسعة ذات الأثرية العميقة نسبياً. والممزوجة بالرماد البركاني المفروش على مقربة من الفوهات القديمة ترتبط بالاقسام الكثيرة الصخور بالرجام المهمة. ان عملية رفع الاحجار تعطي البرهان على ضرورة تحسين أو تنمية جميع الأراضي القابلة للاصلاح خلال زمن محدد.

ما هي الزراعة التي يمكن استثمارها في هذه المناطق؟ فإذا عدنا الى ما نشاهده اليوم، نجد أن أفضل تطبيق هو زراعة الحبوب (يلاحظ من قليل من السنين. التركيز حديثاً على زراعـة الأشجـار المثمـرة التي ارتبطت بمـرحلة تطور حديث). وعلى فرض ان جبل حوران مضطـر لتأمـين الغـذاء الكـلي لجميـع سكانه، وتأمين الرعي الصيفي الذي لابد منه لجميع مواشيه. تكون الحبوب قد ناسبت جداً مثل هذا النظام الاستثماري خلال الأزمنة القديمة، لأنه بعد حصاد حزيران يصبح حصيد الأرض صالحاً للرعي.

وهكذا استمر التكامل بين مختلف مساحات أراضي حوران وأراضي الجبل والحبوب في السهـول وعلى القمم من الكرمة، من الأشجـار المثمـرة وأشجـار الزيتون على المنحدرات الغربية والجنوبية وأخيراً تربية حيوانية في منتجعات بادية «الحرّة» المستصلحة.

الخلاصة

ليس من الصعب تجاوز مرحلة الفـرضيـات ، فيـما يتعلق بتـاريـخ الاستيطـان في أراضي جبـل حوران ، فإن الاسلوب الكـلاسيكي للعصـور القـديمة ، يبدو مشابها لما نعرفه اليـوم . وان النصـوص التـاريخية تعيدنا الى نباتات ، والى انماط حياة معروفة وقتنا الحاضر، ومن المحتمل ان منطقة جبل حوران كانت معمورة بما يسبق العصور القديمة الكلاسيكية بكثير ، وفق زمن طويـل . وقد دوّن الرحالة في القرن (١٩) ، وعلماء الآثار في أوائل القرن العشرين ، بأن التقنيـة المعـمارية خلال (العصـر النبطي) كشفت عن ندرة[٧٥] ، وخـاصـة في كل ما يتعلق بالسقـوف وأسكفـة الأبـواب والشبـابيك . وهذا الاستنتاج يفرض صحة وجود توطن كثيف للأرض من قبل مزارعين حضريين منذ القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل .

منـذ قرن عزى (Wetxsten) ومن بعـده (Rindfleisch) فضل التنمية لاقليم حوران بمجمله (من جبـال وسهـول ـ هضـاب ـ باديـة شرقيـة) الى القبـائل الصابئة القادمون من الجنـوب العـربي . والذين أحضروا معهم مجموعة التقنيات التي لديهم . وهكذا أصبحت في نظرهم مساحات جبل حوران التي كانت أقليم مرور للقطعان ومنطقة رعي صيفي واسعة ، موقعـاً زراعيـاً شامـلاً . زمن هجـرات الصابئة المفترضة مانزال نشاهد آثاره اليوم ، ولا ثبات هذا الزعم استند (Rindfleisch) الى ثلاث خطوط رئيسية حسب رأيه كانت هي الخصائص للثقافة المادية للجنوب العربي :

١ ـ طريقة جر المياه (شبكات المياه ـ أقنية جر تحت السطح من نموذج القناة (Kanat) خزانات مياه مبنية ومقصوبة ، ضمن الصخر.

٢ ـ تقنية عمران الحقول في المصطبات على كافة المنحدرات بعد رفع الحجارة.

٣ ـ تقنية عمارة البيوت مع الاستفادة من خصائص السقوف الحجرية المسطحة، ومن الاستخدام الثابت لأحجار مقصوبة حسب الطول ورفيعة جداً.

هنـاك في الحقيقـة الكثـير من التشابه بين التقنيات السائدة في العربية في الجنوب وفي حوران ولكن حري بنا أن ندقق حول هذا التشابه عن كثب، (مثال على ذلك) بالنسبة لجر المياه. فإذا كانت تقنية بناء الخزانات الصعبة المحفورة ضمن الصخر، هي ذات طابع قديم جداً في الجنـوب العـربي. يمكن التفكـير اليـوم، بأن هنـدسـة الأقنية المحفورة تحت سطح الأرض مصدرهـا بلاد الرافدين. اذن كل مبـدأ أو نظـام يسود في بادىء الأمر، في مكانه الأصـلي قبـل أن يعمـل به خارجـاً. اذن بأي زمن حدثت مثـل تلك الهجـرات؟. ومـا هي أسبابها؟ على كل حال لم يسبق ذلك، عصر تفتح الحضارة الصابئة، وفي هذه الحالة أيضاً، لماذا التسليم بأن حوران ومن ضمنـه الجبـل، لم يكن مأهولاً بالسكان الأصليين الحـضر المنحـدرين من الجـماعـات الأولى النيوليتيكية التي آخر جماعاتهم التي تعود الى السكان الآراميين الحضريين الذين تواجدوا قبل غزوة الصابئة.

واذا سلّم جدلاً، بأنـه الخـمـسـة آلاف سنـة قبـل الميـلاد كانـت حركـة هجـرة التقنيات قد انتقلت من الجنـوب الى الشـمال، (وليس من الشـمال الى الجنـوب وهـو أمر محتمـل)؟[٣٠] لماذا إذن ظهـور اقـتراح الثقـافـات المـادية بين بعضهـا البعض، عوضاً عن تبني المداخلات والتحولات الثابتة المتبادلة.

ان الاختصاصات المحلية التي حققت أنشط الاستيطان في محيط الجبل خلال الألف الـرابـع (Beaulieu ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) الا يمكنهـا ان تكـون عماد الاصـلاحات الكبيرة التي تمت؟ لأن سورية الجنوبية لم تكن صحراء البتة في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد (Dussand ١٩٢٧).

حسب معـرفتنـا الحـالية فإن موضوع «المنبت» لايمكن إلا عرضه، ولا يبدو من المفيد أبـداً للوهلة الأولى، استقـدام هجـرات استيطـانية، وعلى كل حال، يبقى من الثابت بأن الآثـار الحضـاريـة الـزراعية التي يمكن ملاحظتها، هي حديثة من وجهة نظر أهميتها، وهذا يعني بأنهـا لا تتعـدى أبـداً زمن الألف الأول قبـل الميـلاد، وهي بالنتيجـة آثـاراً لاستيطـان مُفترض قدمته لنا طبيعة البلاد الريفية الحالية ولا تعدو دراستها، الا لكونها خاضعة لأعمال المؤرخين العديدين في المنطقة.

بيير جنتيل

Pierre Gentelle

الجدول رقم (١) تصنيف الأراضي الريفية

شكل التضاريس	حالة سطح الأرض	آثار نهاء الحقول	نباتات أوزراعة	مياه سهلة البلوغ والوسائل المستخدمة
مخروطي	صخور في المكان بأشكال مختلفة كويبات بركانية خبث بركاني، ناعمة قابلة التفتت أو التبدل	رفع الأحجار	كرمة أو أشجار مثمرة	مطر، حفر اصطناعية في المنخفض
هضبة من طمي ينحدر معدوم أو ٥°٪	أحجار عديدة، صخر في المكان على ٥٠٪ من السطح	رفع الأحجار وتكديسها بأكوام مستديرة للحبوب مهم جداً ٥٠٪ من المساحة (حد أدنى)	حبوب	مطر ـ بركة
منخفض عريض في الهضبة	أرض ذات كثافة، بروز الصخور	رفع الأحجار وبناؤ ها جدراناً ٨٠٪، المساحة (أرض حرة)	حبوب	ينابيع ـ مطر
منحدرات قاسية في الوديان المنخرطة في الهضبة	بلاطات صخرية على +٥٠٪ من المساحة صخور	سطوح مبنية	حبوب أو كرمة، قليلاً من الأشجار الزراعية	ينابيع أحياناً، مطر على الغالب.
قعر الوادي	وادي متداخل أرض كثيفة من ٥٠٪ الى ١ متر	رفع أحجار وبناؤ ها جدراناً مشرفة	حبوب، كرمة، زراعة متنوعة	وادي، حوض، قناة جر، بئر، خزانات
سهول	أرض كثيفة + س ١ م	رفع احجار نسبياً، قليلة الأهمية جدران صغيرة	حبوب، زراعة الحقول	حوض، قناة جر، آبار، خزانات
اندفاعية حممية في واد	صخر في المكان، قليل من التراب	رفع أحجار وتوزيعها بشكل أكوام أو جدران صغيرة	كروم عنب	مطر

هوامش

١ ـ صور هذا الموضوع تحققت حسب المبادىء التي ذكرها السيد ب. جانتيل من قبل السيد ب. م. بلان.

هوامش المترجم

*١ ـ وقد انتقلت الزعامة في جبل العرب الى عائلة الاطراش التي لا تزال تمارسها حتى الآن، وكان من أبرز اعضائها المغفور له سلطان باشا الاطرش، قائد الثورة السورية، واحد الاعلام البارزين في تاريخ سورية الحديثة

*٢ ـ اما الحصى والحجارة الصغيرة فتوجد على شكل أكواخ مبعثرة لصعوبة بنائها منظمة.

*٣ ـ تُستخدم هذه الطرق الترابية للوصول الى الحقول والمزارع أو القرى القريبة، ويطلق عليها السكان الأسماء التالية حسب أهميتها: درب أو دروب وشريك أو مسْلك.

*٤ ـ ان موضوع الري وجر المياه في محافظتي درعا والسويداء لا يزال من بين المواضيع التي تفتش عن الاختصاصيين الذين يستطيعون وضع الدراسات الدقيقة عنها، علماً بأنه ما من مجرى موسمي أو نبع ساكن أو ساقية أو نهر في هذه المنطقة إلا ونلاحظ بالعين المجردة بقايا السدود والاقنية حولها أو فوقها، مما يدل على وجود شبكة ري واسعة قديمة تعود للعصر الاغريقي والروماني، علماً بأن معظم المصادر التاريخية، ومن بينها بعض البحوث المنشورة في هذا الكتاب تؤكد إتقان الانباط للهندسة المائية وبراعتهم باستثمار المصادر المائية على أحسن الوجوه

*٥ ـ لا تزال العديد من الخبرات منتشرة في البادية السورية والاردنية ويستفيد منها الرعاة معظم أيام السنة لسقاية مواشيهم

*٦ ـ يستخدم السكان في محافظتي درعا والسويداء اصطلاح الحجر المقصوب للدلالة على الاحجار المصقولة والمشذبة الجوانب، كما يستعملون كلمة «الحجر الغشيم» للدلالة على الاحجار الطبيعة أو «الدبش»

*٧ ـ أننا نفضل استخدام كلمة «ندرة» بدلاً من كلمة (انعدام) الخشب، لأن ما بقي من غابات في جبل العرب، وفي اللجاه، حتى الآن يؤكد وجود أشجار البطم والسنديان بكثرة، وقد استخدمت ولا تزال لصنع أدوات متنوعة للزراعة والخدمات المنزلية الأخرى

*٨ ـ وليس من وراء جبال زغروس، التي انتقلت اليها الحضارة من بلاد الهلال الخصيب في طول الخمسة آلاف سنة السابقة للألف الأخيرة ق.م

الاقتصاد الريفي والحياة الريفية في حوران القديمة
«من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن السابع بعد الميلاد»

المقدمة

باتانيا (حوران والسويداء)، تراكونتيش (اللجا)، أورانيتس (حوران اللفظ الاغريقي) بقيت بالدرجة الأولى اقليماً ريفياً حتى نهاية الامبراطورية الرومانية، أما بعض الحاضرات كانت بأغلبيتها، قرى من الدرجة العليا[1]، فالمؤرخ (A.H.M. Jones). الذي تأكد من ضعف ندرة المدن الكبيرة في حوران القديمة لاحظ الخصائص الحضارية والأساسية لهذه المنطقة، كما لاحظ الدور الأساسي للقرية في اقتصادها.

في الصفحات اللاحقة، سيلمس تطور هذا الاستنتاج السهل الذي يبهر عيون الذين زاروا سورية الجنوبية ملاحظين آثار الإعمار القديم بصورة عفوية. ويلاحظ الآن مثلما كان في السابق. ان علماء الآثار من العقد السابق، ما عدا حملات التنقيب التي تمت بإدارة (H.C. Butler)[2] «وضعوا المحراث قبل الفدان» ولاستعادة العبارة التي قالها السيد (M. Le Glay)[3] بصدد البحوث في افريقيا[1] الرومانية ـ فمن الأسهل والأسرع دراسة الأبنية الضخمة،

وجميع النقوش الموجودة فعلاً، عوضاً عن التساؤلات التاريخية حول القواعد الاجتماعية والاقتصادية للمدنية التي تمثلها، لأنها إحدى المنطقتين الأثريتين العظيمتين في سورية القديمة[1]. نظراً لكثافة أوابدها وأبنيتها الأثرية التي لم تحظى حتى الآن بدراسة محورية جوية، بمقدار ما حظيت منطقة سورية الشمالية بالعلماء والبعثات التنقيبية الذين تعاقبوا عليها لدراسة اقتصادها الريفي.

لذا لابد من تبني منهاج للبحوث يتناول حوران القديمة، متوخياً القيام بها منذ البدء، مع ضرورة استخدام الهندسة الأثرية كوسيلة للاحاطة بأسباب تطور وتخلف هذه المنطقة. وبذلك يمكن العثور على مجمل التصورات الهادفة لتوضيح جميع المسائل وعلى تحديد القواعد المدنية الريفية فيها ـ مع اقتراحنا بعرض المهمة في هذا البحث.

أما عرضنا للعمل الذي هو ثمرة ومحص في الكتب والوثائق العديدة الموجودة في العديد من الأراضي على الطبيعة، فهو كما يلي: عُرفت حوران خلال الفترة الواقعة بين القرن الأول للميلاد وبين العهد الأموي، تطوراً أستند بصورة رئيسية، على شبكة القوى المستقلة نسبياً، وكانت تتمتع بحياة اجتماعية لها طابعها الخاص. فالحاضرات التي هي قليلة العدد وبتطور مقبول، كانت تلعب الدور الاداري ـ العسكري ـ التجاري، كما هو الحال في جميع المدن القديمة لحوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن المظهر الرئيسي للحياة الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة لم تكن مدنية بل قروية.

من المناسب عدم اهمال دور العرب الرحل المتواجدين دون انقطاع على الاطار الصحراوي لحوران، وكانوا على ما يبدو، أكثر تواجداً في الجولان، وفي أول وآخر عصرنا الحالي، كانوا بتماس مع الحضريين بسبب الدور الذي كانوا يقومون به في تجارة القوافل، تربية المواشي، الدفاع عن الحدود مع بعض محاولات التحضر في القرى أيضاً. من جهة أخرى يكون من الخطأ اعطاء الحضريين والرحل أهمية متساوية في تلك الحقبة المميزة، سيشاهد الفرق في التوسع المذهل للعمران الحضري والنتيجة الزراعية حتى شملت قليلاً بعد قليل جميع الأراضي الحورانية.

ونحن لانعير أهمية جازمة للحدود المرسومة لهذا البحث الى وقت ما. لأن المستندات الكتابية من نصوص وآثار بدأت بتكوين بعض الوقائع، اعتباراً من منتصف القرن الأول لعصرنا هذا، أما سبق ذلك، لقد كان مظلماً قاتماً، ولكن عاجلاً أم آجلاً يجب أن نستنير[2].

مادام هناك ضرورة لمعرفة أساس الاستيطان الحضري والزراعي الذين لم ينفصلا قط عن (المدينة السابقة exnchilo) أما في نهاية الحقبة، فإن الفتح الاسلامي خلال القرن السابع لم يغير بالحقيقة النمط الحياتي في قرى حوران ولم يُلحق خراباً يذكر في المنطقة، ورغم ظهور

بعض التخلف خلال القرن السابع، حسب المعلومات المستقاة حالياً، غير أن دراسته بقيت مقودة من قبل مؤرخين ومهندسين مختصين بالآثار الاسلامية.

لقد تم تركيز الحدود الجغرافية لهذا البحث بشكل جيد وقد شملت المنطقة البركانية الواسعة لحوران التي كانت تشكل وحدة صخرية (أراضي مكونة من البازلت) ووحدة مناخية (في داخل خط المطر ٢٠٠مم)[٦] مختلفة. ووحدة مدنية حضارية لفتت الانظار للوهلة الأولى بهندستها الريفية.

يحدها من الشمال: الغوطة الدمشقية ومن الشرق السهوب الصحراوية (الصفا والحماد) حيث الزراعة غير المروية متعذرة ـ وفي الجنوب: بادية شرقي الأردن وعجلون والتي لاتعتبر في المنطقة البازلتية ـ في الغرب: القسم الغربي من الجولان الذي يعتبر متمتعاً بمنطقة اسكان يتعدد فيها العناصر (وليس لنا فيها أي نشاط) أما جبل الشيخ (حرمون) يبقى منطقة متلاحمة تصل مساحته الى ٩٥٠٠كم٢.

الوثائق والمستندات

تتطلب محاولة التحقق والجمع الواسعة، اللجوء الى توثيق أكثر سعة وتنوعاً. ان الرحالة والبعثات في القرن الماضي وبالتحديد خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن قدموا لنا مواداً غنية بالنقوش وخاصة السيد Waddington[٧]، littman وبالهندسة المعمارية (Butler)[٨] كانت الجغرافية التاريخية مدار بحث لبعض المواد التي ترجع الى ما قبل ثمانين سنة من الآن[٩]، فيما عدا بعض الملاحظات المبعثرة الصادرة عن أعمال بعثة بتلر. إن العودة الى الأعمال الأثرية في حوران خلال سني (١٩٧٠) قدمت مجموعة وثائق لنقوش يونانية ولاتينية عن بصرى من قبل السيد (Sartre)[١٠] وسلسلة من الدراسات والتقارير التمهيدية[١١].

إن الدراسات والبحوث عن الحياة الريفية في حوران القديمة (الأثرية) يمكن أن تستند الى المنشورات الموجودة بشكل مرضٍ بالنسبة للنقوش اليونانية واللاتينية، والسامية (خاصة النبطية) أما بالنسبة للنصوص الكتابية الأثرية، أو العائدة للعصر الوسيط، فالهندسة المعمارية الريفية هي قليلة التوثيق. ولا شيء يذكر عن بقية المجالات ان الدراسات الحالية تستند الى مجمل مادتين جديدتين. يتعلق الأمر هنا بتغطية المنطقة بالصور الجوية الفوتوغرافية العامودية، على مقياس يتراوح بين ١/٣٠٠٠ الى ١/٢٥٠٠٠، وهذا يتوافق مع خرائط دمشق ـ السويداء مقياس ١/٢٠٠٠٠٠ للشرق، تلك التغطية التي أنجزها الطيران العسكري الفرنسي خلال أعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥ فهي كاملة وبمستوى مقبول بالنسبة لجبل حوران «حالياً جبل العرب» الذي هو منطقة سكن الدروز. وهي بالمقابل تعتبر ناقصة فعلاً، بالنسبة لبقية أجزاء حوران، سيما الهضبة الحورانية الخصبة (النقرة ـ الجيدور)

ويعتبر هذا الغطاء مع ذلك اداة تقارب، يتعذر استبداله فيما يخص السكن الريفي والاستثمار القديم من تمركز المواقع المأهولة بالسكان ـ التوسع الزراعي ـ تنظيم مقاسم الأرض ـ وقد أتاح الفحص المتمم لدراسة الأرض تقديم فرضيات تعتبر نقاطها الأساسية الدقيقة هي بكل وضوح علم الأحداث التاريخي لمختلف الأوضاع في حيز من الأرض.

من جهة أخرى فإن معظم التنقيبات وحملات البحث، عن الكشوفات خلال الأعوام ١٩٧٧ ـ ١٩٨٥، ومن عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٠ بالنسبة للوثائق الواردة هنا في هذا الباب، اتاحت لنا جمع مستندات ووثائق جديدة، معطيات طبوغرافية أوغيرها تخص القرى الأثرية، بيانات معمارية وخاصة بيوتاً ريفية، التقاط الأجزاء الخزفية من على وجه الأرض، وعرضاً بعض العملات، وأشياء أخرى[١٢].

إن مجمل تلك المستندات الجديدة، فيما عدا الخزفية منها، التي هي قيد الدراسة، ستكون متواجدة هنا والتحري التركيبي أو التأليفي وحده، يسعى لتقليص وتضييق الهوة بين البحث الأثري وبين أعمال المؤرخين وبالنسبة لهؤلاء الآخرين سيكون موضوع السؤال، خاصة عن التاريخ الروماني والبيزنطي الأولي. أما مواضيع الأمكنة الكبرى والمستوطنات من جهة، والقرى الريفية من جهة أخرى. فهي تشمل عدداً من المواضيع والمسائل، سيعود الاهتمام بها من وقت لآخر[١٣] وبالنسبة للشرق، فالفرضية التي يمكن التسليم بها، هي الخاصة بالسيد Lemerle[١٤] التي تناولت فلاحي الامبراطورية العليا، وصغار المالكين الأحرار، إن أحداث القرن الثالث والعهد الاصلاحي «لديوكليسين» قادت الى التخلص من الملكيات الكبرى. والمستوطنات، للابقاء على فلاحين متعلقين مستقبلاً بالأرض، في سبيل تموين الامبراطورية بالمواد التموينية، على حساب المجتمع الريفي. هكذا انعكس الوضع بعد احداث القرن السادس والسابع والفتح العربي. ضمن ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية.

يبقى عالم الآثار في بادىء الأمر متردداً تجاه هذه المحاولات الكبيرة، فالدراسات الواقعية بالنسبة للمنطقة السورية، هي بمفهومها الواسع نادرة، ولقد بقي J. Bradford صامتاً بالنسبة للشرق، في عرضه موضوع الريف الزراعي الروماني[١٥]. أما بالنسبة لفلسطين، فقد حاول D. Sperber منذ القرن الأول الى أوائل القرن الرابع، تبيان طريقة الانتقال الى تنمية مكثفة ومنتجة للأرض بواسطة استثمارات صغيرة مستقلة عن أي نظام واسع ضعيف الانتاجية يستند على ملكية كبيرة، منتشرة في بلاد ينعدم فيها السكان[١٦]. ولكن تلك النتائج ترتكز على بعض النصوص التلمودية (المفسّرة) تفسيرات شيقة. وفي الكتلة الكلسية لسورية الشمالية، عرض السيد G. Tchalenko، دون دراسة أراضي القرى، ودون استعمال الخزف لمعرفة تسلسله التاريخي. مخططاً يرمي الى وضع اليد على الملكيات

الكبيرة الطارئة على المنطقة في القرن الأول والثاني للوصول بواسطة تجزئة الملكيات الموجودة خلال القرنين الثالث والرابع الميلادي أيضاً، الى نظام مبني على الاستثمار الحر المستقل، وعلى التجمع الريفي وهو نظام وصل الى الأوج في القرن السادس.

يؤكد «ماك مولن» في مقالة حديثة، بليغة باختصارها، هدفها التحقق والتجمع. أن فلاحي الامبراطورية الرومانية قلما عرفوا أو عرفوا معرفة ناقصة مشوهة. ولدراسة سكان حوران القديمة يصعب الانطلاق من خطة رائدة مستوحاة من المعطيات التاريخية العامة المؤيدة بشهرتها، خاصة بالنسبة للخطوط الكبرى للتطور الزمني.

ونحن لا نعمل هنا للاقتراب من التسلسل التاريخي للموضوع، لأن ذلك متوقف على دراسة كاملة للخزف، وعلى اعداد تسلسل تاريخي أكثر وضوحاً يتعلق بالعمارة الريفية[18]، كما علينا أن نضع أنفسنا ضمن خطوط الأفكار اللاحقة، لوصف أنماط الحياة الريفية في حوران الأثرية القديمة على نطاق واسع. وهذه المسائل يمكن تصنيفها على الشكل التالي:

- الإعمار: - مواقع نشطة - اعمار الحضريين والبدو الرحل. أهمية الإعمار الطارئة (مثلاً الجنود أو المحاربون الرومان القدماء).

- التاريخ الاجتماعي: ويتضمن تنظيم الأرض، شبكة القرى، وضع الأراضي، تنظيم القرية نفسها، التوطن، الاشكال الأخرى لاحتلال الأراضي، الملكيات الكبرى، الدير.

- الاقتصاد الريفي: الانتاج والتجارة، العلاقات مع حاضرات المدن.

يوضح الفصل الاقتصادي الممكن: - دور روما في ذلك ودورها في التوسع في المناطق المزروعة، وبخط متناظر مع موضوع الانحطاط ودلائله وتاريخه.

التمهيد الجغرافي

ليس من السهل ان يعزى لحوران القديمة الخصائص الجغرافية التي تمتلكها المنطقة اليوم وقد وجد العديد من العلماء ومن عدادهم بتلر[19] الذين تنبأوا عن فرضية التصحر الاقليمي، كتفسير لهجر عدة مواقع، ولانحسار مناطق مزروعة (لا تزال واضحة حتى أوائل القرن، وأقل وضوحاً اليوم. كون البلاد عاد استيطانها بشكل واسع). وذلك في نهاية العصر الروماني - البيزنطي حسب رأي Butler ، وقد وضعت النقاط على الحروف بشكل كامل بالبحوث التي قام بها K. Butzer حول مناخ العهد الجيولوجي القديم W. Strongly negate any overall climatic change in the sense of a progressive dessication withins the last 2500 yeans [20] وهذا لا يستثني ان مثل تلك التغيرات الطفيفة في نسبة الأمطار، ومثل تلك

السلسلة الطارئة لأعوام من الجفاف، وخاصة تلك التي وقعت بين أعوام ٥٩٠ ـ ٦٥٠، وكان لها نتائج حاسمة وأكيدة، حول سكن هذه البلاد المرتبطة ارتباطاً شديداً بتهاطل المطر سنوياً. ومن خلال البحث الحالي[٢١]، حيث لا مزيد من القول والنتيجة، تحصيل الحاصل، يستنتج بأن هجرة القرى، وما يستدل من التصحر الاقليمي، كلاهما يعودان الى أن تدهور التربة والري سببها الرئيسي هو الجفاف[٩٥].

بانتظار دراسة اقليمية لعلم المناخ، مرتكزة، بنوع خاص على الأبحاث العلمية التي موضوعها أو وسيلتها الغُبيرات، أو غبار الطلع، والتي وضعت أولى معالمها في صيف ١٩٨١، شعرنا انفسنا مشدودين للاعتماد على الملاحظات وعلى الشعور الجيد بالأمور ولو بصورة مؤقتة، مثال «حالة القرية» «مجدل الشور» (Majdel ash shor) الواقعة على تخوم الجنوب الشرقي من حوران، وعلى حافة السهوب هناك، كانت في القرن الرابع الميلادي قرية من الحجم الصغير (٢٠٠ ـ ٣٠٠م٢) ولكنها مأهولة جداً بكثافة سكانية حوالي ستين بيتاً وقد تأكد استيطانها حتى العهد الأموي وربما حتى القرن التاسع واستوطنت من جديد حتى العصور الأيوبية والمملوكية (القرن ١٣ ـ ١٤م) فقد وجد العدد الكبير من البرك المكشوفة حول هذا الموقع كان بناؤ ها قديماً.

بعد هجر «المجدل» في القرون الوسطى، لم يعاد استيطانها الا في عام ١٩٣٩ من قبل السكان الدروز الذين قدموا إليها من قرية عرمان الكبيرة، وفي عام ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ حمل الجفاف جميع السكان تقريباً على العودة الى عرمان حيث لم يبق في المجدل اليوم سوى ثمانية بيوت. اذ أن البرك فيها فارغة من المياه بصورة دائمة. وخلال الجفاف الذي وقع عام ١٩٧٩، توقفت حياة القرية على جلب المياه بواسطة الصهاريج من جوار السويداء وعلى بعد ٤٠كم[٢٢].

ها هي حالة قرية قديمة كانت مزدهرة، تتوفر فيها المياه بصورة كافية، وقد حل محلها قرية حديثة ينعدم فيها كامل مقومات الحياة، وهذا مايضطرنا للقول جازمين، بأن قرية مجدل (أو القرى الأخرى المهجورة في الجوار) كانت تستفيد من استجرار المياه بغزارة من أعالي الجبل، هذا الاستجرار الذي رغم وضوحه، لم يعطنا أي تفسيراً ودلالة بأن غزارة الامطار كانت تفوق عصرنا الحالي طيلة عدة قرون قديمة حتى المتأخرة منها. وهذه هي الفرضية الأكثر تقبلاً، مع العلم بأنه قد حدث تبدلات مناخية على أطراف البادية، كانت كافية للحد من امكانية استمرار الحياة في القرى.

اذا ما انتقلنا الى موضوع الأراضي والغطاء النباتي، نجد أن ريف جنوب سورية لا يطرح أية مشكلة خلافاً لشمال سورية اذ لايوجد أي جزء في حوران محروماً من وجود موقع قديم مستوطن لا يمثل حقيقته، سيما، اذا امعنا النظر في الوضع الحالي للأراضي التي تحيط بها (فالشكل رقم ١) الذي يمثل خريطة مفصلة للأراضي الواقعة شرق «امتان» على

Fig. 1. — Carte des terroirs de la région d'Imtān, réalisée à partir de photographies aériennes anciennes.

الشكل رقم ١ خريطة اراضي منطقة «امتان» تحققت بواسطة الصور الجوية القديمة

التخـوم الصحـراويـة لحوران، يبـين وجـود قطاعات واسعة من الحقول القديمة المهجورة - وحسب الكليشيهـات الجـويـة، تتنـاقض تلك الحقـول الـرمـادية اللون بصورة واضحة مع الألوان القاتمة أو الفاتحة للحقول التي تزرع اليوم، وعلى وجه الأرض تظهر الحقول المهجورة مغطاة بحصى متوسط الحجم وينقل الطمي من العصر الايوليوني، التراب السطحي طالما الحقـل قيـد الـزراعـة والمـزارع يرفع الحصى بانتظام، ويُكَوّنْ رجام أويَرْصُفه ضمن خطوط مستقيمة، ولكن حينما يهجر الحقل بدون زراعة يعود الحصى ليغطي أرضه على مرور الأجيال.

أمـا المنطقـة الثـانية، الواجب التصدي لموضوعها هي احتمال اجتثاث الحراج واتلافها لأن حوران اليـوم، فيـما عدا بعض الأشجـار على منحـدرات الجـولان، لا يوجد فيها الا بعض الغابات المتوسطة الحجم من السنديان القرمزي، متواجدة في بعض قطاعات الجبل، عادت كأرض موات (بـين الـسـويـداء و سيـع شمال الكفرحول حبران) وهي ممثلة على الخرائط، ذات المقياس ٠٠٠ ٥٠/ ١ الصادرة عن ادارة المساحة السورية، غير أن (حزقيال) ٢٧ : ٦) في القرن السادس قبل الميلاد كان قد أشار الى الاشجار الكبيرة لباشان، وكلمة باشان تعني الاسم التـوراتي لحوران، فهـل كانت هنـاك غابـات حقيقيـة، في القـرن الأول وخـلال العصر الـرومـاني؟. يشـك في ذلـك. لأن الخشب لم يستعمـل قط في البنـاء، وكـان يحل محله نوع الاكسـاء الثقيـل مؤلف من الألـواح الحجـريـة البازلتية، كان حري بالبنائين أن يستغنوا عنها لو تمكنوا من وضع الخشب بدلاً منها، فمن المحتمل أن يكون غياب الغابة قد وقع قبل العصر الكـلاسيكي أوعلى الأقـل، كان على وشـك الاكتمـال. بعـد التمحيص، في الصـور الفـوتـوغـرافيـة لجبـل حوران تبين بأن الاستعمال الزراعي للأراضي قد امتد كثيراً بحيث لم يفسح مجالاً لظهور منطقة مغطاة بالغابات. وان الدراسات الباليولوجية (موضوعها ووسيلتها غبار الطلع وتأثيره) تأتي بإيضاحات[٢٣].

اذن يمكننا التحدث عن جغرافية حوران القديمة كما نتحدث عن جغرافيتها الحالية، وبصورة مبسطة، ومن الأهمية بمكان ان نميز فيها بعض القطاعات الكبيرة التي لها امكانية مختلفة.

فالجبـل من شهبـا الى صلخد، ومن السويداء الى الشحف، الذي يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و١٨٠٠م، هوكتلة بركـانيـة ذات سفـوح معتـدلة الانحدار وقابلة دوماً للزراعة نظـراً لطبيعـة سطحهـا فالـواقع، وبنتيجة تدقيق الصور الفوتوغرافية الجوية للقطاع تبين بأن القطـاعـات، التي لم تخضـع للزراعـة في عصرغزارة الانتاج القديمة، كانت نادرة جداً، ولو فرضنـا جدلاً، أن المنحـدرات لاتحـول أبـداً دون السـير مشيـاً على الأقـدام أوعلى ظهور الدواب، غير أنها تعتبر مانع للمتجولين على الطرق وفي القطاع المركزي للجبل، فإن درجة

الارتفاع فيه لا تشجع على التوطن الدائم، بسبب طبيعة الرياح الشتوية الشديدة وتساقط الثلوج الـذي يستمـر حتى شهـر نيسان. ولهذا لايوجد أي قرية قديمة بين «السويداء وصالح» أو بين خرائب أعلى وادي «سيـع» (مثـل خربـة «ام الجلود»، على بعـد ٣,٥ كم فوق البناء الذي يعـرف «بسيـع») والمشنف، لذلـك تشكل تلك القرى حزاماً من العمران حول الجبل، تتصاعد نحو أعلى السفح لتلقي الأمطار التي تتناقص بسرعة حينما يزيد الانحدار نحو الشرق وباتجاه الحماد، وعلى هذا الجانب فإن طرق القرى المنتهية الى السهوب هي خفيفة وغير كثيفة، أما على العكس باتجاه الغرب يحقق هذا الجانب الاتصال مع جميع قرى «النقرة» الخصبة.

في هذا القطـاع الجبـلي لحوران، عمل التحات والانجراف الشديد عبر المنحدرات، وكـذلـك المسكوبات البازلتية التي لم تتفكك جيداً والتي يعود منشؤ ها الى أول أدوار الحقب الـرابـع، على جعـل تربته كثيرة الحصى، لذا كان أول ضرورات الحياة، بالنسبة للقرويين القـدماء، رفع الحجارة، وتكديس الحصى على الرجام(٥٠) أوعلى جدران صغيرة مرتفعة، والمحافظة على تلك المساحات والسطوح من عودة الحجارة اليها(٢٤).

اجمـالاً، ينظـر الى هذه الأعـمال بأنهـا غير ملائمـة لمفـاهيم الحراثة (فيما عدا أطراف الهضبـة) ولكنهـا غير مضـرة بالنسبة لزراعة الكرمة والزيتون، رغم كون البرد الشتوي يجعل زراعة الزيتون شديدة الخطورة.

فيـما يخص الطـاقـة المـائيـة، فإن جبل حوران هو القطاع الأفضل تزوداً بها، أما بقية المنطقة فهي أقل نصيباً في المياه (ما عدا الجولان)(٢٥) الذي يستقبل فيه الجبل سنوياً أكثر من ٣٠٠مم من الأمطـار، وبصـورة أوضـح، أكثـر من ٤٠٠مم في الجـزء الأوسـط منه ومن هذا الواقع، فإن هذا القطاع يلعب دور الخزان المائي في أكبر جزء من حوران حيث تتجمع فيه ينـابيـع الميـاه (أكثـر من ٦٠ ينبـوعاً على السفح الغربي)، من بينها عدد كبير دائم التدفق، وهي كما ذكرنا سابقاً نادرة في بقية حوران فيما عدا الجولان، وهناك نتيجتان تاريخيتان يمكن استخلاصهما:

- ان الجبل الحوراني ملائم جداً للتوطن الحضري.
- ان المنـاطق الكـائنـة في الأسفـل، هي، بالنسبـة لتأمينها بالمياه، تابعة لنظام جريان مائي من مياه الجبل طيلة جريان الوديان.

للوقـوف على عرض أكمـل لهذا المـوضوع، لابد منه مراجعة مقالة P. Gentelle التي عنوانها (الدراسة التاريخية لمحيط «سيع - قنوات») في هذا المجلد.

أمـا الهضبة الحورانية «المعروفة حسب التعريف الحالي «بالنقرة والجيدور» التي تمتد بين امتـان ومـزيـريب، وبين درعا وغباغب، فإن أرضها تعرف بخصائص تختلف عن تلك التي يتمتـع بها الجبـل وطبـوغـرافيتهـا منبسطـة نسبيـاً، يتخللهـا براكـين منعـزلـة، وبارتفاعات

تتراوح بين ٦٠٠ و١٠٠٠م واستثنائياً على ارتفاع ١٢٠٠م على الأطراف الشرقية، حيث توجد أراضٍ أكثر كثافة وأقل تحجراً. ومع ذلك، فالاستثناءات فيها عديدة ناتجة عن توضع اندفاعات العصر النيوجيني، وعَن ضعف الامطار التي يقدر متوسطها ٢٠٠ الى ٣٥٠مم سنوياً، مع ندرة عدد الينابيع، باستثناء الغرب، على المنحدرات الأولية للجولان[٢٦]، فالموضوع الرئيسي لا يقوم هنا، برفع الحجارة، بل بتأمين المياه، لذا توضع العديد من القرى الكبيرة في هذه المناطق، وبصورة متواصلة، على المرتفعات الصخرية مفسحة المجال للاستفادة من الأراضي القابلة للزراعة حولها.

تتميز المنحدرات الشرقية لهضبة الجولان (الزوية الشرقية - الجيدور الغربي) بطبوغرافية ذات تأثير شديد وبنظام مائي أكثر فائدة (من ينابيع - مجاري مياه منحدرة من كتلة جبل حرمون). من بقايا أشجار متوضعة في (تل الجابية مثلاً شرق نوى) ولكن مجمل المنطقة تبدو أكثر حجارة من حوران الوسطى[٢٧].

يبقى أقسومتانِ صغيرتان من حوران، تتمتعان بخصائص فريدة، وهما: «اللجا» وهي عبارة عن مثلث مساحته ألف كيلومتراً مربعاً تقريباً، محصور بين شهبا - براق - ازرع. انها اندفاعية حمية من العصر الهليوسيني، متماسكة، لا تتوفر فيها أي أراض ترابية، باستثناء بعض المنخفضات الخصبة التي لم تصلها الحمم الاندفاعية.

وقد بنيت فيها القرى على مقربة من تلك الأحواض المنخفضة، أما بقية المنطقة، فهي موحشة تبدو وكأنها مقفرة تماماً، غير أنها لا تنعدم من تواجد بعض الرعاة والعصاة الذين وجدوا فيها الملجأ، هذه الجزيرة الصغيرة غير الخصبة وغير الآمنة، شهدت مع ذلك استيطاناً قديماً. توضّع بصورة منفصلة على محيطها، وهذا بالتأكيد، بغية الاستفادة من الوضع الدفاعي الذي تقدمه أطراف اللجا الوعرة جداً.

يوجد شرق اللجا وشمال الجبل، منطقة ساسيه حول «شقا» وهي على العكس، هضبة صغيرة خصبة جداً، ذات طبيعة طبوغرافية هادئة، كون موقعها قريب من الهضبة الحورانية، وهي أفضل بسبب درجة ارتفاعها عن البحر وقربها من الجبل، مما جعل مشاكل المياه أقل تعقيداً.

ان تنوع الأوساط التي مر ذكرها، يسمح بتفهم، تنوع طرق، استيطان الأرض التي ستكون موضوع البحث، ولكن الغريب في الأمر هو وجود بعض القرى، من نفس الطراز، في هذه المناطق التي تختلف جغرافيتها الطبيعية تمام الاختلاف، وهنا يوجد واقع عمراني يستدعي المحاولة لالقاء الضوء عليه.

العمران في حوران القديمة

ليس من فائدة تذكر، بالنسبة لموضوعنا هذا، اذا حاولنا الذهاب بعيداً الى ما وراء عصر الهجرات الآرامية الكبيرة، هل من خطر حقاً في الذهاب للبحث قبل الألف الثانية للميلاد حيث يعرف بأن ثورات بركانية غزيرة كانت قد اقتحمت حوران، حتى تاريخ حديث ولكنه لا يزال غير دقيق وأكيد (على سبيل المثال ـ وزيادة في الايضاح ـ تشمل هذه الاندفاعات. الصفا، الكراع، الوَعَرة)[٢٨].

أظهرت بعض الوثائق النادرة، بالنسبة لأول العصر الحديدي، وجود بعض المدن العديدة المحصنة، منها الستون مدينة لمملكة «عوَج» في باشان، والتي ورد ذكرها في كتاب (يشوع والملوك الأول) والتي اكدتها مراجع غير توراتية[٢٩]، وبجانب تلك المدن كانت هناك على مايبدو، عدة قرى أشار إليها صفر تثنية الاشتراع[٣٠] وأشهر بعض تلك القرى (أدرعي (ذرعا) وسلكا (صلخد اللتان كانتا مركزاً للعمران في العصر الكلاسيكي، وهناك غيرها مثل عشترون (حالياً تل عشترة) الواقعة على بعد ١١كم الى الغرب والجنوب الغربي من الشيخ مسكين[٣١] والتي انهارت عماراتها مع الزمن

من جهة أخرى هناك بعض الدلالات تتيح التساؤل، كيف كان الاقتصاد والاعمار الحوراني، في ذلك العصر؟ لنذكر ما جاء بالمزمور ٢٢ : ٣، ١٤ قد احاطت بي عجول كثيرة. ثيران باشان اكتنفتني. . . وفي نبوءة حزقيال: ٢٧ :٦ «اصنعوامقاذيفك من بلوط باشان[١١٥]. . (القرن السادس)»، وفي نبوءة عاموس: ١٤ : ١ :«اسمعي هذه الكلمات ياعجول باشان التي ترعى في جبل السامرة. . . (القرن الثامن)»، وفي سفر تثنية الاشتراع : ٣٢ : ١٤ «وزبدة البقر ولبن الغنم مع شحم الخراف وكباش بني باشان والتيوس. . .».

اليس هذا كافياً، لتتبع F. M. Abel [٣٢]، حينما استخلص من ذلك بأن المنطقة كانت لا تزال مشجرة في ذلك العصر، وكانت تعرف اقتصاداً جيداً متجهاً بكامله نحو تربية الحيوانات، وخاصة منها البقر، ولا نزال، نجهل اذا كان سكان حوران الحضريين في العصر الحديدي الثاني الذي لايعرف علماء الآثار أي شيء عنهم ـ هم لبنة الاستيطان في العصر الكلاسيكي.

أما بالنسبة للعصر الفارسي، فإن الدلالة المهمة الوحيدة التي يصعب تفسيرها جيداً هي اكتشاف كنز ضخم من العملات (سبائك وحلي)[٣٣] بالقرب من الحدود السورية ـ الاردنية، ونظراً لعدم توفر المعلومات لزيادة الايضاح عن مصدرها، يتعذر ابداء الرأي فيها.

في العصر الهلليني تأتي برديات «زنون»، ثم كتب المكابيين على ذكر حوران باختصار[٣٤]، فالأولى مذكرات ادارية وتجارية من منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، جاءت على ذكر حوران مرة (PSI IV 406) [٣٥]، ومرة أخرى على ذكر الأوابد (المواقع) التي قد تكون

حورانيـة مثـل، «حيـط» على الـيرموك أو «الهيث» في منطقة ساسيه؟ (Eitou) أو نوى(؟) (Non)
[٣٦]، والثانية، الواردة في قصص اسفار يهودا المكابي عام ١٦٣ قبل الميلاد، تذكر سلسلة من المواقع القديمة اتفق اجمالاً انها موجودة في حوران، ومادام علم الآثار لم يأت على غير هذه النصوص الجافة، وطالما لم يمكن التحقق من تلك المواقع [٣٧]، فماذا يمكن استخلاصه من تلك التنـويهـات والاشـارات؟ في القـرنـين الثـالث والثـاني قبل الميلاد، بأنه كان فيها ضيع وقرى، وأماكن محصنة، وقلة قليلة من السكان.

في نهايـة العصـر الهيلليني، خرج سكـان حوران من الظلمة، وحسب الوثائق المتوفرة حالياً، فإن منطقة حوران، دخلت في سجل التاريخ منذ القرن الأول قبل الميلاد، ومنذ ذلك الـزمن كان يتـوفـر عنها ما يكفي من النصوص العائدة لمؤرخين يونان ورومان، ومن النقوش اليونانية والنبطية، ومن الآثار الهندسية المعمارية.

ـ مجموع هذه الوثائق أظهرت وجود عمران وتنمية بمستوى مقبول، ولدينا ثلاثة أمثلة على ذلك:

ـ في «سيع» على الجبل، شرع ببناء المعبد الكبير «لبعل شامين» خلال عام ٣٣ قبل الميلاد[٣٨]. وبصب مثل هذا الصرح يفرض مستوى مهم من العمران والثروة.

ـ وأيضـاً في «سيـع» فقـد أشار J. Dentez-Feydy بعد أن أصلح نقشاً يونانياً ـ نبطياً، (يعـود لأواخـر القـرن الأول قبل الميلاد)[٣٩]. نرى فيهما وحدة فنية وتاريخية. وقاعدة تمثال[٤٠] بأن الأورانيتس (أي جبـل حوران) هو بمثـابـة هضبة مغطاة بالكرمة، وقد استنتج من ذلك بأن زراعـة الكـرمـة وصلت في هذا القطاع الى مستوى عال خلال القرن الأول قبل الميلاد[١٢].

ـ وعلى نطاق أوسع فقد أعطى (Joseph) أدلة واضحة عن توطن حوران في المنتصف الثـاني للقـرن الأول قبـل الميـلاد، بالتحـديـد، قبـل ٢٣ سنـة بقليل من الميلاد، أما السيد «قـارون» حاكم سوريـة فقد كتب الى أوغسطس ناقلاً إليه شكاوي جيران «اللجا» والذين كانـوا ضحيـة السلب والنهب من قبـل سكان اللجا[٤١]. وبالاستناد الى هذه الوثيقة، وعدم توفـر ايضـاحـات أكثـر بهذا الخصـوص، يمكن الاعتقاد بأن سكان حوران في هذا العصر، كانـوا بمثـابـة تجمع من القرى الحضرية (هذا بالنسبة للشاكين) ومن نصف بدو رحل (وهم مثـير وا الفتن والقـلاقـل في اللجا وفي المناطق الأخرى المتخلفة). وبالنسبة لهؤلاء الآخرين تفيد نصـوص جـوزيف[٤٢] ـ وسترابون[٤٣] وأيضاً مرسوم (اغريبيا الأول[٤٤]) بأنهم لم يكونوا يمارســون الـزراعــة بل كانــوا يعيشــون، من جهـة، من الغـزو، ومن جهـة أخـرى من تربية المواشي، ولأجل ذلك، كانوا يلجأو ن الى التنظيم الهيدروليكي (المائي) الذي يمكن تعـريفـه «بتنظيم الـبرك». وهي كنـايـة عن خزانـات للميـاه، كانت تغذيها مياه المطر وعند الاقتضـاء ميـاه الوديان المسحوبة عن طريق الجر، وكانوا يقطنون حسب التقليد في مغرٍ تحت

سطح الأرض. بالاشتراك مع الحيوانات، ولم يكن باستطاعتهم االدخول الى هذه المغر إلا افرادياً[٣٥].

اثبتت تحرياتنا (نقطة بعد نقطة) صحة هذه الاوصاف الأخيرة، التى قد تبدو بأنها خرافية ولكن «ويتزتاين ووادينفتون»[٤٥] شعروا بصحتها. في اللجا، مثلاً (على بعد ١ كم من الجنوب، والجنوب الغربي من أم الزيتون)، وأيضاً في أماكن أخرى (على بعد قليل من شمال أم الرّمان، ١٢ كم جنوب، غرب صلخد)، توجد أنفاق عبر البازلت بطول عدة مئات من الأمتار وبارتفاع وعرض بعض الأمتار، ويمدخل غير منظور عادة، أرضها مغطاة بكسر من الخزف وبفضلات عضوية، كانت تلك المغر، مستخدمة حتى عصر متأخر كزرائب للخرفان، ومثل هذه السراديب متوفرة في جميع المناطق الصخرية المنبسطة في حوران، وأيضاً في الجبال يوجد النماذج الأخرى من هذه المغر، وهي أقل عمقاً، داخل طبقات الحمم البركانية Scorie نذكر منها مغر تل «أبو بيناما» (على بعد ١,٥ كم جنوب شرق بثينة ومغر «تل الحسن» (على بعد ٨ كم شرق صلخد) ونخص منها المغر الواقعة على واجهة وقمة «تل قليب» (على بعد ١٠ كم من الجنوب الشرقي للسويداء). فالكثير من هذه المغر كانت مجهزة بخزانات كبيرة للمياه محفورة ضمن الصخر ومغذاة بالمياه بواسطة فتحة جريان، يمكن الوصول إليها بسهولةبواسطة درج يقود الى أرض غرفة واسعة، يصل ارتفاعها الى عشرة أمتار طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وبدون، أدنى شك، يعود متطلبات هذه الأحجام الواسعة، لتلك الخزانات القممية، الى شدة الثلوج الشتوية على الجبل.

ان أهمية عمران وتنمية حوران في العصر الهيلليني، التي سبق أن مررنا على البعض من شواهدها القديمة، قد نسبت الي النبطيين بصورة كلاسيكية[٤٦]. وهذه الفرضية ترتكز على وثائق تثبت بأن المملكة النبطية في القرن الأول قبل وبعد الميلاد، كانت تشمل حوران الجنوبية حول بصرى وصلخد، بواقع وجود عدة نقوش نبطية في هذا القطاع تتعلق بتفسير المركز الديني الشعائري لموقع سيع بكونه معبداً نبطياً، وعلى جملة من النصوص توضح فعاليات النبطيين الحيوية في حوران والجولان وحتى دمشق من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الأول بعد الميلاد.

ومما لاشك فيه بأن الجزء الأكبر من حوران، وقد يكون بكامله، كان تحت السيطرة العسكرية النبطية، اعتباراً من أول القرن الميلادي على الأقل، وخاصة خلال حكم اريتاس الثالث حوالي الأعوام ٩٠ ـ ٦٠ ق.م)، أي اعتباراً من الثلث الأخير للقرن الأول قبل الميلاد، وحتى ضمه الرومان نهائياً (عام ٩٣ ـ ٩٢ ق.م) بالنسبة للثلثين الشماليين، وعام ١٠٦ بالنسبة لثلث المنطقة الجنوبي. كانت المملكة النبطية قد ضمت جنوب حوران، أما شماله، فقد كان تحت الحماية والوصاية الرومانية أو جزءاً مشمولاً في ولاية سورية الرومانية.

اذن، الحديث هنا يدور حول وقائع سياسية تعود بالنفع على التطور الاقتصادي للمنطقة، حيث أن حوران عرفت، منذ ذلك الحين، نظام الأمن طيلة وجودها تحت قبضة الامبر ياليين الرومان الذين نشروا الأمن بواسطة عملائهم في المنطقة[17]، ولكن هذه الوقائع لم تكن من صنع السكان لأن لا أحد منهم فكر يوماً، بأن شمال حوران سيتأثر، باليهود بمجرد أن حاكم الولاية الروماني والبعض من خلفائه جعلوا من هذه المنطقة مرتعاً للعملاء منهم، ومن الفطنة والحكمة الانتباه الى دور النبطيين في حوران تجنباً للوقوع في أخطاء لا تحمد عقباها.

وتحديداً فإن عدد الكتابات النبطية في القرن الأول بعد الميلاد، والعدد الكبير أيضاً من عملة السبر ونز النبطية التي اكتشفت خلال تنقيبات موقع «سيع» والتي أبانت مدى السيطرة المطلقة للنبطيين في هذ العصر بالذات، يجب أن لا يبالغ في تفسيرها، لأن لغة النقوش اليونانية والنبطية التي كانت سائدة، وذات نفوذ لم تكن بالضرورة اللغة العامة، لان تداول العملات اثبتت سيطرة الانباط التجارية فقط على جميع حوران في القرن الأول الميلادي.

ان موقع «سيع» الذي أقره «بتلر» منطقة نبطية، بقي ضمن هذا المفهوم لدى جميع المؤرخين ومع ذلك فإن «بعل شامين» المقدس في هذا المكان، ليس بإله نبطي، من جهة أخرى فإن الدليل الذي استعان به «بتلر» لاسناد المعبد الجنوبي الغربي الى (دوسارس) انكشف خطأه[18] إن الخزف النبطي (الوفير جداً في شرق الاردن) خلال القرن الأول الميلادي، المتوفر أيضاً في بصرى وبكميات كبيرة، يظهر في «سيع»، بست سقف هي من بين العديد من عشرات الألوف المحفورة من باطن الأرض، اذن فالحكم تقضي من الآن وصاعداً، بعدم اسناد هذا الآبد الكبير (موقع سيع) الى المدنية النبطية نظراً للآثار الهندسية المكتشفة، التي تتيح لنا العودة للموضوع، حال اشهار نتائج تنقيبات موقع «سيع» الذي هو قيد التحضير.

غير أنه يوجد دليل وحيد، يمكن ان يعطينا ترجيحاً لصالح فرضية الاستيطان النبطي في حوران، قام السيد سارتر، وهو يعمل ويبحث في مجموعة الكتابات اليونانية واللاتينية في بصرى، باحصاء ١٤٠ اسماً سامياً، من أصل ١٥٠ اسماً، وغالبيتها قد تكون نبطية[19]. ولكن ماصح قوله في بصرى العاصمة السياسية، وحاضرة القوافل، هل يصح في القرى، وهل يصح في الشمال؟؟.

لندع هذا الاستعراض الانتقادي ولنُعَبِّرْ عن الفرضية الأكثر احتمالاً. ان أساس عمران حوران الريفي يعود للتوطن القديم للحضريين الذين توضعوا بثبات، خلال القرن الأول قبل الميلاد، حينما اجتازت المنطقة عهد ما قبل التاريخ (Protohistoire). ان قدم الاحتلال المفروض على الكثير من قرى «النقرة» نذكر منها: تلول الكرك، الصنعية، وتلول «سما» في

شرقي الأردن التي أعيد معاينتها خلال تنقيبنا، وتطور زراعة الكرمة في الجبل الحوراني في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وازدهار مباني الشعائر الدينية الجنائزية، المدنية في هذا العصر، التي كانت تتطلب مستوى عالٍ من الغنى والأموال على الصعيد المحلي، جميع هذه الوقائع على اختلاف انواعها، قادتنا الى هذه الفرضية. وقد بقي الآن تقديم البرهان الأثري الهندسي عنها. مع عدم نسيان حركة الهجرة المهمة للبدو الرحل، وخاصة الصفويين، الى تلك المواطن الحضرية[٥٠].

مع ذلك سنأتي على ذكر ثلاثة نصوص معروفة، ولكنها ضعيفة التفسير، فنبرهن على انه كان يسود، قبل العصر المسيحي، الاختلاف والتضاد العنيف، في أغلب الأحيان، بين الحضريين والرحل، جاء ذلك في رواية «حملات» يهوذا المكابي (Juda Maccabée) ضد مواقع (أراضي جلعاد) الذي كان لبعضهم وجوداً في حوران[٥١]، وهؤلاء ليسوا إلا النبطيين الذين التقوا بجيش يهوذا في الصحراء بين الاردن وبصرى واعلموه عن سوء معاملة اليهود من قبل أهالي (جلعاد)[٥٢] المتوطنين في جنوب حوران، فالنص الأولي يبين أنه خلال منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، لا مجال لنكران الوجود المختلط للنبطيين الرحل ولسكان حوران، واذا ما عدنا الى قرنٍ مضى، نجد في مخطوط الرق (٤٠٦ ـ PSIIY ـ السطر ١٧ ـ ٢٢) بأن النبطيين كانوا غارقين في خضم الحياة البدوية حتى خارج حوران حيث اذا صح النص، لم يصادفوا إلا بعد عودتهم من حوران.

وجد النص الثاني، في الفقرة ١٩٦ من الفهرس ٢١٢ العائد لصاحب المكتبة فوتيوس الذي انتحل اسمه مؤلف La Villa isidori لداماسيوس الذي كان مؤلفاً اسكندرانيا في القرن الرابع الميلادي[٥٢]

وللايضاح، كانت بصرى محصنة ضد جيرانها (الديونيسيين) الذين هم سكان السويداء ـ ديونسياس: من قبل ملوك العرب (النبطيون). وهذا ما يجعل وقوع الحادث خلال القرن الأول قبل الميلاد، أو على الاكثر خلال القرن الذي بعده، فإن الفعل Emitélxisu (حَصَّن ضَد) مركب كلاسيكياً مع المضاف. ليأخذ معنى (تحصّن ضد) والمتعدي اللازم له متمم أو مضاف ادخل حرف ب مع حالة الجر، عوضاً عن المضاف إليه بدون جر. هذا المسلك أوجد حالة من التضاد، بين بصرى التي هي تحت النفوذ النبطي وبين أهالي ديونيسياس (السويداء) هذا التضاد الذي يمكن تفسيره كصراع بين النبطيين والسكان غير النبطيين في حوران.

ـ أما النص الثالث: فهو غير جازم، فقد أورد فلافيوس جوزيف[٥٣] أنه في عام ٣٢ ق. م، أوكلت كليوبترا الى هيرودس الحرب ضد العرب. فتجمع هؤلاء في قنوات، لكن هيرودس هاجمهم بلا حذر. فأثار عليه ملازم أول من العصاة، سكان تلك المدينة، أظهر

هذا المقطع اختلافاً بين العرب، وسكان قاناتا (قنوات). ولو كانوا في هذه العملية طرفاً واحداً ضد هيرودس.

ـ يبدو لنا الخطأ في عزو سرعة تطور حوران، اعتباراً من أول القرن الميلادي ب. م الى العرب الرحل. الذين تحضروا فيها ضمن زمن متفاوت السرعة، لهذا علينا أن نراهن بأن الاستقرار الحديث للمنطقة، وازدهار القرى المتزامن مع هذا الاستقرار، هو الذي شجع العرب الرحل بالاندماج والتحضر، كون أراضيهم للرعي قد تقلصت في سبيل العمران الحضري والدفاع عن المنطقة، وهذا ما أثبتته النقوش.

القرية

التسلسل:

ان التصانيف اليونانية غير الملائمة (قرية) و(مدينة) لحقيقة الوضع الفردي في الشرق القديم، ظهرت مؤخراً للعيان بعد فحص النصوص الكتابية اليونانية[٥]. وقد حالف الحظ حوران لامكانية استخدام الكثير الكافي من الاثارات لدراسة المسألة على أرض الواقع.

حالياً ليست هناك تقريباً، أية قرية في المنطقة غير متوضعة على موقع قديم. لابل مبنية في غالب الأحيان، على آثار قرية قديمة، وهذا لايعني أن أشكال السكن الحالي والقديم متشابهة فالقرى الحديثة تجاوزت على العموم حدود القرى القديمة. وأحياناً تسعى الى أن تتبدل في الأيام الأخيرة الى خليط من المستوطنات شبه المبعثرة، (مثل منطقة السويداء. قنوات ـ حول بصرى وغيرها) وبالمقابل هناك الكثير من الاوابد الاثرية القديمة، لم يعاد سكناها تقريباً، كالقرى الواقعة على طرف السهوب مثل: «مجدل الشور» الوارد ذكرها سابقاً، (بسبب نقص المياه ووعورة المسلك). أو قرى اللجا للأسباب المماثلة، وأيضاً بسبب ندرة التراب. وأيضاً هناك مواقع كثيرة (قوامها قرى صغيرة) في كل حوران وخاصة في الجبل، وضمن دائرة نصف قطرها ٣ كم في الشرق والجنوب الشرقي، لموقع سيع وجدت أطلال أربع ضيع من مستوطنات متجمعة، هي: «خربة العنز، خربة مام الجلود، وخربتان اسمهما مجهول». وقد تبين بعد التقاط المواد من على سطحها، بأنها قرى ذات تاريخ متأخر، (بيزنطية، كانت لا تزال مأهولة في العصر الوسيط)، وأيضاً يجب أن يضاف على أساس الشكل الحضري، غير القروي، وجود خرائب لقلاع رومانية، مع أديرة متوفرة جداً في المناطق ذات الطبيعة القاسية.

ان الأمر يحتاج الى كثير من القرى الحالية، لتحل محل المواقع الأثرية القديمة، فالاستيطان القديم لحوران، الذي وصل الى أوجه، كان يشمل قرىً أقل كثافة من القرى

الحديثة . والجدير بالذكر أن أكثر من قرية في منطقة «النقرة» يزيد عدد سكانها في هذه الأيام عن ٥٠٠٠ نسمة . ولكن هذه القرى كانت ترتسم على فراغ لُحمته أوسع وأكثف مما هو في يومنا هذا .

لم يكن لهذه القرى جميعها الأهمية ذاتها، لدينا من جهة، قسم من القرى الكبيرة مثل «نوى» بمقبرتها الكبيرة المشتركة، الواقعة على بعد عدة كيلو مترات شمالاً ، فإن صورتها كحاضرة، وبيوتها الكبيرة ذات الطابع الريفي الجيد، تعطينا المثل الجيد (V.infro)(٥٥) . كما أن العنوان unt poxiwyia . الذي اطلق على بعض هذه القرى (مثل ـ المسمية ـ بريكة . .) يفيد بأن أهميتها كانت ملحوظة، بالنسبة لمعاصريها . كما أن «مجدل الشور» التي سبق ذكرها، والتي انشئت انطلاقاً من المركز المجاور لقرية «امتان» تعتبر بالعكس نموذج القرية الصغيرة السائدة في الشرق بصورة خاصة، وقد أشرنا الى الضيع الصغيرة التي لا يتجاوز قطرها المئة متر، والتي هي على العموم غير مرسومة على خريطة حوران المذكورة في هذا الكتاب، فنذكر منها مثلاً «خربة الرصيف الواقعة في اللجا» على الطريق الروماني المستقيم بين دمشق والسويداء، لهذا الغرض لن نتكلم بعد، في ما يتعلق بتلك المواقع، عن القرى، مخصصين هذه الكلمة لتجمعات اتصفت بتنظيم جماعي متطور، وهذه الحالة تنطبق حتى على القرى الصغيرة، مثل قرية «مجدل»(٥٦) . الى جانب هذه السلسلة من التجمعات الريفية، والى جانب ذلك الطراز السائد من المساكن المجمعة، هناك اشكال محددة من المساكن الموزعة والمشتتة في العصر الروماني،ذكر عدد من الفيلات في أرياف عاصمة الولاية، بصرى، في جمرين، يورد مثلاً . غير أنه لم يعثر حتى الآن على أي أثر لفيلات حول الحاضرات الأخري في حوران . هذا النموذج السكني في المنطقة الذي كان يجمع شبكة من الفيلات والبيوت على مقربة من الحاضرات، مع شبكة من القرى في كل مكان هو مشترك في الولايات الرومانية حيث ورد وصفه بكل وضوح في مقاطعة (Césarée) سيزارة الموريتانية(٥٧) .

من جهة اخرى، انتشرت الأديرة في العصر البيزنطي، ومن الواضح ان الدير والفيلا لا تتوافق مع أي تطور تلقائي في العمران، ولكن كانت إشادتها في حينه، تجاوباً لعوامل خارجية، مثل تمركز وتوسع الملكيات الطارئة، وتطور المؤسسات الرهبانية .

تنظيم المدى الحيوي (من : مياه ـ حصى ـ حدود ـ طرق)

عند توفر المياه من نبع ، أومجرى مياه دائم، أوبئر. لا غرابة في أن تتوضع القرى القديمة حيث تتوافر المياه، وخاصة في الجبل، ولكن هذه المياه تنعدم تقريباً خلال السنة في (النقرة وفي اللجا . الخ . . . .) . لهذا كانت المواقع (الأوابد) الأثرية تتوضع بالدرجة الأولى بالقرب من الوديان التي كانت خلال جريانها الشتوي، تملأ البرك الكبيرة المكشوفة والمنحوتة

في الصخـر في جوار القـريـة، أو في وسطهـا. هذه هي طريقة الحصول على المياه التي ذكرها جوزيف (V. Supre) في القـرن الأول قبـل الميـلاد، وهي الشـرط الـذي لاغنى عنه في حياة القرى، وخلال السنين الاعتيادية، من المؤكد أن الأمطار كانت تكفي للزراعة، حيث لم يعثر على أي أثـر للري القـديم حتى الآن[٥٨]. ولا يمكن اعتبـار البقـايـا الأثـرية وآثار الكتابات والنقـوش، التي اعتـبرت، منـذ زمن طويل، أقنية لجر المياه الى القرى، دلائل على الري.

ونشـير أيضـاً الى أن رحالـة عربيـاً، قد ذكـر في القـرن العـاشر، بعد الحقبة التي نحن بصـددهـا بقليـل. أن حقول حوران كانت تزرع بدون سقاية[٥٩]، غير أنه لو أمكن التوصل إلى إثبـات. بأن الري لم يكن ممارساً في حوران أو موريس منه القليل، تبقى للتساؤل عن الحاجات الأخـرى الضـروريـة. مثل المياه الصالحة لشرب الانسان والحيوان والمياه المخصصة للنظافة التي تتطلبهـا الحيـاة المعـاصـرة. والى جانب الـبرك كانت هنـاك أنـواع أخرى لتخزين المياه، مثلاً: الخـزانـات الكبـيرة المغطـاة والمـزوّدة بالأدراج المنحـوتة في صخور «تل قليب» (V. Supra). الخـزانـات الصغـيرة المحفـورة في الصخـر والمزودة بفتحات مستديرة سهلة التغطية (في قرية مسيكة مثلاً). أما البرك فقد كانت من الطراز السائد. وهذا أمر مفيد. فالصهاريج الكبيرة الجماعية المفتوحة لجميع الناس لدى ندرة المياه تفترض وجود بنية جماعية متينة. وقد أشارت نقوش يونانية في «القريّا» تاريخها عام ٢٩٤، ب. م، الى بناء احدى هذه الخزانات الكبيرة على أرض التجمع السكاني (١٩٦٣)

استمـر وجـود هذه الـبرك منـذ ظهـور القـرى. وقـد أشار إليها «Joseph» على أنها تجمعات مياه وهي موصوفة لمستنقع أو بحيرة بنقوش من العهد الروماني أو البيزنطي[٦٠] ومع ذلك، لم ينقطع بناؤ ها عند الفتح الاسلامي، وقد دلّ على ذلك نقش عربي وجد في «ريمة حازم» مؤرخ في عام ٧٢٢ و٧٤٢ بعد الميلاد. يشير الى بناء البركة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الذي تميز بنشاطه في مثل هذا الحقل[٦١].

ضمن هذه المعطيات، ليس من المستغرب، أن موضوع المياه، كان يقيد اختيار مكان القـريـة، تنظيـماتهـا الأوليـة. ومكـذا فيما يخص تمركز القرية كان المنهج السائد هو استخدام الأراضي الصخرية ـ الربوات ـ التلال ـ رؤوس الجبال ـ لترك أكبر مساحة ممكنة للاراضي الزراعية. فهذا الهدف يمكن بلوغه في حال اشادة القرى في اللجا ـ مثل «شعارة» التي بنيت على الطفح حصراً.

ان المسـاحـة التي تشغلهـا القـرية المبنية بشكل مزدحم، تكون محاطة بمنطقة بساتين وزراعـة شجـريـة (انظر الشكل٣)، كما هو الحال اليوم، هذه المنطقة تمتد على بعض مئات الأمتار حول القرية بشكل مستمر بتعارض مع ما تبقى من الأراضي الزراعية، التي هي دوماً مغلقة بواسطة جدران حجرية عالية مكونة وحدات صغيرة للاستثمار العائلي. فهذا التنظيم

لا يمكن أن يكـون هنـدسيـاً، لأنه يضم محاريب غير نظامية، ان حالة مناطق هذه البساتين القـديمـة، نادراً ما تلفت النظـر لأنهـا تتعلق بأراضي يعاد زراعتها لدى عودة توطن أي قرية قديمة. ومع ذلك، لا مجال للانخداع إذ تم الاستنتاج خلال مرة واحدة، بعد مقارنة الحاضر مع الماضي، فقد سلم جدلاً، بأنه يمكن سقاية هذه البساتين عند الضرورة بفضل قربها من البرك، التي كانت سابقاً مخصصة لزراعات متعدّدة لصالح معيشة القرية.

اما تنظيم بقيـة الأراضي القـابلة للزراعـة، فقد أصبح هدفاً لتطور منفصل، أي أنه يحيـط القـرية بحزام زراعي آخر، سواء من الحقول المفتوحة، أومن الحقول الصغيرة المغلقة[٦٠] أومن الاثنـين معـاً. إذن ما هو الفـاصـل لحدود قريـة عن جارتهـا؟ الجـواب: على الغالب يفصلها منطقة محجرة أو كتلة بارزة صخرية واسعة بمثابة الحدود. كما كانت الغابات المتبقية في الغرب تفصـل بين قريتين، إبـان العصـور المتـوسطة ولكن قد يصادف أن الأرض بمثابة هضبة خالية من الأحجار، عندها تصبح معرفة الحدود القديمة سهلة جداً. ومع كل ذلك، كان يوجـد حدود واضحـة معينـة من قبل السلطات الادارية وقد أعيد تحديدها خلال أعوام ٢٩٣ ـ ٣٠٥ تحت حكم، الـولايـة الـربعيـة، وضمن نطـاق الاصلاح الديوكليسيني، وقد تَبـع ذلـك سلسلـة من تنظيـمات الحـدود المسـاحيـة المـدونـة[٦٢]، لأن النصوص الواردة في النقـوش تشير الى تثبيت الحدود التي كانت موجودة سابقاً بصورة رسمية. وفي سبيل تثبيت الحدود كان التسجيل يعاد مرة ثانية مع وضع اشارة أو شكل ما، متجهة نحو كل من القـريتـين[٦٣]، والشكـل الـذي بين المحيـط يعني تقريباً الحدود، أما الأراضي وأحياناً كلمة الحقـول تعني الأراضي الـزراعيـة (الحقـول)[٦٤] ويستنتج من هذه النقوش أن القرية حسب القـاعـدة العـامة، كان لها حدودها الادارية المعروفة. إن مشاهدة الأرض أو الكليشيهات الجوية لمعرفة حدود المنطقة، لا تعطي أي برهان مقنع خاصة اذا كان الحد مثبتاً بعلاقة قابلة للنقل أو الاختفاء، وفيما عدا الحدود الطبيعية كالوادي مثلاً. يصادف أحياناً طرقات قديمة وواسعة محددة بجدران مبنية تكون بمثابة الحدود.

كيف تتوافق هذه الشبكة من حدود المناطق القرويّة، مع وضع أراضي الحاضرات أو المدن؟ قد يكون هذا السؤال وجيهاً. كانت الحاضرات أو المدن تقوم بصورة نظامية، بمهمة المـدقق لمجمـوعـة من الأراضي ومن ضمنهـا القرى أو بموجب خطة ثابتة كانت تعتبر كسائر التجمعـات القـرويـة الأخـرى مثـلاً. مدينـة السـويداء (Dionysics) التي هي احدى مدن حوران، كانت حدودها تلامس حدود قرية «عتيل»، على بعد أربعة كيلو مترات نحو الشمال[٦٥].

ان شبكـة الطرق الـرومـانيـة لم تربـط قرى حوران ببعضهـا، وانما اقتصرت على ربط المدن والنقاط الاستراتيجية[٦٦]. فمثل قرية المشنف أو الرشيدة قلّما ترفع الى مرتبة عقدة مواصلات. إلا

أن القرى كانت تتصل ببعضها البعض بواسطة شبكة من الطرقات على شكل نجوم، تصل أي موقع بجميع مايجاوره، وتضاف الى شبكة كثيفة ـ هي أيضاً على شكل نجمة ـ من دروب محلية للانتقال في الحقول. (راجع الشكل رقم ٢، الذي يتعلق بضواحي مدينة بصرى حيث تفرض الطرقات الرومانية نفسها فوق شبكة من النوع الذي (وصف اعلاه)، لذلك بالنسبة لحوران، يجب الطعن في نموذج تنظيم الأراضي الى مربعات منسقة الذي عرضه السيد E. Wirth [٦٧]. وكانت الدهشة كبيرة عندما شوهد على الخريطة، وعلى كليشيهات الصور الجوية أيضاً، وفي بعض نقاط شبكة المواصلات، بين قرى حوران، بأنها كانت في القديم مشابهة لنموذج النجوم (العُقد) المقترح من قبل السادة (Chrestaller et losch) [٨٦].

قد تكون غالباً طبيعة الأرض مانعاً لانطلاق شبكة مواصلات القرية. وفي قفر الاندفاعات الحممية باللجا، التي يجتازها طريق روماني استراتيجي يتجه من السويداء الى المسمية، ولا يصلح إلا كطريق محلي فردي. فالدخول للقرى مثلاً «مسيكة» كان قد انشىء بموجب خطوط سير، ثابتة ومتعرجة جداً تنعطف خلال الصدوع ـ المنخفضات والنتوءات الحممية للحفاظ بقدر الامكان على مستوى واحد. وعلى الأرض الصخرية المتجانسة وضعت علامات (اشارات) على هذه الدروب المرصوفة بالحجارة بكل دقة واعتناء. وعرض هذه الطريق، لا يزيد عن المتر الواحد بالكاد يتيح مرور الرجال وحيوانات النقل باستثناء عربات الجر، بدون انقطاع، مما أضفى على تلك الطرق، اللون الأسود اللامع سالكة وسط الأرض الرمادية التي تحيط بها. والغريب في الأمر، أن قرى هذا القطاع من حيث النقوش والعمران لم تك أكثر حصراً من القطاعات الأخرى.

سياسة وعمارة

كان لدى القرويين مؤسسات كحاميات المدن: يا لها من مفاجأة! ومع ذلك، لم يَثِرْ هذا النوع الأصيل المبتكر من التنظيمات القروية.اهتمام مؤرخي العالم الروماني، حتى في الوقت الحديث، رغم المعطيات الوفيرة والواضحة، التي ورد ذكرها ضمن مقالة السيد (ماكلين هاربر) منذ عام ١٩٢٦[٦٩]. ويمكن الافتراض بأن التنظيم الذي تشهد عليه الكتابات التي أوردها هذا العالم، لم يكن، رغم تشابه العبارات، صورة مرسومة عن مؤسسات أو قوانين المدن، بل كان مطابقاً لأشكال قديمة من التنظيمات الجماعية القروية التي يجدر تعقب أثارها في المفردات السامية وفي تاريخ الشرق لما قبل العصر الروماني، هذا ليس موضوع حديثنا هنا، ولا نسعى لاظهار نتائج تحقيق هدفه معرفة إن كانت السلطة القروية بيد نخبة اجتماعية، بالاستناد الى دراسة اسماء الاعلام، وبمعنى أصح، يتعلق

الأمر هنا بالبحث ضمن المؤسسات القروية الحورانية، المدونة في النصوص، عن دليل يسهل لنا فهم القرية باعتبارها بقية آثار.

كان سكان القرية «xwym» يؤلفون بمجموعهم «xoivov» تجمعاً. له صندوق مال جماعي للصرف على النفقات العامة، كما يؤمن ادارة الشؤون القروية شخصيات مختلفة وجهاء غالباً العديد منهم كانوا مشتركين، كان تحت امرتهم (وظائف. موقتة قد تكون مرتبطة بمهمة واضحة[٧٠] (الامناء) وأيضا (المشرفين) وأخر (كالوكلاء) يظهروا لنا وكأنهم ممثلون لجماعات قروية في الخارج، إن التعدد ضمن هذه الألقاب التي لانذكر منها سوى المكرر يجعلنا نعتقد بوجود توزيع واضح جداً، ومحدد المهام قانونياً، ولكن ألا يُعبّر هذا التعدد عن شكوك اليوناني تجاه وظائف بسيطة، لا تميز كبير بينها، بل هي غريبة عن التقاليد السياسية اليونانية؟ حتى أي مجلس من القرية لم يكن ظاهراً في النصوص، فإن وجود العديد من الاغلاط، التي حسب المصادر، لا تدعو للتفكير بأنها اغلاطاً وجدت في مدن المنطقة فقط، فقد رسخت الفكر بأن في القرى أيضاً مجالسها الاستشارية، فالبيت المشترك المشار إليه بأكثر من كتابة كان يستخدم كمكان اجتماع للمجلس. فالأمثلة التي أحصيت عن الآثار، والبيت المبني خلال القرن الرابع ب.م، في «وقم»[٧١]، والمدرسة المنشأة في القرن الثاني ب.م في قنوات[٧٢] والتي تشبه ما سبقها في طبيعة العمل، وتعود الى الاعتقاد، بأن تلك البنايات كانت تستقبل الغرباء (الأعيان مثلاً) وهذا ما قد يفسر الوجود غير الواضح للعديد من الكوى (الخزائن) في قاعة الاجتماعات.

واذا استذكرنا ذلك التنظيم «السياسي» الذي هو صورة عن استقلال الرابطة القروية، التي يمكن أن يقرب مفهومها كما عرف عن (المجلس) البلدي البيزنطي، خلال القرنين السابع والثامن[٧٣]، فلن تعجب من وجود أموال جماعية ومن ظهور معابد فخمة البناء، في القرية، وكذلك الحمامات والمسارح والأسوار.

ان الملكية الجماعية لبعض الثروات ضعيفة التوثيق في النصوص. ولكن هناك مثالان واضحان: كتابة في «شقرا»[٧٤] تشير الى منع إنشاء بيدر لدراسة الحنطة أو مستودع أو أية منشآت أخرى (النص هنا محرف) على مكان مشترك وهذه العبارة الأخيرة قد أوردها (Clermonk Ganneau) بمعنى «عن أرض مشتركة بين قريتين س وع»، ولكن هذا المنع لم يصدر إلا بعد تشاور سكان قرية واحدة. الأمر الذي فهم خطأ، بأن الأراضي المحصورة كانت من اختصاص القريتين، ومن المحتمل أن هذا المكان المشترك هو بمثابة أراضي مشتركة، وقد ثبت ذلك المفهوم، بالقانون الريفي الصادر في العصر البيزنطي[٧٥]، وكتابة أخرى، في «مجادل» (PPUAESIIIA 787)، تشير الى منح قطعة أرض خاصة الى الملكية المشتركة لإقامة بناء على الأملاك العامة.

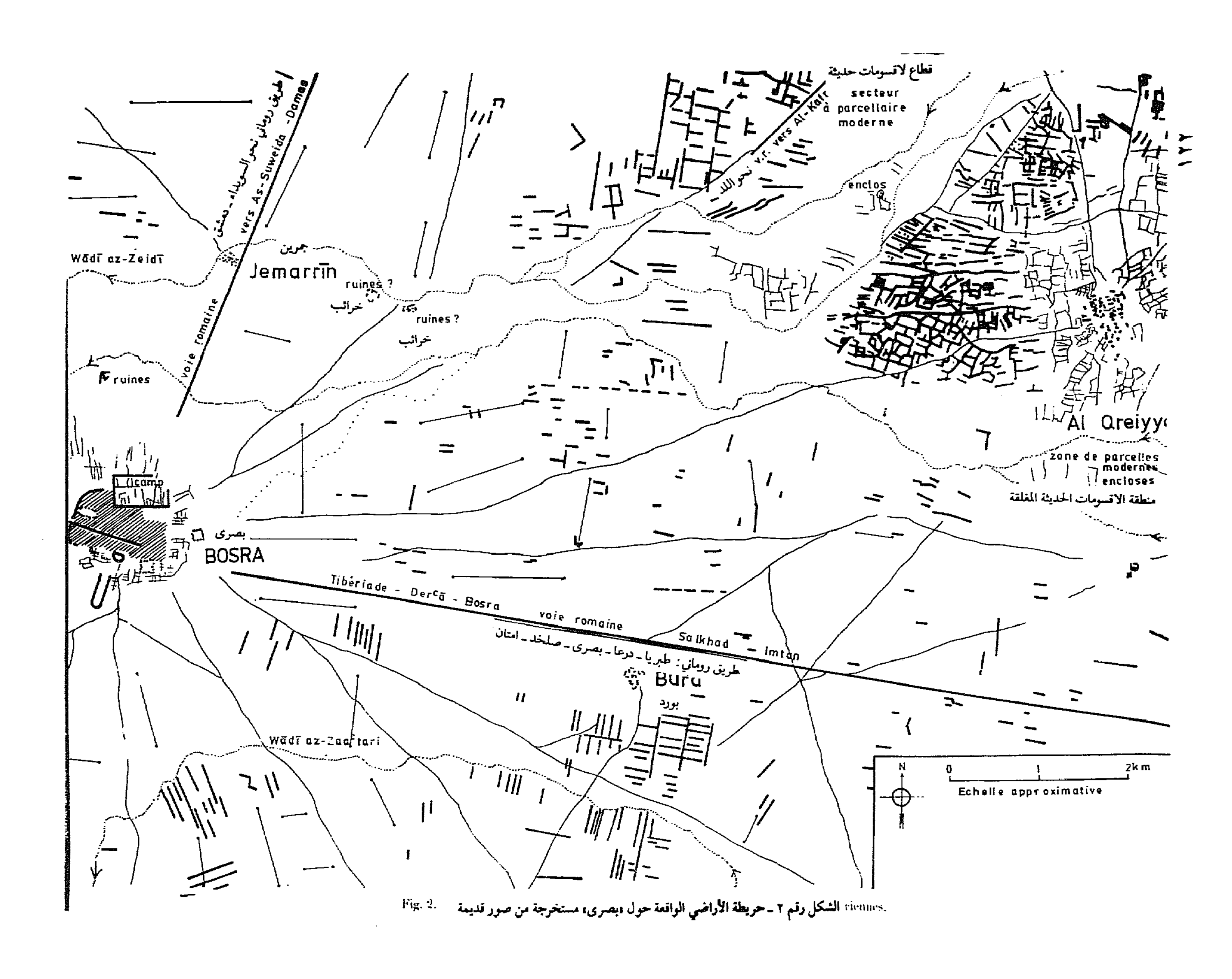


Fig. 2. الشكل رقم ٢ - حريطة الأراضي الواقعة حول «بصرى» مستخرجة من صور قديمة riennes.

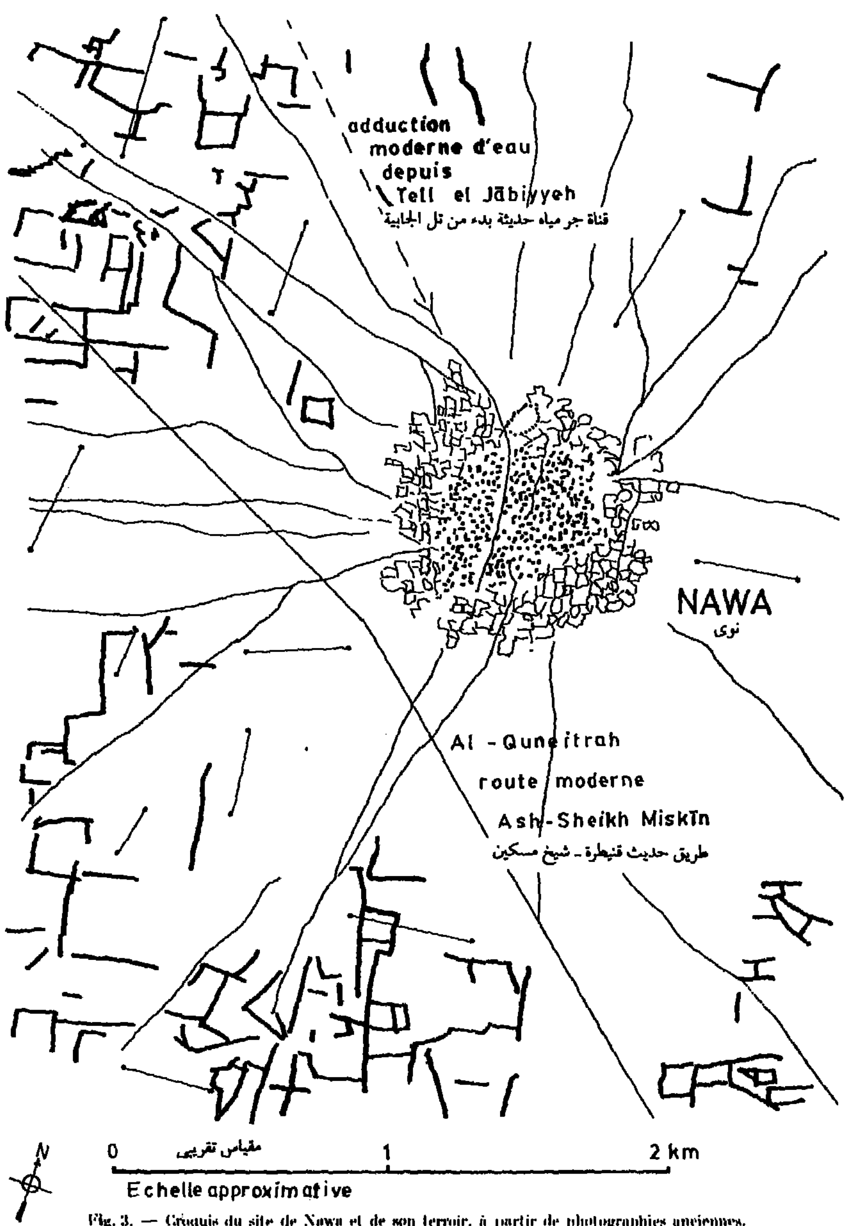


Fig. 3. — Croquis du site de Nawa et de son terroir, à partir de photographies anciennes.

الشكل رقم ٣ ـ خريطة رسم لموقع «نوى» وأراضيها مستخرجة من صور قديمة

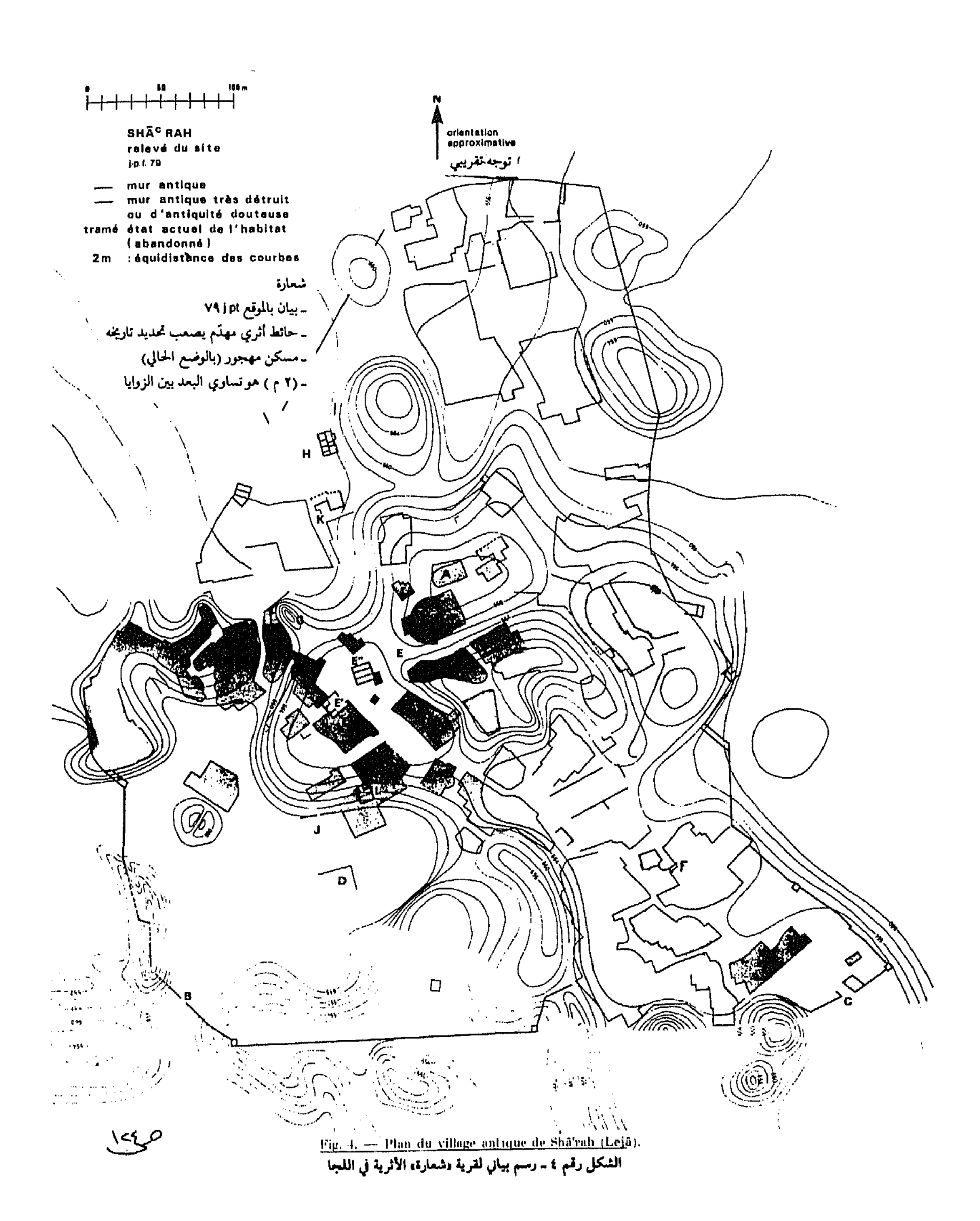


Fig. 4. — Plan du village antique de Shā'rah (Lejā).

الشكل رقم ٤ ـ رسم بياني لقرية «شمارة» الأثرية في اللجا

يوجد اذن هنا اثبات عن ملكية جماعية لبعض الأراضي، بجانب الملكية الجماعية للابنية العامة، ومن الصعب الذهاب الى أبعد من ذلك، ولا مجال للتفكير بأن الملكية الجماعية للأرض كانت الحالة العامة السائدة[٧٦]، بل بالعكس، فإن واقع الكتابة في «شقرا» يشير الى أن بقعة الأرض المشتركة بوصفها وحدة خاصة تبعث على الاعتقاد، بأن الأراضي كانت على العموم بمثابة أملاك خاصة. كما يظهر لنا بأن البحث عن تسلسل اجتماعي في القرية، أساسه الفني العقاري، الذي يمكن الاستدلال عليه بدراسة اسماء الواهبين في كتابات المقدمات الاهدائية المنقوشة على الصروح والآثارات القروية، سيكون اجراء مفيداً. ومن المناسب التساؤل عن امكانية اعادة توزيع الأراضي بصورة نظامية، كما تم تطبيقه في سورية الحديثة[٧٧] حيث أصبح تعاقب الزراعة في الأراضي الخاصة، ذا مدلول الزامي جماعي.

لاعطاء نظرة الآن، عن تنظيم المجال الأرضي الفردي، لابد من الاعتماد على حالة واحدة واضحة. مثل قرية «شعارة» القريبة من المسمية على طريق اللجا الشمالي (الشكل رقم ٤). فهي احدى القرى الأثرية القديمة في اللجا غير مسكونة حالياً (القرية الحديثة توضعت خارج الخراب) ولكن رغم خصوصية وضع هذه القرية، فإن منظرهاالأثري القديم، إذا ما اتينا على التفصيل، تبدل كثيراً بسبب السكن المتأخر الذي حدث فيها خلال القرن العشرين، (حيث يوجد بيوتاً أعيد سكناها أو تعميرها بواسطة بدو (الصلوط) ومع ذلك، فالحالة الراهنة للخرائب تسمح بإعطاء فكرة جيدة عن مجمل بنية القرية القديمة.

ان قرية «شعارة» التي لا يعرف اسمها القديم، هي مبنية على أرض صخرية «حمية» بالكامل ذات طبوغرافية متعرجة جداً، محرومة من أي أرض قابلة للفلاحة، وموقعها ينحرف عن المحاور الكبرى للطرق الأثرية القديمة. ولا تستفيد مباشرة من طريق اللجا الروماني، الذي يمر في المسمية بعيداً عن الشرق منها، ولكن موضع القرية، أتاح لها بالاشراف على مدى عدة أمتار، ومن أعالي طرف اللجا، على السهل القائم في شمالها، يفيدها من وجهة النظر الدفاعية، يعتبر سهلها جزءاً من أراض غرينية بحرية من العهد الرابع، بينما أرض اللجا في الداخل والجنوب تعتبر أراضي رعي.

ان فحص الكتابات والخزف السطحي[٧٨] وبعض العملات يجعلنا نعتقد بأن الموقع كان آهلاً بالسكان اعتباراً من بداية القرن الأول بعد الميلاد، كحد أقصى، وحتى العصر الأموي على الأقل، يتخلل ذلك أيضاً توطن متوسطي في العهود الأيوبية (حسب النقوش الخزفية) والمملوكية (حسب العملة) والعثمانية (حسب الخزف).

فقد نظم المخطط المرسوم في (الشكل رقم ٤) بصورة ارتجالية على الأرض، بموجب مقياس زاوي بالاستناد الى مقياس الأبعاد، وبواسطة قائس المسافات (الديكامتر). لذلك

أتت دقة محيط خطوط المستوى تقريبية. أما درجات الارتفاع فقد أعطيت بالنسبة لنقطة جيوديزية. موجودة وسط الخرائب (النقطة A)، والمخطط هذا يمثل بواسطة خطوطه المتصلة، الآثار القديمة الأكيدة وباللون الرمادي المساحات التي أقيمت عليها أبنية في الوضع الراهن (وهي حديثة نوعاً ما في بعض الحالات). فالقرية لها حدود واضحة نظراً لاحاطتها بسور على وجه التقريب. وعلى المخطط لها شكل مثلث قاعدته ضيقة ويستنتج من ذلك، بكل سهولة، بأنها قرية ذات حجم كبير، بطور ٦٠٠م من الشمال الى الجنوب وبـ٥٠٠م من الشرق الى الغرب كحد أقصى، وهذه الأحجام الكبيرة ليست بالحالة الوحيدة اذا ما قورنت مع مخطط «أم الجمال» في جنوب «حوران» الذي أعيد نشره حديثاً[٧٩] فالتشابه بينهما شديد، و(أم الجمال) هذه كناية عن تجمع سكني ممتد نوعاً ماحتى طول أقصاه ٨٠٠م ولكن من المؤكد حتى الآن أنها ليست مدينة، وأيضاً لا مجال للاعتقاد بأن «شعارة» كانت فيما سبق مدينة قديمة مجهولة، يمكن ربطها بمفهوم القرية، حتى لو لم يعثر مع أية كتابة أو نقوش تحمل كلمة الحسم: «قرية».

ان الجدار المحيطي هو، أصلاً، سور بسيط، أي جدار من صفين مبني بواسطة أحجار ربط منتظمة، بعرض يتراوح بين ٩٠ سم ومتر واحد، وبارتفاع ٢,٥م كحد أقصى، صفت فوق قاعدة أو علت مدماكين، وربما لا يظهر ذلك الجدار البتة، ومخطط سور بشكل مضلع غير منتظم. وغالباً ما تكون الأجزاء المستقيمة منه مفصولة بانفكاكات طفيفة. أما بناء الأبراج مربعة الزوايا فيبدو منظماً. وقد لوحظ أن الباب (B) مسدود عن طريق تعديل في الجنوب الغربي ينتهي الى منخفض ملائم للمرور، ويوجد على الغالب، باب ثانٍ في الجنوب الشرقي في (C) وأبواب أخرى قد زالت.

ان بناء الجدار المحيطي مستوحى من الطراز الهيلليني، فالسور مفصول عن العمران القائم داخله، ويرتكز تخطيطه على المبادىء الطبوغرافية: وقد انتقيت الأراضي المنبسطة بالدرجة الأولى، من أعلى التنقيات الحممية التي تسمح باستطالة أجزاء البناء المستقيم وهكذا الحال، في جنوب القرية، ولكن تضاريس الأرض وعرة جداً في جميع الأحوال، والسور، غالباً ما يساير المنخفضات الضيقة أو ينحدر بصورة عمودية وفق منعطفات المستوى من هذه الجهة من الباب (B) أو من تلك.

يخامر الشك الباحثين حول مفهوم ذلك السور. هل هو مترافق مع بناء القرية، يمكن الاعتقاد بوجود قرية بناها الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد، كموقع محصن لذلك القطاع المضطرب، أي اللجا، وهكذا يدرك المرء لماذا توجد مساحة كبيرة باقية بدون بناء داخل السور ولم يتطور التجمع السكني لاملاء فراغها. ولكن لم يحسن انتقاء موضع القرية من الوجهة الطبوغرافية، لتكون خط انطلاق كمستعمرة

عسكـريـة. فهـل جرى بالعكس، تحصينهـا بعـد هجوم أوضربة لتفادي تهديد (وقع خلال القرن الثالث الميلادي)، رغم هذا الفرض، يصعب تفسير عدم ملامسة العمران للسور.

على كل حال، اخفقت المعـايـير العلميـة الأثـرية في البت بتلك المسألة، حتى هذا الـوقت. ووجـود تحصـين حول احـدى القرى لا يشكل، في حد ذاته، مسألة! فهناك أمثلة أخرى في الشرق الأدنى[٨٠]. ولكن ظهور مثل ذلك الحصن يبدو نادراً في منطقة حوران وفي الحقبة التي نهتم نحن بها. ان الدفاع عن القرى، على العموم، كان قد تم وفقاً لمنهج آخر أكثر أهلية، يرتكز على ابراز نحو الخارج وبصورة متصلة تقريباً. واجهات من البيوت متصلة غير مفتـوحـة خاصـة فوق منعطفات الأرض. تصادف هذه الحالة في «مجدل الشور» جنوب شرق حوران. إنها كلاسيكية في الشرق الأدنى منذ العصر الحديدي[٨١]. ويعتبر هذا الاسلوب في محض القـرى كلاسيكيـاً في بلدان الشـرق الأدنى من العصـر الحـديدي وهوبحوران بالأبراج المألوفة المبنية بجانب البيوت لهدف دفاعي واضح.

لقـد ذكـرنـا، في دراستنـا للسور، المساحات الفارغة في «شعاره»، وهي موجودة ليس فقـط بين الأمكنـة المبنيـة وبين السور ولكن أيضاً بين الجزر العمرانية المختلفة. ودون تنظيم واضح. وهنا نصبح أمام نظام طرق وأمام تنظيم مدني (نسبة للمدنيين) غير منسق حيث لا مسـاقـط عمـوديـة، أومستقيمـة، وحيث المرور بين وحدتين سكنيتين قد يتقلص ويضيق - يتعـرض - أويتبـدل بالاتجـاه حسب مبـادرات البنـائـين الخـاصـة. لم تعرف قرية «شعارة» التخطيط المسبق، ولا تنظيم المدن بشكل دقيق. ان فوضى المرور وطبيعة الأحياء المغلقة أو المستقلة، تثبت بأن الحياة، ضمن وحدة سكنية تتقدم على الاهتمام بالتنقل في القرية.

هذه النقطـة لا تنفـرد بها «شعـارة» لوحـدها ولكن هذا الوضع موجود على العموم في جميع قرى حوران القديمة، حتى لو ظهرت هنا وهناك، كما في «مجدل الشور»، أو في «حور» في اللجا محاور مستقيمة تعتبر أصداء بعيدة لتنظيم المدن على الطراز الهيلليني.

تقـود المنـاطق الفـارغـة التي تشغل حيزاً واسعاً الى طرح عدة أسئلة: أهي طارئة ولا فائدة منها؟. بلا شك كلا؟. ففي قرية «شعارة» بالذات (حسب الشكل رقم ٤) يتضح أن القطاع الواسع الكائن في المنخفض الجنوبي - الشرقي للقرية، هو بالواقع مشغول، بشكل جزئي، بآثـار مجمـع كبـير للعبادة (D)، كانت الزاوية الشمالية لمعبده ما تزال باقية، وقد ظهرت على المخطـط بخطـوط خفيفـة. كما ظهـرت هذه المجمـوعـة بشكـل قطـاع فارغ منبسط بطبيعة الحـال، كان مبلطـاً بالصخـر الحممي، تتبعه غرب (D) كومة واسعة من الخرائب التي لعبت فيهـا أيـادي التنقيب خلسـةً، والتي أمكن بكـل صعـوبـة، تتبع محيطها المستطيل الشكل. والتحقق من ذلك لايتطـرف إليـه الشـك نظراً لوجود العدد الكبير من تماثيل العبادة المحدودبة الشكـل، من نسـور ورسـوم نافـرة كانت لاتـزال منظـورة خلال عام ١٩٧٨، وقد تم نقلها الى متحف بصـرى، بالاضـافـة الى ذلـك، عثـر في قريـة شعـارة[٨٢]، على كتابة في جامع

القطاع (E) تشير الى باحة أولى هذه الباحة الأولى تعود إلى القطاع (E) حيث يرى حتى الآن العديد من أجزاء أثرية لزينات من العصر الروماني، بالاضافة الى العديد من الكتابات التي أعيد استخدامها في الجامع فوجودها ينطوي على باحة ثانية قد تكون ساحة أخرى بنفس المعبد أو لمعبد آخر يعود للقطاع (D).

هناك، قبل العصر المسيحي، في «شعارة»، على ما يبدو، قطاعات على الأقل في المنطقة (D) و(A) مخصصة للعبادة. ومن المفيد أن نشير الى استمرار امكنة العبادة، فبالقرب من أول باحة (E) شيدت كنيسة (É)، لا تزال قواعدها مرئية، ثم جامع في العصر المتوسطي (E) لا يزال بحالة جيدة. والظاهرة نفسها ترى في القطاع (F). جنوب شرق القرية، حيث بانت كنيسفة في الصدر، جاء على أثرها جامع له محراب بارز، على نفس الموقع، ويمكن القول أن هناك استمرارا لأماكن العبادة، من العصر الجاهلي الوثني وحتى العصر الوسيط الاسلامي باستمرار، وتكميلاً لموضوع أماكن العبادة هذه، لابد من الاشارة الى حقيقة اكتشاف نصب وثني (C) طليق على كتلة الصخور فوق تراكم الحمم. فهو بارتفاع ٥ أمتار، وقاعدة مربعة ضلعها ٣,٥م، وتتقدمه من الشمال مصطبة أبعادها ٣×٣م محاطة بمقاعد حجرية متصلة بدرج منحوت من الصخر.

رغم ذلك، فإن الفراغات، غير المسكونة، قد تكون مخصصة لمهام مفيدة، مثل تخزين المياه، وفي الجدار المحيطي لقرية «شعارة»، البرك التي يمكن التعرف عليها ليست كثيرة. ولا يعرف منها سوى واحدة. (ولا يزال الأمر مشكوكاً فيه) في المنخفض الصغير الكائن شرق المنخفض الكبير للباحة الثانية (D). ولكن في أغلب القرى القديمة من حوران، تحتل البرك الكبيرة داخل القرية حيزاً لايمكن تجاهله.

أما المساحات الفارغة فلأي شيء كانت تستخدم؟ كفكرة خاطرة يجب التثبيت منها. كان البعض من هذه الأمكنة مخصصة لتخييم الرحل، داخل نفس القرية[٨٣] وفي حالات أخرى أكثر وضوحاً، تقود الى الاعتقاد، بأنها عبارة عن محلات للاجتماعات العامة، ومايشبه ذلك، وفي «مسيكة» في «اللجا» من وجود مجمع نادر (الشكل رقم ٥) مؤلف من ساحة افقية واسعة من الصخر، غير مبنية، على وجهها أثار سير متجهة نحو مكان معين. ومقاعد حجرية مرتبة بشكل نصف اهليلج، ونوع من المنصة مستطيلة الشكل بارتفاع ١,٢٠م، منشأة من تكديس ثابت للحجارة بمواجهة تلك المقاعد الحجرية، كما يوجد في «صماد» في اللجا أيضاً كتابة، تشير بكل وضوح الى منبر عام.
(PPUAES, III A 786,3)

إن القرى المحرومة من الساحة أو من الحيز الفارغ بدون بناء هي نادرة ومستثناة ففي «مجدل الشور» حيث تعود الفجوات حالياً ضمن كتل البناء القروي المتراص جداً الى

تداعي واجهات الأبنيـة. الى مثـل تلك الاستثنـاءات يمكن أن نسـير بتلك الفرضية التي تثبت وجود أنواعاً من الخدمات العامة (معابد، وبرك، ومكان اجتماعات، ومكان بيت للمواشي أو تخييم). وهي بمثابة فراغات مهمة جداً متروكة حرة، وخاضعة للتطور العفوي للسكان القرويين.

بقي علينـا أن نذكـر الأبنيـة العـامـة في القـريـة، وقـد مر أعـلاه ذكـر الأبنيـة العـامـة في «شعـارة» عثـر على بعض الحـمامـات الصغيرة (H) غرب القرية، غير بعيدة عن السور وقد نشرت عنها بعثة Princeton [٨٤].

وأيضاً في «شعارة» يشار دوماً الى وجود بناء يشك في عائديته، غير أنه جنائزي بدون شك، وفي منطقـة (J) على المخطـط بقـرب البـاحة الثانية أشير بخط عريض إلى آثار جدار دات مدمـاك بسيـط مستنـد على جرف صخـري (الشكـل رقم ٦) بطـول ٧,٢٦م، مشيَّد بعنـايـة، من أحجـار كبيرة لامعة ومحصّصة (حصى وملاط) ـ ركائز استناد (أو بنات باب) بارتفـاع ٠,٥٥م وطـول وسطي ٠,٧٥م. أمـا ارتفاع الحائط الأقصى المنظور فهو ٤م ولكن المستـوى الأدنى للأسـاس، غير منظور وكذلك رأس الحائط أيضاً. هذه المواجهة (a) هي عمياء (مظلمة) (الشكل رقم ٦) باستثناء رواق بقناطر (b) بعرض ٢م ينتهي الى باب اختفت مصاريعه.

يفتـح الباب، من شرفة تعلوه بعدة أمتار، على مغارة طبيعية بشكل منحرف ولها اتجاه موازٍ لاتجـاه الـواجهـة، ولا يوجـد فيهـا أي مصـدر للضـوء سوى البـاب فقـط، وحـاليـا يتم النزول إليها، بين كومة من الأحجار، ولايمكن الجزم باستبعاد وجود درج لها سابقاً، فالمغارة بطول ٣,٥م وعرض ٨م وارتفاع ٧م على الأكثر. قدر هذا العلولكون الأرض مغطاة بأكوام من الحجارة وهي ترابية ـ فخارية مهشمة ـ عظام موتى ـ وان كومات من الأحجار ترتكز على أسفل الحواجز تقوم بمهمة مساندة في هذا المكان لأن الشرفات البارزة فيه توحي بالانهيار.

لاشـك، بأن المغـارة كانت تحوي العـديـد من المـدافن، ويـرى فيهـا على الأقـل خمسـة مدافن مبنيـة تجاه الحـاجـز الجنوبي، ويوجد مسلك ثانوي (C) له شكل ممر (سرداب) ضيق بطول ١٢ م وعرض ٠,٧٠ م وارتفـاع ١,٣٠م تقريباً، مغلق، يعد ثلث المجرى، بمصراع باب بازلتي، هذا المنفـذ متـزامن مع بقيـة المجمـوعة، كون مخرجه الجنوبي متصل بالواجهة بواسطـة حائـط مبني بعنـايـة فائقـة وبنفس الطـراز ومظهـر الواجهة والممر، برأينا، خُصص لإدخال الجثث.

فوق المغـارة، وعلى مستـوى أعلى في الهـواء الطلق، اليـوم وعلى نوع من مصطبـة مشـادة من تقطـع الصخـور يلاحـظ وجود آثار القبور، أو حجرات منحوتة ضمن الصخور، تدعـو الى الاعتقـاد، بأن مدافن كانت متـوضعة في هذا المكان، فإن الحائط (D) يرتفع حتى

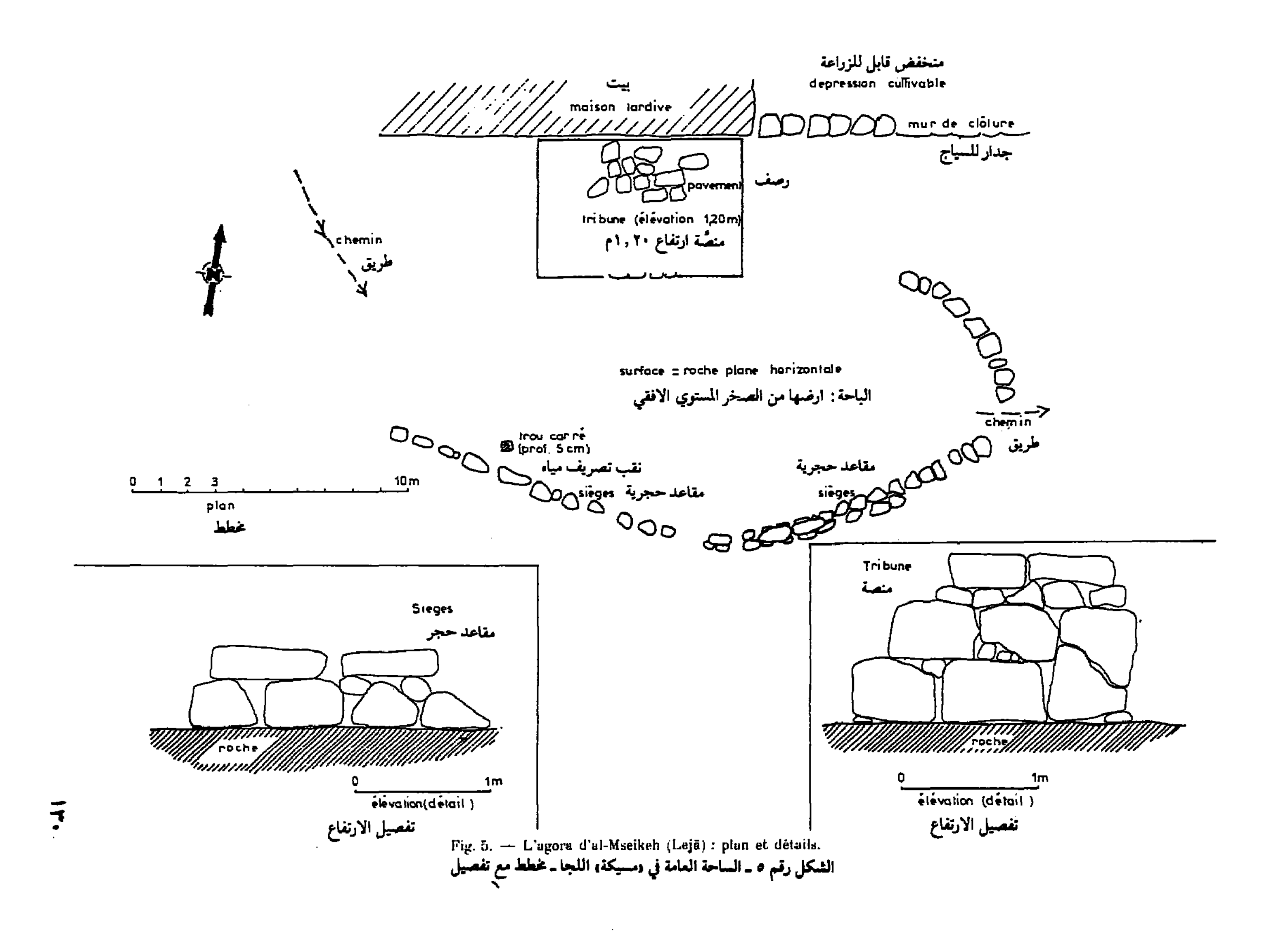


Fig. 5. — L'agora d'al-Mseikeh (Lejā) : plan et détails.

الشكل رقم ٥ ـ الساحة العامة في «مسيكة» اللجا ـ مخطط مع تفصيل

هذا المستوى وأمام الواجهة توجد الجدران (C.F.G) القديمة . ولكنها فيها بعد أصبحت (مغلقة) . ويبدو من مظهر الجدار أنه متزامن مع اشادة البناء الأول إذن كيف يمكن فهم تلك المجموعة؟ . فبالرغم من أحجامها الواسعة، لا يمكن البت بأنها صممت حسب طراز ونموذج المدافن العائلية، ولكن وجود الكومات غير المألوفة، المبعثرة على أرض المغارة منذ العصر الوسيط بسبب التنقيبات السرية، مما يدعو للاعتقاد بأن السرداب لم يكن كذلك منذ البداية وان المقبرة كانت جماعية لجميع سكان القرية القديمة . . يجب اكمال التنقيب والتحري لمعرفة ذلك . والخزف الملتقط، في هذا المكان، يعود للعصر البيزنطي المتأخر (القرن ١٦ على الأقل) ولكن لا يوجد ضرورة للاستمرار من جهة، ومن جهة أخرى،

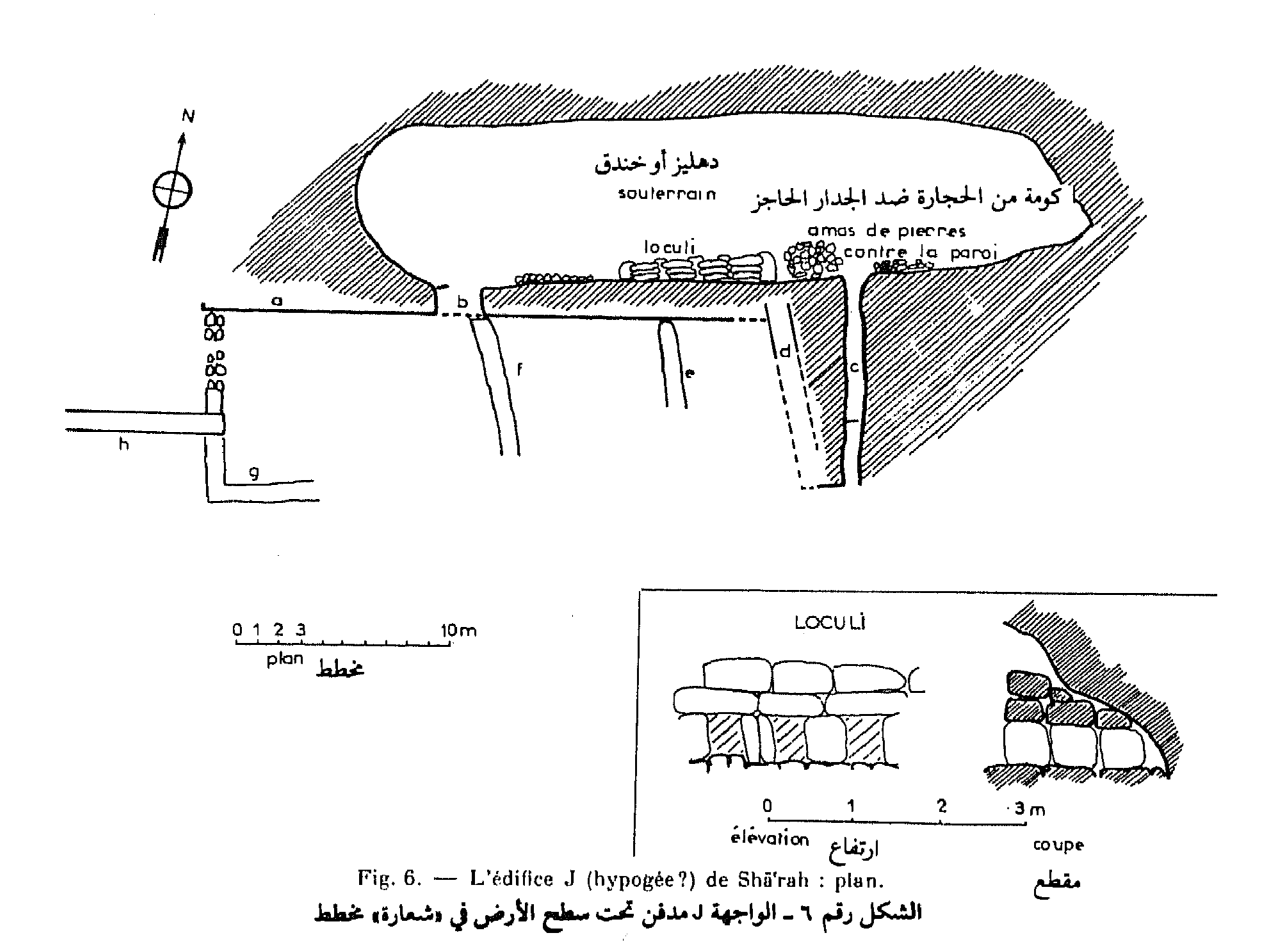


Fig. 6. — L'édifice J (hypogée?) de Shā'rah : plan.
الشكل رقم ٦ ـ الواجهة J مدفن تحت سطح الأرض في «شعارة» مخطط

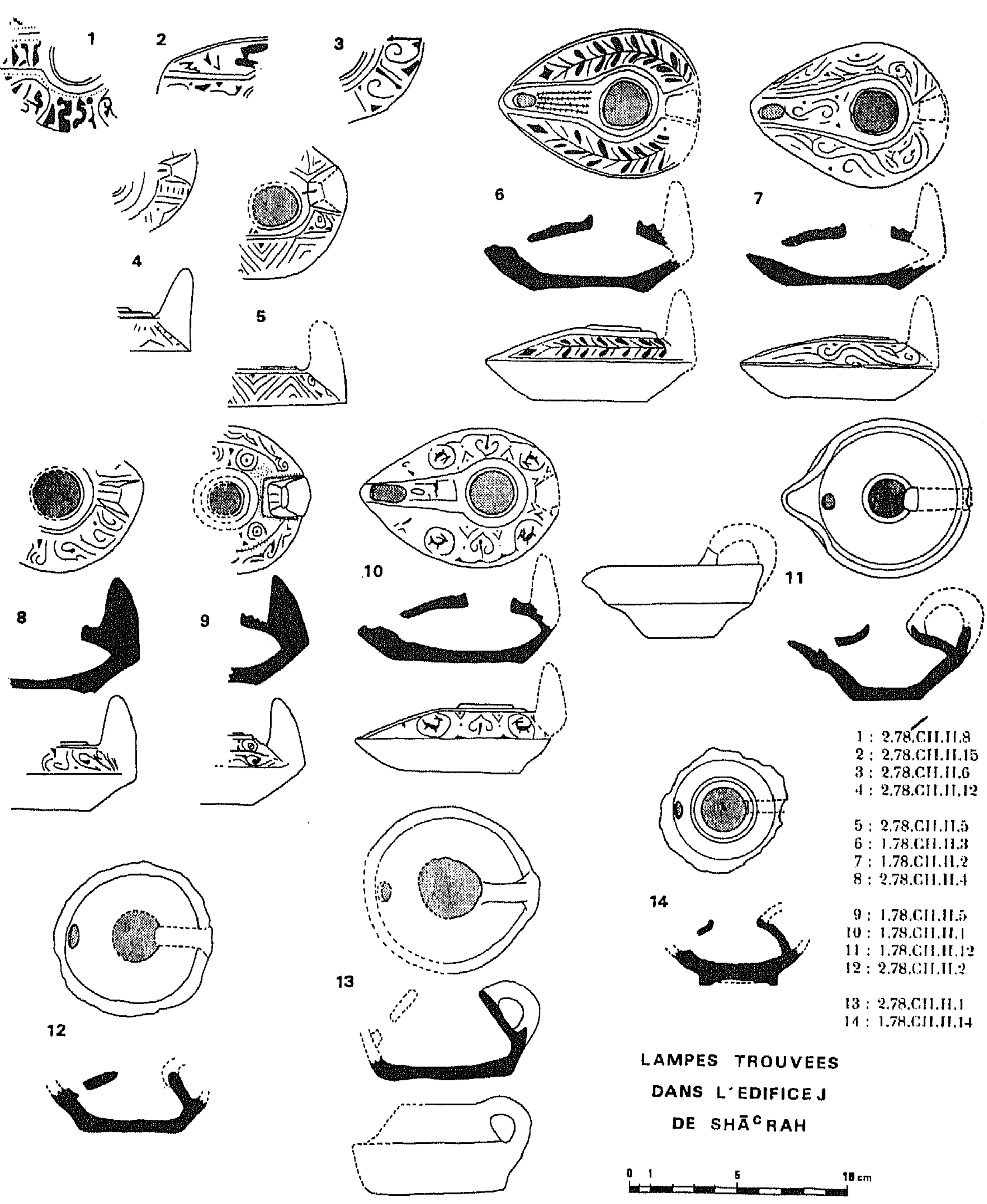


Fig. 7. — Lampes trouvées dans l'édifice J de Shā'rah.

الشكل رقم ٧ ـ قناديل عثر عليها في الواجهة J في شعارة

لايستثنى من ذلك. وجود مواد أكثر قدماً من مواد التنقيبات المكتشفة. والحقيقة أن الطراز الظاهر للواجهة وللجدران المتاخمة لها، يجعل عائدية البناء الى ما بين القرن الثاني والرابع للميلاد. ينتشر ذلك هنا فقط (بالمعنى الوثائقي، حسب الشكل رقم ٧) فإن رسم الـ ١٤ قنديلاً ومعه ٢٢ من اجزاء قطع القناديل الملتقطة من هذه المغارة، (لأن الثمانية الأخر هي بمثابة أجزاء صغيرة جداً تعود الى مجموعة (a) :

(a) ـ (الشكل رقم ٧) ـ من ١ ـ ١٠ قناديل بشكل بيضاوي مستطيل ذات فتحات إملاء عريضة أوواسعة، ولسان عالٍ من الطين الأسمر الفاتح الوردي وهوبشكل كوب صغير مجسم mokelée في اعلاه. ومن منطلق الزخرفة العربية، يوجد زينات نباتية ـ حيوانية ـ وهندسية. واذا كان شكل هذه القناديل التي تتمتع بوجود خاصرة fourchette عريضة جداً، يجيز الافتراض بأن تاريخها يعود الى العصر البيزنطي المتأخر، القرن العاشر، أما الزينات فترجح بأن تاريخ صنعها يعود للعصر الأموي أو العباسي.

(b) ـ (الشكل رقم ٧ ـ ١١) قنديل مستدير من الطين الأحمر ذومقبض، والجوانب حملت تاريخاً بين القرن الثاني عشر والرابع عشر[٨٥].

(c) ـ (الشكل رقم ٧ ـ ١٢ ـ ١٣) قناديل مستديرة مجسمة ـ صناعتها غير متقنة ذات مقبض ـ وهي من الطين الأسمر الفاتح. ان عجينتها السيئة مع شكلها، يذكران بنوعية الفخار المحلي السائد في العصر الأيوبي والمملوكي.

(d) ـ (الشكل رقم ٧ ـ ١٤) قنديل مستدير مبروم ذومسكة، مصنوع من الطين الأبيض المغطى بالدهان الكثيف الأخضر الفيروزي. ويعود طرازه للعصر العربي[٨٦] المتأخر جداً (القرن ١٤ ـ ١٥).

ان هذا التطور الطويل الأمد الطارىء على مدفن «شعارة» حدد لنا ضمن زاوية خاصة، موضوع مقابر القرية، لأن المدافن الكبيرة الجماعية لم تكن هي النموذج أو القاعدة، والوقت مبكر كي نقترح ظهور نموذجية معينة لقبور القرية، إلا أننا استطعنا ملاحظة عدد كبير من القبور البسيطة، وبخاصة في «المسيكة» المنحوتة في الصخر خارج القرية. ولا يفوتنا ان دراسة «مسيكة» ليست بالمقدار المتقدم، لمعرفة ما اذا كانت هناك مدافن متجمعة، في مناطق حددتها الوحدة العمرانية Communaute في «ذكير» على طرف اللجا الشرقي اكتشفنا خلال نيسان ١٩٨٥ مدفناً مقبباً فيه أخاديد، خارج القرية من جهة الجنوب الشرقي.

بعد ذكر مثل «شعارة» ـ فإن القرى القديمة في حوران ليست بمجموعات سكنية ريفية خالصة. إلا أن السكن فيها يبقى هو العنصر الرئيسي. وهي تتوضع بشكل جزر سكنية متراصة مغلقة باتجاه الخارج متضمنة أبنية وساحات مغلقة، وفقاً لمخططات غير هندسية، كما هو الحال في قرية «شعارة».

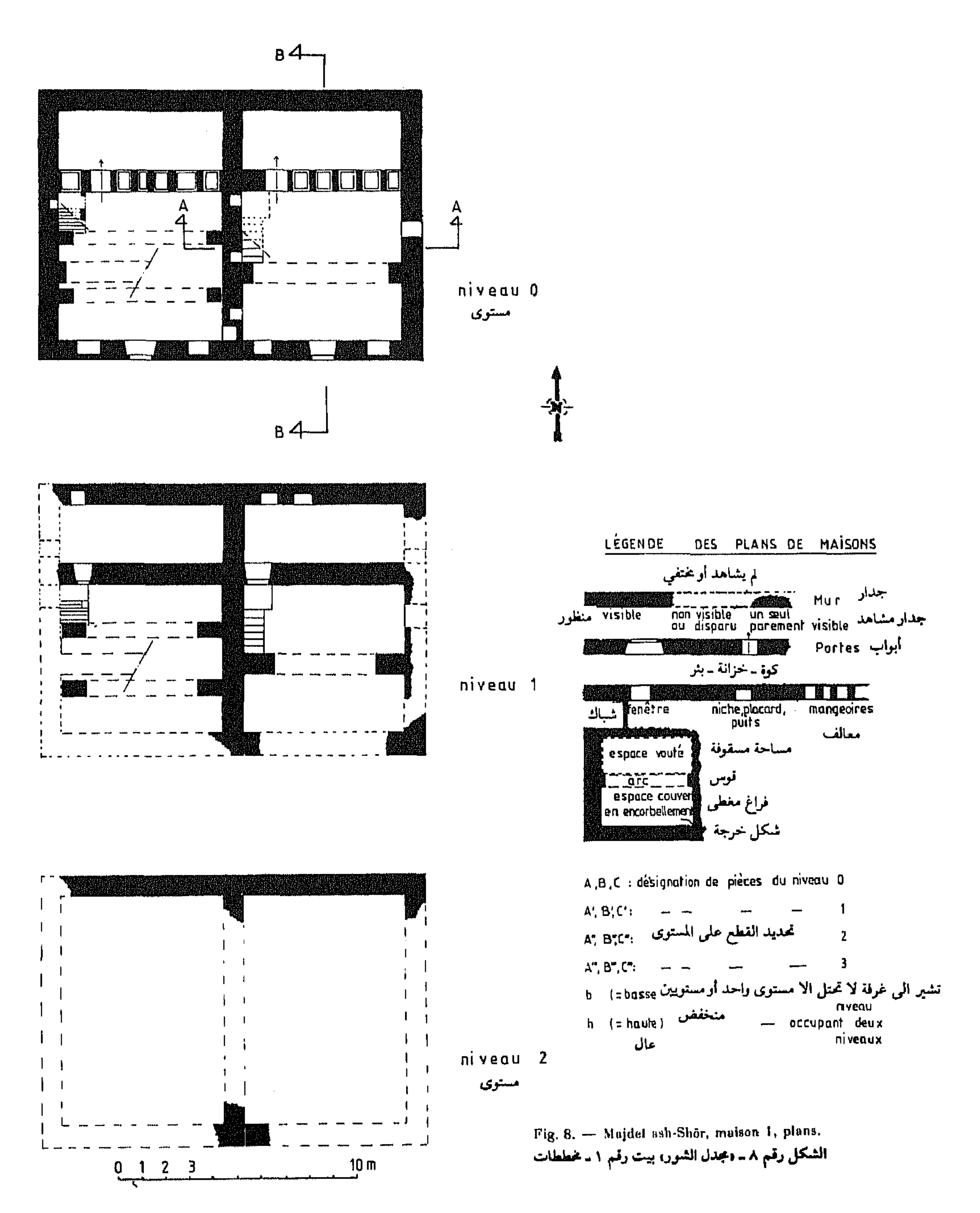


Fig. 8. — Majdel ash-Shōr, maison 1, plans.

الشكل رقم ٨ ـ «مجدل الشور» بيت رقم ١ ـ مخططات

تعود أصالة الهندسة المعمارية الريفية في حوران، في بادىء الأمر، الى الاصالة الفنية. فالمواد المتواجدة هي الحجر البازلتي المستخدم بصورة خاصة في الجدران ذات الصفيق. لأن في ذلك توفيراً في الحجارة وفي الجهد وأخيراً في الكلفة. بغض النظر عن الضعف الفني للبنائين. ومع ذلك، وفي كثير من الحالات. يعرف العديد من البيوت الريفية، الجمية، الفنية، غنية الزخارف (مثلاً في «نوى» وفي «كفر ناسج»[٨٧] قريتين بنيتا وفق هذا المنظور الاقتصادي ـ السقف بصورة عامة من الجوائز البازلتية التي ترتكز على «ميازين» حجرية: الفرجة، أو المدى الاقصى لساحة الفرجة، تبلغ، باتباع هذه الطريقة، ٤م. تقريباً. ولكن قد يتضاعف هذا الحجم عند اللجوء الى انشاء القنطرة المتوسطة. وهكذا يكون خشب الأسقف، دلالة واضحة ليس على جث أخشاب المنطقة منذ العصر الروماني، وما قبله، بل على أن تقنية البناء هي حرفة محلية، ولا تستدعي اللجوء الى مواد مستوردة. وهنا يلاحظ الفرق بالمقارنة مع سورية الشمالية، حيث كان يستورد خشب البناء حسب «تشالنكو».

وهكذا يعتبر البناء محلياً أصيلاً غير متنكر في وسط مماثل ينعدم فيه الخشب، كما في النقب، نجد الحلول نفسها (ايبودا ـ سبيطة ـ كرنب. . .)[٨٨].

فالنقطة المهمة التي تتعلق بالسكن، هي توفر قاعدة هندسية معمارية، تستخدم في أوسع الحالات، رغم التعقيدات أو الكماليات التي يمكن ان تضاف اليها. وبالنسبة لسورية الجنوبية يمكن (بدون أي تغيير) الأخذ بالقاعدة التي أعلن عنها حديثاً بالنسبة لسورية الشمالية: «ليست للأبنية نماذج متعددة، لأن الفروقات الكائنة بينها ليست نوعية، انما تتعلق بترتيب الجدران، بارتفاعها، وبالمجال المتروك للزخرفة، وهذا يدل على أنها كانت فروقات تتعلق بكلفة البناء، وليس بمفاهيم متنوعة المبادىء والجوهر[٨٩].

ليس من السهل التفتيش بين الخرائب، للعثور على البيت النموذجي، الذي هو وحده يمثل المميزات الأساسية للبيت الحوراني القديم، دون معرفة مميزاته الخاصة التي لم تندثر، بل بقيت سليمة كما كانت، فمثال (الشكلين ٨ ـ ٩) هو بيت بسيط، وعيبه يكمن في عدم اكتمال ارتفاعه. وهو بيت في قرية «مجدل الشور» (البيت رقم ١ من تأشيرة بيوت هذا الموقع، تابعة لمخطط قيد النشر، ربما يعود بناؤه الى القرن الرابع الميلادي. ميزته الأساسية هي أنه بناء مؤلف من وحدتين متماثلتين عملياً. ملتصقتين ولكن غير مشتركين ولاحاجة للوقوف كثيراً عند هذا الترتيب، الذي نجده في سورية الشمالية أيضاً، والذي يمكن تفسيره بأنه كان مسكناً لأسرتي أخوين أو أب وابنه. لنلاحظ أن أحد شطري البيت، خاصة الشطر

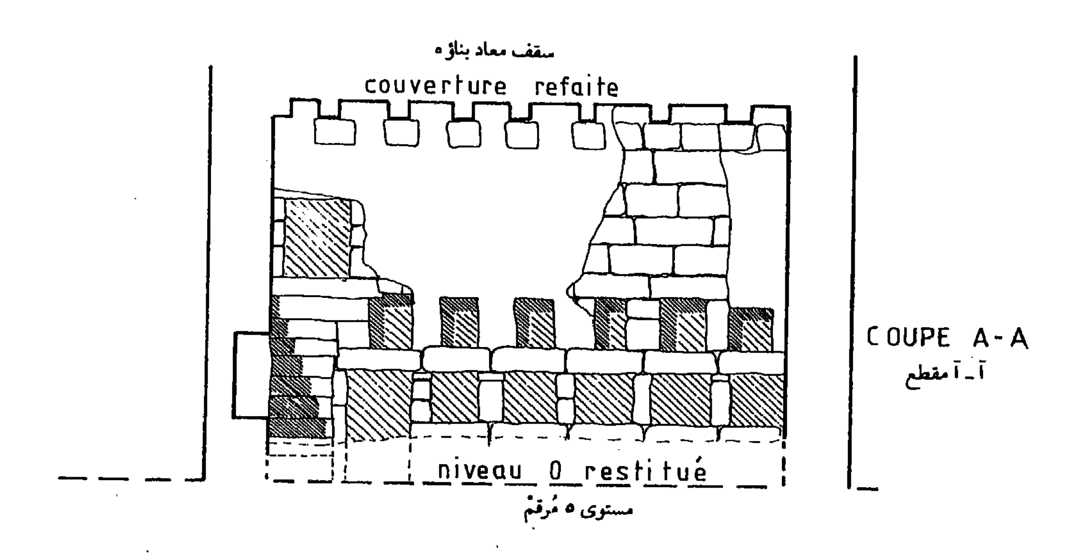
الشرقي منه، لأن النصف الثاني طرأت عليه بعض التعديلات، (الأقواس)، بعد استيطان الدروز: يظهر لنا مخطط البيت الحوراني القديم.

تبين المخططات الواضحة في (الشكل رقم ٨)، بأن الترتيب في البيت يشرك غرفة كبيرة داخلية بغرفة صغيرة خارجية، المقطع في الشكل (9B). يظهر بأن الغرفة الداخلية تشكل الطابق كله (مستوى ٠ ـ ١) أما الغرفة الخلفية فمقسمة الى نصفي الطابق، ولكن يجب ألا يغرب عن ذهننا بأن المقطع، في حالته الراهنة، غير مكتمل، ولا بد من أن ننشيء فوقه ارتفاعاً مماثلاً بالاضافة الى غرفة مماثلة للغرفة الكبيرة الداخلية، ومن فوقها. والى غرفتين متوضعتين الواحدة فوق الأخرى تعلوان نصفي طابقين فوق الغرف الخارجية.

لنحاول الآن العودة الى تفصيل مختلف عناصر البيت.

الجدران الخارجية:

مخطط الغرفة التي نهتم بدراستها مستطيل، والجدران مزدوجة تربطها عوارض حجرية؛ هي في معظم الحالات، غير منتظمة الارتفاعات، ولكن لا تراجع فيها، ومع ذلك فإن تسلسل الوقائع التاريخية، ودرجة الغنى تدخلان الكثير من المفارقات. فالواجهة التي تتخللها الأبواب والشبابيك والتي غالباً ماتكون مزخرفة بأروقة وبعناصر تزيينية، تقابل بقية الجدران الثلاثة التي تنعدم المنافذ فيها، أوتكاد. والشباك في الحائط الخارجي حالة شاذة (الشكل رقم ٨)، وعلى العموم فإن الجدران الأخرى باستثناء الواجهة هي من الأحجار المقصوبة قليلاً وسيئة الترتيب. (Rough quadrated masonry) حسب تعريف Butler[٩٠] (انظر اللوحة Ia: خلفية البيت رقم (١) في «المسيفرة»، بينما الواجهة مبنية من الأحجار المحصصة، متصلة فيما بينها بشكل Smooth quadrated masonry (انظر اللوحة II، واجهة البيت رقم (١) في الكرك). مع مظهر على الغالب جيد، تزينه أحجار بازلتية منحوتة، ملساء، جميلة ومتراصة، (higly fmished quadrated masonry) استخدمت كاطارات للفرج والكوى، يتوسط الواجهة باب وحيد بعرض متر وسطياً، يغلق بمصراع أوبمصراعين من البازلت، كما يقارب ارتفاع الفرجة المترين (الشكل رقم ٩). ويعلو الباب على العموم، شباك صغير مربع الشكل (الشكل رقم ٩ ب، انظر الشكل ١٠ب) وظيفته تخفيف الحمل عن الجائز الذي يعلو الباب، وتسهيل مجرى الهواء. كما يشاهد على جانبيه، في غالب الاحيان، شباكان آخران أكبر بقليل، راجع اللوحة Ib حيث بجانب الشباكين المستطيلين الكوة المستديرة التي تحل محل الشباك المركزي. وكان بالامكان اغلاق النوافذ بمصراع صغير من البازلت، وهي مزودة أيضاً بمشابك خشبية بالطبع، تشاهد ثقوب تثبيتها ضمن اطار النافذة. ويلاحظ أحياناً واجهة من الكوات المتوازية الخطوط غير المغلقة على ارتفاع قامة



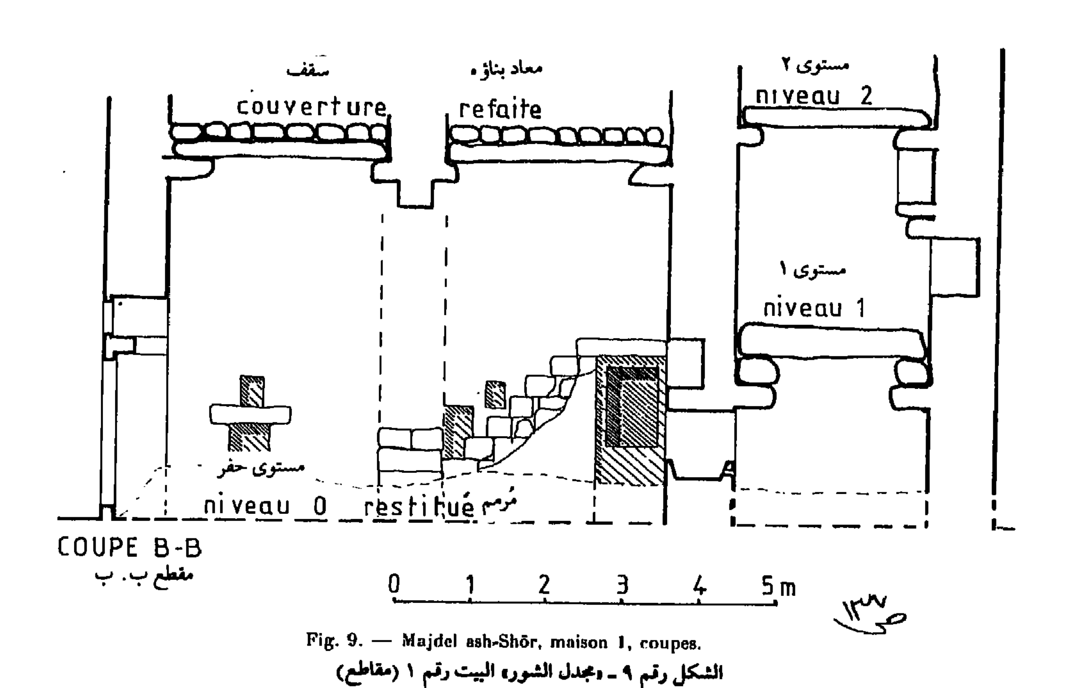


Fig. 9. — Majdel ash-Shōr, maison 1, coupes.

الشكل رقم ٩ ـ «مجدل الشور» البيت رقم ١ (مقاطع)

Bh Ah Ch Db Eb

e

ملعب cour

plan
مخطط

N

0 1 2 3 10 m

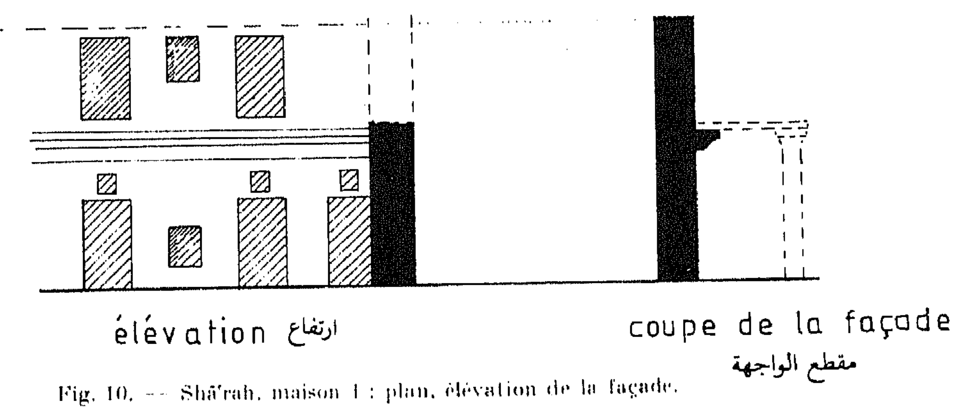


Fig. 10. — Shā'rah, maison 1 : plan, élévation de la façade.

الشكل رقم ١٠ ـ «شعارة» البيت رقم ١ بيانات وارتفاع الواجهة ـ مخطط

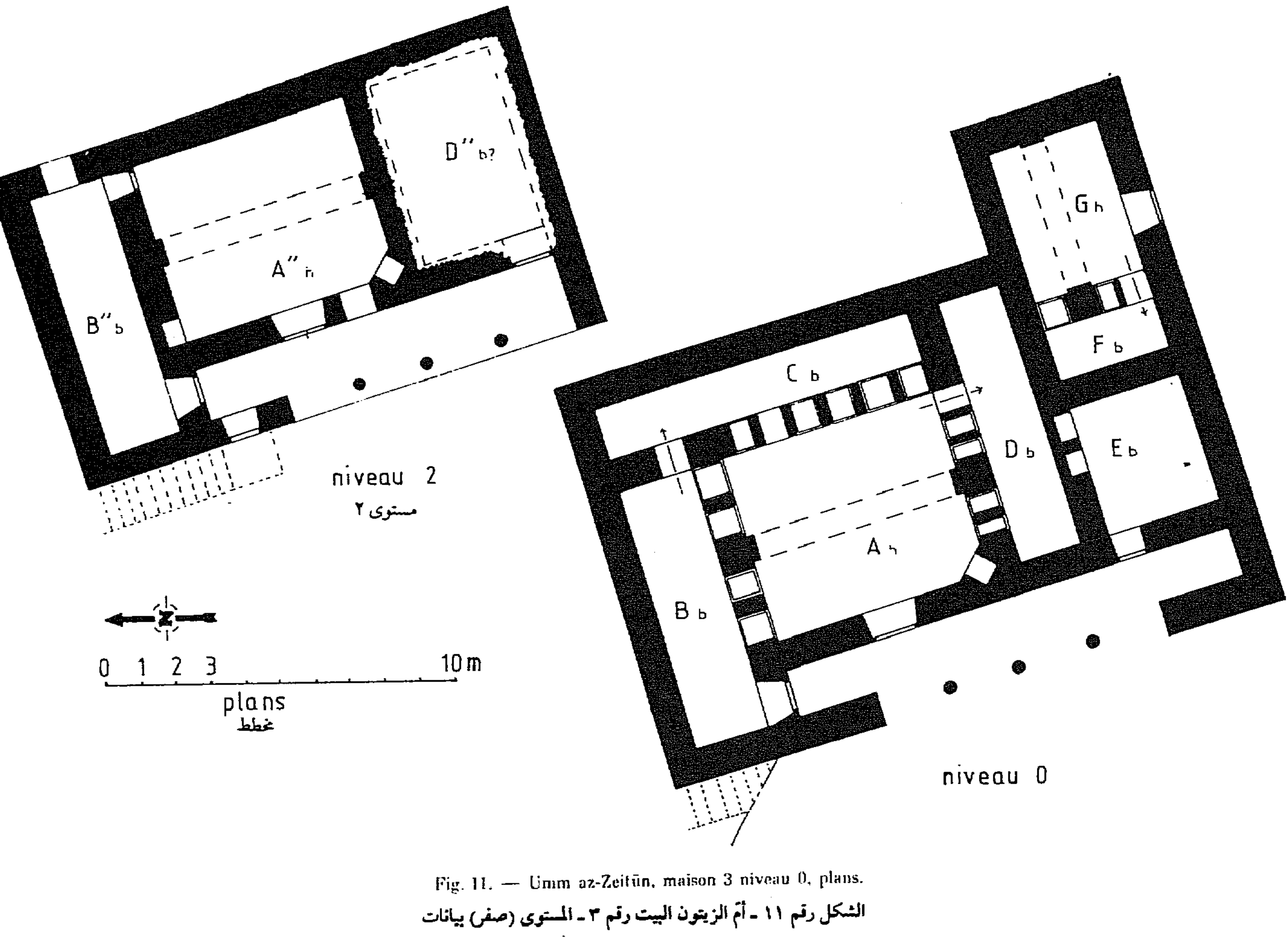


Fig. 11. — Umm az-Zeitūn, maison 3 niveau 0, plans.

الشكل رقم ١١ ـ أمّ الزيتون البيت رقم ٣ ـ المستوى (صفر) بيانات

الرجل، كان يوضع خلالها جرار شبيهة بخوابي اليوم لحفظ المياه باردة، بالتبخر عبر جوانبها المسامية.

الغرفة الداخلية للطابق الأرضي على مستوى (٠ صفر) من الأرض

ليس لهذه الغرفة أي منفذ، أومصدر ضوئي سوى من الواجهة، وهي غرفة بشكل مربع تقريباً (الشكل رقم ٨) (٦,٤٠ ×٦,٨٥م) أي انها من حجم متوسط، لأن مدى الجوائز البازلتية، يحول دون تجاوز هذا النموذج كثيراً. وهناك قنطرة في الوسط، موازية للواجهة، قد تكون واسعة أوضيقة، وهي مبنية من أحجار مقصوبة بشكل أفضل من أحجار الجدران، وهي تحمل العوارض Corbeaux, التي تحمل بدورها بلاطات السقف، التي يجب أن تكون عمودية على الواجهة (الشكل رقم ٩ب). وقد يصل ارتفاع الغرفة الى ٥ أمتار أويزيد. وتترك في الجدران أحياناً، وعلى ارتفاع قامة الرجل، كوىً فيها أخاديد تستخدم كرفوف أو نقر تثبت فيها أبواب صغيرة لخزائن. والجدران من الداخل مغطاة، بخليط من التراب والتبن، وغالباً ما تكون هذه الطينة صلبة.

أما أرض الغرفة فلها ترتيب خاص (الشكل رقم ٨ و١) و(الشكل رقم ٩ ـ a: الارتفاع). من جهة، درج من حجر، ملتصق بالجدار الغربي، ينتهي بمصطبة توازي نصف ارتفاع الغرفة وتقع أمام باب صغير للغرفة الخلفية للمستوى رقم ١، واذا وجد قرص الدرج بصورة دائمة دون الدرج في حالات اخرى، فحينئذٍ لابد من استعمال السلم الخشبي.

ومن الجهة الثانية يظهر الجزء الذي لم يستره درج حائط الغرفة الشمالي وقد فتح فيه ممر منخفض وضيق (١,٥٠ ×٠,٧٥ م) يؤدي الى الغرفة الخلفية. وهذه الفتحة ما كانت تغلق الا بواسطة رتاج أفقي، من الخشب، يمكن ادخاله في فريضات على نصف ارتفاع.

وهناك سلسلة من المعالف (خمسة هنا) كل واحد منها يتألف من حوض بعمق ٠,٢٠م مع حرف، كاطار من الأربع جهات وفي بعض الحالات لا يتواجد الحرف إلا على الجوانب الطويلة، ومن فتحة فوق الحوض، تمكن الحيوان من ادخال رأسه. وهذا الحوض يرتفع عن الأرض مقدار ٠,٦٠م الى ٠,٨٠م، أما جوائز الفتحات وسقوفها المزينة، فهي على ارتفاع ١,٥م. وهذه الفتحات تربط الغرفة الكبرى بالغرفة الخلفية في المستوى (صفر) الأرض. مما يتيح للرجل الواقف أن يعبر من خلالها. أما الأحواض وآخر الفتحات، فهي مبنية باعتناء شديد، أكثر من بقية أجزاء الحائط.

أما الغرفة الخلفية التي هي على مستوى الأرض (صفر). فهي بشكل مستطيل منحرف وبعرض ٢,٥م فقط، وقد تكون أضيق في بعض الحالات. وهذه الغرفة لا تشكل

سوى مساحة نصف طابق وسقفها مكون من جوائز حجرية ترتكز على عوارض حجرية أيضاً، وتتخذ اتجاه الغرفة العرضاني، وأقصى ارتفاع للسقف لمثل هذا النوع من الغرف هو ٢,٢٠م، ان التنقيب الذي أجري على الغرفة A. من البيت رقم ١ في «سيع» خلال عام ١٩٨٢ يشير الى ان هذا الارتفاع لا يتعدى ١,٥٠م.

ان أعلى حلقات الأحواض، غالباً ما تكون مثقوبة من جانب للغرفة. بثقب مستدير قطره ٥سم تقريباً، ولهذا أهمية مزدوجة: الأولى: يثبت بأن هذا الثقب له علاقة أساسية بالمعالف بكل تأكيد، لأن له علاقة بالتنظيم الأساسي للغرف السفلية من البيوت الريفية، ولكن الثقوب الصغيرة في أحواض المعالف، تبين مدى ضرورة ربط كل حيوان في معلفه، والأهمية الثانية: هي ان الثقوب المخصصة للمقاود (جمع مقود) الموجودة من جهة الغرفة الخلفية، تثبت بأن الغرفة كانت تستخدم كزريبة للحيوانات. وكان هناك (بالدرجة الأولى) تردداً في انشاء الزريبة ضمن الغرفة (الصالة) الداخلية الكبيرة... مثلما يقوم به اليوم الفلاحون الذين يعيدون استخدام تلك الطوابق الأرضية.

الغرفة الخلفية ذات المستوى رقم ١

هذه الغرفة كسابقتها ولها نفس الخصائص، من ظلمة، وسقف منخفض والاتصال الوحيد بالغرفة الداخلية هو الدرج. وهنا لا يوجد معالف للحيوانات بل كوى في الجدران وأحياناً شباك صغير جانبي (الشكل رقم ٨ ـ ١ في الشرق).

الطابق العلوي (المستوى ٢ ـ ٣): ان البناء والأحجام سواء في المخطط أو في المقطع هي مماثلة لغرف الطابق السفلي ذات المستوى (٠ ـ ١) فقط، لا يوجد معالف، اذن، هناك في الأمام غرفة كبيرة جداً ذات قنطرة تمتد على كامل ارتفاع الطابق، وتفتح على غرفتين فوق بعضهما البعض ـ مظلمتين ـ ضيقتين وطويلتين في الخلف.

السقف: وهو العنصر الوحيد الذي يندر بقاؤه، لم نتمكن من ايجاد أية دلالة على سقوف مزدوجة الميل، ما خلا بعض الاستثناءات، إذن، كان يعلو البيوت سطوح مغطاة بالطين المتلاصق، مثلما هو سائد في البيوت الحديثة الآن في المنطقة. وكانت العوارض الحجرية التي تحمل جوائز السقف البازلتية تفرض حمولة كبيرة مما يجعل ارتفاعها يزيد على سطح البيت ليشكل حاجزاً منخفضاً. أما الصعود الى ذلك السطح فوسيلته درج خارجي يبنى على الغالب من جهة الواجهة الأمامية.

لا يشكل تفسير هذه المجموعة أية صعوبة في التفاصيل. فالطابق السفلي مخصص للأعمال الزراعية، الدليل الأساسي في ذلك، هو وجود المعالف، بشكل عام، في آخر الغرف الكبيرة ذات القناطر، كما أشرنا. كان يمكن تخصيص الغرفة الخلفية، التي هي على

مستوى الأرض (٠) كزريبة، ومن المسلم به أن الحيوانات كانت تدخل وتخرج من الزريبة، عبر الغرفة الكبيرة ذات القناطر. وهذا ينفي انها كانت غرفة استقبال أو غرفة سكن. وهذا واضح أيضاً بأنه كان يعطى للحيوانات الأكل والشرب اثناء وجودها في الزريبة، عبر الغرفة الكبيرة، ومن خلال فتحات المعالف ومن الممكن أيضاً بأن علف كل حيوان، كان يوضع عبر الكوى التي تعلو المعالف أو كانت تودع فيها، المقاود والبرادع المخصصة لحيوانات الركوب.

إن طبيعة الماشية المزروبة هنا تطرح المسألة التالية: فارتفاع المعالف والطريقة المنفردة فيها، تستثني الخراف والماعز (ولا ذكر هنا للخنازير). أما الخيول فهي كبيرة الحجم جداً سواء بالنسبة لارتفاع أغلب فتحات المعالف. أو بالنسبة لأغلب الاسطبلات التي يكاد عرضها لا يزيد عن المترين، وقد يحملنا التفكير على الاعتقاد بوجود خيول في حالات مجموعات من المرابط الاكثر ارتفاعاً، والمعدومة المعالف[٩١]، وفي حالات نادرة تشاهد فيها معالف خارجية بالواجهة[٩٢]، وفي الحالة العامة، يصعب تقديم براهين قاطعة على أن تلك المرابط كانت معدة للحمير والبغال والأبقار، ولكننا نميل الى الاعتقاد بأنها كانت خاصة للأبقار، يشار الى الاسطبلات ـ في النقوش المكتشفة ـ بالكلمة اليونانية «ستافلون» التي لا تبرهن على أية دلالة. ولكن في الحالة الوحيدة التي تكون فيها الكلمة اليونانية دقيقة، «فوستاسيون»، فهي دليل قاطع عن مربط الأبقار[٩٣].

أما الغرفة الموجودة فوق الزريبة يصعب تفسير سبب وجودها[**]. فهي مغلقة جيداً ومظلمة، تبدو وكأنها خصصت لخزان المواد التموينية، أو منتجات الغلال (كالحبوب) ولكن ليس من المؤكد أنها مصممة على طريقة معمارية فريدة لا تستخدم الا لصالح الاسطبل، وليس لغيره، فالغرفة التي هي خلف المستوى رقم ١، لا تصلح أن تستخدم كمستودع حبوب، لأنه يوجد فيها على الغالب خزائن حائط. ولنذكر بعض الحالات التي تستبدل فيها الغرف الصغيرة الأربع قليلة الارتفاع. الزريبة وغرف المستويات ١، ٢، ٣، بغرفة واحدة يقارب ارتفاعها العشرة أمتار، معدومة منافذ التهوية والاضاءة، وهي كناية عن مستودع لا يزال يطرح مسألة، نظراً لضيقه وصعوبة الدخول إليه (باب وحيد، في الأسفل، يؤدي الى الغرفة الداخلية).

فالفلاحون الدروز أو الحورانيون أو البدو، الذين يعيدون استعمال هذه الخرائب، دون السكن فيها، لا يحترمون ذلك النظام العقلاني، بل يستخدمون الغرف الكبيرة كزرائب لمواشيهم بصرف النظر عن أنواعها أو خلفها، ويفسر الفلاح ذلك، بأن هذه الغرفة الكبيرة كانت تستخدم، زمن الرومان، مربطاً للحيوانات، وهذا تفسير خاطىء، تبرهن عليه أماكن ثقوب المقاود. والأوضاع الواردة (في

الشكلين ١١ ـ ١٢) . (إذن كيف كانت تربط الحيوانات التعسة الموجودة في الزوايا؟) . وما هو اذن وضع الغرفة الكبيرة ذات القناطر الكائنة في الطابق الأرضي؟ . سنحاول الاجابة على ذلك : انها غرفة خزن للمواد الزراعية ولبعض مواد المؤونة . أو محل لصيانة وصنع المعدات الزراعية الخ . . . وقد نضيف غرفة للسكن. ان الماشية القريبة جداً من هذه الغرفة ليست بالضرورة مزعجة ، ومن خلال منظور الشكلين ٨ ـ ٩ ، فهي بالعكس تنقل الدفء ، ولكن حينما تحيط الزرائب بالغرفة الكبيرة ذات القنطرة من جهاتها الثلاث (الشكل رقم ١١ ـ ١٢) ، يمكن أن نستبعد ، حينئذ ، بأن الناس كانوا ينامون وسط تلك الحيوانات المحيطة بهم .

وحري بنا أن نعتقد بأن النوم والحياة المنزلية ، بجميع تفاصيلها ، كان مقرهما الطوابق العليا ذات المستويين ٢ و٣ ، فالعمل والحيوانات في المباني الأرضية ، والسكن العائلي فوقها . هذه عادة قديمة ، ومنتشرة في الشرق وليست مستغربة . يعيدها البعض الى فكرة دفاعية ، حيث يقوم البيت بمثابة برج المراقبة ؛ كما يمكن تشبيه هذه الهندسة المعمارية بالسكن البرجي المعروف خاصة في السيكلاد (Cyclados) [٦٦*] ولابد ، على كل حال ، من ذكر عوامل أخرى ، أهمها :

ـ لعب الاقتصاد في مساحة البناء في هذه المنطقة وعلى الأكمة الصخرية ، دوراً في الحفاظ على الأرض الزراعية الحرة بقدر المستطاع ، وذلك منذ الوقت الذي نجحت فيه التقنيات المعمارية ، ببناء طابقين متبينين ، مثال خان القوافل في (جاوا) الذي يبين بأن هذا هو النموذج الذي كان مطبقاً في حوران منذ العصر البرونزي [٩٤] . وبما أن الماشية والحيوانات تعيش في الأسفل ، على التراب ، فمن الطبيعي أن يستقر السكن في الأعلى .

ـ ولابد من أخذ الرفاهية البسيطة بعين الاعتبار ، فكل من تجول في القرى السورية يعرف الغبار والأوحال التي يتعرض إليها الانسان . والذي يسكن في الطوابق ، يبتعد عن الأوساخ ، ويستنشق الهواء النقي ، كما يتمتع بالمناظر الممتدة أمامه ، والتي تتيح له مجال المراقبة .

في هذا الطابق السكني ، تعود الأهمية للغرفة الكبيرة ذات القناطر وللدرج الذي يتقدمها ، وهي بالحقيقة تماثل اليوم ، المضافة ، التي هي بالاساس غرفة استقبال وايواء الضيوف ، ولكن هذا لايمنع من استعمالها كغرفة طعام للعائلة ، في الأيام العادية ، وكغرفة نوم ، ومن المفروض في غرف النوم عادة ، أن تكون خلفية ومظلمة .

ويُعثر في بعض الاحيان في الطابق الأرضي على غرف كبيرة مزركشة بالزينات تستخدم كغرف للاستقبال دون أن يكون هناك أية زريبة ملحقة بها . ويبدو لنا منطقياً أن نعتبر الغرفة الكبيرة الطابقية كذات الأسرة الثلاث ـ تريكلينوس ـ التي ظهرت في بعض النقوش [٩٥] عند

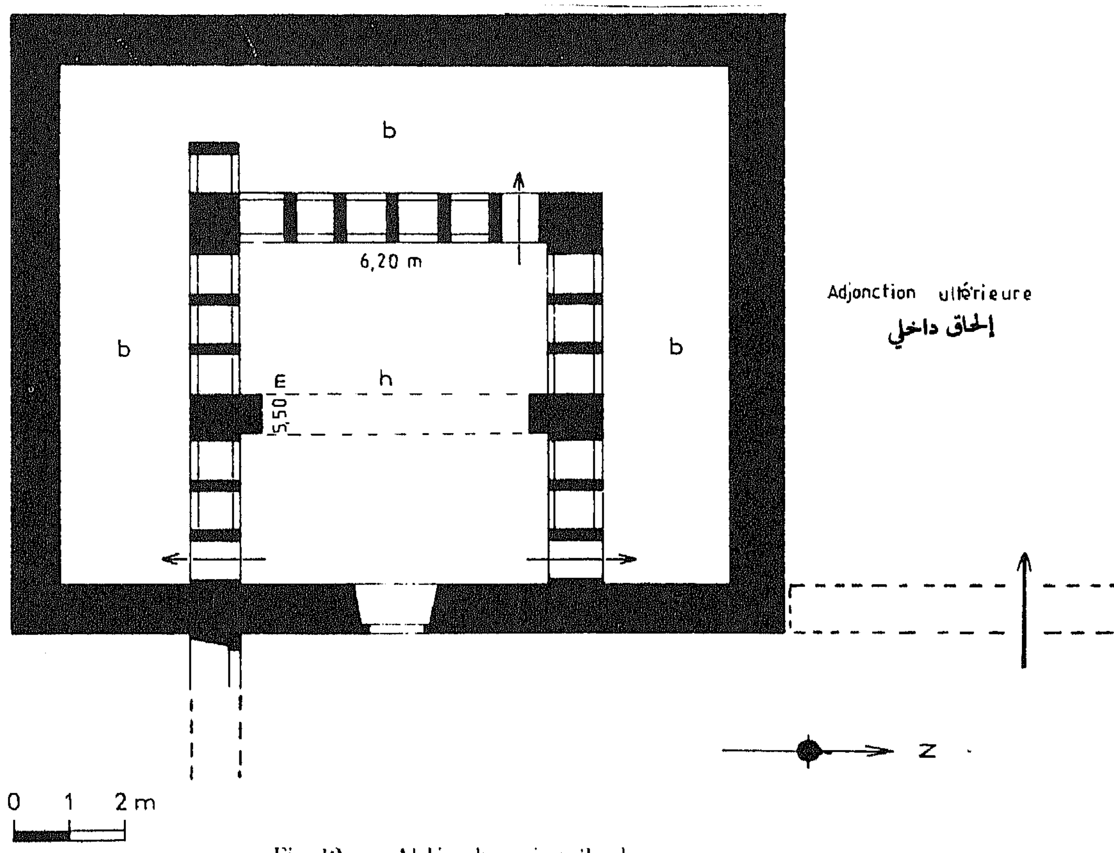


Fig. 12. — Al-Kerak, maison 3, plan.

الشكل رقم ١٢ ـ الكرك البيت رقم ٣ مخطط بياني

ذكر انشاء المباني، سيما وأن العنصرين الرئيسيين(٩٦) في المنزل هما زريبة البقر من جهة، وذات الأسرة الثلاث من جهة ثانية، وتسمية تلك القاعة بذات الأسرّة الثلاث قد تبدو غير دقيقة. ولكن على مايظهر، أن تنقيباً كشف عن مصطبات أومقاعد على جوانب الغرفة، وبالذات على الجوانب الثلاثة منها فقط ـ فالمضافة الحديثة هي اليوم بمثل هذه المقاعد.

ويستدل من استخدامات السطح أنه كان يستعمل، كما هي الحال اليوم، لتنشيف الحبوب. ومع ذلك هناك نقاط غامضة: فإذا اضيئت جميع تلك الغرف المظلمة بمصابيح توضع مثلاً، في الكوى والرفوف الجدارية التي سبق ذكرها، فليس هناك دلائل على نظام التدفئة ـ كالموقد ـ أو المدفأة نادرة؛ ولابد من أن يكون استعمال المنقل، أوموقد الجمر، قد عُمّم. وينطبق الأمر ذاته، في البحث عن مكان المطبخ: لعله كانت هناك أفران خارجية، في باحة الدار. وعلى كل حال، يتم تحضير الطعام في العراء(١٧*).

يبدو أن السناج الكثير الذي يغطي غالباً السقوف والجوانب في تلك الغرف القديمة، كان قد نجم عن الاستعمالات المتعاقبة المتأخرة، ونحن نعرف، في أيامنا هذه، أن البدو المحضرين في سورية والاردن، لايترددون في إيقاد النار ضمن الغرف المغلقة التي لايدخلها أي هواء عمودي، تبقى دراسة أرض الغرفة، غير ممكنة، مادامت التنقيبات لم تحرر المستويات الأساسية من الركام الكثيف الذي يغطيها. واذا صدف مرةً، ان شوهد بلاط أرضي جيد، حتى لو كان في الطابق الأرضي، فلاموجب يستدعي الاسراع في الاعتقاد بأن أرضيات الغرف السفلية من طين.

أما بالنسبة للمياه، فإن تعبئة القرب والجرار التي كانت تستقر، على مايبدو، داخل الكوى، تعتبر جزءاً من الاحتياطات المتخذة، أضف الى ذلك، بأن هناك أنظمة احتياطات أكثر تطوراً، يشاهد إحداها في الشكل رقم (١١). في الزاوية الجنوبية من الغرفة الرئيسية ذات القنطرة في الطابق الأرضي، وفي الطابق الذي يعلوه، هناك خزانة جدارية أقيمت ممتدة على عرض الجدار بشكل مائل، وبدون أرضية: وهكذا يتصل الطابق الأول بالطابق الأرضي، وبطابق أدنى لم نتمكن من استقصاء عمقه. والمثال ليس فريداً

فنحن نعتقد أن ذلك الترتيب كان يتيح غرف الماء من الطابق الأرضي، أومن الطابق الذي يعلوه، من داخل الخزان. ولدينا، أدلة ومثال على ذلك: الخزان الكائن في احدى بيوتات بريكة[٩٧]، أضف الى ذلك النظام المبين في اللوحة (IC). والذي يظهر الزاوية الشمالية الشرقية لبيت كبير في «الهيّات» يعود تاريخه الى القرن السادس، فالاخدود العمودي يشاهد عبر الارتفاع المتبقي من الجدار الخارجي، الذي يمكن أن نعيد جر القنوات في داخله (قنوات معدنية أومن التراب المشوي) تخصّص لتصريف مياه الطابق الأول الوبخة (؟): أو لجلب المياه، بفضل الضغط، حتى أعلى مستوى في البيت، وهناك، من جهة ثانية، بيوت عديدة استخدمت خزانات فردية صغيرة كانت تقام داخل الأرض، وبخاصة تحت باحة الدار.

ان البيت الحوراني القديم، مبني وفقاً لنموذج صارم. وهو بحد ذاته وحدة مغلقة، لا يظهر للخارج الا جدراناً خالية من المنافذ، وفي كثيرة من الحالات، لا تفتح الواجهة على الخارج، بل بالعكس نحو باحة البيت الداخلية التي غالباً ما تكون مرصوفة ومغلقة. بحائط سور يطوق ثلاث جهات، أو بواجهات أجنحة البيوت الأخرى التي تطوق جزءاً منها حالما يكون مخططاً. إن القاء النظر على المخططات الثلاث المختلفة يقنعنا بظهور تلك الباحة المغلقة فالشكل رقم (١٣ b) يبين بيتاً في قرية «ام العويني» طُلل قفر جنوب «خارمة»(Khazmeh). أن جناحي البيت مع حائط السور يحددان باحة مربعة الشكل ضلعها ١٠م تقريباً. تشغل جزءاً منها أماكن محاطة بأسوار صغيرة جداً. وفي الشكل رقم (١٤). في «أم الزيتون». تجد

واجهات الأجنحة الغربية والشمالية للبيت رقم ١، والحائط الخارجي الخالي من النوافذ للبيت رقم ٢. مساحة كانت، بدون شك، مغلقة من جهة الجنوب بجدار، ومن جهة الشمال بباب يقع بين الجناح الشمالي للبيت رقم ١، والبيت رقم ٢، وهذه المساحة تشكل باحة البيت رقم٢، والشكل رقم ١٥ يعطي المثل عن «كفر شمس» فالاجنحة الغربية ـ الشمالية ـ والشرقية للبيت رقم ٣ ـ متوضعة حول باحة، لا نعرف أن كانت مغلقة من جهة الجنوب، بجدار بسيط، أومغلقة جزئياً بجناح جنوبي مهدوم. وهنا، لابد من ذكر أن مخططاتنا، هي بطبيعة الحال، غير كاملة لأنها نجحت عن كشوفات دون تنقيب، ولأن الآثار القديمة لهذه الأبنية اختفت على الغالب بسبب العمران الحديث، من جهة أخرى، فإن الجدران البسيطة للسور هي التي اعتراها الدمار أولاً. بسبب هجر البيت، لذا فمن الطبيعي، أن وضع الباحة لا يتضح الا نادراً. وهناك حالة معلومة عن بيت بأربع أجنحة، متوضعة على شكل مربع يحيط بباحة داخلية، انه بيت جميل في «الهيّات»[٩٨] .ولربما. يميّز هذا البناء وذلك التنسيق مع العصر البيزنطي المتأخر، سيما وأن تاريخ هذا المسكن يعود لعام ٥٧٨ ميلادي، فالنقش يُعرّف البناء بأن «افلي» auhy الذي يعني باللاتينية فيلا (Villa)، ولكنه يشير مع ذلك الى أهمية الباحة ودورها الرئيسي. ويعتقد أن مثل هذه الباحة في بيت ريفي متوسط، كانت تستخدم كفناء للطيور. أوموقع لفرن. أو باحة للخراف أو للماعز، أولبعض حيوانات الجر. لم يتم التأكيد، بالحقيقة، من وجود بساتين مغلقة كانت متعلقة بالبيوت[٩٩]. لذا فإننا نتمسك اذن بالفرضية القائلة أن البساتين كانت تشكل نطاقاً حول القرية.

وعلى سبيل الايجاز، وحسب المعلومات المستنبطة من وضع البيت الريفي، يلاحظ بأن الطابق هو مخصص للسكن والاستقبال، والبناء الارضي للحيوانات والعمل، وقد صمم ليؤمن للأسرة أولمجموع العمال المنتخبين، باحة مغلقة ومحمية. وهذا غير ما ذكرناه اعلاه، حول الحياة الجماعية في القرى. فالفعاليات الجماعية والحياة الخاصة، لها ميادينها الخاصة، ووجود الزرائب داخل البيوت دليل على ذلك، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن الوصول الى الزريبة أو الزرائب والمؤونة الاحتياطية أيضا، الا بعد عبور باب الباحة ثم اجتياز الغرفة الكبيرة ذات القنطرة، وذلك وقاية من السرقة، بدون شك، أو تذكر لمفهوم معماري ساد في عصر كثير الاضطراب (عصر ما قبل الرومان) حيث كانت تخشى السرقة. ولكن ممن الخوف؟. من البدو الرحل، من ساكني القرى الأخرى؟ مع العلم بأن القرى المحصنة جداً كانت نادرة، وكل بيت، في نهاية الأمر، كان له حصن أومعتقل خاص. وهكذا يبدو لنا ذلك الترتيب للبيت مؤشراً واضحاً لظهور عقلية تعتبر الملكية الخاصة واستثمارها. نقطتين أساسيتين.

يفيد مفهوم البيت، في المنظور المعماري الصرف، عن اهتمام شديد بالاقتصاد في

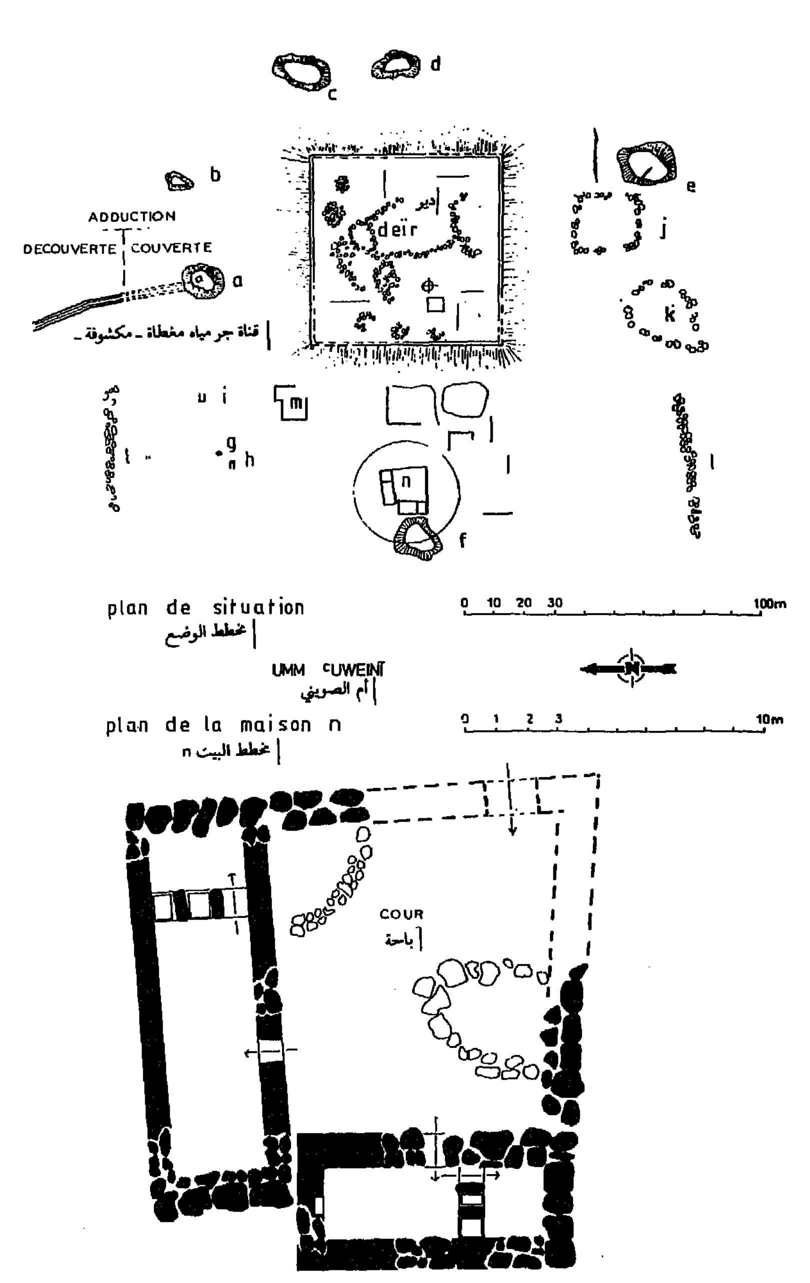


Fig. 13. — Umm ᶜUweinī, plan d'ensemble et plan de l'une des maisons.

الشكل رقم ١٣ ـ مخطط اجمالي ومخطط أحد البيوت

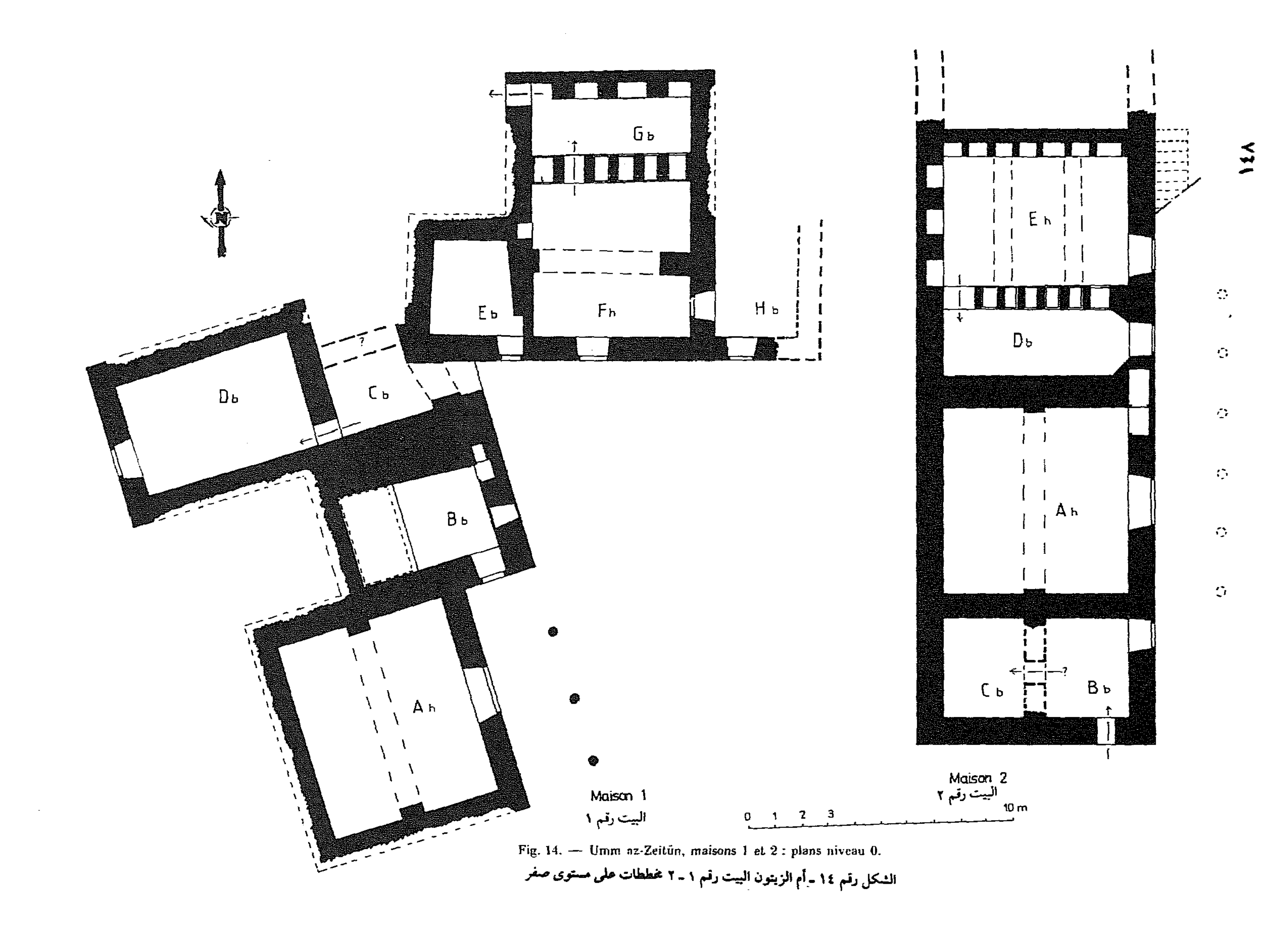


Fig. 14. — Umm az-Zeitūn, maisons 1 et 2 : plans niveau 0.

الشكل رقم ١٤ ـ أم الزيتون البيت رقم ١ ـ ٢ مخططات على مستوى صفر

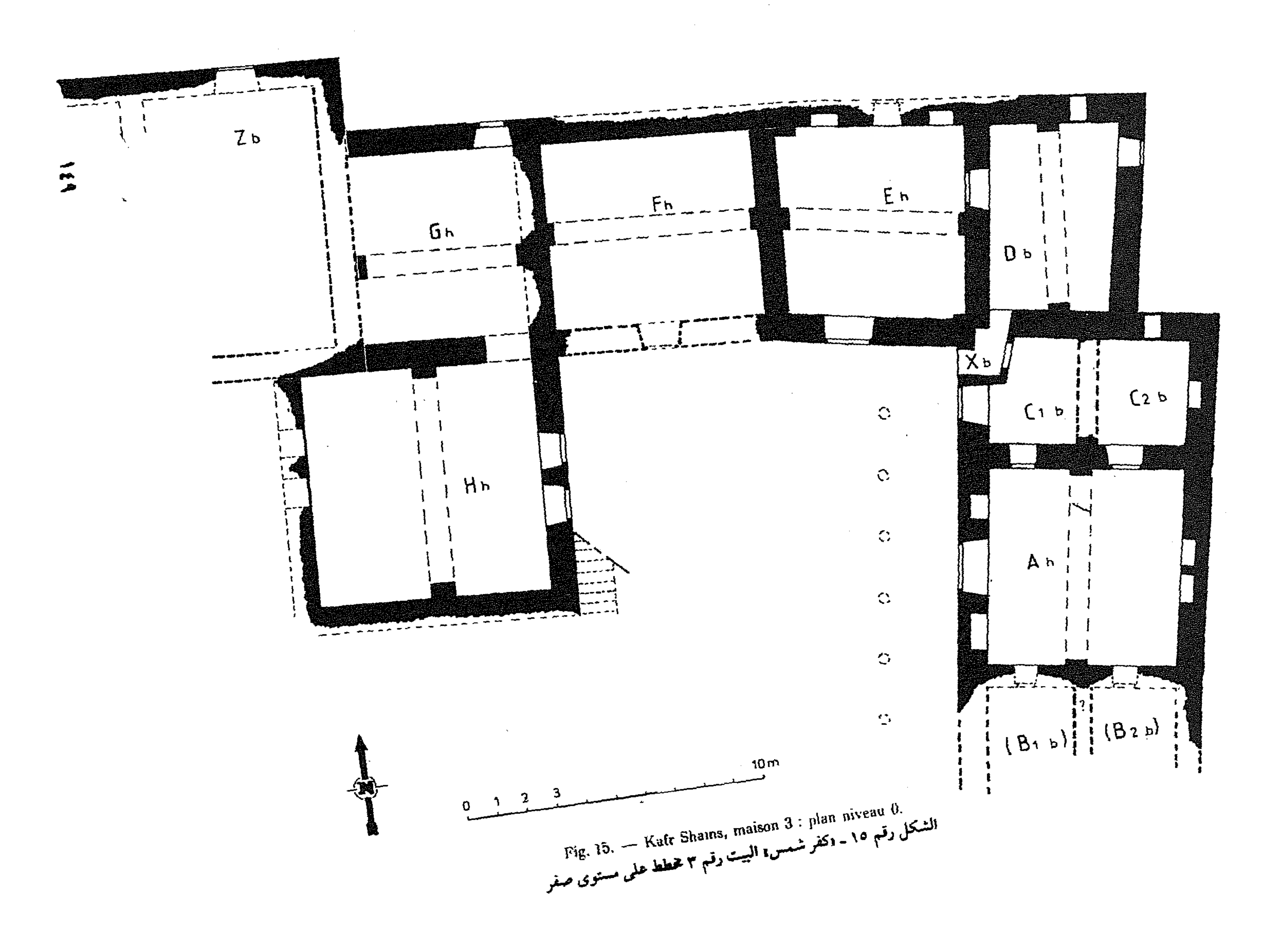


Fig. 15. — Kafr Shains, maison 3 : plan niveau 0.
الشكل رقم ١٥ - «كفر شمس» البيت رقم ٣ مخطط على مستوى صفر

المساحة، على الأرض أو عمودياً، دون الانتقاص من اتساع الغرف الرئيسية. ولا من الزخرفة الدقيقة، فتلك البيوت التي لها مناظر بسيطة من الخارج، لها غالباً واجهات جميلة جداً، تتقدمها أروقة بقناطر دقيقة النحت، ومن ضمنها معالف من صنع جيد.

تحدثنا، حتى الآن، عن البيوت القديمة في حوران بصورة غير متميزة، متمسكين فقط بالخصائص المشتركة النموذجية للمنطقة وللعصر ـ ولكن الرتابة في مفهوم بناء السكن لا تنفي التنوع الكبير الحاصل في النوعية أو في أحجام الأبنية، فهناك مجموعة من الأمثلة البسيطة أو المعقدة التي توضح هذا التنوع من وجهة النظر النموذجية.

يتمثل النموذج الأقل إعداداً (الشكل رقم ١٣)، بمساكن أم العويني[١٠٠]، البناء الفقير جداً، المصنوع من الحجارة غير المنحوتة، دون طوابق، وقناطر، وهذا ما يحدد واحدة من أحجام الغرف: إذن لدينا بناء ان متعامدان اجمالاً، طويلان ودقيقان (بعرض داخلي ١٠ , ٣م و٥ , ٢م) ولم تكن الغاية من الطول إلا التعويض عن الضيق. وهناك باب واحد لكل بناء يفتح على باحة مغلقة، والزرائب التي ليس لها سوى معلفين، هي غرف صغيرة جانبية بعمق مترين فقط، وحالة الخراب الكبير لا تسمح بالحديث عن شبابيك، قد تظهر في البناء يعتبر هذا البيت الذي يعود الى فلاحين فقراء، جزءاً من تجمع سكني، أقيم على مقربة من بناء يبدو دير خرب.

أما النموذج المتقدم، بالحجم أو بالنوعية، فقد وصف آنفاً، أي عندما ذكرنا مثال بيت «مجدل الشور» (الشكلان ٨ و٩). انه البيت القروي الوسط من العصر الروماني، البيزنطي مؤلف من طابق يعلو الطابق الأرضي، وفيه أربعة مستويات. خمسة مع السقف بتصميم متماسك (الأشكال رقم ١٦ ـ ١٢ ـ ١١) ترينا منه تنوعات اكثر اعداداً، في الكرك[١٠١] عثر في البيت رقم (١) (الشكل رقم ١٦ واللوحة 1b) على مجموعة وحدتي سكن ملتصقتين وليس مشتركتين، واحدة منهما لها زريبة بخمسة معالف مع ملحق جانبي، وهو ترتيب يقود الى ضم غرفة صغيرة مربعة في الزاوية الشمالية ـ الغربية. ويبين داخل الغرفة الكبيرة للطابق الأرضي، نوعية بناء مرموقة: ترتيب وارتسام منتظمان، عوارض متقنة الصنع، كوى، خزائن جدارية تتضمن شقاً لتثبيت باب خشبي، واخدوداً أفقياً لتشكيل رف. بيت خلاء في الزاوية الجنوبية ـ الشرقية.

ان نفس المواصفات موجودة بالواجهة (اللوحة 1b1) حيث اكتشفت بعض أنواع من الديكور، قبل فتحة مستديرة محاطة بصف من الزخرف البيضي، وقسم منه مسدود بصليب كثير التَوَرّقْ، والجائز الجنوبي يحمل مجنحاً مبسطاً في اليسار وفي الوسط، اكليلاً، وردة، عقد هرقل. الجائز الشمالي يحمل اكليلاً ونسراً ـ عقدة هرقل ـ عصبيات عناقيد عنب ـ وفي الكرك أيضاً البيت رقم (٣)[١٠٢] (الشكل رقم ١٢) يبين مخططاً كلاسيكياً آخر، لطابق أرضي

في بنـاء منفـرد حسب الظـاهر. فقد وضعت زرائب على ثلاثة جوانب الغرفة الرئيسية، علما بأن معلفاً اضافياً موجود في أحد الزوايا، وثلاثة أبواب باتجاه الثلاث زرائب. يوجد هنا ١٦ معلفـاً تعلوهـا جميعـاً كوى. وهـذا يعني امكـانيـة ايواء ١٦ حيواناً. ويعتبر ذلك رقماً مرتفعاً بالنسبة لبيت صغير الحجم ولكن هذا البيت هو البناء الوحيد.

بمخطـط البيت رقم (٣) في «أم الـزيتون»[١٠٣] (الشكل رقم ١١ ـ اللوحة IIIa) نبقى ضمن سلسلة بيوت ذات مخطط مستطيل وبسيط، ولكن ترتيبه اكثر تعقيداً: له رواق بثلاث أعمـدة في الطـابق الأرضي، وفي الطـابق الأول ثلاثـة زرائب (من ١٣ معلفـاً) حول الغرفة الـرئيسيـة كما هو الحـال في البيت رقم (٣) في «الكـرك». ولكن بنظام اتصالي جيد الاعداد، بالاضافة الى الحاق (ظاهرياً غير خارجي) مجموعة من الغرف التي يمكن الانتفاع منها E,F , G بالطـابق الأرضي، ومن بينهـا زريبـة بمعلفـين، ثم هنـاك غرف للماء (الزاوية الجنوبية ـ الشرقية للغرف (A,A) ذكرت اعلاه. ولم يكن في الامكان تحديد موضع الدرج الخارجي بدقة على المخطـط، إلا أنـه يؤدي، دون شك، الى الطـابق الأول، والى البـاب الموجود شمال قناطر الرواق.

لنستعرض الآن البيوت، فالشكل رقم ١٠ يشير الى البيت رقم ١ في قرية «شعـارة»[١٠٤] ومنهـا المنـزل الكـائن في المكان K الوارد على مخطط القرية (الشكل رقم ٤): هناك جنـاحـان منظـوران، والـزرائب متـوضعة في الجناح الشرقي (١١ معلفاً). والباحة ظاهرة، جيـداً على المخطـط في الـواجهـة «كـوتـان». وفي الـزاويـة الشـمالية الغربية من الغرفة C، المرحاض والـرواق الـمرمّمة واجهته (وهو مقطع من الارتفاع) ليس بمؤكد (لعدم وجود ركائز للأعمدة)، بل محتمل، نظراً لبروز الأفريز.

وفي مثـال بيت نوى رقم(٣)[١٠٥] (الشكـل رقم ١٧ ـ اللوحـة IIa) الـذي ربـما، كان يتضمن ثلاثـة أجنحـة وليس اثنتـين، نصـل الى الامثلة الاكثر اعتناءاً واتساعاً: باحة كبيرة مبلطة قد تكون مربعة. الرواق مؤكد تقريباً أما الواجهة الشرقية، ومشكوك فيه أمام الجناح الآخر. فصل في الطابق الأرضي بين الجناح الشمالي بدون زريبة وبين الجناح الشرقي بزريبة (كما في الحـالة السابقة) ازدواج، في الجناح الشرقي للغرفة الكبيرة ذات القنطرة (c, A) والتي تفتح على الزرائب (١٢ معلفاً)، ظهور منافذ خلفية للزرائب (B. E. D) ولكن لا يعرف فيما اذا كان يتم الاتصال مع الخارج، أو مع غرفة مطمورة قد تكون مستودع قمح (الشكل ٢٠ غرفـة H)، كوتّان في الواجهـة الواحدة مُقَبَّبَة، والأخرى (اللوحة IIa) على مستوى الجوائز التي تعلو الأبواب، مستطيلة، ومجهزة بشق يوهم بأنه باب، ومحاطة ببروز زخرفي، وقد كانوا يضعون فيها ما هو أنفس من جرار الماء: تمثال، ذخيرة، أو مايهم العبادة؟. درج يقود الى المستـودع رقم ١ للجنـاح الشـرقي يصعـد بمحـاذاة الحـائط الجنوبي للباحة، ومن ثم يحاذي

واجهة الجناح الشرقي وحتى المستوى رقم ٢، فوق الرواق المعاد ترميمه، أما الرواق المقنطر والكائن أمام واجهة الجناح الشمالي (اللوحة IIa) فهو ملحق متواضع ضُمَّ مؤخراً لتوظيفات جديدة.

يمثل (الشكل رقم ١٤) المجموعة المذكورة اعلاه، للبيتين رقم ١ ـ ٢ ولباحة البيت رقم ١ في «أم الزيتون»: فالبيت رقم ١ يتألف من جناحين معاصرين، يشكلان زاوية حادة، لم يتم توضيح حدودها الا بصورة غير كاملة، خاصة بالنسبة لجنوب الجناح الغربي، ولشرق الجناح الشمالي، ولا يستبعد قيام جدارين متوازيين، الواحد لسياج باحة البيت الأول، والآخر هو الحائط الغربي للبيت الثاني، للعمل على انشاء طريق بينهما. بالنسبة للبيت رقم ١ يشار مجدداً الى الفصل الموجود في المستوى (٠ صفر) بيت جناح له زريبتين، في الشمال وجناح بدون زريبة في الغرب، أما الرواق ذو الأعمدة، فهو قائم فقط أمام الغرفة الرئيسية A من الجناح الغربي، والشيء الفريد هنا، هو أن سقف الرواق يصل الى مستوى متوسط بين الجائز الذي يعلو باب هذه الغرفة، وبين كتف الشباك الموجود بالأعلى. أي على ثلثي الارتفاع الكامل للغرفة A تقريباً. أما البيت رقم ٢، الذي يماثل الأول بعظمته ومظهره (اللوحة IIb ـ الواجهة والباحة ذات البلاط الحديث، الذي يرتفع مستواه عما حوله) فهو بناء، مستطيل يتجاوز مجموعات غير مشتركة، وهي الغرف (B. C. A. D. E). وبلا شك هناك غرف أخرى «خرائب» في الشمال. فإذا رمّم الرواق الذي كان سقفه مستنداً على الأفريز الذي يمر أمام الغرفتين (A, D)، يستخلص مجدداً بأن هذا السقف يصل الى مستوى وسيط بالنسبة للارتفاع الاجمالي للغرفة الكبيرة A (٦٠, ٥م). ويشاهد أيضاً قرص درج منظور فوق باب الغرفة رقم E، وبقايا درج في الواجهة، ينطلق صاعداً من ذلك القرص الى المستوى ـ ٢ ـ المندثر.

ليس لهذين البيتين المتطورين زخارف خارجية، ولكن تتمثل فيهما بعض الخصائص والدقة، فهناك زوايا مخبأة ضمن الجدران (الغرف 1B:2A)(و(بيوت الخلاء؟). وأفاريز حجرية فوق بعض الشبابيك (البيت رقم ١) لابعاد جريان ماء الشتاء عن الفتحة، وعدد من الكوى المرتفعة في الزريبة (IG) وفي الغرفة (2E) التي تفتح على الزريبة (2D) وأخيراً الغرفة (IB) المدخل منذ البدء: يمكن الوصول اليها عبر الرواق، وهي مضاءة بشباك في الواجهة. انها تنقسم الى قسم داخلي مغطى بالبلاط الجيد الصنع الذي يستند من أربع جهات الغرفة، على أطنان جميلة ذات تضليعة منعكسة، والى قسم خلفي هو بمثابة مخدع للنوم، تعلوه قبة، بعقد كامل وأرضية هذا القسم الأخير مرتفعة قليلاً عن أرضية القسم الداخلي، ماذا كانت تشكل هذه الغرفة؟ ان الشكل المعماري الذي تمثله، موجودة عادة في الطابق الارضي للبيوت الجميلة، واستثنائياً في الطابق الأول ضمن قاعات كبيرة، واسعة، معدة لاستعمالات متنوعة: غرف نوم ـ أو صالات استقبال، أو قاعات اجتماع[١٠٦].

البيت رقم (١) في «معربة» (الشكل رقم ١٠٨)[١٠٧] يشبه تقريباً البيت رقم (١) في «أم الزيتون» سواء من حيث المخطط أو من حيث مستوى الانجاز والزخرفة: له جناحان متعامدان، الواحدة مزودة بمعالف (في الشمال) والأخرى بدونها، هناك أروقة قابلة للترميم أما واجهات كل منهما، والزرائب (C. H.I) تحوي (١٦ معلفاً). الزخرفة محدودة، إلا أنها متقنة، قنطرة ذات جبهة مزينة بنتوءات في الغرفة رقم B جوائز مزركشة بتاج في الوسط، وبأغصان الغار على الجوانب، على أبواب الغرف F. A ان واجهة الجناح الشمالي هي واحد من الأمثلة النادرة المحفوظة حتى أعلى الطابق العلوي مستوى (صفر ـ ٤) ولكن غرف الطابق قد اندثرت.

نعرض الآن مجموعة البيوت الأكثر اتساعاً والاكثر اناقة مع البيت رقم (١) في «كفر شمس»[١٠٨] (شكل رقم ١٩، اللوحة IV a,b، واللوحة IIa). يتألف البيت باديء الأمر، من الغرفتين (A, G) (دون ذكر غرف أخرى ممكنة في جنوب C, B)، اذن، يتألف من جناحين (غير متساويين)، فالجناح الغربي رئيسي ويتقدمه رواق بقناطر يشاهد، في الزاوية الجنوبية الغربية من الجناح الشمالي، بدء انطلاق قوس من الشمال الى الجنوب، وسقفه يرتكز على أفريز يقع على ارتفاع ما يقارب ستة أمتار من سطح الأرض المحتمل، فوق هذا المستوى (أي المستوى رقم ٢)، توجب اعادة ترميم بناء طابق، بارتفاع مماثل دون شك، على كامل هذا الجناح، ومما يثبت ذلك، وجود أساسات جوانب الاقواس على المستوى رقم ٢، وفوق الحجرة A. كما أن نموذج الطابقين الرئيسين والمستويات الأربعة المعروضة سابقاً، ينطبق هنا جيداً. وهذا يعطي بناء بارتفاع ١٢ متراً تقريباً. أما الوصول الى المستوى ٢ فيتم بواسطة درج على الطرف الجنوبي (غير متطور) من الواجهة. والجناح يتألف من مجموعتين من غرف صغيرة، واطئة، (B. C. D. E) تعلوها مثيلاتها من الغرف في المستوى ١، وهي متناظرة بالنسبة للغرفة الكبيرة ذات القنطرة A. والغرفة الأخيرة هذه مميزة جداً: بابعادها (٨,٢٠× ٨م وبارتفاع ٦م تقريباً حتى السقف) وبمنافذها، باب في الواجهة بعرض ١,٧٠م، تعلوه ثلاث نوافذ كبيرة كانت مغلقة بشبك وبمصراعين، وباب غربي من الخلف، يرتفع قليلاً بالمقارنة مع الباب الرئيسي، ويحذف الأدراج الداخلية التي تخدم غرف المستوى ١ : .B.C.D).

E(وهذه لايمكن الوصول اليها الا بواسطة أبواب قائمة على مصاطب، في الواجهة (B. D). وتتميز الغرفة الكبيرة أيضاً بدقة العمل: اذا كانت الجدران تقدم واجهة خشنة غير مصقولة، ربما كانت مغطاة بطلاء ما، فسطح السقف مرصوف ببلاط متكامل (اللوحة IV a) وتاج العمود في الجانب الشمالي للقوس يحمل على حافته المشطوبة، شكل وردة لها بروز، بينما يوجد (حرفوشه) أي اطار مزخرف بشكل ذنب السنونو يحمل النقش (V C D / E D C) أي الله. مما يتيح اعادة البناء الى التاريخ البيزنطي. وفي الواجهة يحمل جائز الباب الذي يوصل

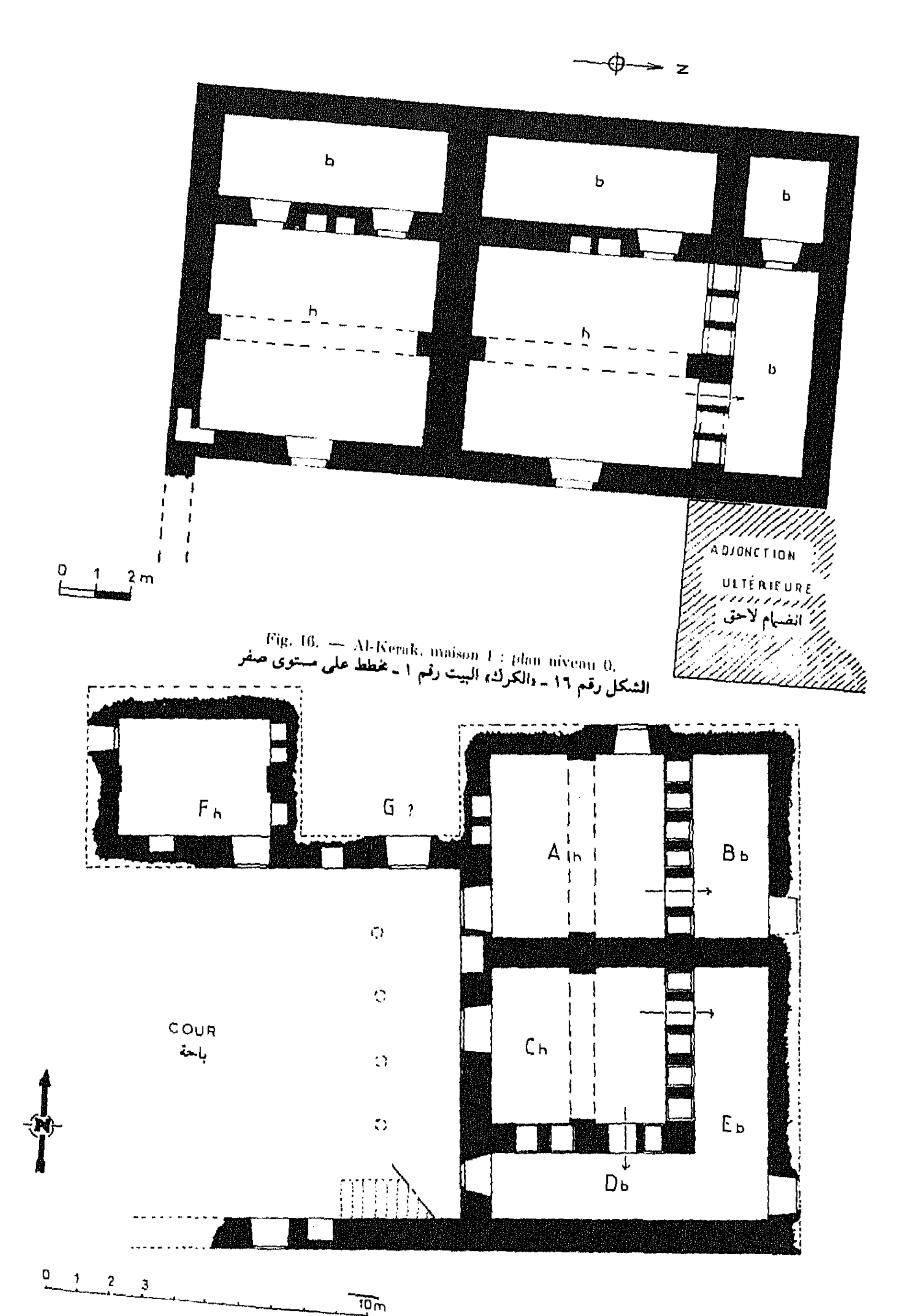


Fig. 16. — Al-Kerak, maison 1 : plan niveau 0.
الشكل رقم ١٦ ـ «الكرك» البيت رقم ١ ـ مخطط على مستوى صفر

Fig. 17. — Nawa, maison 3 : plan niveau 0
الشكل رقم ١٧ ـ «نوى» البيت رقم ٣ ـ مخطط على مستوى صفر

Fig. 18. — Al-Mu'arribeh, maison 1 : plan niveau 0.

الشكل رقم ١٨ ـ المعرية بيت رقم ١ ـ مخطط على مستوى صفر

الى هذه الغـرفـة اشـارة مزخـرفـة لرمز المسيح، وعلى حجر يعلوه، خط وديكور مزخرف من الـزهـور (اللوحة رقم IV b) ثم نقشت عناصر أخرى من ذلك الديكور المحتشم والمقتصر على بعض الرموز على جائز الباب الواقع بين (D, A). وعلى بلاطة سقف الغرفة D.

يقتصـر الجنـاح الشـمالي (في حالته الأولى) على غرفتين صغيرتين (F, G) تطلان على الباحة، مسقوفتان دون اللجوء الى القنطرة وتعلوهما الغرفتان G ,F بارتفاع ٥ , ٢م فقط، ولا يتقدم هذا الجناح أية أروقة.

يتم اتصـال الجنـاحـين بزاوية غير مكشوفة في استطالة الرواق، وعلى حافته الشمالية كان هنـاك باب للخـارج، وعلى جداره الشـرقي يوجـد درج يقـود من مستوى الأرض الى المستـوى (١) الغـربي، له مصطبـة داخلة في البنـاء الشـمالي، حيث توجد عبّارة من البلاط الحجري، كانت بمثابة المرور الى باب الغرفة D.

على الطـرف الشـرقي للجنـاح الشمالي، توجد الغرفة H التي هي ملحق قديم ولكنه خلفي، ومبني بالأحجـار المحـدبـة. أمـا الجناح الجنوبي مع الغرفة Z محددة الجوانب، فهي **أيضاً** ملحق قديم.

واذا امعنا النظر في هذا البيت يلاحظ وجود ثلاث نقاط تلفت الانتباه وهي:

ـ اتساع ونوعية ذلك البناء.

ـ الغياب الظاهر للزرائب

ـ عدد وحجم المداخل ـ والنوافذ، لا سيما خارج الواجهة.

يمكن العـودة للحـديث عن تلك النقـاط حينـما يأتي ذكر البيوت التالية: البيت رقم (٢) في نوى[١٠٩] (الشكـل ٢٠ ـ اللوحـة b, va-) له علاقـة مع طراز البيـوت رقم (١) في «معـربة» (الشكـل رقم ١٠) ولكن مع ديكـور اكثـر فخـامة وأكثر ابداعاً، في موضوع تنسيق الغرف، يتألف البيت من هيكلين من البناء، شمالي وجنوبي، فالبناء الشمالي من جناحين متعامدين، الأول واسع مع زرائب واهراء في الشرق، والآخر صغير وفخم حتى في الطابق الأرضي في الشمال. وهذا المثل يبين، بأن غرفة الاستقبال لم يكن لها أساس أو وجود في الطابق، ولكن غالبـاً في الطـابق الأسفـل بجـانب غرف العمـل بالذات، ولم يبق أي أثر للطابق، ولكن في الطـابق الأسفـل، يوجـد الـزريبتـان (F- G) مع مجمـوعة من تسعة معالف على الأقل، مع الاهراء H بارتفاع خمسة أمتار حيث يوجد فيه أيضاً الغرف A الفخمة التي يتقدمها رواق مرقم في الـواجهـة، ويتم الـدخـول اليها بواسطة باب يعلوه جائز غني بالديكور (الزركشة (va ، اللوحـة) وشبـاكان يزينهما من كل جانب نافذة (عين الثور) المستديرة. وهذه الغرفة المزركشة بدقة في الداخل أيضاً لها ارتفاع ٧٠ , ٥م. ولا يمكن قط، أن تكون غرفة صغيرة للعموم. هل الأمـر يعـود الى غرفـة استقبـال؟. ان الغـرف ب الكائنة في الخلف والتي لا تحتل سوى

نصف طابق (على مستوى صفر) كان يمكن أن تستخدم غرفة نوم، أو صالة راحة للضيوف بطريقة غير مباشرة، يجب التساؤل فيما اذا كانت الغرفة الكبيرة، الشبيهة بالغرفة A ـ في الامثال السابقة، (البيوت رقم ١ الغرف رقم A في كفر شمس معرّبة ـ أم الزيتون) هي رغم وجودها في الطابق الأرضي، غرف الاستقبال، وفي هذه الحالة كان يحتفظ بالطابق لإسكان الأهالي الدائمين.

البناء الجنوبي للبيت رقم ٢ في «نوى» قد فصل كلياً عن بقية البيت الذي يبدو، مع ذلك، وكأنه مستقل وعصري. والغرفتان -I- و -ل- تبدوان أكثر زخرفة من غرف المستوى (صفر). في الغرفة رقم ١، يرى باطن القنطرة مزيناً بنتوءات عمودية، (deux naissonce) وبمجموعة لها بروز، بشكل صدف، تيجان، عقد، عناقيد عنب فوق البدايتين (اللوحة vb) في الغرفة ل، ورغم الخراب الموجود، يرى قوس قنطرة له تيجان مزخرفة، حاملاً على جبهته ديكوراً تزيينياً يونانياً، كما يرى منطلق قنطرة نصف اسطوانية يغطي الجزء الخلفي للغرفة.

وفي نهاية هذا الكشف نركز على تنوع البيوت بمثلين (exemples)، رغم عدم غناء زخرفتها ولكنها متميزة بعدد الغرف وبأهمية المخطط، وهذا يشمل البيوت رقم (٣) (الشكل رقم ١٥) والبيوت رقم (٢) (الصورة رقم ٢١) في كفر شمس[١١٠] فالبيت رقم (٣)، يتألف من ثلاثة أجنحة بشكل حذوة الحصان حول باحة، وكانت بترتيب يصعب دراستها في المكان، لأنها كانت بمجموعها مردومة، الباحة كانت بكاملها مغطاة، (قد يكون ذلك في العصر الوسيط) بسلسلة من القناطر. وكما أعيد من جهة أخرى بناء العديد من الأسيجة والجدران بحيث يتعذر البحث في تفصيلها، وخاصة لايبدو صحة وجود جناح رابع كان يغلق المجموعة الجنوبية، لأن واجهة الجناح الغربية بدت متقطعة هناك حسبما أشير على المخطط الوارد (الصورة رقم ١٥).

أما الصالة Z في الشمال الغربي، فتشكل حاجزاً واقياً مع البيت رقم (١) راجع (الشكل رقم ١٩) الجناح الشمالي للبيت رقم (٣)، كان في الواقع، ملتصقاً بالجدار الشرقي Z. ونذكر أن الجناح الذي هو جزء من البناء Z أيضاً. يقع خلف البيت رقم (١) واذا قدر أن مجموع الأبنية في البيت رقم (٣)، بنيت في وقت واحد، حسب ظاهر الحال، فتكون لدينا ثلاث مراحل: بناء البيت رقم١، ثم البيت z مع جناحه، وأخيراً البيت رقم (٣).

وبموجب الديكور يعرف البيت رقم (١) بأنه بيزنطي، ويمكن تقريب المخطط المغلق للبيت رقم (٣) من مخطط البيت المبني في «الهيّات» خلال أواخر القرن السادس (راجع ما سبق والحاشية ٩٦). وهكذا تم الانتقال خلال العصر البيزنطي من المخططات المفتوحة نسبياً، الى مخططات مغلقة. ولكن هذه الفرضية تتطلب أن تكون مستندة الى أحداث تاريخية أكثر

وضـوحـاً، والى مقـارنـة أمثال أخرى، وعلى كل حال، فإن هذا القطاع من القـرية الأثرية «كفر شمس» عرف خلال هذه الحقبة، كثافة في البيوت الكبيرة.

وبالعـودة، الى البيـت رقم (٣) نفسـه نجـد أن الجنـاح الـرئيسي هو الشـرقي، وهـو مزخرف بلا شك، برواق في الواجهة، يحتوي على غرف جانبية B (لايمكن مشاهدتها) و C مقسمـة الى قسمـين بواسطـة حواجز /شمال ـ جنوب/ ومتناظرة بالنسبة للغرفة الكبيرة A. بمـوجب مخطـط بيـاني كلاسيكي فعـلاً. وبـالمقابل الأجنحة بالشمال والغرب، دون رواق، تجاور غرفـاً مربعـة متماثلة تقـريبـاً. ولكن مثل هذا الوضع نادر، ويمكن الاشارة الى تجاور الاجنحة الغربية ـ الشمالية، حيث يوجد ممر مكوّع × لائق يشرك الباحة مع الغرفة C والغرفة D.

حسب مثلنـا الأخـير، فإن البيت رقم (٢) في كفـر شمس (الشكل رقم ٢١ ـ اللوحة vlb- vc) هو مبتكر حسب رسم مخططه: الطابق الأول غير موجود، وما تبقى من الواجهة هو مخفي بسبب البنـاء الحـديث الـواقـع أمـام وفوق البيت الأثري: تشاهد في الوسط ثلاثة شبابيك مربعة متوضعة فوق باب الغرفة A يعلوها أطناف مزخرفة من حجر.

هناك جناح عارض يقع عمودياً على طول جسم البناء الشمالي، لم تكن دراسته ممكنة بسبب التدمير والردم الكاملين. وفي الطرف الغربي من البناء الشمالي، ربما الحقت الغرفتان «K و Y» بمجمـوعـة البيت I (القـريبـة جداً من الغـرب)، أمـا الغـرف A الى I البـاقيـة فهي متجـانسـة كما يوجد رواق جميل له سبعة أعمدة يصل سقفه حتى المستوى، أي تحت شبابيك الغرفة A، ويـزين الـواجهـة أمـام الغرف (A الى E) وأمام مدخل الغرفة A. تيجان العمودين هي من الطراز الأيوبي، بينما تيجان بقية الأعمدة من الطراز الدوري؟ أما عتبة الرواق في المدخل، تحمل على سقفها المزخرف، /صليباً/ بنحت نافر منقوش وسط تاج اللوحة va. وفي الصدر يوجـد صليب آخـر منقـوش، ضمن اطـار مزخـرف بذيـل السنونو، هذا ما يؤكد عودة ذلك البيت الى التاريخ البيزنطي.

لا شيء جديـد بالنسبـة للتنسيق الصحيـح في كل مجمـوعـة من الغرف، بالمقارنة مع الامثلة السـابقـة، ولم نستخلص سوى ثلاثـة تفـاصيل هي: وجود باب شمالي للغرفة الرئيسية A باتجـاه الـدرج ـ الممـر من الـرواق نحـو الغـرف F بواسطـة ممر مقبّب السقف واطيء. وضع الدرج الذي يخدم الغرف «F و H» في الطابق الأول فوق الغرفتين (F و H) (اللوحة vlb)، وبين أبواب الغرفتين H,F في الواجهة، يشار الى قرص درج مدمر على ارتفاع يقدر بمترين فوق أرض الأساس، ومن هذا القرص تنطلق دورتا درج صاعدتان نحو الغرب، (الغرفة H) ونحو الشرق (الغرفة F) والحقيقة لا يمكن الوصول الى قرص الدرج هذا من الأرض، الا بواسطة سلّم.

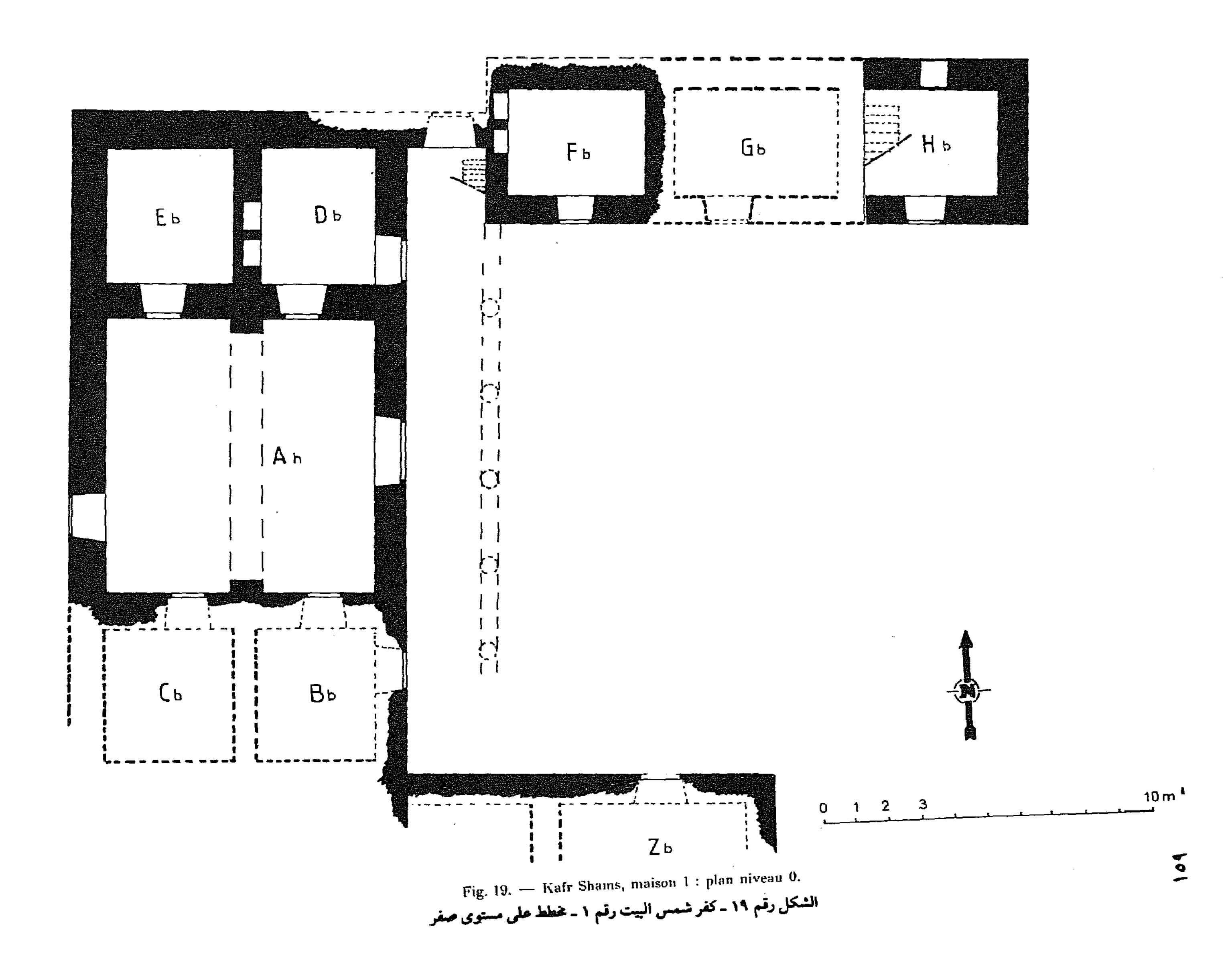


Fig. 19. — Kafr Shams, maison 1 : plan niveau 0.

الشكل رقم ١٩ ـ كفر شمس البيت رقم ١ ـ مخطط على مستوى صفر

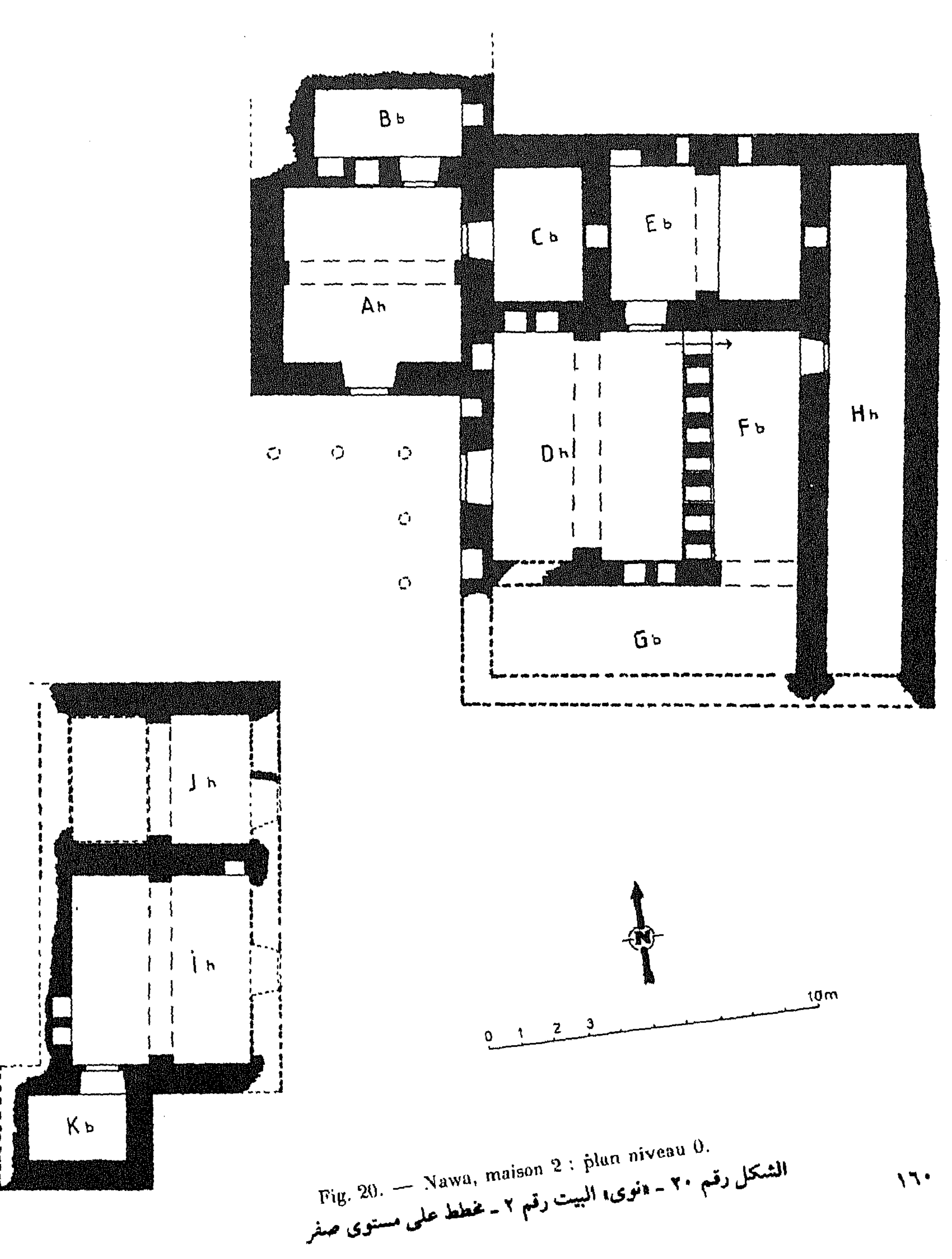


Fig. 20. — Nawa, maison 2 : plan niveau 0.

الشكل رقم ٢٠ ـ «نوى» البيت رقم ٢ ـ مخطط على مستوى صفر

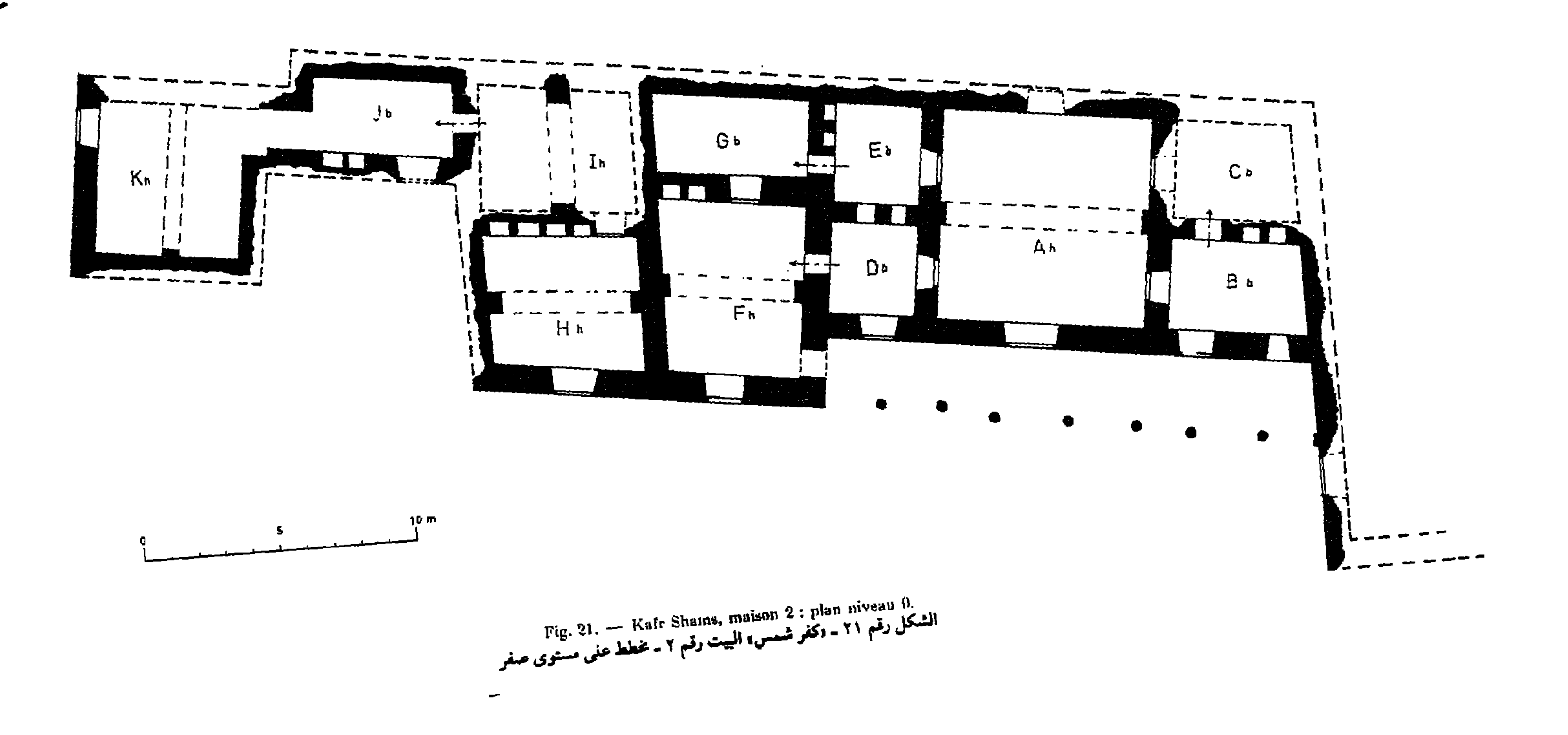


Fig. 21. — Kafr Shams, maison 2 : plan niveau 0.
الشكل رقم ٢١ ـ وكفر شمس، البيت رقم ٢ ـ مخطط على مستوى صفر

تمثـل بيـوت نوى وكفـر شمس بعض الأسـاليب المـوحدة، مثل الحجم الكبير، كثرة التعقيـدات المتعلقـة بالمخططـات، الـديكـور المتزايد في الغالب، اختفاء الاهتمام في تحديد منافذ الوصول الى البيت الى اقصى حد، (يمكن مشاهدة ذلك على المخطط النموذج): فهنـا الفتحـات، والأبـواب والشبابيك عريضة، وليس من الصعب العثور على أبواب تقود الى الخارج في جهات غير الواجهة. حتى لو لزم الأمر انتظار جزء اكثر اكتمالاً، يمكن القول ان وجـود عدد من البيـوت الفنيـة في هاتين القريتين، وفي القرى الأخرى المجاورة (مثل كفر ناسج[111]، انخل[112]، الصنمين[113]) يؤكد أن تلك المنطقة الواقعة على الشمال الغربي من بتـانيـا الأثـريـة، هي أغنى منـاطق حوران: فهـذه البيـوت الغنيـة كانت على العمـوم مركـزاً، لأغنى الاستثـمارات الـزراعيـة، ومـع أن بعضـاً من الذين قاموا بالتنقيب الخاطف تحت حمايـة الجيش الاسـرائيـلي عام ١٩٧٣، لم يتمكنـوا من تميـز المـداود البسيطة، ففسروا مجمـوعـة الـزرائب بأنهـا اخـدار حريم، غير مميـزين المعالف من المشربيات[114]، في الواقع ليست هنـاك سوى منطقـة واحـدة في هذه المجموعة يظهر فيها نقص في المعالف، في البيوت التي تمكنـا من زيـارتهـا بالتفصيـل في «كفر شمس» هذا الغياب الغريب وغير المنتظر، يجلب الشك فيما اذا كانت هذه المعالف من أصل الاقسام المدمرة، التي اختفت بسبب البيوت التي أعيـد بنيـانهـا. ولكن لا يعتقـد ذلك، لأن اهتمامنا إنحصر في ثلاثة بيوت. (انظر الشكل ١٥ ـ ١٩ ـ ٢٠) التي لم يكن أصحابها، لسبب ما، يمارسون فيها تربية البقر. لا شيء آخر يحمل على الاعتقاد بأن تلك البيوت ليست ريفية، وليست مركز استثمارات زراعية، ولكن قسم الاقامة والمظهر الخارجي وحده، هو الذي كان متطوراً هنا، أكثر من أي مكان آخر.

إن البيوت الكبيرة المألوفة في الشمال الغربي، وأيضاً في مناطق أخرى مثل (معربة ـ أم الزيتون) مغمورة بشكل واضح بكتلة من البيوت المشابهة، للمخطط المتوسط الذي يبدو أنه كان معمولاً به لفترة طويلة، ولعدم القيام بالتنقيب والبحث بصورة كاملة يتعذر تحديد الزمن الـذي ظهـرت فيه أقدم الأمثلة على تلك البيوت. بالتأكيد في أواخر القرن الثاني الميلادي، ظهر البناء الأثري القديم، الذي يدعى المدرسة، في «قنوات»[115] عام ١٢٤ ـ ١٢٥ بعد الميـلاد[116]. اذا لم يكن بيتـاً بالفعـل، فمن الـواضـح أن هيكله المعـماري مستمد من تنظيم البيت. لذا فإن الأسلوب الكـلاسيكي للبيت الـريفي الحـوراني موجود منذ السنين الأولى، أي بعد الحاق حوران، بالولايات الرومانية. ويعتقد أنه يعود الى أقدم من ذلك، ولكن دون امكـانيـة تحديـد تاريـخ بدء استخـدام القنطرة في البيوت، الاستخدام الذي أعطى للبيوت شكلاً ومظهراً نهائياً لقرون عديدة، ربما يعود ذلك التاريخ الى القرن الأول قبل الميلاد؟.

فقـد أظهـرت دراسـة التـاريـخ جليـاً، بالنسبة للبيوت الكبيرة المشار إليها أعلاه بأنها بيزنطية بصورة ثابتة، مع منحنى تطوري نحو مخطط مغلق في القرن السادس الميلادي.

موضوع الملكيات الكبيرة

لابـد من أن يكـون هنـاك تفسيراً لتطور البيوت الكبيرة الريفية في العصر البيزنطي، حيث يشـار لغنى بعض الملكيات العقارية بسبب النمو الاقتصادي للقرى والتفاوت الطبيعي والاجتـماعي الـذي نمـا فيها، وأدى الى انطـلاقـة الملكيـات الكبـيرة بعد قرون من التطور والازدهـار تحت حكم رومـا، ولكن لابـد من الحذر، لأن هذا التطور عرف في بادىء الأمر، العـديد من الصدمات، منها أزمة القرن الثالث بعد الميلاد المشهورة بشكل خاص، والحكم لتدمـري عام ٢٦٩ ـ ٢٧٠م، ومن جهة أخرى، لأن مفهوم الملكيات الكبيرة في حوران لم يكن قد تبلور حتى الآن.

لنعـد أولاً الى البيـوت البيزنطية الكبيرة. فهي ليست فيلات بالمفهوم الروماني ولكنها بيوت قروية فقط: في «نوى» كانت البيوت المتراصة تبعد عن بعضها بضع عشرات الأمتار. وفي «كفر شمس» كانت ثلاثة بيوت من أصل الأربعة المذكورة هنا، تشكل مجموعة متراصة جداً لدرجة يصعب فيها تمييز عائدية بعض غرفها. ومن الواضح أننا نتحدث هنا عن وسط القـريـة الأثرية؛ ويجب ألا تعتبر كمراكز أملاك ومناطق نفوذ، بل مراكز استثمارات أغنى من غيرهـــا، ضمن نطـاق النظـام القـروي. وفحـوى جمع الشقق السكنيـة الى غرف المؤونـة وغيرها، في وحدة معمارية، هي أن الانسان كان قروياً غنياً يعيش على أرضه (أو على أرض أوكلت إليـه، وهـو أمـر غير مستبعـد نظرياً)، والى جانب محاصيله وحيواناته، وليس كمالك الأرض في المدينة: ولو كانت الحال كذلك، لوجدنا في الأبنية أثراً للفصل بين القسم المدني والقسم الريفي.

هنـاك سبب آخـر يدعـونـا الى أخذ الحذر: هو عدم اجراء تنقيب في هذا الشأن. إن البيوت الكبيرة المذكورة، قد تكون بُنيت بدلاً من الأبنية القديمة التي أخذت تتوسع؛ وإذا كان الأمـر كذلك، فإن غنى تلك البيـوت كان يتطور بسرعة، ويمكن أن يعود تاريخ ظهور «طبقة غنية» (نوعاً ما)، في تلك القرى، إلى ماقبل القرن الرابع.

إن الفيلات، بالمفهوم الكلاسيكي، كمجموعة من الأبنية المشيدة لغاية السكن والاستثمار وسـط ملكيـة واسعـة، لم تظهـر أبداً في حوران، إلا في حالات عارضة، حول بصرى، وقد أشير اليها سابقاً، هذا فيما يخص الأبنية. أما بالنسبة للملكيات الكبيرة، فقد جاء ذكرها عدة مرات في النقـوش، ولكن يجب التمييـز بين أمـلاك الـدولة (أي الأميرية الواسعة الموجودة في عصرنا هذا، وبين الملكيات الخاصة التي لم تكن ميسورة دوماً. لقد اعتبر ج. ب راي كوكيـه[١١٧]، في احـدى دراسـاتـه الحـديثـة، ان الامـلاك الأمـيريـة كانت كثيرة في سورية الجنـوبيـة، خاصـة منذ الانضمام الى الولايات الرومانية، وهذا ممكن اذا اعتقدنا أن مختلف مؤسسي السلالات الحاكمة، الذين وضعوا أيديهم على هذه المناطق، كانوا هم أنفسهم

قد شطروها من أملاك الدولة. وهذا أمر ممكن، وليس فيه إضافة. إن البرهان الواضح الذي أورده (J. P. Reycoquais) يشير الى أنه كان يوجد في العصر الروماني في الجزء الحوراني من ولاية سورية، الكثير من النقوش مؤرخة حسب سنيّ حكم الأباطرة، غير أن هذا الأسلوب في تحديد التاريخ، لم يكن هو العادي في كل الولاية السورية الرومانية، بل كان يميّز حكم الملوك؟[١١٨] وهذه النقطة الأخيرة ليست مؤكدة، كما أن مجمل هذا البرهان يبدو مصطنعاً، لنعد الى دراسة الحالات المؤكدة في الملكيات الأميرية ثم الامبراطورية: لقد ذكر يوسيفوس[١١٩]، في الربع الثالث من القرن الأول قبل الميلاد، ملكية ليزا نياس، رئيس ربع ايتوريا، التي استأجرها، فيما بعد، زينودور؛ ولاشك بأن الحديث هنا يدور، على الأرجح، حول حالة أوسع بكثير من الملكية البسيطة، وقد روى المؤلف نفسه[١٢٠] أنه فيما بين سنة ٩ ـ ٦ قبل الميلاد، أسس هيرودس في بتانيا، المستوطنة الرومانية العسكرية ـ الزراعية في بتيرة قرية «بصير» الحالية دون شك في الشمال الغربي من قرية «خبب». وكانت هذه المستوطنة قد زودت بأراضي وقلاع وقرية، وقد أعفيت من الضرائب، وفيما بعد حافظ الرومان على هذه الملكية الواسعة (xwpx) وعلى استقلالها الذاتي إلا أنهم اثقلوها بالضرائب.

هناك نصان في /سيا ـ وجابر/ شمال الأردن الحالي، وعلى تخوم حوران الجنوبية[١٢١] منقوشان على أحجار الحدود الفاصلة، تشيران الى ضريبة زراعية، ممكن ترجمته بـ(حقل اميري) غير أن هذا الأسلوب في تحديد ملكية الدولة، قد يكون جاء متأخراً، ولربما ظهر أيضاً في عهد يوستينانوس[١٢٢].

واذا لم يتم التأكد من وجود هذه الملكية في القرن السادس الميلادي، فهو ثابت بالنسبة للملكية الامبراطورية الأخيرة: الملكية الخاصة بالوكيل، التي ذكرها، في ذلك العصر، جورج القبرصي[١٢٣] ضمن لائحة من المدن والقرى ومجموعات من القرى. والكلمة اليونانية «سالتون» (eabtcov) مشتقة بالتأكيد من «سالتوس» (Saltus)، وتستخدم كلاسيكياً بمعنى «الملكية الريفية» (شيشرون ـ جوفينال) وليس من المؤكد. من جهة ثانية، بأنها تعني ملكية أميرية، وقد أثار تحديد موضعها (يذكر النص بأنها تقع بعد كناثا (Canatha) أي القنوات) فرضيات عديدة، منها المعقولة، في «بثينة» شمال «شقا»[١٢٤] وفي «دير السلط» غير بعيدة عن «الكرك»[١٢٥] ومنها غير المعقول: في «صلخد»[١٢٦]. ويمكن أن نعتقد أيضاً، وضمن نطاق المعقول، أن هذه الملكية، المثبتة في القرن السادس، تخلف أن كانت أملاكاً أميرية ـ ملكية فاثيرا (Baoupx) المشار إليها آنفاً على أنها ثبتت في القرن الأول.

بقي علينا دراسة الأملاك الخاصة، والأملاك العقارية الواسعة، ربما «الملكية الريفية» ثم هناك بالقرب من الكفر، في الجبل، علامة الألف متر المنقوشة[١٢٧]، والحاملة تاريخ ١٦٩ ـ ١٧١ ب.م، التي تشير الى حدود ملكية ماركوس هير بيوس، أنها وثيقة قيمة، تظهر

أهميتها بتاريخها القديم، وبلغتها اللاتينية، وبالاسم اللاتيني للمالك أيضاً، التي تبرهن كلها على أن تلك الملكية كانت تخص مزارعاً، ربما منذ الانضمام الى روما ـ تحلى بصفات الرومان، ان لم يكن روماني الأصل. لسنا متأكدين بأنه لابد من متابعة «ليتمان» عندما يشرح بأنه كان من الواجب إحاطة الملكية بأراضي الدولة أو البلدية، لأن علامة الألف متر لاتحمل دلائل على وجود الأراضي المجاورة. وقد أصبحنا مقتنعين تقريباً بعدم مواكبة رأي Domaz ewskj [١٢٨] في تصوراته الجريئة جداً والتي جعلته، يجزم بأن الأراضي المجاورة هي التي كان يملكها الفوج الثالث السيرينائيكي Cyré naique.

إن ملكية الدولة المذكورة اعلاه. قرب «سما وجابر» محدودة بملكية اوريليان (aurelien) [١٢٩] سيما وأن العبارة الأجنبية ضريبة الملكية الخاصة «بأوريليانوس» تزرع الشكوك حول معنى النقش.

كل ذلك يعطى أدلة قليلة، وأيضاً تواريخ غير كافية، وحتى الآن لم يتمكن علماء الآثار بالاستناد الى فحص الصور الجوية التي التقطت لمناطق «البثينة»، دير السلط ـ الكفر من اثبات أو إبطال الفرضيات التي تدور حول مناطق تموضع تلك الملكية، التي تبدو غير أكيدة أو من أخذ الفكرة من حجم الأملاك. ان دراسة أسماء المواقع القديمة لمجمل المنطقة، لن تأتي بأي جديد، حول البحث عن الملكيات الكبيرة الممكنة، لقد اقترح هـ. سيريغ وتشالينكو استخدام طريقة دراسة أسماء المواقع السورية الشمالية[١٣٠]. فالأسماء المبتدئة بكفر «Kafr»، المشتقة من كابرو «Kapro» وكابرا «kapra» القديمتين، قد تعني القرى، وأسماء المواقع المبتدئة بـ با «Ba» المشتقة من بيت «Bet» (المنزل، الحقل) قد تعني الأملاك أو الحقول، الا أنها طريقة لايعتمد عليها كثيراً، هناك نقش[١٣١] درسه سيريغ ـ يحدد أرض ملكية (enolxcou) مسماة «كابيرو [.] اميوس» (Karepou [.] auews).

وبالرغم من بعض الشكوك، لا يعتقد بأن الملكيات الواسعة، سواء امبراطورية أو خاصة كانت قد لعبت دوراً رئيسياً، في حوران أبان الحكم الروماني ـ البيزنطي ـ يدل على ذلك سلسلة أحجار الحدود الطويلة المتوافقة مع عمليات المساحة في نهاية القرن الثالث الميلادي ـ فمن بين خمسة عشر نقشاً معروفاً في حوران، والجولان، وأعلى وادي الاردن، وجنوب الشام[١٣٢] أربعة عشر منها لاتذكر سوى مدن وقرى، وواحد فقط يذكر ملكية خاصة، ومع ذلك، هي خارج حوران، ونعني بها جسر الغجر في أعلى وادي الأردن[١٣٣].

الخلاصة، أنه من خلال غياب اقتصاد زراعي حقيقي، فإن الحياة الريفية في حوران، كانت ترتكز على القرى، وفقاً لأساليب وأسس زراعية، وهذا لا يعني، كما رأيناه؟ بأن الأراض الزراعية الغنية، بصورة خاصة، والمجهزة ببيوت جميلة، لم تر النور حتى في قلب القرى.

وقبـل القيـام بدراسـة مختصرة للأسس الاستثمارية لهذا الاقتصاد القروي، من المفيد عدم نسيان السكان غير القرويين في المنطقة: في أول الأمر، وقبل كل شيء البدو الرحل، ثم الرهبان بشكل ثانوي.

جوار القرية

البدو الرحل:

تبـدو دراسـة الآثـار البـاقيـة التي خلفهـا البدو الرحل شيقة، ولكن يصعب الاحاطة بها، حيث يشاهد في الصور الفوتواغرافية الجوية، وعلى الأرض، العديد من زرائب المواشي المقفلة، المبنيـة من الحجـارة في منـاطق اللجـا والكراع الحممية وفي السهب الصحـراوية في الشرق والجنـوب وبخـاصـة في وادي / راجيـل Râgil (بين خازمة وجاوا Jawa, Khazymeh ولكن لابد من تحديد تاريخها، وكيف؟ حتى الخزف بالذات أحياناً يوقع بالخطأ ـ أما بالنسبة للتخييم. اذا استطعنـا تحديـد مواضعـه أحيـاناً ـ بالقرب من تلك الزرائب، دون شك، فلا ينتظر أن يؤدي الى نتائج معبرة، ولن نلقى جزاء لدقة العمل التي يمكن ان تبذل اثناء التنقيب عن تلك المواضع: ماذا سنعرف عن تجوال البدو، وعن فترات ومدد الاستراحات، وعن تنظيم العشائر أو القبائل؟.

هنـاك نقطـة واحدة تستحق الاشارة، كما أوردها السيد P. Gentille (راجع دراسته في هذا المجلد) وهي أن الصور الجوية تبين ندرة المناطق الحورانية التي لم تخلف آثار تنمية زراعية مزدهـرة، ومنهـا على سبيـل المثال: قطاع صغير في وسط الجبل، وبقرب القمم ـ المساحات الـصـخـريـة في اللجـا ـ والبـاديـة في الشـرق (خـاصـة المنحـدر الشـرقي لوادي «الراجل»؛ وهي مناطق خارج حوران. وهذا يعني أنه في زمن ما لم تبق عملياً أية أراضٍ في حوران لرعي مواشي البدو الرحل، وذلك منذ القرن الرابع للميلاد بلا شك.

غير أن العرب الرحل لم يختفوا من حوران، ولكن يجب الافتراض، بأن عددهم قد تنـاقص حقـاً بشكـل ملمـوس، ومن جهـة أخـرى، كان يتـوجب على الرحل الموجودين، التفـاهم بشكـل صريـح مع السلطـات المحليـة ومع أصحاب القرى حول حقوق التنقل والـرعي الصيفي، وهـذا الـذي يؤدي الى الفكـرة القـائلة بأن للحياة الحضرية تقدماً على حياة البداوة.

ونظـراً لعـدم توفـر المعطيـات الأثـريـة التـاريخية الثابتة، يجب ترك الحديث الى علماء النقوش والمؤرخين في الأبحاث والنصوص الهيللينية(١٣٤)والسامية(١٣٥)، والنزعات حول ذلك تبدو واضحة: فقد شهد القرن الأول الميلادي، وأوائل العصر الروماني اكتمال دعوى تحضير الـرحـل (حسب J.t.Milik فإن القبائل الصفوية Safaite من العُويْديِّين Awidhenens ومن ثم

Dafaites تحضـرت بكـاملهـا خلال القـرن الأول الميـلادي)[١٣٦] وانـدماجهم في الدفاع عن الأراضي النبطية[١٣٧] أولاً وثم عن الأراضي الامبراطورية[١٣٨] وحسب M. Sartre. فإن العرب الـرحـل الـذين انـدمجـوا في المحيـط الحضـري، كانوا خاصة من عداد الصفويين Safaite بعد أن ساد الاستقرار خلال القرنين ٢ و٣ ميلادي. واعتباراً من القرن الرابع الميلادي ظهر البدو الرحل على المسـرح ثانيـة كقـوة يُحسب لها حسـاب. وقـد تنـامت هذه الحـركـة بسبب تأييد الفتح الاسلامي لها في القرن السابع الميلادي. فالقبائل الكبرى القادمة من الجنوب الشرقي هي بالتتـابـع: التنوخيون ـ الصالح ـ الغسانيون ـ وقد أشار السيد سارتر[١٣٩] الى كيف كانت بعض القبـائل أو مجموعة القبائل تتلقى من بيزنطية ـ المال والقمح وأراضي الرعي الصيفي، والتفويض الرسمي وخاصة Phioarchat (مرسوم الزعامة)، الذي يمنح السلطة لزعيم أقوى قبيلة على مجمـوع البـدو الـرحل في المنطقة التابعة له، حتى ولو تجاوزت سلطته حدود الولاية العربية، لقاء وقف غارات الغزو، والسلب. واعتناق الديانة المسيحية، والمحالفة ضد العدو الفارسي.

كيف تمكن القرويون من معايشة ذلك المد للرحل في العهد البيزنطي خاصة في القرن السادس الميلادي؟ سؤ ال يبقى مفتوحاً دون جواب. وخلال عصرنا الحالي بكامله لم نتوصل الى فهم أفضـل حول كيفيـة قيـام المعـايشـة. يبدو من الناحية الجغرافية ان الشمال والشمال الشرقي من الجبل كانا، بين القرن الأول والثالث الميلادي، منطقة تحضّر مميزة، والدليل على ذلـك النقـوش المتـوفـرة فيهـا[١٤٠]. وخـاصة بالنسبة لقبيلة الصواعرة Sawwär[١٤١]. وخلال العصـر الغسـاني (في القـرن السادس الميلادي) خصوصاً في شرق الجولان (مثل عقربة ـ تل الجـابيـة) ومنطقـة بصـرى (مثـل الـدير ـ وخربة) لذلك يمكن فصل بعض المناطق المفضلة لتمركز البدو الرحل.

بقيت الطـريقـة التي بمـوجبهـا كان البدو الرحل يتحضرون، عرضة للجدل، يميل السيد J. T. Milik الى الحل المختلفة [١٤٢]: مثـل: الإقـامـة في أحيـاء من القـرى مثـل «بوسـان»[١٤٣] والتمـركز المؤقت وغير المتكامل في قرى كانوا يغادرونها، نحو الشرق، على أمـل العـودة، حسب عادة تنقل الرحل في الحياة الفصلية. وهناك احتمال آخر: مثل التمركز في أمكنـة جديـدة حيث يقيم فخـذ كامل من القبيلة ـ وهكذا فإن قرية «بريكة» كانت تعرف قديـما باسم بريكـات سابـا يورم (Borckath Sabeaeoru/m)[١٤٤] واسم Sabaioi قد يكـون مشتقـاً من اسم Safaioi وبـالـدرجـة الأولى من Dafay حسب تفسـير J. I. Milik[١٤٥] المؤيّـد بنقـوش وكتـابـات Safaitique وجدت في تلول شرقي الأردن[١٤٦]، فيها اشارة الى Burêket. بهذا يعرف بأن قرية «بريكة» كانت مركزاً للتحضر لقسم من قبيلة الضفائيين Dafaites. (أو الدفائيين).

لقد ظهرت طريقتان من التحضر، الاندماج الجزئي في قرى الحضر، أوتأسيس قرى جديدة؛ ولكنا لا نعرف أيتهما التي سادت. والفرضية الثانية هي بالتأكيد الأكثر الفة. فخلال العقود الأخيرة. تحضر بدو الصلوت في اللجا وبني الحسن في شمال شرقي الاردن، ببناء القرى على املاكهم وليس بتجمعهم في القرى الدرزية أو في ريف البلقا. ولكن هل تعيد الحركة الحالية هذه الى الذاكرة. الحركة التي حدثت في نهاية العصر الهيلليني؟. والأمر يحتاج الى الكثير لكي يتحضر البدو جميعهم. وفي القرن الثالث الميلادي، عثر على نقش في قرية «طربا»[١٤٧] أهداه الى حاكم الولاية(oi ano eovous voma awv ethnos).وهي عبارة عادية تدل على القبيلة أوعلى مجموعة القبائل. ويذكر نقش آخر في «طربا»[١٤٨] رئيس مخيمات الرحل. كان الوسط البدوي معترفاً به بصورة كاملة حتى في الكتابات والنقوش اليونانية في المنطقة بواسطة زعماء القبائل، سواء كانوا ولاة رومانيون أم رؤساء قبائل (قديمين) حسب الحالة[١٩٠].

وفي حال عدم تحضر البدو سابقاً، ما هو الدور الذي كانوا يقومون به؟ كانت اللصوصية وقطع الطرق مستمرة فعلاً قبل قدوم روما. أو أعوانها المحليين[١٤٩] عند الهجمة البدوية للرحل في العهد البيزنطي[١٥٠]. ولكن هذا ليس وقفاً على العرب الرحل. ففي نص يوسيفوس حول قطاع الطرق في اللجا خلال القرن الأول الميلادي[١٥١]. إشارة على أن أولئك لم يكونوا رحّلاً صرفاً، لأنهم كانوا ينشئون القنوات ويبنون خزانات للمياه. وفي أوائل القرن الثالث الميلادي كان والد الامبراطور (في المستقبل) فيليب العربي، رئيساً لقطاع الطرق ولكن لم يقل لنا أحد أنه كان رحالاً[١٥٢] فقد كانت روما تحاول تجنب القرى من القوى العسكرية التي كانت من الرحل الذين تجتذبهم للدفاع عن الثغور: ضد القبائل العربية الاخرى وأخيراً ضد الفرس، وقد نجحت بهذا المسعى طوال عدة قرون، وقد ذكرت النقوش أسماء بعض الرحل الذين كانوا مخططين للحروب أو المعارك[١٥٣].

ولكن الى أي حد يبقى حقل تربية المواشي محصوراً بالرحل، بينما الزراعة في القرى؟ سيما وقد تبين بأن تربية الابقار على الأقل كانت تمارس على نطاق واسع في القرى. أيدعو ذلك الى الاعتقاد بأن القبائل الرحل تخصصت فقط بتربية الخراف. الماعز، والجمال، والخيول؟ بكل تأكيد نعم، ولكن هذا لايستثني القرى من أنها كانت تمتلك قطعاناً خاصة بها توكل رعيها للرحل «وقد أشير سابقاً الى المساحات الخالية حول القرى، وقد كانت حظائر قطعان المواشي». لنذكر انه في أوائل القرن الأول الميلادي كانت حاضرة أم قيس (Gadara) غير البعيدة عن حوران والقرى المجاورة لها كانت تمتلك قطيعاً كبيراً (من الخنازير) يقوم رعاة بسوقه الى المراعي المحيطة[١٥٤].

لنترك جانباً موضوع الصيد، لأن المستندات الأثرية قصرت حول ذلك، الا اذا عدنا

الى العصور الغابرة[155] أما بالنسبة لمركز مرور القوافل، فقد تأكد بأن التجارة الكبيرة المزدهرة عبر الصحراء بين تدمر وبلاد مابين النهرين، ومع الخليج بالانطلاق من بصرى عن طريق دير الكهف الازرق، ووادي «سرحان». . كانت الشغل الشاغل للقبائل الكبيرة. وهل كان الأمر نفسه، بالنسبة لنقل المؤن داخل حوران، والقرى الى اسواق البيع والشراء، ومن المدن الى الأسواق الخارجية وخاصة الى دمشق. وصور عبر طريق طبريا؟ لقد عُثر في «دير العدس» على آثار الطريق القديم الذي كان يربط دمشق بنوى ثم بشواطىء بحيرة طبريا[156] أو الى درعا، نوع من الرخام الموزاييك[157] يحمل التاريخ ٦٢١ ب. م، ومن بين المشاهد الأخرى، منظر يمثل «جمَّالاً» يقود أربعة جمال بشكل قافلة خاصة لنقل جرار (من الزيت؟ أو النبيذ؟) والمشاهد التالية في الموزاييك تمثل النطاق الزراعي وغراسة الاشجار: هذه اللوحات توضح جيداً تداخل الحياة الحضرية والبدوية في حوران القديمة.

الأديرة

خلال زمن الموجة الجديدة للبدو الرحل، تبين بان الرهبان في الصحراء لعبوا دوراً حاسماً بالنسبة لقواعد العلاقات مع البدو، وخاصة في موضوع اعتناق الرحّل الديانة المسيحية اعتباراً من النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي[158]. كان هؤلاء الرهبان يعيشون في صومعات تعرف باسم «الدير» حسب الدراسة اللغوية التاريخية اليوم. وهذه العلاقات كانت وثيقة كلما كان الرهبان يدينون بطبيعة واحدة في المسيح، وكلما كان عرب الصحراء أيضاً مناوئين للمجمع الخلقيدوني[159]. لدينا لائحة جزئية لأديرة (مونوفيزينية) تعترف بالطبيعة الواحدة في المسيح، يعود تاريخها الى عام ٥٧٥ب. م. وفي الولاية العربية، عدد لابأس به من تلك الأديرة التي تقع في حوران[160].

من جهة أخرى فإن مراجعة الآثار المعمارية على الخرائط، والصور الجوية والأرضية، تسمح بمعرفة العديد من أوابد الأديرة وقد يكون ذلك صعباً حينما تكون الأديرة في القرى التي كانت مأهولة، مثل كفر شمس ـ كفر ناسج، ولكنه سهلاً حينما تكون تلك الأديرة مشادة في بلاد منبسطة ومكشوفة. ومع ذلك ليس من السهل دوماً تمييز «دير» في قرية فقيرة متأخرة. وقد تنطبق تلك الصعوبة على الدير الواقع جنوب «بصرى»، حيث الوضع الحالي للخرائب، لا يساعد على التمييز بين الاحتمالين المذكورين، ولا يعرف ذلك الا بواسطة الدراسة اللغوية التاريخية، وبواسطة نشر الطبعات الأولى من الكتب القديمة لـ Prineeton[161] التي لها صلات بالأديرة. وهذا ما ينطبق أيضاً على الزّبيرة الواقعة شمال «صور اللجا». فقد عرف بواسطة كتاب مرسل من اباء (برتبة ارشمندريت) يفيد عن وجود دير فيها[162].

ولكن التنقيب ضمن مساحة بسيطة في الموقع، لا يتيح الا ثبات بأن الموقع بأكمله كان ديراً، أو أن الدير كان قد أشيد ضمن أبنية القرية.

من هذا الشك المنهجي يبرز الشك التاريخي الجسيم. أكان هناك شبكة من القرى خلال القرن السادس (تقريباً) أو توزع في الأديرة؟

من جهة أخرى وعند التنقيب في اطراف البادية «شرق حوران» لم تتوفر القناعة بوجود طابع خاص، لأي دير من خلال الصور المنشورة بالاشكال رقم ٢٢ و١٣. في دير الشعير (الشكل رقم ٢٢)(١٦٣) توجد الخرائب التي تتألف من سور مربع الشكل تقريباً (٣٦,٥ و٣٢) يحيط بربوة صغيرة، حيث يتكدس داخلها أبنية تشكل مجموعة متراصة يرتكز بناءها على الجهات الأربع للسور والمساكن مبنية من الأحجار القليلة التقصيب، ليس لها سوى طابق أرضي على الأكثر، مع واجهة اكثر اتساعاً واعتناء، وفي الوسط قد تكون كنيسة. وهناك بناء في الغرب قد يكون ملعباً أو ساحة ومجموعة الأبنية تفوق متطلبات «الضربة» المنفردة ان الوضع العام يعطي الفكرة عن حياة مكتظة جداً وجماعية، مترافقة بقلق قد فرضته ضرورة الدفاع، تثبت دراسة المواقع التاريخية الحالية لغوياً بأنها تتعلق بوجود دير. والشكل رقم ٢٢ يوضح حسن التنظيم المباشر وفي الجوار، وهو عبارة عن سور كبير من الأحجار (تجاه الزاوية الجنوبية ـ الغربية) وقد يكون بيدراً، لدراسة المحصول، أو حظيرة للمواشي ذات سور خفيف أو زرائب مغلقة، وبعض الأبنية النادرة الخارجية المشادة على السور. ويقرب الدير مباشرة يوجد بركتان واحدة كبيرة وواحدة صغيرة، وأخيراً يشار على وجه الأرض وعلى بعد ٨٠ متراً شرق وشمال الدير، الى وجود صفوف من الأحجار الأثرية، بمثابة حد لتخاريب صغيرة مبنية من الحجارة بشكل هندسي تقريباً. وقد يكون هذا آثاراً لحدود بساتين خضراء أو كرمة تعود للدير، وهي قريبة بحيث يمكن من الحراسة الدائمة، كما يمكن سقايتها من ماء البركة.

ان تحديد التاريخ مسألة عسيرة بالتأكيد، ولا يستند الا على الخزف فقط. وبالاضافة الى وجود مجموعة من القطع الخزفية تعود للعصر الأيوبي والمملوكي، يوجد قطع خزفية تعود بالتأكيد الى العصر الأموي. وقد يعود البعض منها الى العصر البيزنطي، أن الأبدة (الموقع الأثري) «أم العويني» (الشكل رقم ١٣)(١٦٤) قرب «خازمة» على طرف البادية، هي أقل حفظاً، ولكنها أوسع وتُمثل انتظاماً خارجياً أكبر، مثيراً للاهتمام، وهو يشابه الى حد كبير /دير الشعير/ باستثناء كل مايتعلق بخارج الدير. فإن مجمله يشكل مربعاً طول ضلعه ٦٥م من كل جانب تحيطه «أكمة» طبيعية تترك مجالاً لتمييز الابنية السكنية الفقيرة مع طول الجهات الأربعة، التي لا تتوفر فيها القناطر ولا الطوابق الأرضية الظاهرة. ويبدو أن الوسط كان خالياً من الأبنية، وأيضاً كانت درجة التدمير والخراب فيها مع الاسوار

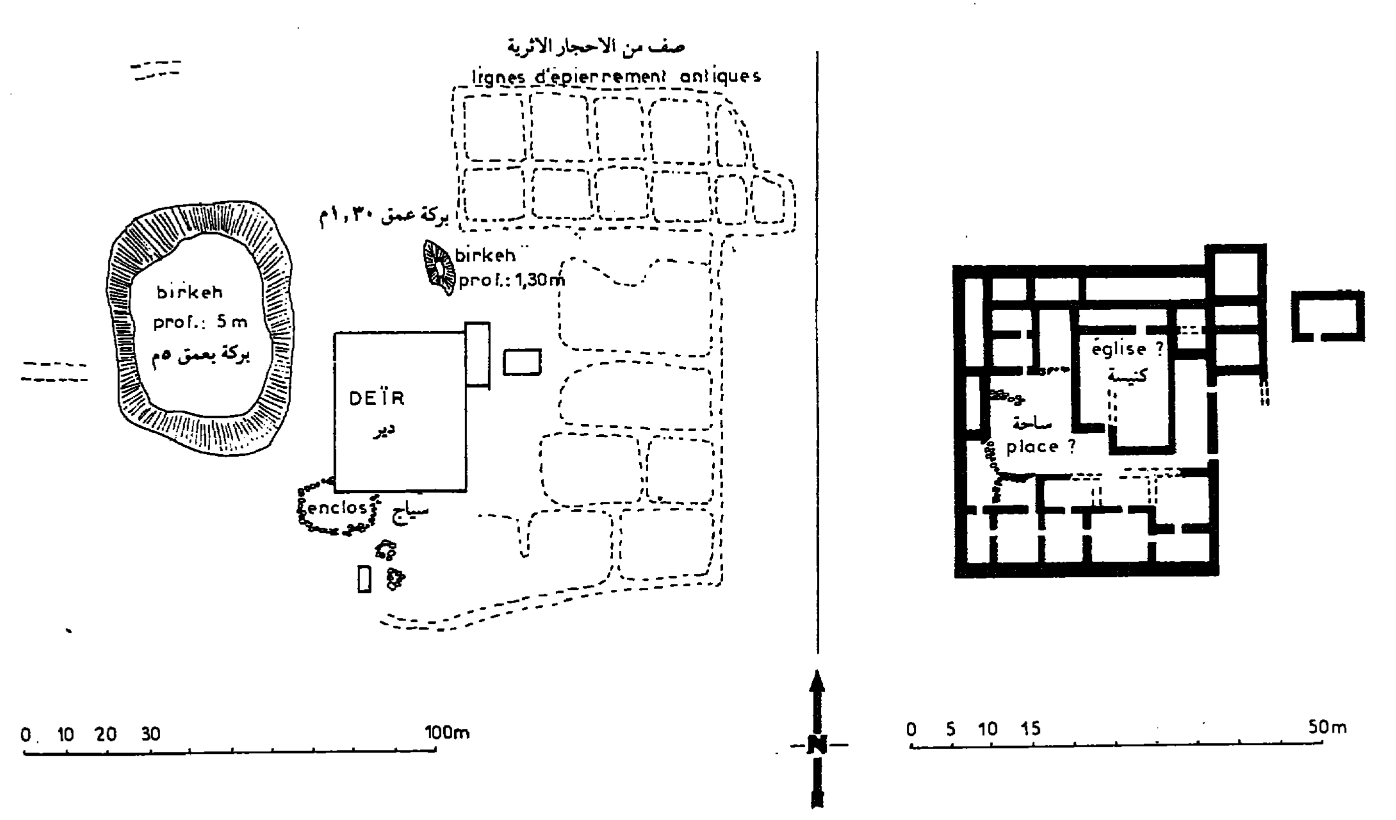


Fig. 22. — Deir ash-Shaʿīr : plan de situation et plan du deïr.

الشكل رقم ٢٢ ـ دير الشعير مخطط الموقع ومخطط الدير

المبنيـة فيهـا مؤخـراً، قـد جعلت من الصعب جداً تكـوين فكرة واضحة عنها. أما القطاع المحصن فهو محاط في الأسفل بما يلي:

ـ ست برك من أحجـام مختلفـة (الشكـل رقم ١٣ ,f. e, d, c, b, a, A) فالبركة شمال (a) جزء منهـا منحـوت في الصخـر، والجـزء الآخـر الأكـبر مبني بصـورة طبيعيـة وهـو مستكمل «بجب» مغلق (بئـر) له ثقب في أسفـل الـبركـة. وهو نقطة الاتصال لقناة جربطول (٥٠٠) خمســمائـة متر. لها مأخـذ متفرع بسهولة من مياه احدى روافد (وادي الراجل) وهي قناة أثرية قديمـة ذات ميـل خفيف جداً محدّدة بأحجـار كبـيرة كانت تنقـل المياه حتى البركة بواسطة مجرى مغطى في مسافة العشرين متراً الأخيرة.

ـ ومن خزان صغـير (G) منحـوت في الصخـر، وهو يشكل اجاصة، له فتحة مستديرة وضيقـة، مع جميـع تلك الانشاءات المائية المنفذة لصالح موقع صغير جداً، يبدو أن الرهبان كانوا يتعاطون بتربية المواشي والزراعة، أو الاثنين معاً.

ـ ومن خرائب سكن بالجهة الغربية، حيث يوجد البيت (n) (الشكل رقم ١٣) الذي ورد ذكره اعلاه وهو عائد لمسكن خلفي.

ـ ومن أساس لبناء صغير، جيد المواصفات (m).

ـ ومن مغارتين محفـورتيـن تحت سطـح الأرض، داخـل الحمم الـبركـانية (h,i) ويتم الـوصـول اليها بانحدار غير قاس منذ وجه الأرض. ولكن الوضع غير صالح بالنسبة للبرك (الخـزانـات) التي تم غلقها بالطين حين انشائها داخل الصخر. وقد كانت تستعمل كزريبة للمواشي، حيث يمكن اغلاق فوهتها وتخبئة المواشي فيها في حالة الخطر.

ـ ومن أسوار من الحجر الصخري (J,K) خصصت للحيوانات أو لدراسة الحنطة.

ـ ومن صفوف من البنـاء الحجـري (١) باتجـاه الشرق والغرب، موضحة المعالم، التي تمتـد على بعض المئـات من الأمتار حول الموقع المتواجد في وسط منطقة محجرة جداً. وهذا ما يثـير الاهتـمام جداً. كما توجـد الأراضي الخصبـة جداً بأحجـار خفيفة، خارج هذه المنطقة الأشد قساوة في المنطقة. والسبب في ذلك لأن القرى المجاورة مثل (خازمة ـ امتان) لم تترك لهم غير هذه الأرض. ومثل هذه الظاهرة تحدث كثيراً. لأن الأديرة تشاد غالباً على أراضي القرى وفي مواقع غالباً ما تكون غير قابلة للزراعة، أو متروكة كونها فاصلة أو صعبة المسلك بالنسبة للقرى المتراجعـة (المنحسـرة). وهذا مستنبط من ملاحظات الصور الجوية. أما الأديـرة الصغـيرة فقـد مارست على قطـاعـات محدودة وقليلة الخصـوبة الزراعة مع تربية المـواشي بصـورةقـاسيـة، يدل على ذلك قطع الأرض الصغيرة (المعزّلة) المرفوع حجارتها، والتي تعـود الى «ديـر الشعير». يشبه هذا الوضع عدة مواقع أخرى ولكن بزمن متأخر «نهاية الـزمن البيـزنطي ـ الأمـوي) مثـل خربة الصهب[١٦٥] ـ قرب بصرى ـ وأرساء[١٦٦] ـ شرق امتان.

أمـا الأديـرة التي سبق أن وضعت نماذجهـا، كانت هامشيـة ولكن أصبحت مهمـة في نهايـة العصـر البيزنطي سواء من حيث التوطن أومن حيث التنمية، لأنها اتاحت استثمار هذه الأراضي جيداً، من قبل سكان القرى، ويبقى للعلم، فيما اذا كانت الأديرة تقوم مقام القرى، التي هي على طريق الزوال، (بسبب نقص اليد العاملة ـ مرض الطاعون ـ دمار الغزوات؟) إذ إنها تكمل التنمية في البلاد دون أن تؤثر في انحسار القرى. ان مفهوم تلك الأديرة الصغيرة المتماسكة والمحصنة كان مطلباً لوسط يسوده اختلال الأمن. ولكن مخططها المربع الشكل والمغلق على نفسه ليس بقاعدة مطلقة، فقد يكون مستوحى من مخطط القلاع الرومانية المهجورة والتي غالباً ما أعيد استيطانها بمثابة أديرة[١٦٧].

لدى فحص مواقع البدو الرحل والأديرة في الحياة الريفية لحوران القديمة، فقد ظهرت أهميتها النسبية المتصاعدة في نهاية العصر البيزنطي، ولكن دورها، كمحصلة حاصلة، بقي ثانوياً بالنسبة للقرى.

بقي علينا أن نتفحص أسس ازدهار تلك القرى.

اقتصاد الأرياف

يكتفى هنا بوصف مختصر للزراعة ـ تربية المواشي، ولطبيعة الأرض. أما الدراسة المستفيضة عن الأساليب الزراعية فلا تزال مبكرة.

القمح والكرمة:

بالاختصار يرتكز الاقتصاد الريفي لحوران الحالي على مجموعتين من الانتاج.

الحبوب: خاصة في الهضبة وفي منطقة ساسة (Sacée)، ثم الكرمة (مع تزايد في الأشجار المثمرة واشجار الزيتون) في الجبل، والانطلاق من الوضع الحالي الى الخلف، نحو الأزمنة القديمة، ليس بالأمر السهل، ففي نهاية القرن ١٩ الميلادي، أشار العالم الجغرافي (Rindfleish) الى انعدام شبه كلي تقريباً لزراعة الكرمة في «النقرة» وازدهارها في الجبل لدى الدروز[١٦٨]. وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي لاحظ الطبيب (Delbet)[١٦٩]. انه في منطقة بصرى ما كان يزرع الا الحبوب مع استثناء بعض الخضروات[٢٠٠].

في عام ١٥٩٦، وبالاستناد الى مشروع عمل مدون بسجلات مالية عثمانية واضحة[١٧٠] جداً تبين ان زراعة الكرمة وزراعة الأشجار المثمرة كانت معدومة تماماً في كل حوران فيما عدا استثناءان صغيران[١٧١]، بينما كانت زراعة القمح والشعير تنال حصة الأسد، دون التفريق بين السهل والجبل، واذا ماقورنت هذه المعطيات الثلاث المار ذكرها؛

يلاحظ بأن ادخال زراعة الكرمة في منطقة جبل حوران مرتبط الى مدى بعيد بهجرة الدروز الكبيرة في نهاية القرن السابع عشر والتاسع عشر الميلادي.

في العصـر العبـاسي السلجـوقي ـ الأيوبي ـ لوحظ بعض التدوينات لجغرافيين عرب مشيرة للدهشـة وهـو أن درعا التي تبعد كثيراً عن الجبل كانت مشهورة بخمرها[١٧٢] وقد أشير الى نوى بأنهـا كانت «مستـودع القمـح والحبـوب»[١٧٣]، ومعنى ذلـك، انـه في أوائل العصر المتوسط، لم تكن التقسيمات الجغرافية المعاصرة لزراعة الحبوب والكرمة قد توضحت بشكل بارز:

واذا عدنـا الى عصـر ما قبـل الإسلام، نجد أن ندرة الوثائق المكتوبة كانت جسيمة، أما بالنسبة للقمح فقد توصلنا الى العثور على كتابة طريفة في قرية «شعرة» وقد مر ذكرها، وهي تتعلق بمنـع أهالي القرية من انشاء بيادر الحنطة على الأراضي المشتركة ويمكن من ذلك، استخـلاص نتيجتـين: أولاهما أن انتـاج القمـح كان شائعـاً في تلك القـريـة المجـاورة للجـا، وثـانيهـا، كان الشـاغـل الأول منـع اقـامـة بيـادر على أراضٍ عامـة. لذلـك وبـما أن البيـادر هي مرفق خاص لذلـك تم منعهـا، غير أن المعطيـات المعـماريـة التـاريخية هي الأثبت، كونه قد أشير فيما سبق الى حالات تجيز وضع البيادر في القرى أو قرب الأديرة. هناك في جميع القرى الأثرية القديمة وفرة في الطواحين البازلتية القديمة، ومنها نوعان كانا سائدين منذ زمن بعيد:

الطـاحـونة الصغيرة وهي فردية وتتألف من قرصين (طبقتين) مستديرين من الحجر البازلتي، تتـوضـع الأولى فوق الثـانيـة، فالقـرص العلوي هو الـذي يتحـرك بالدوران بواسطة قبضة عمودية، مثبتة داخل ثقب فيه، تمكن من تدوير هذا القرص حول محورمثبت في وسط القرن السفـلي الثـابت، أمـا الطاحونة التي يقال عنها رومانية، فهي مكونة من جذعين من الصنوبر المفـرغ، يقـوم الـرجـال أو حيـوانـات الجر بتدويرها على محورها، حول الجذع الثابت على الأرض، غير أنها قليلة الانتشار في المنطقة، ويستخلص من ذلك، أن تلك المواد الشائعة في كل قرى حوران ليس لها علاقة بانتاج الحبوب بل استهلاكها، وكذلك: فإن هذه الطواحين البـازلتيـة ليست منحصـرة في حوران فقـط، بل توجـد في كل مكـان تقريباً حتى في الأماكن البعيـدة عن مواقـع البـازلت، مثـل تدمر ـ جرش ـ مأدبة، في ايطاليا وفي افريقيا الخ. . من جهـة أخـرى، تحمـل هذه المطـاحن القليل من الأدلة عن تسلسلها التاريخي. ان الطواحين الصغـيرة ذات القـرصـين تبـدو وكأنها ترتقي حتى أواخر العصر الهيلليني وتستمر حتى أوائل القـرن العشـرين[١٧٥]. أمـا المطحنـة الكبـيرة (مـزدوجـة المخروط) والمسماة بالرومانية، فهي معروفة منذ عهد اليونان[١٧٦] ولكن لم يعرف تاريخ اختفائها.

لقد تمكنا من الـوقـوف على بعض المطاحن المائية المبنية على مجاري المياه. غير دائمة التـدفق، وفي بحـر الفصـل الممطـر، تصبـح لديهـا القوة المائية الكافية للدوران مثال: على

وادي اللواء، وعلى بعد بضع مئات الأمتار من شهبا وعلى وادي المشنف قرب القريّة، وعلى وادي الزيـدي، شمـال بصرى بقليل ،كانت هذه المطاحن تعمل بموجب تحويلة قناة جرمبنية من الأحجـار البـازلتيـة، تنقـل المياه من مسلك آخر مفتوح شديد الانحدار كان يقذف بالمياه بالقوة الكافية لادارةالطاحونة ومن المؤسف أنها الآن مهدمة، لسوء الحظ، لم يكن يبدو، على هذه الطواحين التي شاهـدنـاهـا أي أثـر قديم، وهي حسب افـادة الأهـالي عنها، يعود انشاؤ ها الى ماقبل القرن ١٦ ـ ١٧ الميلادي، ولكن هذا لا يستثني وجود طواحين مثلها في العصور القديمة.

يبقى موضـوع الأراضي الزراعية الذي يحمل الإفادة الباتّة. فالقطاعات النادرة للهضبة الممثلة على الكليشيهـات الجـويـة الجـاهـزة، مثـل ساسـة (Sacée). والأراضي المنبسطة للجبـل، والأطـراف الشـرقيـة لحوران (مثل منطقة «امتان» (انظر الشكل رقم ١) كانت قيد التنميـة، وذات أهميـة منـذ العصـور القديمة، بفضل رفع الحجارة من أراضيها، وتقسيمها الى أسهم طولانيـة متـوازيـة، لتشكل حقولاً بعرض وسطي ٣٠ متراً أو أقل وبطول ٥٠٠ متر أو أكثر في كثير من الحالات. ومثل هذا التنظيم لم يكن له أي معنى سوى الاستخدام الامثل في الحـراثـة وزراعـة الحبـوب. وهـذا ما يعيدنا بالذاكرة الى الطريقة الهندسية المعمارية للبيوت الـريفيـة، التي تقـودنـا الى تفسـير سبب وجـود العـديـد من الغـرف التي كانت تستعمـل مستـودعـات للقمـح (انظـر فيـما سبق) ومن خلال التنقيب يؤمـل العثـور على ما يماثـل مستودعات القمح (آهراء) الحديثة التي تبنى في العراء.

ان زراعـة الكـرمـة القـديمة كانت معروفة جيداً لدينا اكثر من زراعة الحبوب. وقد تمكن وصفهـا بشكـل جيـد، بعد حذف بعض المعطيات، غير وثيقة الصلة بهذا الموضوع، فهنـاك كتـابـات يونـانيـة، قد تعـود الى القـرن الثـالث الميـلادي[١٧٧]، حول حماية غرسات الكـرمـة، نسبت الى ملف زراعـة الكـرمـة الحـورانيـة[١٧٨]. لقـد عثـر فعـلاً على هذه الكتـابـة على بعـد مسـيرة ساعتـين فقـط من جرش، إذن خارج حوران، ولـزيادة التأكيد وجـدت هذه الكتـابـة منقـوشـة على صخور كلسية يندر وجودها في حوران[* ٢]، وهناك عملات نقدية في بصرى[١٧٩] فسرت وكأنها تحمل على أحد وجهيها معصرة عنب. إلا أنها في الواقع تماثيل آلهة[١٨٠] وأخيراً، يظهر اختفاء الكرمة في الديكور المعماري في حوران، الملاحظ في مجلد السيد J. Dentzer. Feydy وبدراسته للهندسة المعمارية في حوران ليس له أي معنى أو تأثير في مجال تاريخ الاقتصاد، لأنه يتناول فقط التغييرات في القواعد التزيينية.

تبقى الـوثـائق الأكثـر انـدفاعاً، بأن الريف القديم للجبل وهو، بكل وضوح مغطّى بزراعة الكرمة، وندعو القارىء الى دراسة «جينثيل» الواردة في هذا المجلد والتي يصف فيها ذلـك الـريف وصفـاً دقيقـاً. فقـد انتظمت المنحـدرات بشكل مصاطب وحددت الملكيات الخـاصـة بجـدران صغـيرة عمـودية على حافة المنحني، بينما كان أسفل الوديان، مغطى أو

مقسماً الى أبراج مستديرة أو مربعة (الشكل رقم ٢٣). تبدو هذه المناظر الفوضوية والعفوية القابلة للتنظيم بوضع حدود لاحقة (مثل الحقول الهندسية على السفوح) وكأنها تعود الى مرحلة ماقبل العصر الروماني.

لقد ذكرنا آنفاً النحت الذي يرجع لما قبل العصر الروماني في موقع «سيع» والذي يمثل الجبل الحوراني، المغطى بكروم العنب[١٨١]. وبعد ستة قرون ونيف من ذلك، في العصر الأموي، كانت زراعة الكرمة مزدهرة دوماً في الجبل. وقد ظهر ذلك بنتيجة التنقيب في معصرة في موقع «سيع». وعلى ضوء تلك الحفريات يمكن أن ينسب الى هذا العصر المتأخر، عدة معاصر للعنب، حصاها السيد P. Gentelle عام ١٩٧٨، خاصة ما ورد في الرقم ٩١ ـ وهي كناية عن نموذج لمعصرة لها باحة في الوسط مبطّنة، ومعصرة أفقية تدور على محورها حول برغي من الخشب الخالص، المثبت وسط هذه الباحة: وقد ظهر هذا النوع خلال القرن السادس على فسيفساء المخّيط قرب «مأدبة»[١٨٢] في شرق الأردن وقرب «قبر حيرام» بجانب «صور»[١٨٣]. ان معاصر الجبل هذه كانت مبعثرة في الريف، وهذا يدل على أن العنب كان يعالج في مكانه، خاصة بعد اقتطافه. ولكننا نجهل فيما اذا كان يستخرج منه الخمر أو الدبس. ان القرى المجاورة لجبل حوران، كانت تملك معاصر للعنب[١٨٤] وحتى في منطقة جبالها الوسطى.

منذ العصر الهيلليني، وحتى العصر الأموي، عرفت زراعة الكرمة. تبدلات مردها الى التنظيم وليس التحولات المناخية أو الاقتصادية، فمن المعلوم أن الامبراطور دومتيان أمر بقطع نصف غرسات الكرمة في الولايات[١٨٥] ولكن يشك كثيراً بأن هذا الأمر (المرسوم) نفذ بحذافيره، لأنه ألغي عام ٢٦١ ميلادي بأمر من Probus ولابد للبحوث المستقبلية من أن تتيح بمتابعة التطور الحاصل، سيما وأن الكرمة في حوران دامت طويلاً، كونها بقيت أيضاً حتى العصر العباسي.

وحتى الآن لم يذكر عن أي معصرة أو أي أثر واضح لزراعة الكرمة خارج الجبل، بل بالعكس، فإن زراعة الكرمة سيطرت على اقتصاد الجبل القديم، بشكل فعال، ومع ذلك، لايمكن القول، أن زراعة الحبوب هي الوحيدة في الهضبة، وان الكرمة هي في الجبل، لأن مثل هذا الادعاء يبدو مغلوطاً من وجهة النظر التاريخية، وهو من جهة، غير حقيقي، اذا سلمنا بتطبيق هذا الادعاء على قرى قديمة كانت تتسم بمواصلات صعبة، ومن جهة أخرى، فإن الشكل الخارجي للأراضي الزراعية في المناطق المنبسطة (قبل التلال والهضاب) في الجبل تحمل على الاعتقاد بأن زراعة الحبوب كانت متواجدة أيضاً (الشكل رقم ٢٣). وان الهضبة الحورانية من جهتها، كانت تملك زراعة الكرمة بعناية ودون اهمال، مادامت درعا، التي مر ذكرها كانت أيضاً مشهورة بخمورها في العصر المتوسط.

ومن المؤكـد ان القمـح والكـرمـة لم تكن تزرع في أراضٍ منعـزلة تماماً، عما حولها، ولكن كانت طرق الـزراعـة تختلف بالضـرورة، في الجبل عنها في الهضبة. فهل الري والسقاية كانا مطبقـين في كل من هذين الـوسطـين؟ سؤ ال دقيق، في أيـامنا الحاضرة، لم يطبق الري على مدى واســع في الأراضي باستثنــاء بعض القطــاعــات النادرة من حوران[٢٢٥]، مثال: حول بويضان، شمال براق، بفضل ضخ حديث، وفي ناحية مزيريب، شمال غرب درعا، في أعلى الـيرمـوك، حيث الميـاه الغـزيرة، القادمة من الجولان، تسمح بري سبق أن ظهر فيما مضى. أما بالنسبـة لبقيـة الأراضي ينحصـر عمـل المـزراعـين، بسقـاية البساتين بواسطة مياه البرك أو الخـزانـات. وربـما كان ذلـك نهجـاً متبعـاً في العصـور القـديمة. هناك كتابة في «داما» من قرى اللجا[١٨٦] تعود الى القرن الثالث الميلادي، تشير الى وجود بركة صناعية والى غراسة التين حول منشأة جنائزية، فقد كانت تلك البركة تسقي اشجار التين.

ومع ذلك لم نعثر، لا نحن ولا غيرنا حسب علمنا، على أية آثار لأقنية واضحة كانت مخصصـة للري على نطـاق واسـع. وفي القـرن العـاشـر أيضـاً. كانت حقـول حوران Bat hamniyya, والبطحانية برأي ابن حوقل[١٨٧] تزرع بدون ري.

ان فرضيـة غيـاب الـري في العصـور القديمة، لا تتعارض مع الاثباتات التي تبررها الكتابات والنقوش العديدة، التي تفيد بوجود أقنية لجر المياه، وخاصة من أعلى الجبل باتجاه الهضبة»[١٨٨]، ولكن لا يوجد أي دليل يثبت استعمال هذه الاقنية للسقاية والري، فتغذية المـدن والقـرى بالميـاه كانت تفـرض وحـدها انشاء أقنية جر ضخمة لملء البرك، واذا كانت الحقـول، بالمقـابـل، غير مرويـة، فلابـد من التسـاؤ ل كيف كانت تزرع كل سنـة؟. ان الـدراسـة حول الـزراعـة خلال القـرن ١٩ الميـلادي تبـين بأن محصولاً من أصل أربعة كان معـدوماً بسبب الجفاف[١٨٩] وبأن محصول القمح غير المروي، كان بنسبة[١٩٠] (١) الى (٢٠) وهـذا قليـل جداً اذا كيف كان سكـان حوران الـذين كانوا اكثر كثافة من كثافة القرن ١٩، والـذين كانـوا مضطـرين للعيش من منتجـاتهم فقـط (بخـلاف اليوم) متمكنين من العيش المزدهر في مثـل تلك البيئـة؟ هنـاك اجـابتـان: امـا أن الـريّ كان سائـداً، متجاوزاً حدود سقاية البساتين وهذا يلزمـه أدلـة قاطعـة، وأمـا أن المناخ (حسب الفرضية التي وردت في أول المقالة) عرف في بدء تاريخنا هذا مرحلة ساد فيها مناخ فاقت رطوبته الرطوبة الحالية.

لم نتحـدث الا عن القمـح والكـرمـة، وعرضياً عن الأشجار المثمرة (التين) لعدم توفر الـوثـائق والمستنـدات القـديمة حتى الآن للزراعات الأخرى في المنطقة. والزيتون هو الذي غاب ذكـره في هذه الـدراسة، لأن مناخ أعالي الجبل بارد بالنسبة للزيتون، وباستثناء ذلك، فهـويزرع في كل مكـان، تنتشـر بسـاتـين الـزيتـون في أيـامنـا هذه، وخـاصة على جوانب المنحـدرات السفلى للجبـل، ولكنها حتى الآن حديثة العهد، بيد أننا وجدنا في قنوات، في

باحة المبنى الروماني الشرقي لدار الحكومة عمودية أعيد نحتها، كانت تستخدم، على ما يبدو، كفرض ثابت لهرس الزيتون، وفي الوقت الحاضر ليست هناك أية أدلة أخرى، ولا وجود لمعصرة زيتون معروفة إلا في غرب الجولان، مع العلم أن هذه المنطقة هي نقيض المرتفعات العكسية لسورية الشمالية.

ان الزراعة المستندة على الحبوب والكرمة، والمستمرة لكامل الأراضي القابلة للزراعة في حوران ربما فيها الأراضي المنحدرة جداً والمحجرة جداً، والتي لا تترك أية أراض للرعي، الا في بعض القمم في أعلى الجبل وفي حمم اللجا. تلك هي خصائص ومميزات الزراعة في حوران، ابان العهدين الروماني والبيزنطي.

تربية المواشي

ان عدم توفر المساحات الواسعة الدائمة للرعي، لا تعني ان تربية المواشي كانت مهملة بل كانت في القرن ١٦ الميلادي شبه معدومة، لأن نصيبها من المواشي كان قليلاً، لكون التربية في الجبل كانت مقتصرة على الماعز والخرفان والنحل[١٩١] وخلال هذا العصر المنوه عنه ليست هناك أية معلومات واضحة وجاهزة تتعلق بقطعان البقر والماعز، وقد أشرنا اعلاه الى بعض الحقائق التي تتعلق بهذا الموضوع فيما يخص البدو الرحل وسكان القرى.

ان النقطة المهمة في الموضوع، ولو كانت ملفتة للنظر، هي ممارسة تربية الأبقار بشكل واسع، وهذا ما قد أشير اليه من خلال عمارة البيوت؟. والحقيقة فإن الزرائب التي تشكل حيزاً نظامياً، في الطابق الأرضي كانت تستخدم خصيصاً لايواء الأبقار، سيما وانها صممت لهذا الغرض ولمدة طويلة، كما لا نعرف، بالحقيقة نوعية هذه التربية، هل هي أبقار للحليب، أو حيوانات للذبح، أو حيوانات للجر.

أما الدلائل الأخرى التي لدينا بخصوص التربية، فهي تتعلق بالكولومباريا Columbaria (رماد الأموات) وهي كناية عن مجموعة من النقوش والكتابات[١٩٢] التي تشير الى أبراج الحمام. ونتردد، في مثل هذه الحالة في الجزم ان كانت ملاحق قبور[١٩٣] أو منشآت يستفاد منها منزلياً، لانتاج السماد الطبيعي، مثلاً[١٩٤].

ليس من مزيد الآن، حول تربية المواشي قديماً في حوران، إلا أنه لابد من انتظار تنقيب قرية أو بيت ريفي كامل. . ومنذ الآن، يمكن تصور قطعان الابقار في تلك القرى بأعداد كبيرة، وحيوانات الجر أيضاً، التي تُربّى للعمل. في استثمار الأراضي، وبالوقت نفسه لتأمين اللحم والحليب، وهي تستهلك كثيراً من مياه البرك ومن العلف الذي يؤخذ من منتجات ومحاصيل الأرض.

الخلاصة

الرجوم والجدران الصغيرة: سمة حوران القديمة

ان نقطـة الضعف الكـامنة في هذا العرض، تنحصر في تسلسل الأحداث التاريخية، ويمكن دراسـة تنظيم الريف في الأراضي الخاصة، لكي تعطي ببوادر الحلول، وبعد التعود على منظر وطبيعـة الأرض، لن يصعب التمييز بالاستناد الى الصور الجوية، بين الجدار الصغير الأثـري القـديم أو صف الحجـارة القـديم لحائط ما. وبين جدار، أو صف حجارة حديثة أو آنيـة، فهـذا الأخـير يظهـر للعيـان رقيقـاً، مكوناً من حجارة رمادية أو سوداء ليست مزنجرة Patinée (أي لا يعلوها طبقة غضار قديمة). أما الأخرى، فهي أحياناً بعرض ٢ ـ ٣ أمتار، وبوجـه الاجمال متهدمة ومكونة من أحجار صخرية مغطاة بطبقة كثيفة من الزنجار الأبيض. ومن جهـة أخـرى، ينـدر جداً، أن تأخـذ الـزراعـة الحديثة نفس أوضاع الحقول القديمة ـ حسب العـرف ـ لأنـه يشاهد كثيراً على كليشهيات ـ الصور، اتجاهان للحدود يتقاطعان مع طول المسـافـة، فهـو استنتـاج، حسب ظاهـره عقيم، ولكن ما يلفت النظـر، ان الفـاتحين الحـديثـين تقاسموا الأرض طبقاً لمخططات، لا تمت بصلة الى مخططات الآثار القديمة، ولم يتضايقوا من الحدود والجدران القديمة، طالما كانوا يفلحون الأرض بمحراث خفيف، وطالما يمكنـه خلال بضع ثوان رفع محراثه عن الجدار الصغير القديم الذي يتقاطع مع اتجاهه. وفي حالـة ازدواج قطعة الأرض، من السهل جداً تمييز مقسم الأرض الحالية عن غيرها بالاستناد الى اختـلاف اللون بين الحقـول مرده الاختـلاف في الفـلاحة والفرق بين الأراضي البور، والفـلاحـة، وبـين القـديم المكـون من شبكـة من الجدران أو الحدود الحجرية، دون الربط باختلاف اللون.

اذا استبعـدنـا استيطان الأرض الحديث، واذا سلمنا يوماً، ان استيطان العصور الوسطى قد طبق الانظمـــة القـديمـة في جميـع ترتيبـاتهـا والى حد بعيـد (وهـذا مالايصـح في جميـع التفـاصيـل)، يتبقى علينـا بلورة فكـرة التسلسـل التاريخي للمقاسم القديمة الصغيرة. ان نماذج وأشكـال ومظـاهـر الحقـول بسيطـة جداً. فمن جهـة، هنـاك حقـول متعـددة الزوايا تتخللهـا رجـام صخـريـة متـوضعـة بدون أي نظـام أو ترتيب، حقول يوحي جميعها بمظهر التخـاريب المتشـابكـة alvéoles (الشكـل رقم ٢٣) وكان يمكن القصور، بالدرجة الأولى، بأن هذا النوع من التنظيم واقعية، تتبين وجود آثار قديمة في بعض الأرياف الجميلة الظاهرة «في النقـرة» حيث تبـدو مغطـاة بتقسيمات حجرية صغيرة لها طابع هندسي. وفي أمكنة أخرى، تشـاهـد مجموعات من المستطيلات موزعة حزماً حزماً (الشكل رقم ٢ Burd)، وفق اتجاهين متعـامـدين، وأخـيراً هنـاك مقـاسم مستطيلة وطـويلة جداً ومتـوازية، على قطاعات واسعة من

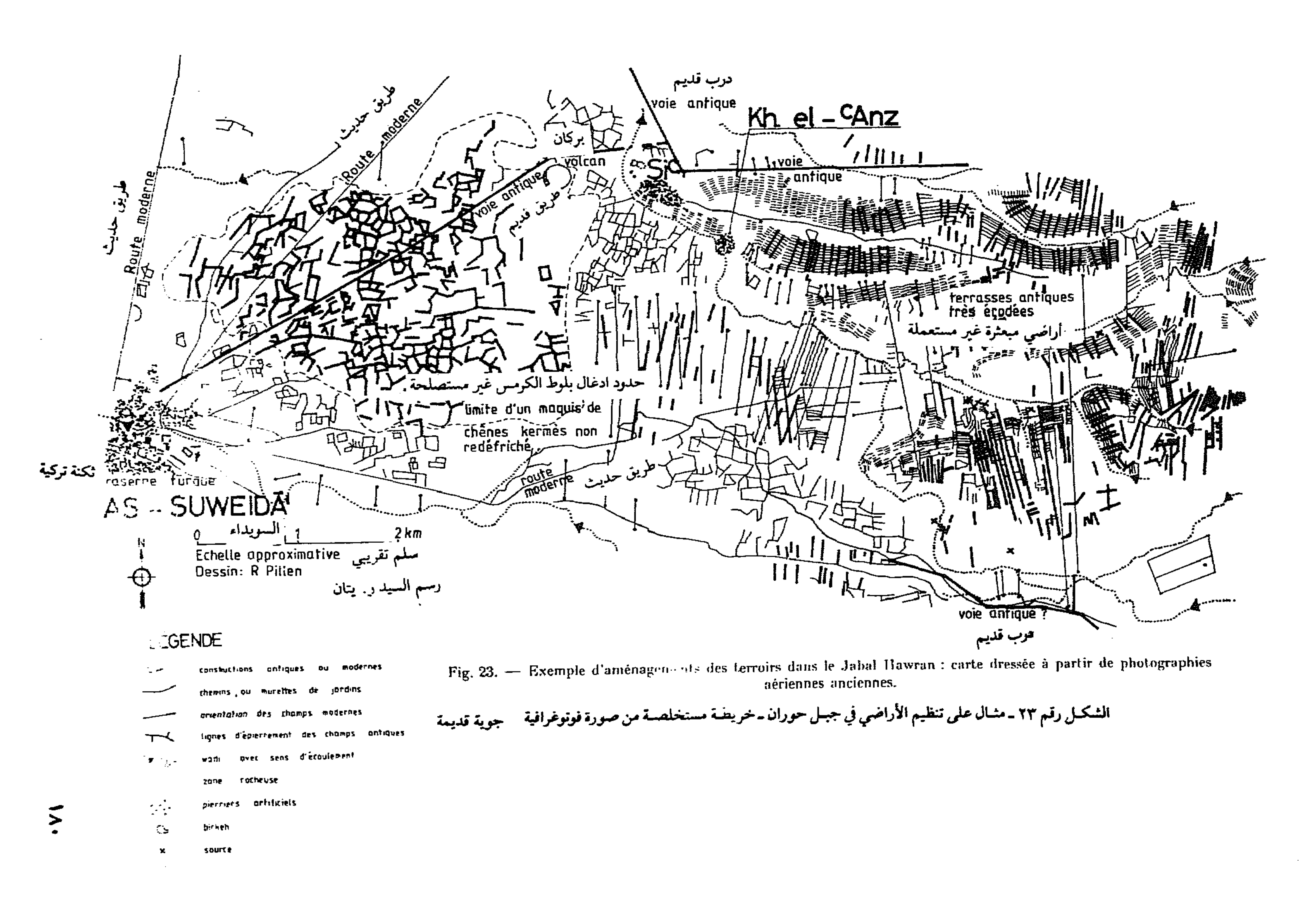


Fig. 23. — Exemple d'aménagements des terroirs dans le Jabal Hawran : carte dressée à partir de photographies aériennes anciennes.

الشكل رقم ٢٣ ـ مثال على تنظيم الأراضي في جبل حوران ـ خريطة مستخلصة من صورة فوتوغرافية جوية قديمة

الأراضي، تفصل بينها خطوط حجرية (جدران من الحجارة الصغيرة) رئيسية متباعدة بمقدار ٢٠٠م، وخطوط ثانوية متباعدة بمقدار ٣٠م. تقريباً، دون تأكيد في دقة القياس (الشكل رقم ١) فالشكل الأخير موجود بانتظام كبير على أطراف حوران الشرقية، أما الشكل الروماني فهو في كل مكان تقريباً وخاصة بجوار المواقع الكبيرة المعروفة بأهميتها في العصر الروماني.

هناك نقطة استدلال واحدة، تسهل لنا الاقتراب من الوصول الى التسلسل التاريخي لظهور تلك المظاهر في حوران، انها التقسيمات الرومانية الصغيرة التي تمت دراساتها في كل مكان تقريباً، من الامبراطورية، والتي وصفتها نصوص (gramatidi) غروماتيسي، لايتضح تماماً، فيما اذا كان المقياس المستوي Centuriation، وهو الأداة الأولى للمسح الطبوغرافي الروماني، قد طبق في حوران؟ فإذا صح ذلك، يكون قد نفذ فعلاً في الهضبة، التي لم يتم حتى الآن كشف صورها الجوية كشفاً كافياً: لذا لابد من التحفظ هنا. ولكن العلماء النظريين في مصلحة المساحة الرومانية، اشاروا الى صيغة أخرى للمسح per strigas et scamna et en laeinae وهي صيغ كانت سارية المفعول في الولايات، ولكنها حتى اليوم لم تدرس إلا قليلاً جداً[١٩٥]. ان تقسيمات الأرض الى أجزاء في حوران حسب نظام المستطيلات وعلى اتجاهين متعامدين، تبدو أنها من تقويم الـ Strigation Scamnation ويوجد مثال جيد منها في الشكل رقم ٢. شرق بصرى وحول «Burd» وكانت الأرض مقسمة وفقاً لاتجاه يرتكز على مسار الطريق الروماني بصرى ـ صلخد (الذي انشىء حوالي أواسط القرن الثاني للميلاد[١٩٦]، والخطوط الحجرية تفصل مقاسم من الأرض بعرض ٢٥٠ متراً (أي ٧ actus) متجهة تارة نحو الشمال والجنوب وتارة نحو الشرق ـ غرب وهذه الأشرطة الأرضية مقسمة بدورها بخطوط عمودية بشكل مستطيلات بعرض ٧٠ متراً (أي ٢ actus) التي تساوي ١,٧٥ هكتاراً (٧ Jugera)[٢٣٥]. وإذا تم التقدم نحو الشرق وإلى الشمال الغربي من قرية (القريا) نجد وضعاً مماثلاً مؤلفاً من قطع أرضية تساوي ٢٤ (Jugera) وهي بطول يزيد مرتين عن العرض، وهذا ما يتوافق تماماً مع اصول ومبادىء Strugation- Scamnation التي حدّدها (هيجين Hygin) [١٩٧] ومن هذه الواقعة ووقائع أخرى أيضاً، يعرف السجل المساحي الروماني المتزامن مع (أوبعد ذلك بقليل) تنفيذ الطريق الروماني. ولم يكن هذا الاسلوب سائداً من قبل، بل كان مرتبطاً، بهذه الحال، مع زمن بناء مدينة «بصرى» على وجه التقريب. (الشكل رقم ١) يشير الى نموذج أكثر انتشاراً، يتفق ومصلحة المساحة الرومانية، حول نظرية القطع (lacinae). وهو سائد بصورة رئيسية على الأطراف الصحراوية في حوران، في قطاعات برزت متأخرة نسبياً. وفي مثال (الشكل رقم١)، لعب جوار قصبة «امتان»، مدينة الحامية، دوراً مافي توزيع الأراضي في الشرق منها

الى محاربـين قدمـاء من الجيش كاستعـمار أولي، ومقاسم الأرض ذات الشكل العفوي (غير الهنـدسي، عكست الـوضـع الـداخـلي) لتـوطن الـريف، كقـاعـدة عامـة، ولدينا حجتان واضحتـان بهذا الشأن: من جهـة أولى وفي كثـير من الحـالات، يصادف وجود قطعة أرض قديمة غير منظمة، وقطعة أرض أخرى قديمة منظمة (بلا شك رومانية) متوضعتين الواحدة فوق الأخـرى، ولا يعقـل ان المـزارعين دمروا أو أزالوا الحدود المنظمة والقانونية لوضع شكل جديـد، وبـالمقـابل، يمكن أن ندرك بأنهم ارغموا على التخلي عن شكل قائم، لضمه الى وحـدة انشئت بأوامـر اداريـة، رومـانيـة دون شك، من جهـة أخـرى، فإن دراسـة المعجم الجغـرافي التـاريخي لمنطقـة «سيـع ـ قنـوات» بدأت تعطي ثمارها. مثال على ذلك، الطريق الأثري المستقيم، «قنوات ـ سيع» يجتاز جميع رقع (لحمات) الأرض غير المنظمة لهذا الوادي، الـذي سبق ظهـورهـا، بينـما يقوم هذا الطريق بانعطافة وحيدة، ليدور حول مدفنين قمنا بتنقيب وكشف أحـدهما عام ١٩٨٠، وتبـين بأن تاريخـه يعـود للقـرن الأول بعـد الميلاد. لذا يكون الطـريق قد تم فتحـه، قبـل أواخـر القرن الأول الميلادي، كما أن تنمية هذا القطاع ابتدأت قبل العصر الروماني، وحتى قبل بناء المدفن الذي بدوره وُجد مبني على أرضية حجرية أقدم منه.

إن تاريخ ريف حوران، وتاريخ الحياة الريفية في هذه البلاد، بدأ يخرج من الظلمة، فهنـاك بدأ التنظيم الكثيف جداً لمنـاطق قابلة للفـلاحـة بشكـل ملمـوس قبـل ضمهـا الى الـولايـات الـرومانية وقبل بدء استيلاء الرومان على المنطقة بكل تأكيد. هذاالقرار كان يتـوخى اجـراءات عمليـة مثـل حمايـة المـزروعـات من المـواشي ومن السـارقـين. (حبس ملمـوسـة وفقـاً لترتيب هندسي محدد. وهذا هو الاسلوب الذي حقق ثراء القرى الذي كان سائـداً في القرن الأول قبل الميلاد[٢٤] (أي قرب نهاية الثلث الثاني من هذا القرن)، بواسطة توطيـد الطمأنينـة الـدائمـة، ثم بعد السيطرة الرومانية، بواسطة خطة جر المياه المقررة على نطاق واسع، هذا الاثراء أخذ طابعاً متجهاً لانطلاقة اقتصادية حقيقية

لعـدة أجيـال، فإن القـرى الحورانية كانت تتمتع بانطلاقة ديمغرافية مزدهرة، كانت الـزراعـات تمتـد بعيداً حتى انها غطت مجمل المنطقة (اكثر من اليوم)، وتطاولت على أرض السهب في الشرق (أكثر من اليوم أيضاً) بواسطة تعزيل الحجارة والروم بشكل منظم، ضمن أنظمـة مسـاحيـة، تبـدلت أحيـانـاً وفقاً للقوانين الرومانية التي غالباً ما كانت تتوخى التنمية الـزراعيـة للأراضي البكـر، وقـد زادت شبكة الطرق كثافة وزاد العمران الزراعي والعام في باديء الأمر، ثم اتسع العمران الخاص مما أبان تقدم الازدهار في البلاد.

في وقت مضى من العصـر البيـزنطي، في القـرن الخـامس الميـلادي تقـريبـاً. عرفت المنطقة تبدلات ملحوظة جاءت مع عودة سيطرة الرحل وتوطن مجموعة من الأديرة ومن القرى

الصغيرة الفقيرة. ولم يشكل الفتح الاسلامي في عام ٦٣٥ أي انقطاع رئيسي في الوضع[١٩٨] (ذكرت المعاصر في العصر الأموي سابقاً) بل تمخضت عن ازدياد قوة هجمة العرب الرحل. ولكن متى وكيف بدأ التخلف في حوران. فهـذا بقي مجهولاً. ولكن الأسباب التي يمكن التذرع بها ليست قليلة، فمنها الاستثمار المكثف للأراضي ـ زيادة رعي المواشي ـ المناخ شديد الحرارة خلال الفترة مابين ٦٠٠ ـ ٨٥٠ ميلادية[١٩٩] ـ اختلال الأمن المتزايد، خاصة بعد انتقال السلطة من دمشق الى بغداد[*] وفي مستهل العصر العباسي المضطرب، بسبب النهب والسلب، وقدوم موجات البدو الرحل (وهذا على مايعتقد نتيجة الانحطاط وليس سببه). وأخيراً فقدان المنافذ التجارية المهمة، خاصة المنافذ التي كانت تتمثل بالمدن السورية التي تعرضت لويلات الحرب وللأمراض الوبائية.

ان متابعة البحث حول كل ذلك، ستتيح تكوين فكرة اكثر صحة عن هذا التدهور الذي هوبالأصل لم يكن مفاجئاً. فقد أصبح المستوى الأعلى لاستثمار الموارد الزراعية الطبيعية في حوران، التي أصبحت أرضاً مغطاة ببرك المياه. أما في الجبل فقد تبدل الى سلّم من المصاطب المتدرجة، حيث، يفترض، في سبيل تماسكه ضرورة تلاحم عدة عوامل متوافقة ـ ديمغرافية ـ سياسية ـ تقنية ـ مناخية، وعلى سبيل المثال يمكن تفادي صفة التخلف.

ومع ذلك نشك كثيراً، بأن الانحطاط أثر بالقرى بقدر ما أثر بالمدن، وبأنه كان سريع الفاعلية ولا تراجع فيه. واذا أريد الحكم بماهية هذا الانحطاط بالاستناد الى الخزف المكتشف، فإن قرى حوران، في العصرين الأيوبي والمملوكي كانت مزدحمة بالسكان، وازدادت كثافتها السكانية. في نهاية القرن ١٦ أكثر من ازديادها في القرن ١٩ ميلادي[٢٠٠]. رغم عودة استيطان المنطقة بدروز الجبل اعتباراً من القرن ١٨ ميلادي.

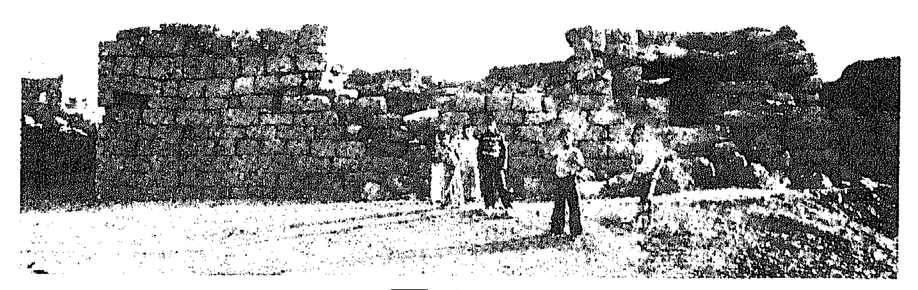
وعلى القارىء أن يتفحص الطبيعة الغامضة والمشكوك بها لهذه النبذة التاريخية. إن التاريخ الاقتصادي لحوران القديمة لم يعد منذ الآن مجهولاً لدينا. وأخيراً فإن الوضع الاجتماعي للقرى وتطوره الذي بقي في الظلال لم يلحظ: مثل الأراميون الحضريون ـ البدو الرحل الذين تحضروا ـ المزارعون الاغنياء ـ الفلاحون الفقراء ـ وربما العبيد ـ قواعد تقسيم الأرض. أساليب الزراعة، كل ذلك يجب أن يكون هدفاً لبحوث ودراسات طويلة ليمكن الاستفادة منها قبل أن تحد من اهتمامنا، الاحجار والغرين والفخار المكسور في هذا الجزء من سورية.

فرانسوا فيلنوف

عمان أيار ١٩٨٥

ملحق اضافي أيار ١٩٨٥

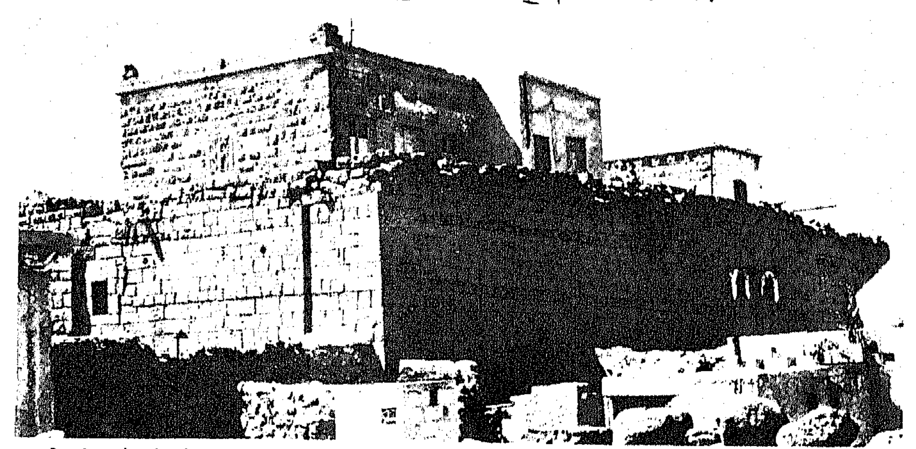
كتبت المقالة التي تمت قراءتها - في معظمها - في عامي ١٩٨٠ و١٩٨١، ومن واقع مهلة النشر، فقد تم اعادة النظر فيه خلال عام ١٩٨٥، وعوضاً عن اعادة كتابة نص البحث الذي بدت لنا فرضياته الأساسية سليمة وعن ادخال، المعطيات الجديدة المكتسبة على أرض الواقع بين عامي ١٩٨١ - ١٩٨٥، فقد اقتصرنا تحديث النص تبعاً للمراجع الأكثر حداثة.



آ ـ المسيفرة البيت رقم ١ ـ جدار خلفي (شمالي واجهة خارجية)



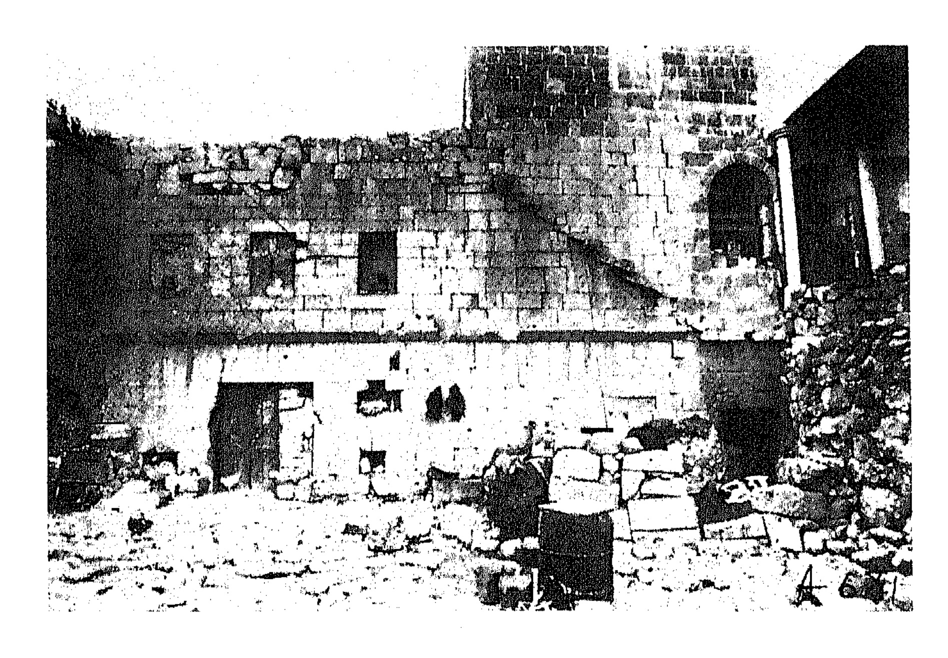
ب) الكرك بيت رقم ١ ـ واجهة (انظر الصورة رقم ١٦)



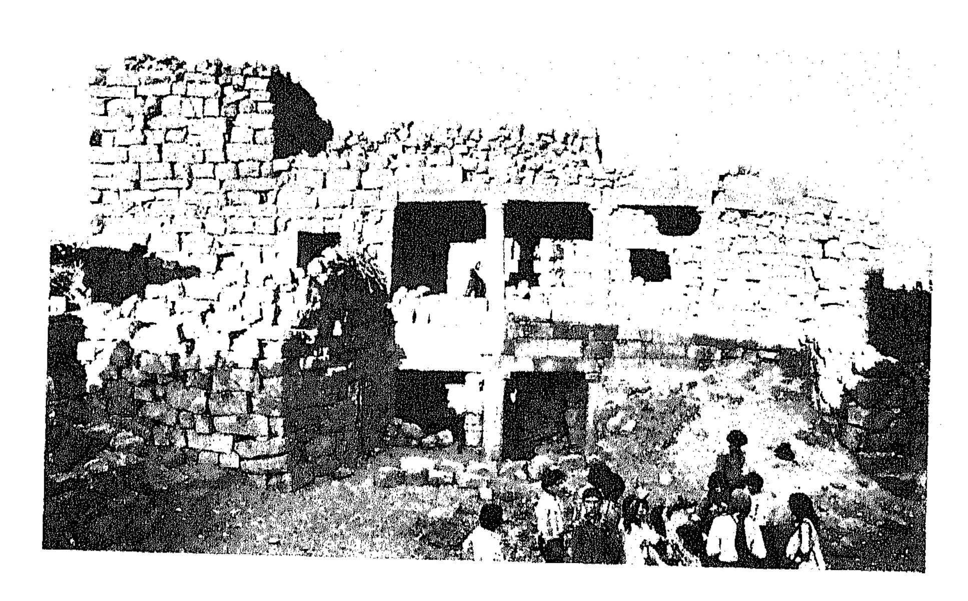
ج) الهيات: بيت فلافيوس سيوس نهاية القرن السادس ب.م ـ الزاوية الخارجية في الشمال ـ الشرقي



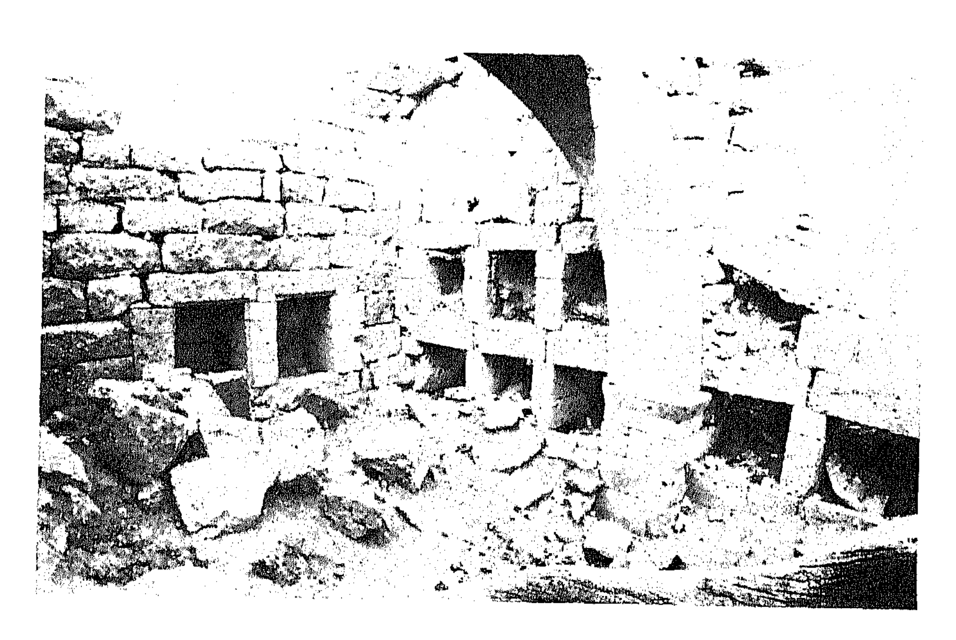
آ ـ نوى ـ البيت رقم ٣ ـ تفصيل الواجهة الشمالية المطلة على الباحة (الصورة رقم ١٧) الطابق الأسفل ـ أبواب الغرف F و G وكوة



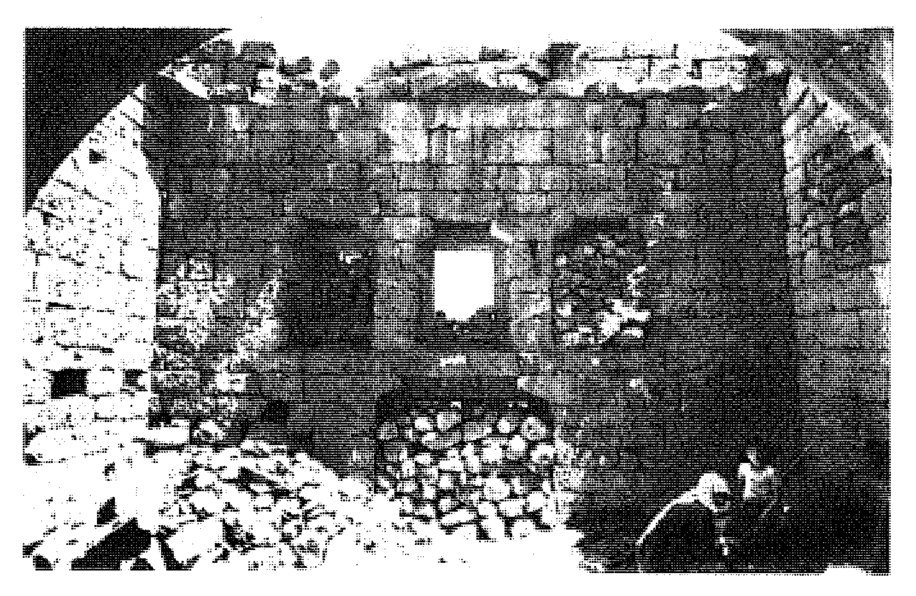
ب) أم الزيتون ـ البيت رقم ٢ ـ الواجهة (انظر الصورة رقم ١٤)



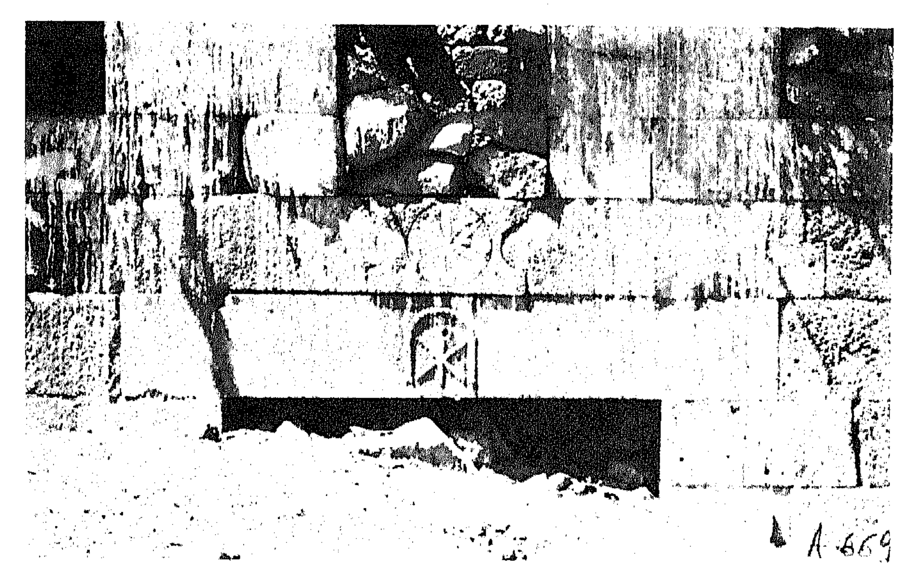
آ) أم الزيتون البيت رقم ٣ ـ الواجهة (انظر الصورة رقم ١١)



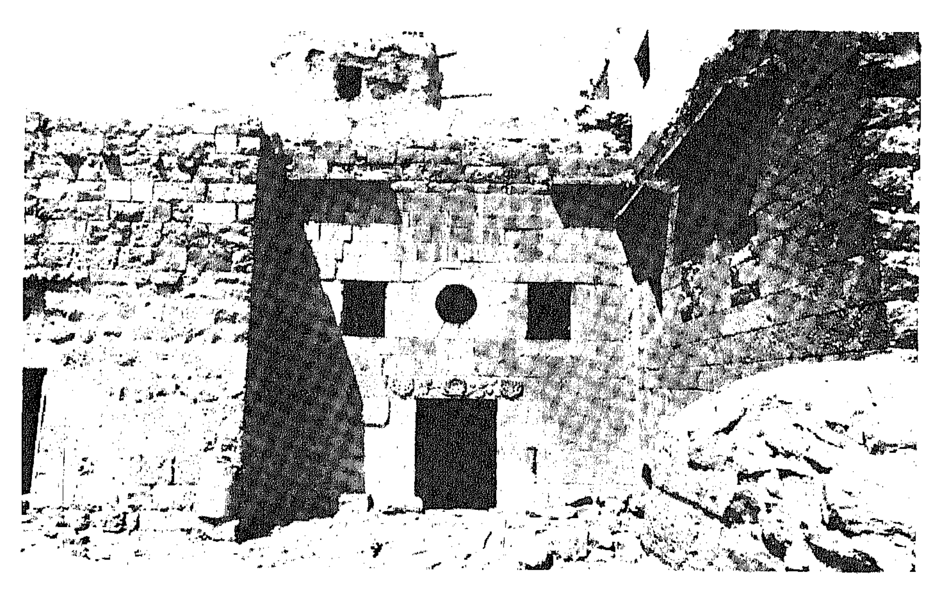
ب) المسيفرة ـ البيت رقم ١ ـ الزاوية الشمالية الشرقية للفرقة الرئيسية في الطابق الأسفل



آ) كفر شمس البيت رقم ١ ـ الطابق الأسفل ـ الغرفة A نحو الأسفل باتجاه الشرق (انظر الصورة رقم ١٩)



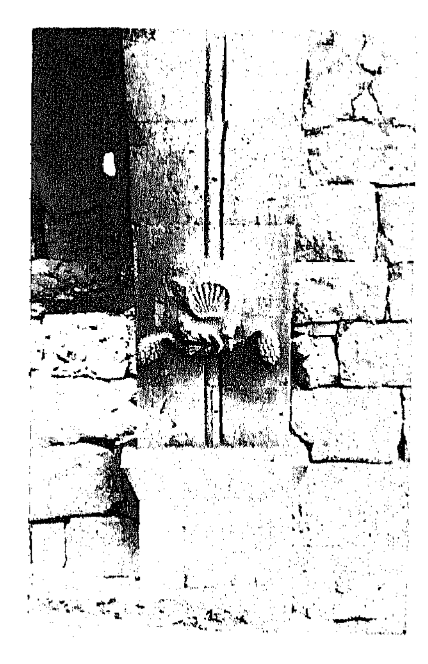
ب) كفر شمس ـ البيت رقم ٢١ ـ الطابق الأسفل ـ الواجهة الغربية ـ حنت الباب العائد للفرقة A



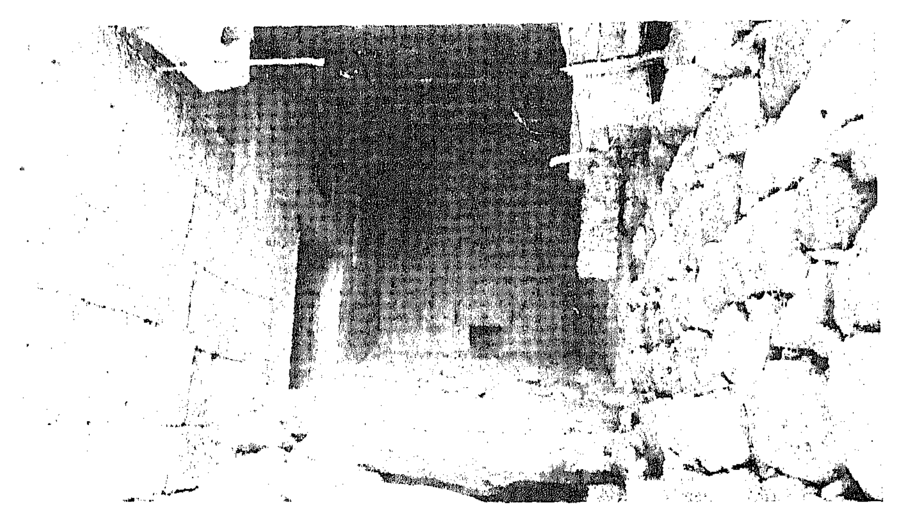
آ) نوى البيت رقم ٢ ـ الواجهة الشمالية (الفرقة A) (انظر الصورة رقم ٢٠)



ج) كفر شمس : البيت رقم ٢ ـ صليب بارز على السقف المزين وعلى عوارض الباب أمام الغرفة رقم A ـ (انظر الصورة ٢١)



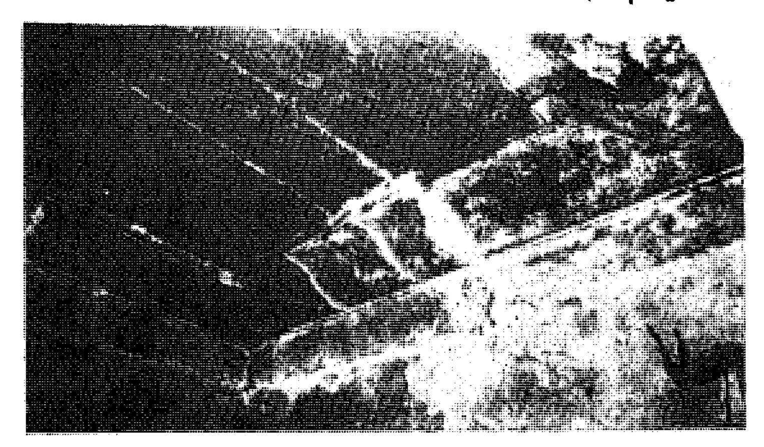
ب) نوى البيت رقم ٢ ـ الطابق الأسفل الغرفة رقم ١ ـ الجزء الشمالي من القوس (انظر الصورة رقم ٢٠)



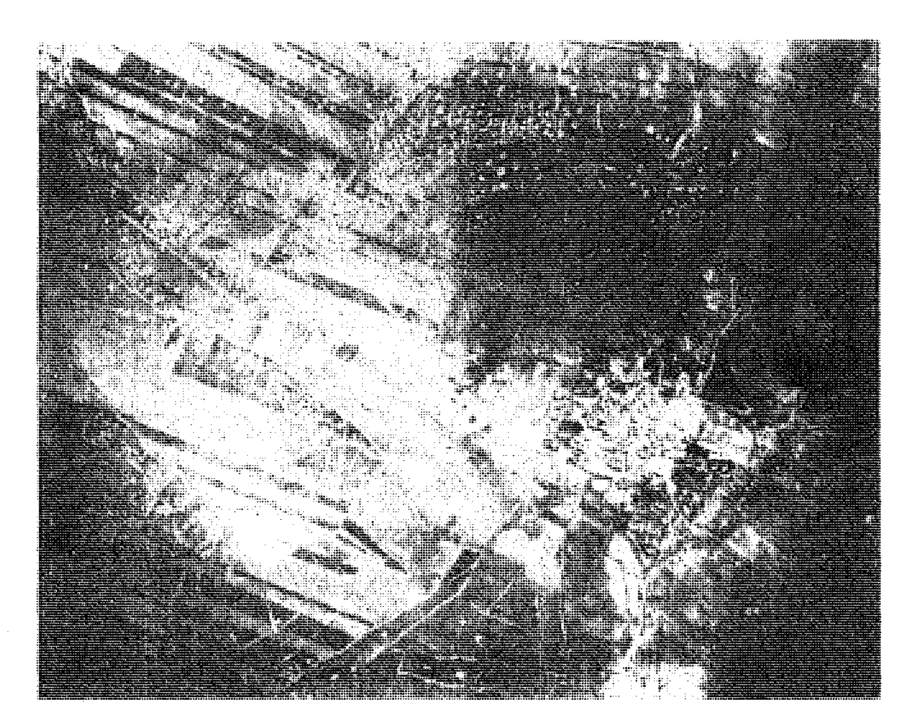
آ) كفرشمس : البيت رقم ١ ـ زاوية مغطاة بين البناء الغربي (على اليسار) وبين الشمال (على اليمين) انظر الشكل رقم ١٩ غرفة حديثة وسط على المستوى ١ ـ غرفة معتنى بها على المستوى ٢



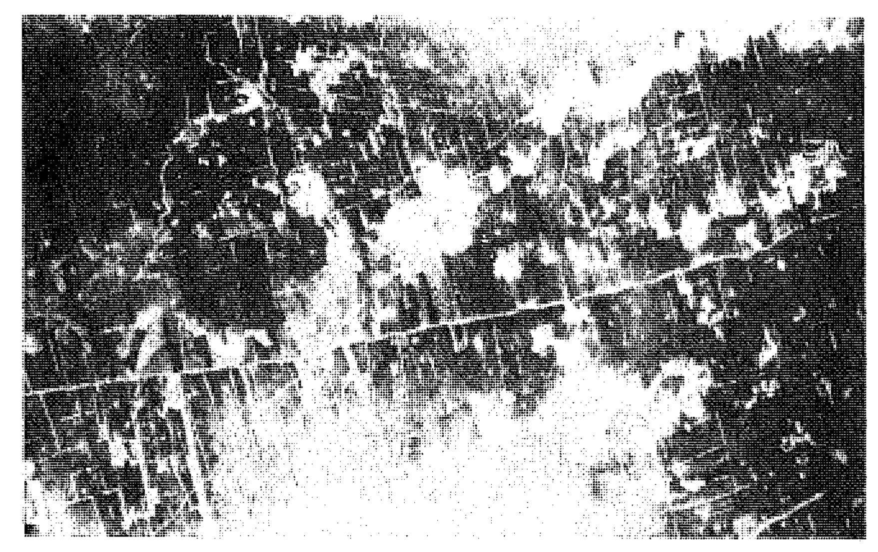
بَ) كفرشمس : البيت رقم ٢ ـ اقتلاع الدرج الخارجي والقرص (مستوى ١) في الواجهة بين أبواب الغرف F، H (انظر الشكل رقم ٢١)



ج) نوى البيت رقم ٢ سقف الغرفة A



آ) حول قرية الهيت في (Sacée) الحدود الأثرية للحقول (عمل مساحي قبل الروماني) وزراعة حديثة



ب) شمال قرية «امتان» آثار عمل مساحي هندسي من العصر الروماني (الشمال هو على اليسار) (الشكل رقم ١)

هوامش

1- A. 11. M. Jones The Citie of the Eastern Roman Provin ces 2nd, ed, Oxford, 1971, pp. 289- 290 C'est noues qui traduison.

2- H. C. Butler et coll. Publication of un american archaeslogical expedition to syria in 1899- 1900, New-York, 1904- 1914 desormais cité comme: Paaes, id, publications of the princeton University Archaological expedition to, Syria in 1904- 1905 and 1905. Leyden, 1913- 1949, désermais eike Comme PPuaes.

٣ ـ مقدمة السيد M. le Glay في مؤلف J. M. lassere (ubique populas) التوطن وحركة السكان في افريقيا الرومانية منذ سقوط قرطاجة حتى نهاية حكم اسرة سيفير (Sévére) Paeis (977) (146 a C.235 p.C)

٤ ـ (G. Tchaleuko) القرى الأثرية السورية الشمالية الكتلة الجبلية لـ (Belus) في العصر الروماني (باريس ١٩٥٣ ـ ١٩٥٨).

٥ ـ ابتدأت الدراسات بهذا الخصوص اعتباراً من عام ١٩٨٣ تحت ادارة (F. Bralmer) الذي قاد العديد من التنقيبات الموجهة نحو آثار العصر البرونزي والعصر الحديدي (الذي كان يصعب تحديده) وأيضاً نحو آثار العصر الفارسي والعصر الهيلليني انظر (F. Braemer) التنقيبات الأثرية في حوران (سورية) «مؤلف سورية ١٩٨٤ تحت الطبع» وبخصوص السؤال عن أعمال F Braemer (انظر (F. villemeuve) . التنقيب في قرى حوران القديمة من القرن الأول قبل الميلاد الى القرن السابع بعد الميلاد). السكان ـ البيوت الريفية ـ اطروحة الدكتوراه ـ المرحلة الثالثة على الألة الكاتبة (باريس ١ ـ ١٩٨٣) من الآن وصاعداً يذكر بحوث F. Villemeuve ص ٣٧ ـ ٥٤ مع المعطيات الأخرى المعطاة من قبل السيد (H. Sarter) في مؤلف عن بصرى (باريس B. A. H) تحت الطبع ١٩٨٥.

٦ ـ السيد C. Safadi هيدروليكية سورية الجنوبية (نانسي ١٩٥٦) الخريطة المطرية لحوران Climatie Atlas of syrie وزارة الدفاع السورية، دائرة الارصاد الجوية ـ قسم مناخ دمشق ١٩٧٧ ـ الخريطة رقم ٤ ـ المعدلات السنوية لهطول الأمطار.

٧ ـ W. H. Waddington النقوش اليونانية واللاتينية في سورية ـ باريس ١٨٧٠ من الآن وصاعداً هي E. littimann in P.P. UAES III A et IV

٨ ـ H.C.Butler (P.P. U. AES) IIA

٩ ـ خاصة

G Rindfleisch Die landschaft Hauran in Romischer 2eit und in der Geganrart Z DPV 21, 1898 pp- 1- 16

G sehum ocher per dscholam ZDPR 9, 1886 165- 368- idem Das sudliche, Basam Z Dpr, 20, 1897- pp, 67-227

١٠ ـ السيد سارتر كتابات يونانية ولاتينية عن سورية ١ ـ ٨ ـ الفصل ١ ـ بصرى باريس ١٩٨٢.

١١ ـ م ـ ادام ـ دراسات الـولايـة العـربيـة بعهد الرومان وبيزنطة ـ اطروحة على الآلة الكاتبة للسيد pf.D منشستر ـ ١٩٧٩ وايضاً كتابات عن حياة قرى جنوب سوريـة خلال الحكم الـرومـاني وأوائـل الحكم البيزنطي ـ بيروت ٣١ ـ ١٩٨٣ . ص ١٠٣ ـ ١١٥ ـ G. W. Bowersock العربية الرومانية كمبريدج ماس لندن ١٩٨٣ ـ J. M, J Dentzer.

التنقيبات الأثـريـة في «سيع» والاثر الهيلليني في سورية الجنوبية GRA1 ١٩٨١ ص٧٨ ـ ١٠٢ ج . م دانتـزر و(ج ـ دانتـزر ـ فريـدي) وفيلَّلينيف د ف زيريمر ـ ست رحلات تنقيب في «سيع» التطور والزراعة المحليـة في سوريـة الجنـوبيـة Milleslungen. Damaszner ٢ ـ ١٩٨١ . S.P ـ ج دانتـزر . ابحـاث حول الزخارف الهندسية الأثرية في سوريا الجنوبية في العصر الهيلليني والروماني ـ ١ ـ الابواب ـ اطروحة المرحلة الثالثة على الآلة الكاتبة ـ كلية باريز ١ ـ ١٩٧٩ ـ ج . م دانتزر بالتعاون مع ف فيلَّلينيف . القرى في سورية الـرومـانيـة في الحـديث عن تنظيم المدن الشرقية ، in de Lénelus في البلقان ـ مجموعة Jesn Deshayis باريز ٢١٣ ـ ٢٤٨ .

١٢ ـ لابـد من التنـويـه باننـا مدينـون للسيد J. M. Dentzer الذي أحسن منذ البدء ، تقدير مدى فائدة تلك التنقيبـات . ولا يسعنـا الا أن نقـدر المسـانـدة المطلقة ، وحسن الضيافة والوقارة التي ابداها أعضاء مصلحة الآثار في الجمهورية العربية السورية ، وخاصة منهم الدكتور بهنسي المدير العام لمصلحة الآثار الذي اتاح لنا القيام بهذه التنقيبات المتابعة ولاظهار مدى فائدتها . والدكتور البني المدير العام للتنقيبات الذي لمسنا منه كل تفهم وصـداقـة ، والـذي سهـل لنا جميع الأشكال الادارية ، والمرحوم سليمان مقداد مدير الآثار في بصرى ـ درعا ـ القنيطرة . الذي كان يستقبلنا بحرارة في قلعة بصرى والذي بدونه كانت تصعب الأمور والسيد عامر مدير الآثار في السويداء الذي بلطفه وحسن اهتمامه اتاح لنا العمل في جبل العرب ، كما أننا لاننكر مساعدة زمـلائنـا في التنقيب J. Dentzer- C. Bolleli- t. Bouzou- P. Fonrdin- S. Qudsi- F. Huguet- .P. Gentelle R. Donceel المهنـدس المعـماري في المعهـد الفـرنسي لآثار الشرق الادنى ، الذي اعاننا بخبرته في عام ١٩٧٩ ، والذي دقق مخطط قرية «شعارة» المنشور في هذا المؤلف والسيد L.thomas الذي ساعدنا في هذه الرحلة بكل مودة مقدرين علو موهبته في رسم اغلب المخططات المنشورة في هذا المؤلف كما ان (J. Y. Vial et C. Sayetd l'IGN) الذي تحت وطأة الثلج والوحل ، قدموا لنا في كل عام ١٩٨٠ اثمن خبرة في الطبوغرافيا .

١٣ ـ Réccmment: W. Held Das ende der progressiven Entwicklung des Kólovales am Ende des 2 und in der ersten Halfe des 3 ,. Jahrhundeuts in Rrhisehen, imperium, Koιo 53 - 1971- PP. 239- 279 M. Hazza , Terra é Forme, ei dependenza nell' impero 'Romano

الأرض والفـلاحـون التـابعـون لها في المجتمعات القديمة (الندوة التي تمّت في بيزانسون يومي ٢ ـ٣ أيار عام ١٩٧٤ ـ باريز ١٩٧٩ ص ٤٤١ـ ٤٩٣ .

١٤ ـ ب ـ بيرل ـ نبذة من التاريخ الريفي لبيزنطة المجلة التاريخية ٢٠٩ ـ ١ ١٩٥٨ ، ص٣٢ ـ ٧٤ . ش . ج أوسترغورسكي : المجتمع الريفي البيزنطي ـ بيزانسيون ٣٢ ـ ١٩٦٢ ـ ب ب ١٣٩ ـ ١٦٦ .

15- J. Bradford Ancient lansdacapes, Stadies in Fild Archaeology, Londre, 1957, ch 4 Roman centuriation a Plenned landscope, pp. 145- 2/6- pb 38- 51.

16- D. Sperber, Aspects of Agararian Life in Roman Palestine 1- Agrievltural Decline in Palestine during the later principate Aufstieg und Niedergang der Rómischen vell, 11,8, 1977. pp. 397- 443.

17- R. Mac. Mullen, Peasants, durinj, the principate, vbid, 11, 1, 1974 pp. 253- 261.

١٨ ـ F. Villemeuve بحوث pp. 317- 323 أول تأليف حول ترتيب من عمارة البيوت.

19- L: H- e Butler, Desert Syria, The land of a lost cwilization Geographicale Review 10- 1920, pp. 77- 408.

20- K Butzer Quatimary Stratigraphy and Climate in the Neus East, New- York, Londres 1958- -.122.

٢١ ـ ان أول تحليل لتربة الباليونجيلك حققه مخبر m Girard في فاليوت (cra du CNRS) على مسطرة قدرت لما قبل العصر الأموي (نتيجة التنقيب في سبع ـ ٨) وهي مستقيمة (أي حوض من رخام في وسطه نافورة مياه) وجدت في أسفل حوض المعصرة. وكانت نتيجة التحليل بما يلي: أشجار ٤٤, ٤٪ ـ أعشاب herbaceae ٥٦, ٩٥٪ وهذا يثبت وجود سابق لريف كثير الاشجار.

٢٢ ـ معطيات التقطت عام ١٩٧٩ وعام ١٩٨٠ من قبل المؤلف وعلى مقربة من أهالي المجدل.

٢٣ ـ الفرضية الحديثة (صادرة في Boreas) للسيد Geographial Patterns. T. M. Lwigley.

of cimatic ehange - 1000Be. 1700AD, internn Final Report to N. O. A. A. us. Dept of Commerce under contact n° 7-35207, 26. 9. 1977, 80p. fait opparaitre, pour le proche- orient, une Suite de fluctuation

من ٧٠٠ ـ ٣٠٠ قبل الميلاد، درجات الحرارة منخفضة عن العادية حالياً (النصف الأول من القرن العشرين) مع ميل الى الدفء فيما بين ١٠٠٠ ـ ٥٠٠ عام قبل الميلاد.

٣٠٠٠ ق.م ـ ٢٠٠ ب.م فراغ في المراجع الوثائقية.

٢٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م عودة الدفء، هطول أمطار أدنى من العادية في الوقت الحاضر.

٥٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م متبدل ولكن يميل الى البرودة.

٦٠٠ ـ ٨٥٠ ق.م العودة الى الدفء هطول امطار قليلة الغزارة ولكن مع درجات حرارة متوسطة ولكنها أدنى من درجة الوقت الحاضر.

٩٠٠ ـ ١١٢٥ ق.م حقبة زمنية أكثر برودة وأكثر رطوبة.

نحن مدينون لهذه المعلومات للسيد Paleynologue, J. L. Borel في قطاع علم النبات وعلم البيئة النباتي في جامعة غرينوبل، وفيما يخص النقطة التي تهمنا. فالموضوع المهم سيكون، الحقبة أو المرحلة المناخية المناسبة للزراعة في القرن السادس ب.م يتبعها مرحلة أدق في القرنين السابع والثامن.

٢٤ ـ F. Haguet بحوث في شكل الأرض Gesmorphologique في منطقة شهبا (سورية الجنوبية ـ دراسة منطقة بركانية، بحث السيادة باريس ١ ـ ١٩٧٨ ـ الخريطة بشكل الأرض ٥٠٠٠٠/ ١ لمنطقة شهبا.

٢٥ ـ السيد صفدي op. eit البحث رقم ٦ الخريطة الهيدروليكية لحوران.

٢٦ ـ المرجع نفسه.

٢٧ ـ حول جغرافية الجولان، آ. باغ ومنطقة الجولان (اطروحة الدكتوراه) باريز ١٩٥٨ ـ السيد ص. خير، أقليم الجولان، دمشق ١٩٧٦ بالعربي. اطروحة د. أوريان: الجولان خلال العصرين الروماني والبيزنطي طبوغرافيا: ستيلمانتية الاقتصاد. ديس ١٩٧٩ الجامعة الامريكية نيويورك الجامعة الدولية للميكروفيلم ـ آب اربور ١٩٧٩ بحث الجغرافيا التاريخية للمنطقة وآثارها الهندسية، وحالياً للاكمال من قبل د. دومان p. ex. Jewesh and christion communites in the roman and Byzantine Gaulanitis. a stuedy of Evidence from Archaeological Surveys. P. E. 9. 1982. pp. 129- 142 Settlements of the Roman and

Byzantine périods on the Golan Heights IEj. 33. 1983. pp. 198- 206. pl 20- 22.

قرى ومعسكرات بيزنطية في الجولان ١٤ Internat, Byz, kongr Jahrb Oster Byz ٣٢/ ٤ ص ٦١٦ ـ ٦٢٤

٢٨ ـ بقي تاريخ الانـدفـاعـات الحممية الأخيرة غير مؤكد . وكما بين M. Dumand, L. Dubertret التوضعات العظمية في خربة الامباشي وهبارية (الصفا) (N. A. A. S) ٧/ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ . كما ان وجود كمية كبيرة من العظام المكلسـة الحيـوانيـة . البعض منهـا مسـاقاً بالحمم قرب موقع «خربة الامباشي» على طرف الصفا ، لايـدعـو الى الاعتقـاد بأن هذه التعظمّات كانت مسـاقة بالحمم ، بل ان حرق هذا القطيع المتعمد هو الذي اذاب الحمم من جديد ـ اذاً فان التاريخ في هذا المحيط كان B.P ٤٠٧٥ (+ ١٦٠ سنة) أو بالاحرى ٤٥٠٠ B.P أي حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد كتسلسل تاريخي حقيقي . وأن تاريخ ١٤ C لهذه التعظمات لايدل على تاريخ الانصهارات الحممية لمنطقة الصفا .

٢٩ ـ سفـر تثنيـة الاشـتراع ٣ ، ٤ ـ ٥ يشـوع ١٣ ـ ٣٠ ـ ٣١ والملوك الأول ١ ـ ١٣ انظر ق . م آبل جغرافية فلسطين باريز ١٩٦٧ ـ ١ ـ ١ صفحة ٢٧٤ .

٣٠ ـ سفر تثنية الاشتراع ٣ ، ٥

٣١ ـ آ . ابـو عسـاف ـ تل عشـترة في جنـوب سوريـة iste Kampagne ١٩٦٦ ـ AAAS ١٨ ـ ١٩٦٨ ـ ص ، ١٠٣ ـ ١٢٢ ـ pl ٢٠ تل عشترة ٢ ـ Kampagnie te ١٩٦٧ AAAS ١٩ ـ ١٩٦٩ ص ١٠١ ـ ١٠٨ ، ٩ pl ، مستوى عصر برونزي حديث ـ عصر الحديد الثاني ـ العصور الهيللينية والعربية .

٣٢ ـ F. M Abel Op . cit., n. 29, t. I, p. 275

33- c. M. Kraay. P. R. S. Moorey, two Lifth century Hoards from the near- East. R. N. 6. 10- 1968, 181- 210 pl XIX- XX.

34- Publ. della soc. ital. par la ricerc. dei pap. gr. e lat in Eg., pupiri greci e latini IV Florence, 1917, No 406 = Psi iv 406) C.C Edgar. cat. Gén. des Ants. Eg. du museé du Caire, Zenon Papyri 1, le Caire 1925 No 59004 (= PCZ 59004).1 Maceabées 5, 9-54,. II Maceabées, 12, 10- 16.

٣٥ ـ انظر . C أورّيو مخطوطات زينون ـ باريز ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ و X دوران ـ يونان في فلسطين خلال القـرن الثـالث ق . م . رحلة زينـون من «كـونـوس» (٢٦٠ ـ ٢٥٨) بحث قدّم في مدرسـة الكتـاب المقدس والآثار الفرنسية في القدس ـ أيار ١٩٨٤ ـ ص ١٤٠ ـ ١٤٣ انني اشكر المؤلف الذي اشركني في البحث قبل نشره .

36- S. Mittmann, Zenon im ost jordanland, in E kutoch, A Kuschko Archaologie und Altes testument tübingen 1970- pp. 209- 210 et X Durond, op cit. No 35 pp. 37 et 45.

٣٧ ـ في سبيـل محاولـة شبـه مقنعـة من حيث التفـاصيل ، تطابق المواقع (مكابي ٥ ـ ومكابي ١٢ انظر ف . م آبل ـ تل حمد في حوران JPOS ١٢ عام ١٩٥٦ ص ص ١ ـ ٥ pl 1

٣٨ ـ PPUAES ـ ٤ ـ آ ـ رقم ١٠٠ .

٣٩ ـ PPUAES ـ ٣ ـ آ ـ رقم ١٦٧ .

٤٠ ـ ع ـ دانتزر ـ فيدي ـ حول معبد يقال أنه يدعى دوسارس في سيع سورية ٥٦ ـ ١٩٧٩ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٣٢ .

٤١ ـ فلافيوس جوزيف الآثار الرومانية ١٥ ـ ٣٤٥ .

٤٢ ـ المرجع نفسه ١٥ ـ ٣٤٢ ـ ٣٦٤ .
٤٣ ـ سترايـون (الجغـرافيـا) XVI ٢ ، ٢٠ ، هذا النص يعـود لأوائـل القـرن الأول بعد الميلاد وكان موضوع صلح نفذ تحت اشراف الرومان
٤٤ ـ W ٢٣٢٩
outa xtnais áypwv unnpxe

auvaywyai u1u1a iwv

unopuya: zatá ynx xui onnxaia

xolun ketú twv Boexyuatwv oıaitia

ai ye ymv tioo1uol qtevai zii za o' Eua mapepzoyévwv

45- J. G. Wetzstein Reiseberieht über Haurán und die trachonen, Rerlin 1860. pp. 44- 48. W. p. 5$4

٤٦ ـ مثـــال : passim, PPUAES G. W. BOWersock. Areport on Provincia Arabia. J. R. S. 61, 1971. pp. 221- 222.

٤٧ ـ مقـالـة السيـد M. Sartre (رومـا والنبطيـون في نهاية عهد الجمهورية (٦٥ ـ ٣٠ ق . م) R. E. A (٨£ ـ ١٩٧٩ ـ ص ص ٣٧ ـ ٥٣) يلح بحق . حول طوعية النبطيين القسرية لروما منذ الثلث الثاني للقرن الأول ق . م .
٤٨ ـ انظـر الحـاشيـة رقم (٤٠) ـ لايعـرف في الوقت الحاضر عبادة Culte النبطيين في سيع بحسب النقوش الكتابة ورسم الايقونات ، ان خصائص معبد الجنوب الشرقي الذي كان يتمتع بواجهة ذات تيجان نبطية لا تزال غير معروفة .
٤٩ ـ السيد M. Sartre (بصرى والعربية) الاطروحة المنسوخة ـ ليون ١٩٧٨ pp ٧٣٩ id ss. بصرى ، باريس SP- B. A. H ١٩٨٥ .
٥٠ ـ J. t. milk- cf قبيلة بني عمرات في الاردن في العصر اليوناني والروماني A. D. A. S ٢٤ ـ ١٩٨٠ صفحة ٤٦ .
٥١ ـ آ ـ مكابي ٥ ـ ٢٤ ـ ٢٦ .
٥٢ ـ مكتبة فوتيوس cod ٢٤٢ Q ١٩٦ vol. R. Henry - éd ٦ ـ باريس ١٩٧١ ، تفسير غير مقبول للمرور في مؤلف Dussand و Macler (رسـالـة في المنـاطق الصحـراوية في السورية الوسطى صفحة ٢١) تفسير حاذق ولكنه ملتوي كثيراً في مؤلف c. clermant Ganmeau (في المجموعة الهندسية التاريخية الشرقية)
أ ـ جلعاء بلاد جبلية في فلسطين (المترجم) .
٥٣ ـ جوزيف ـ حرب اليهود ـ ١ ـ ١٩ ـ ٢ .
٥٤ ـ لـ P. Briant القـرى والمجتمعـات القـرويـة لآسيـا الفـارسية والهيللينية J. E. S. H. O ١٨ ـ ١٩٧٥ p.p ١٦٥ ـ ١٨٨ .
٥٥ ـ السيد س عبد الحق ـ المواد المكتشفة في نوى A. A. S ٤ ـ ٥ ـ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ صفحات ١٦٣ ـ ١٨٨ N. Salibi, A. Bounmi pl - 11 والنتائج الأولى للتنقيبات في مقبرة أم حوران (في العربية) AAS, 6, 1956, pp. 8- 24, 13 pl, 1 plan H.t
٥٦ ـ W ٢٠٢٩

٥٧ ـ p. Levau .(Caesarea de Maurelanie) مدينـة رومـانية وريفها باريس ١٩٨٤، وخاصة في الصفحات ٤٨١ ـ ٤٨٢ ـ دراسـة تطـور الـريف الـزراعي في العصـر الـرومـاني نتيجـة تنقيب في الأرض، مثال قطاع Caesarea - Quaderni di storia- de Maurétanie ١٣٠ ـ (١٩٨١) صفحـة ١٦٧ ـ ١٨٥ id التنقيب الاثـري الهنـدسي والاسهـام في معـرفـة قريـة من العصـر الروماني في افريقيا الشمالية . المدينة الأثرية وتنظيم الفراغ الريفي من حاضرة (id éd. C. N. R. S Paris 1978 p.p 191- 199) ومدينة وقرية حوليات E. S. C ١٩٨٣ ـ ص ٩٢٠ ـ ٩٤٢ .

٥٨ ـ نترك جانبـاً وبكـل تأكيـد موضـوع Jâwa فهي هامشية بالنسبة لحوران وهي قديمة جداً بالنسبة للعصر الشـالكـونيتيكي والـبر ونزي الاوسط . انظر : S. Helms- Jawa lost city of th. Black desert. londres 1981- p.p 135-198.

٥٩ ـ ابن حوقـل، كتـاب ثروات الأرض، ترجمـة Wiet . ص ص ١٨٣ ss. نحن مدينـون لهذه الاحـالة الى السيد H. T. Bianquis المدير القديم L'IFFEA بدمشق .

٦٠ ـ W ١٩٦٣ .

٦١ ـ السيد ريجادي اكتشاف ترقيمين عربيين A. A. S ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ص ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

٦٢ ـ IGR. III ـ ١٢٥٢ (النامر ـ جاسم) IGR. III ـ ١٢٧٨ السـويـداء ـ عثيل ـ ج . دهمان . 2DPV ٣٦ ـ ١٩١٣ ـ ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٤ (خـربـة المطحنـة ، قرب القنيطـرة) OGIS ـ ٢ ، ٧٦٩ (عقربا وقرية مجاورة) R. Mouterde, Jalabert مختلط من الكليـة الشـرقيـة . V. Reyrouth ، ١٩١٠ ص ٢٢٢ (بصـير) م دونـانـد . متحف السويداء ص ص ٧٥ ـ ٧٦ (شقا والجنينة) .

٦٣؟ ـ IGR ـ ٣ ـ ١٢٧٨ .

٦٤ ـ A. Vn Domazewski, R Brünnow الـولايـة العـربيـة ستراسبـورغ ـ ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ ـ انظـر المجلد ٣ صفحة ٣٣٤ .

٦٥ ـ ٦٣٧ .

٦٦ ـ E. Beauzou تحريـات حول طرق حوران للعصـر الـروماني، مذكره مدرسة النسخ، جامعة باريز ١ ـ ١٩٧٨، Passim

٦٧ ـ Darmstadt- Syrien - E Wirlh ١٩٧١ ـ ص ٤١٢ ـ شكل ٥٣ .

٦٨ ـ 1 he économies of Location :K losches

٦٩ ـ G. Mac Leon Harper ادارة القرية في الولاية الرومانية السورية . Yale classical Studies 1- 1928- p.p. 105- 168 إن أغلبية النقوش المدونة متضمناً بالحقيقة الولاية العربية، وقد أعيد دراسة هذه الوثائق مجدداً من قبل (H. I. Headane- Studies. (op. eit n. 11 صفحة ١٠١ ـ sp وتحت شكل مستنتج وموثق جداً عن طريق المادة الحديثة (رقم ١١ (Berytus 31- 1983)

٧٠ ـ هذا هو رأينا وليس رأي (G. Mac Pean Harpor) .

٧١ ـ PPUAES III ـ A- ٧٨٨ ـ A - 11 - eF

٧٢ ـ cit- op- R. Brunnov رقم ٦٤ مجلد ٣ ص ص ١١٦ ـ ١١٧ .

٧٣ ـ n- v ١٤ .

٧٤ ـ W 2505 ef, Ch Clermont Gannont الـدراسـات الهنـدسيـة الأثـريـة في الشـرق . ١١ ص ١٦ باريس ١٨٩٧ ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .

٧٥ - القانون الزراعي yevouospyixos - ٨١ - P. lemerle. ef - مجمل Esquisse للتاريخ الزراعي لبيزنطة (المجلة التاريخية ١٩٥٨ ص ٦٠).

٧٦ - انظر الاطروحة الحديثة لـ H. I. Mc. Adam حول الموضوع Som Aspects of Land tenure and Social develapment in the Roman near East. Arabia, phoenicia and Syria, in J Khalidi ed Lande tonure and Social transformation in the middle East, Beyrouth, 1984, p. p. 50- 55

٧٧ - K. Daghestani دراسة اجتماعية حول عائلة مسلمة معاصرة في سورية، باريس S.d صفحة ١٩٥ - ١٩٦ : J. Weulersre فلاحي سورية والشرق الأوسط ٣ - ٤ ed باريس ١٩٤٦.

٧٨ - PPUAES III. A, J ص ٤٤٤ sq من رقم ٨٠٣ الى رقم ٨٠٣ ٧ ٢٥٢٠ - ٢٥٢٣.

٧٩ - B. de Vries بحث حول ام الجمال - الاردن، ١٩٧٢، ١٩٧٧، عالم الأثار القديمة والكتاب المقدس ٤٢ ١ - ١٩٧٩، ص ٥٠ - ٥١ id مشروع أم الجمال ١٩٧٢ - ١٩٧٧ - BA sor ٢٤٤ - خريف عام ١٩٨١ صفحة ٥٨ - ٥٩.

٨٠ - cit loc - P. Briant رقم ٥٤ ص ١٧٤ رقم ٢٢.

٨١ - J. B Humbert- J. Brient «تل كيسان» ١٩٧١ - ١٩٧٦) باريز ص ٢٩ ، ٤ ، ٥.

٨٢ - P.P UAES III A 803

٨٣ - مثلاً J. t. milik قبيلة «بني عمران» في الاردن في العصر اليوناني والروماني، ADAJ ٢٤، ١٩٨٠ ص ٤١ - ٥٤.

٨٤ - PPUAES II A.P 439

٨٥ - J. P. thiman تل عرقة (لبنان الشمالي) الرحلة ١ - ١١١ (١٩٧٢ - ١٩٧٤) ورشة رقم ١، تقرير أولي، سورية، ١ - ٧ - ١٩٧٨ ص ٢٨ والصورة رقم ٣٧، D prinqle

Thirteenth- century pottery from the Monastry of saint ,

Mary of Carmel، الشرق ١٦ - ١٩٨١ ص ١٠٢ (صورة رقم ٧) رقم ٣٩ مطلي)،

٨٦ - ج. سعادة، استكشاف الآثار في اللاذقية، AAAS ، ٢٦، ١٩٧٦ ص ٣٠ (٢ - PL ١١١) تنقيب شهر تشرين ثاني ١٩٥٨ في القلعة

٨٧ - A. Mazar- A. Kloner- Z.llan -G. Barkay D. Urman كشف الآثار في شمال باشان Preliminnary Report I. E.U 21, 971 PP 176- 179 pl 33- 35. F. Villeneuve (بحوث ص ص ١٥١ - ١٦١ صورة ٢٣ - ٢٤)

٨٨ - A Negev, dans le monde de la Bible. 14 mai- Juin 1981. PP. 20- 22 Encyelopaedia of Archaeologial excavations in the Holy land. Londres 1975- 1978. S. V. Eboda. P. 353. Subaita P. 1119, Kurnub, p. 726- 727. Sur Sbaita Voir. A. Sigal The Byzantine city of Shivta (Esbeita) Negev Desert, Landres 1983.

٨٩ - Gtat, J. P. Sodini (بيوت من العصر الروماني والبيزنطي (القرن الثاني - السادس) من كتلة الهضبة الكلسية لسورية الشمالية. دراسة نموذجية عن أفامية في سورية (موازنة البحوث الهندسية المعمارية ١٩٧٣ - ١٩٧٩ - باريس ١٩٨٤ - صفحة ٣٧٧.

٩٠ - PPUAES. II. A صفحة ٦٦ - ٦٧ ill ٤٤ - ٤٩.

٩١ ـ في البيت رقم ١ في «بريكة» في اللجا، يوجد في المبنى الجنوبي من كل جانب من الغرفة الكبيرة ذات القنطـرة وفي الغـرب، زريبـة عاديـة لها معالف منخفضة، في الشرق اسطبل حقيقي مشترك مع غرفة كبيرة بمداخل كبيرة تشكل مرابط دون معالف (V. F. Villenewe) اسهام الهندسة المعمارية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في قرى حوران (القرون ٤ ـ ٧ بعد الميلاد).

Proceding of the 3rd Bilad esh- Shaim conferenec, Held in Amman 15/21- 10/1983, the University of Jordan S. P. (fig 2) et ıı

بيت من العصر الروماني والبيزنطي في قرية «بريكة» و«وقم» في اللجا ـ بيروت XXXII ١٩٨٤ . S.P. ومثل اخر غير منشور في البيت الأثري الموجود مباشرة شمال ضريح عثمان الضخم (في النقرة).

٩٢ ـ موضـوع المعلف المـوجـود في الـواجهـة، في باحـة البيت الـذي يعود للقرن السادس ب. م في الهيات PPUAES II. A صفحة ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ـ وان مؤلفي PPUAES لم يدونوا هذه التفاصيل.

٩٣ ـ PPUAES 111- A ص ٣٢١ رقم ٦٩٦. (٣٧٢ ب. م) المرجع نفسه رقم ٣٧٧ و W ٢١٦١.

٩٤ ـ Cit. op- S. Helms رقم ٥٨.

٩٥ ـ PPUAES III- A ص ٣٢١ رقم ٦٩٦ (عـرمـان) ص ص ٩٩ ـ ١٠٠ رقم ١٦٩ بمجـدل الشـور (٤٣١ ب. م) ص ٢٠٩. W ٢٠٥٣٢ (ام القطين) PAAES III ٣٧٧ ـ «شقا».

٩٦ ـ بيـــت «الهـــيـــات» PPUAES IIA ص ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ـ PAAES.III ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ W رقـم ٢٢١٠ ـ ٢٢١١ F. Villeneuve بحوث ص ص ١٣٣ ـ ١٣٦ الصورة ١٧ hl ١.

٩٧ ـ بيت Breıkıh (بريكة) رقم ١ ـ خزان بين الغرف J و K انظر رقم ٩١.

٩٨ ـ v.n ٩٦.

٩٩ ـ نفس الشكوك واقعة أيضاً في سورية الشمالية J. P. Sodini G. Tate, loc. cit, n. 89p. 386

١٠٠ ـ F. Villeneuve بحوث ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ الصورة رقم ٤١ . b .

١٠١ ـ المرجع نفسه ص. ص: ١٦١ ـ ١٦٤ الصورة ٢٥ pl ١٤ ـ ١٧.

١٠٢ ـ المرجع نفسه ص. ص: ١٦٤ ـ ١٦٦ الصورة ٢٦ pl ١٨.

١٠٣ ـ المرجع نفسه ص. ص: ٢٥٣ ـ ٢٥٦ الصورة ٥٦ pl ١١ ـ ٦ PPUAES, II, A ٣٦١.

١٠٤ ـ Vilelleueuve بحوث p.p ١٢٣ ـ ١٢٤ الصورة رقم ١٣.

١٠٥ ـ المرجع نفسه ص. ص ١٩٨ ـ ٢٠١ الصورة رقم ٣٩ pl ١١ ـ ٣.

١٠٦ ـ المرجع نفسه ص ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣ الصورة ٥٥ XLEV- XLV pl

١٠٧ ـ المرجع نفسه ص ص ١٦٩ ـ ١٧٣ الصورة ٢٨ pl ٢٠ ـ ٢٢ PPUAES. 11. A ef ص ٣٠٦. و III ٢٧٥ و cit- op- J. Dentzer رقم ١١ ـ ص ٤٠٢ ـ مجلد ٢ ـ ص ٨١.

١٠٨ ـ ف فيلّينيف ابحـاث. . ص ١٤١ ـ ١٤٦ الصـورة ١٩ ـ ٢٠ PL ـ ٣ ـ ٥ ef ج. شومـاشـر، ابحـاث حـول «الجيدور» PEFQS ١٨٩٧ ص ١٩٤ وقد اعتبر المؤلف هذا البيت بمثابة معبد.

١٠٩ ـ غير موجودة بالكتاب

١١٠ ـ غير موجودة بالكتاب

١١١ ـ G. Barkey, Z. ILon, A. Kloner, A. Mazar, D. Urman, loc-cit No 87 صفحة ١٧٤ ـ ١٨١ اقترح المؤلفون ان تاريخ بناء بيوت كفر ناسج يعود للقرن ٢ و٣ ميلادي. غير أن هذا التاريخ، يبدو متقدماً جداً بالمقارنة مع بيوت قرية كفر شمس الشبيهة كثيراً بها والتي تعود الى القرن الرابع (حسب أبحاث V. F. Volleweunce صفحات ١٥٤ ـ ١٦١، الصور ٢٣ ـ ٢٤.

١١٢ ـ PPUAES II A ص ص ٣١٢ ـ ٣١٥. F. Villeneuve ef ابحاث ص ص ١٢٨ ـ ١٣٣ الشكل ١٦.

١١٣ ـ بيت كبير أصلح من قبلنا خلال شهر آذار ١٩٧٨ في الجهة الغربية من القرية الأثرية.

١١٤ ـ cit- loc- Coll, C Barkey رقم ٨٧ ص ١٧٨ الشكل رقم ٦ وص ١٨١

١١٥ ـ cit- op- R. Brunnow رقم ٦٤ مجلد ٣ ـ ص ١١٦ ـ ١١٧

١١٦ ـ W ٢٣٣٠.

١١٧ ـ J. P. Rie- Coquais سورية الرومانية ـ مجلة الدراسة الرومانية ٦٨ لعام ١٩٧٨ ص ٥٣.

١١٨ ـ J. P. Raycoquais نقش كتابي في لبنان الشمالي. وهو مشترك بين جامعة القديس يوسف في بيروت ٤٧ ـ ١٩٧٢ صفحة ٩٤ ـ ١٠٥ JR. S.G W Bowersek ١٩٧٥ صفحة ١٨٣ ضد M. Sartre, J. P. Rey Coquais ثلاث بحوث حول العربية الرومانية والبيزنطية ـ بروكسل ١٩٨٢ صفحة ٥٠ ـ ٥١ يعتبر بأن وضع التاريخ بحسب سني ملك الأباطرة كان معمولاً به وسائداً في الولاية السورية

١١٩ ـ فلافيوس جوزيف حرب اليهود (١ ـ ٢٠ ـ ٤ (= ٣٩٨) الآثار في اليهودية ـ ١٥ ـ ٣٤٣.

١٢٠ ـ الآثار في اليهودية ـ ١٧ ـ ٢٣ ـ ٣١ نفس المرجع.

١٢١ ـ Samaa. PPUAES III A, P. 46 No 28. Jaber: G. lombardi, Nuove iscrezionie di jaber, Liber annuus pp. 312 - 313 No 10.

لايفصل القريتين سوى مسافة ٦ كم (النصان متماثلان) (النصف المتعلق بجابر قد فهم بالخطأ من قبل G. Lomberdi ولكن يبدو الاختلاف في الحجم بين البيتين (حجم بيت جابر ٤٠, ٨م× ٣٢, ٠م)، مقابل (٨٣, ٠م× ٣٣, ٠م) في سما.

١٢٢ ـ جوستنيان (الاعلام ٣٠).

١٢٣ ـ ص ٢٠٧ , Gelzer éd, Georgi Cyprü desereptio orbis Romani

١٢٤ ـ ص ٢٨٩ A, 11, M Jones, Cities of the Eastern Roman provinces

١٢٥ ـ F. Dussand الطبوغرافية التاريخية لسورية القديمة والمتوسطة، باريس ١٩٢٧ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٦

١٢٦ ـ F. Macler, R. Dussand تقرير حول المهمة الوسيطة التي نفذت في المناطق الأثرية الصحراوية لسورية باريس ١٩٠٣ صفحة ٢٣ ـ ٢٤.

١٢٧ ـ . PPUAES III A ص ٣٠٥ رقم ٦٦٦.

١٢٨ ـ (مجلد ١١ ـ ١٩٠٩ ص ٣٦ A, von, Domaszewski, Romisch- Gemamische korr (ss

١٢٩ ـ راجع الحاشية رقم ١٢١.

١٣٠ ـ G. tchalenko القرى الأثرية في سورية الشمالية ١ ـ ١ باريس ١٩٥٣ ص ٣١٢ حاشية رقم ٢٠٦ III ١٩٥٨. ملحق رقم ٢ (H. Seyring) p.p ٦ ـ ١١ الحدود المساحية في جبل سمعان النقوش رقم ٨ ـ ٩.

١٣١ ـ المرجع نفسه الترقيم ٩

١٣٢ ـ (١٩٥٩) ص ١٠٩ ـ ١١٤) Y, Aharoni, three new Boundary stones from the wessem Golan,
Atiqot, Eenglish series 1, 1955, pp. 109- 114, id, two Additional Bwundary stons from the hulé valley
المرجع نفسه ١١ ١٩٥٩ ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٤ Bacon المجلة الاميركية للآثار ١١ ـ ١٩٠٧ ص ٣١٥ ـ ٣٢٠ III
IGR - ١٢٥٢ = OGIS ٦١٢ ـ IGR ١٢٧٨ ـ ZDVPV G. Dalman ٣٦ ـ ١٩١٣ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ .R
Mouterde المتفرقات جامعة القديس يوسف ١٦ ـ ١٩٣٢ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ L. Jalabert المرجع نفسه ١ـ
١٩٠٦ ص ١٥٠ و ١١١ ص ٣١٧ ـ ٣٢٠ OGIS ١١ ـ ٧٦٩ R. Houterote, L. Jalabert في المتفرقات الكلية
الشرقية بيروت ٤ ـ ١٩١٠ ص ٢٢٢ ـ V Seg ـ ١٩٣٤ رقم ١٠٥٥ .
١٣٣ ـ انظر الحاشية رقم ١٣٢ (A. J. A. Bacon) ١١ ـ ١٩٠٧ لاسباب تاريخية وجغرافية واضحة هنا
الموضوع ليس له أي علاقة بمستوطنة بصير Bathyra رغم ما قيل عنها من قبل Y. aharoni في الفقرة الواردة في
الحاشية رقم ١٣٢ .
١٣٤ ـ cit. op- m Sarter رقم ١١٨ الفصل الثالث. الرحل والامبراطورية في العربية ,ed القبائل والافخاذ
في حوران القديمة ـ سورية ٥٩ ـ ١٩٨٢ ص٧٧ ـ ٩١ .
١٣٥ ـ cit- loc- J- T- milik رقم ٥٠ مقدمة عن طريق تحضير الصفويين ومساكنهم مع القرويين.
١٣٦ ـ المرجع نفسه ص ٤٦
١٣٧ ـ المرجع نفسه ص ٤٧
١٣٨ ـ W ٢١١٢ ، ترقيم في «الهيت» تحت حكم اغريبا ٢ ـ W ٢١٩٦ ، ترقيم في «المالكية خلال القرن
الثاني.
١٣٩ ـ راجع الحاشية رقم ١٣٤ .
١٤٠ ـ W٢٢١٢ الهيت ـ W ٢١٩٦ المالكية ـ W ٢٢٠٣ «تريا» .
١٤١ ـ cit- loc- J. T Milik ص ٤٥
١٤٢ ـ cit - loc- J T Milik ص ٤٥ و ٤٦
١٤٣ ـ M. Dunand النقوش الجديدة في جبل الدروز وحوران RB ١٩٣٢ ص ٥٨٠ ، رقم ١٣٦
١٤٤ ـ W٢٣٩٦ .
١٤٥ ـ cit. loc J. I. Milik ص ٥٤ حاشية ٢٣ .
١٤٦ ـ G. L. Harding, F. V. Wimet نقش على خمسين حجر صفائي، تورنتو ١٩٧٨ ، حاشية ٢٨٩ ـ ٢٩٨
و٤٢٣ .
١٤٧ ـ W٢٢٠٣
١٤٨ ـ F. Maclr- R. Dussond رحلة لتاريخ الآثار الى الصفا وجبل الدروز باريس ١٩٠١ ص ١٤٧ رقم ٧
نقوش المالكية منقولة في تريا .
١٤٩ ـ ٧ حاشية ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
١٥٠ ـ cit, op, M. Sarter حاشية ١٤٨ ، فصل ٣ ص ١٤٢ .
١٥١ ـ ٧ رقم ٤٢ .
١٥٢ ـ Aurelios Victor ٢٨ «As Philippus humilissumo ortus Loco fuit patre nobilissimo latronom
Vuctore.»

١٥٣ ـ W ٢٢١٢ ـ W ٢١٩٦ .

١٥٤ ـ Mathieu ٨ـ ٢٨ـ ٣٤ـ Mare ٥ ـ ١ ـ ٢٠ lue ٨، ٢٦، ٢٩ .

١٥٥ ـ Londes, Jowa, S. W. Helmes ١٩٨١ ـ ص ٣٨ ـ ٥٣ دراسة المكتب Kites أو طريقة اجاشة الغزلان في العصر النيولبتيلي .

١٥٦ ـ J. Bauzou بحوث حول طرق حوران في العصر الروماني ـ مذكرة طبع على الألة الكاتبة باريس ١٧ ـ ١٩٧٨ ص ٣٠ .

١٥٧ ـ J. Balty موزاييك سورية ـ بروكسيل ١٩٧٧ صفحات ١٤٨ ـ ١٥١ .

١٥٨ ـ cit, op, M. Sartry ، رقم ١١٨ ص ١٤٤ .

١٥٩ ـ انظر كتاب الاشمندريت المؤرخ خلال أعوام ٥٧ والمنشور من قبل I. lamy استاذ الديانة والمرسل من قبل اباء الدير في الولاية العربية الى جاك باراديه من أعمال المؤتمر العالمي الحادي عشر للمستشرقين باريس ١٨٩٧ الفصل الرابع ص ١١٧ ـ ١٣٧ ـ Greyoire Bor Hebraens اخبار اكليريكية ١ ـ ٢١٨ .

١٦٠ ـ كتاب رؤساء الاديرة، انظر الحاشية السابقة وبصورة خاصة من حاشية رقم ٢٥ إلى رقم ٣٦ التي تحدد الاديرة في حوران كفر شمس ـ عقربا ـ عالقين ـ مجدل شمس ـ نامر on Namer أو تمر ـ جاسم ـ زمرين ـ امتان براق ـ (ومرتان، جاسم) مع عدة ارقام مختلفة مثل ٤٢ (الزبيرة في اللجا ورقم ٥٨ عاهرة في اللجا (ورقم ٦٥ ودير ماكر) (ورقم ٧٠ كفر ناسج) إلخ . . الخريطة المفضلة cit- op- M. Sarters رقم ١١٨ ، خريطة رقم ٥ the Noldekeur lopogiraphie und Geschischte der damoscenischen gebiete und dir Haurangegend zeitschnift der deutschene morgentandischen Gesellschoft 29. pp. 419. 444.

١٦١ ـ A- 11- PPuaes ص ١٠١ ـ ١٠٥، 8 Pl .

١٦٢ ـ رسالة الارشمندريت (انظر رقم ١٥٩) ورقم ٤٢ .

١٦٣ ـ Goorde ٢٤٦٨/ ٤٨١ ـ على خريطة ٥٠٠٠٠/١ سورية في العربي ـ قسم امتان (حيث ان دير الشعير مدونة على بعد ٥ كم للشمال الشرقي وهو موقع تم تنقيبه في ٩/ ١١/ ١٩٧٨ .

١٦٤ ـ Coorde ٢٥٣٨/ ٥٤٤ ـ قسم امتان ـ ارتفاع ١٢٤٥م . ان خريطة امتان تحدد خطأ الموقع (مثل ام الهويني بدلاً من أم العويني (موقع تم تنقيبه في ١١/ ١١/ ١٩٧٨، ويوجد وثيقة مماثلة لاديرة (دير الشعير) و«أم العويني» في صحراء (اليهودية) فلسطين في kh mourassas (القرن الخامس) عالم الكتاب المقدس ٢٨ نيسان ١٩٨٧ صفحة ٥٧ (مخطط) .

١٦٥ ـ Coord ٢٠٧٠/ ٠٦٥٢ خريطة بصري ٥٠٠٠٠/١ اصدار ١/ ٤/ ١٩٨٧

١٦٦ ـ Coord ٢٥٥٥/ ٥٢٣ ٠ خريطة امتان اصدار ٣/ ٤/ ١٩٧٨

١٦٧ ـ مثال: دير الكهف، ولكن ليس هذا الوضع بالنسبة لدير الشعير ولا بالنسبة لأم العويني، ولا بالنسبة لكوم تل حسان، شمال مجدل الشور Coorde ٢٤٨٥/ ٦٠٥ ـ التنقيب في تواريخ ٨ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٩٧٨

١٦٨ ـ ١٨٩٨ ص ١٦ ـ ١٨ طبيعة الأرض حوران في العهد الروماني G. Rindfleisch,

١٦٩ ـ M. E. Delbet مزارعون يعيشون لحماية تعاونية وضمن تعدد الزوجات في بصرى استكشاف في قرى حوران (سورية ـ الامبراطورية العثمانية Play Le. F. M. العمال الأوربيون t ـ ٢ ـ العمال في الشرق وجماعة المتوسط tours ١٨٥٧ صفحة ٣٨١ .

١٧٠ ـ W, d, Hutterath ف، عبد الفتاح ـ جغرافية فلسطين ـ شرق الاردن وجنوب سورية في القرن ١٦ و Erlangen ، ١٩٧٧، خريطة h.t : الانتاج الزراعي، في سورية الجنوبية.

١٧١ ـ جبا في الجولان قرب القنيطرة ـ ومَسَايك في اللجا (قد تكون قرية مَسيكة).

١٧٢ ـ البكري مؤلف كردوان (نهاية القرن الحادي عشر) معجم ما استعجم ١ ـ ٨٣ (ياقوت، بغداد، اوائل القرن الثالث عشر) معجم البلدان ١ ـ ١٧٠ نصوص مراجعة ومترجمة من قبل (A. S. Marmardgi مرمر جي) النصوص الجغرافية العربية حول فلسطين باريس ١٩٥١.

١٧٣ ـ المقدسي (نهاية القرن العاشر) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٦٠ bidī

١٧٤ ـ W, Co. o

١٧٥ ـ F. Macler, R. Dussand تقرير حول بعثة علمية في المناطق الصحراوية السورية الوسطى ـ باريس ١٩٠٣ صفحة ١٦ «خبب» كانت مركزاستخراج كبير لاحجار الطواحين نحو عام ١٩٠١.

١٧٦ ـ J. Deshayes (التاريخ العام للفنيين) ١ ـ باريس ١٩٦٢ صفحة ٢١٢.

١٧٧ ـ Ch. Clermont Ganneau دراسات هندسية تاريخية شرقية ١ ـ باريس ١٨٨٠ ١٤ ص ١٦٥، ١٦٨.

١٧٨ ـ F. M. Heichelheim سورية الرومانية ص ١٤٠ ـ T. Frank, in ـ الزراعة في عهد روما القديمة «بلتيمور»

١٧٩ ـ F. de Sanley صكوكات الأرض المقدسة ـ باريس ١٨٧٤ ص ٣٧٠ و XXI- pl رقم ١٢.

١٨٠ ـ G. F. Hill Catalogue of Greek Coins of Arabia Mesopotania and Persia, Londres 1922, p. 26, No 48 et pl, IV, 12- Cf. J. Starkey petra et la Nabatene, supplemeaire Dictionnaire de la Bibl, VII, 1966- col. 907- 908, fig. 695- 13.

١٨١ ـ انظر الرقم ٤٠

١٨٢ ـ B. Bsgatti- S. | saller مدينة «Nebo» أورشليم ١٩٤٩، كنيسة القديسسين lot و Pl, proicop ١٤ـ ٢ و ١٨ ـ ١ كنيسة القديس جورج pl ٢٣ ـ ٣ و٢٤ ـ ١.

١٨٣ ـ E. Renan بعثة فينيقية / مجلد vol. de planche باريس ١٨٦٤ XLIX pl-

١٨٤ ـ Coorde ٢٣٥٢/ ٨٣٨ ارتفاع القمة ١٥٥٤ خريطة سورية مقياس ٥٠٠٠٠/ ١ خريطة السويداء بالعربي تاريخ التنقيب ٢٣/ ٣/ ١٩٧٨.

١٨٥ ـ Suetone - Dom V ـ ٢.

١٨٦ ـ ٢٤٥٢ ـ -W - PPUAES -III -A رقم ٨٠٠٦.

١٨٧ ـ ابن حوقل loc, cit رقم ٥٩ في القرن التاسع عشر Delbert يثبت بأن فلاحين بصرى كانوا يمارسون ري أراضي البور.

١٨٨ ـ F. Heichelheim n et loc. cit. ١٧٨ ـ ص ١٤٢ Heichelheim يعتبر بان تدفق وجر المياه وكأنها مخصصة للسقي.

١٨٩ ـ G. Rindfleuch -loc -cit رقم ١٦٨ ص ١٦.

١٩٠ ـ المرجع نفسه H. E. Delbet -loc -cit رقم ١٦٩ ص ٣٨١.

١٩١ ـ W. D. Hutteroth ق، عبد القتاح ـ cit, op- رقم ١٧٠ ـ خريطة h-t الانتاج الزراعي في لواء سورية الجنوبي.

١٩٢ـ W ٢١٤٥ ـ a ٢١٧٣ ـ ٢٣٨١ ـ ٢٤٧٤ ـ انظر C. Cretas مسألة الكولومبرين ـ مذكرة على الألة الكاتبة مقدمة الى الاكاديمية، النقوش والفنون الجميلة ـ باريس ١٩٨٤ وخاصة الصفحات ٤٧ ـ ٤٨ .

١٩٣ ـ J. b pritchard - Winery. Defenscs and Sounding at Gibeon فيـلادلـفيـا ١٩٦٤ في حوران قبر de Celesteinos في ريمة اللحف «اللجا»: A. Sartor اخرجته اثرية لسورية الجنوبية سوري LX ١٩٨٧ ـ ص ٩٧ ـ ٩٩ قبر (باسوس Bassos) في شقّا: ibid ـ ص ٩٩ انظر أيضاً E. Will سورية ٢٦ ـ ١٩٤٩ صفحة ٢٦٨ .

١٩٤ ـ cf. M. Nowicha البيت الخاص في مصر البطليموسية Wroclaw ptolémaique ١٩٦٩ ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

١٩٥ ـ A. Deleage المساحات الأثرية حتى ديوكليسيان في دراسات مخطظات البردي II Pâpyologie القاهرة ١٩٣٤ ـ pp ١٤٧ ـ ٢٠٧ مسح قطع الأراضي A. W. Dilke o, Avn .

(Thé Roman lands Surveyors, An introduction to the Agrimensres, Newton Abbot 1971 ch, 6, G. chouqurs- M. Claval- Léveque. F. Favory- Gudastres) استخدام الأراضي والريف الزراعي القديم . Annale ESC 1982 وخاصة ص ص ٨٥٣ ـ ٨٥٦ ج F. Fovoy التنقيب عن أسلوب مسح الأراضي الريفيـة قديـماً، In Cadastre et espace rural الطـاولـة المستديرة في بزانسون / شهر أيار ١٩٨٠ باريس ١٩٨٣ صفحات ١١٣ ـ ١٢٩ .

١٩٦ ـ cit- op- T Bauzou رقم ١٥٦ ص ٨٣ و PPUAES ZA- III ٦٢٢

١٩٧ ـ Hugmus in lachmann Gramatici vetere 306, 9, 207

١٩٨ ـ A, H, Sorter حوران البيـزنطيـة على ضوء الفتـح الاسـلامي ـ المؤتمر الرابع الدولي حول تاريخ بلاد الشام ـ عمان ـ آذار ١٩٨٥ ـ غير مذكور

١٩٩ ـ رقم ٢٣

٢٠٠ ـ W. Huteroth ف . عبد القناح cit, op, رقم ١٧٠ صفحة ٥٧ صورة ٧ ـ التبدلات الطارئة على ثقافة المستعمرات بين ١٥٩٦/٩٧ وبين ١٨٨٠ ـ D.A.

هوامش المترجم

*٩ ـ ونحن يمكن أن نضيف لعـامـل المنـاخ وتعـاقب الجفـاف بين فترة وأخـرى عامـلاً آخـر يتعلق بعـدم الاستقـرار الـذي عانت منـه المنطقـة في فترات متعـددة أدت الى تدهـورهـا، ثم عادت واستأنفت نشـاطها وازدهارها كما هي الحال الآن.

*١٠ ـ يستخـدم العـامـة في محافظتي درعـا والسـويـداء، كلمـة «رُجم» للتعبيـر عن كومة الحجارة الصغيرة المـوجـودة في الحقـول، وجمعهـا «رجـوم». أما إذا كانت الكومة ضخمة فيقال عليها «رسْم» ومجموعها على رسـوم. أمـا الفـواصل والجدران المنخفضة التي تفصل الحقول عن بعضها فتسمى «حداً» أو سِنْسال وأحياناً «حَبَلة» وهي مبنية من الحجارة الطبيعية المتوفرة في الحقول.

*١١ ـ شجـرة البلوط معـروفـة جداً في حوران وخاصة في مناطق المرتفعات الجبلية والهضاب، وتكثر بقايا احـراج البلوط في اللجـاه، حيث تستخـدم كحطب في الشتـاء، ويصنـع من جذورها الضخمة أجود أنواع الهاونات لطحن القهوة المرة في سورية الجنوبية، ويسميها سكان حوران والجبل «جرن القهوة».

*١٢ ـ يستدل من هذه الآثار أن منطقة حوران كانت مزدهرة قبل وصول الرومان اليها في نهاية القرن الأول الميلادي مما يتعارض مع التأكيد في بداية البحث على انها لم تتطور إلا في العهد الروماني.

*١٣ ـ وهـذه المغـر ليست موجـودة إلا في اللجاه، أما بقية الجبل وسهول حوران فكانت منحصرة ومزدهرة زراعياً كما تؤكد جميع الوثائق وكانت مدنها الستة وقراها مشهورة بهندستها المعمارية الخاصة.

*١٤ ـ ويطلق على الحقول الصغيرة المحاطة بجدران عالية اسم الحواكير، ومفردها «حاكورة».

*١٥ ـ لم هذه الصعوبة؟ فجميع مستودعات العلف والتبن في حوران وجبل العرب لا تفتح فيها أي نوافذ في الجـدران، اللهم إلا فتحـة واحـدة في السطـح، لتخـزين العلف من الأعلى وتسمى محلياً «روزنـة» أما المستودع فيسمى «تبان»

*١٦ ـ Les Cyclades : السيكلاد، مجموعة جزر يونانية في بحر ايجة، وقد سميت بهذا الاسم لانها تشكل ما يشبه الدائرة حول جزيرة دبلوس.

*١٧ ـ إن من سبق له أن زار المنـازل القـديمـة في حوران والجبـل يلاحظ وجود موقد في احدى زوايا الغرفة الـرئيسيـة أو في وسطهـا، فالأول له مدخنـة ترتفع الى السطح، والثاني لا مدخنة له، وتسخن على كل منهما الأطعمة وبشكل خاص تستخدم للتدفئة وتسخين القهوة المرة.

*١٨ ـ إن هذا الاسلوب من التفسير المغرض الخاطىء لا يستغرب عن العلماء الصهاينة الذين لايتورعون عن تشـويـه الحقـائق والتاريخ للاساءة لسكان المنطقة الأصليين.. وإلا ما الذي يعرفه هؤلاء أو غيرهم عن مسألـة الحـريم في عهـد الاغـريق والانباط أو الرومان. وكيف تجرأ هؤلاء على التزوير الى هذا الحد الذي يسخر بعقول الناس.

*١٩ ـ والسؤال ماذا كان دور البدو الرحل او غيرهم من سكان المنطقة الجبلية الوعرة؟

والجـواب هو ان هذه المنـاطق المنفتحـة على الجزيرة العربية كانت موطناً وممراً للقبائل العربية القادمة من اليمن وشبه الجزيرة العربية. وقد وصلت الى درجة من الحضارة في أواخر العصر الهيليني وانشأوا مملكة

قوية هاجمتها البتراء وبصرى وتعرف باسم المملكة النبطية، وكانت تقاوم توسع روما وبيزنطة باتجاه الجنوب وكثيراً ما كانت السلطات الرومانية والبيزنطية تنظم الحملات لاخضاعهم. ولكنهم كانوا يقاومون بشراسة وعنف مستفيدين من مناعة جبل حوران ووعورة «اللجاه». . وعلى عادة المستعمرين الاجانب كانوا يطلقون عليهم القاب «اللصوص، وقطاع الطرق»، والحقيقة أنهم كانوا يناضلون ضد الاحتلال الاجنبي، ولن نستغرب بأن يصل الأمر الى حد وصف والد الامبراطور فيليب العربي بأنه قاطع طريق، مع العلم بأنه من زعماء المنطقة، ولو أنه كذلك لما أتيح لابنه لأن يكون ضابطاً في الجيش الروماني ويتدرج بالمناصب حتى يصبح امبراطوراً بفضل عبقرية الادارة العسكرية، وأخيراً نحن نذكر بأن جميع المناضلين الذين ثاروا عن الفرنسيين في جبل العرب وجبال سورية، كان الفرنسيون يطلقون عليهم اسم «قطاع الطرق» واليوم يف الصهاينة المناضلين الفلسطينيين بالارهابيين. وقطاع الطرق وغير ذلك من الأوصاف. . ولكن ذلك لم ولن يغير الحقيقة التاريخية الموضوعية.

*٢٠ ـ هذه الملاحظة سطحية وعاجلة لأن كروم عنب بصرى كانت مشهورة في حوران، وقد استعادت شهرتها في السنوات العشر الماضية. وأصبحت لها شهرتها.

*٢١ ـ من الثابت أن الصخور الكلسية موجودة في الوادي الذي يجاور مدينة درعا التي اشتهرت بانتاج الكرمة. . والانواع الفاخرة من النبيذ، كما تؤكد جميع الوثائق التاريخية، واستغرب كيف يغيب ذلك عن بال المؤلف، فيدعي الا علاقة للنقوش المذكورة بحوران.

*٢٢ ـ لم يعد هذا الرأي مطابقاً للواقع في محافظتي حوران ولا السويداء، فحيثما تحول المرء في انحاء هاتين المحافظتين يلاحظ انتشار الاشجار المثمرة وكروم الزيتون والعنب التي تروى من المياه الارتوازية ولم تعد تقتصر السقاية على مواقع محددة.

*٢٣ ـ Juqera مقياس مساحي للأرض يعادل فدان، وحسب معجم لوتس اللاتيني.

*٢٤ ـ يمكن الملاحظة من هذا النص أن حوران كانت مزدهرة منذ القرن الأخير قبل الميلاد أي في عهد المملكة النبطية. وهذا يتناقض مع الادعاء بأن المنطقة لم تزدهر الا بعد ضمها الولاية الرومانية كما ورد في أمكنة أخرى من هذا البحث.

*٢٥ ـ من المرجح أن الفقرة التي شملت سقوط الخلافة الأموية كانت مضطربة في حوران لمدة طويلة بسبب تأييد الغساسنة للأمويين مما أدى الى تدهور الوضع الاقتصادي فيها.

طرق المواصلات في حوران في العصر الروماني

تعتبر بقايا الطرق الرومانية التي حافظت، أحياناً، على آثار تجهيزاتها (وبصورة رئيسية : الأبراج ـ القلاع ـ نصب مقاييس الأميال) جزءاً من أشهر الأثارات القديمة في حوران. وقد سهل دراستها من خلال بعض الخرائط ذات المقياس ١/٥٠٠٠٠، التي حملت عليها بعض تلك الطرق التي حافظت على قسم كبير من حالها. ومن خلال بعض المجموعات المتفرقة من الصور الجوية القديمة، التي تتيح في بعض الحالات تمييز آثار الطرق[1]. ان استكشاف الأرض نفسها، مكن من اعادة اظهار الطرق الاضافية، وبنتيجة ذلك، أمكن اصدار خريطة واضحة عن شبكة طرق المواصلات الرومانية في حوران، وبالتأكيد في مربع يتوافق مع النصف الجنوبي من خريطة دمشق الحالية مقياس ١/٢٠٠٠٠٠، ومع كامل خريطة السويداء (نفس المقياس) فالمنطقة المدروسة إذن، تمتد من خط عرض دمشق، الى خط عرض عمان، «يحدها من الشرق السهوب الأولى لبادية سورية، ومن الغرب، الطرف الشرقي من هضبة الجولان. كانت هذه الأرض في القرون الأولى، التي سبقت عصرنا هذا، بمثابة الجنوب الأقصى للولاية السورية، وشمال الولاية العربية (التي خلفت المملكة النبطية) بما فيها عاصمتها «بصرى»[2].

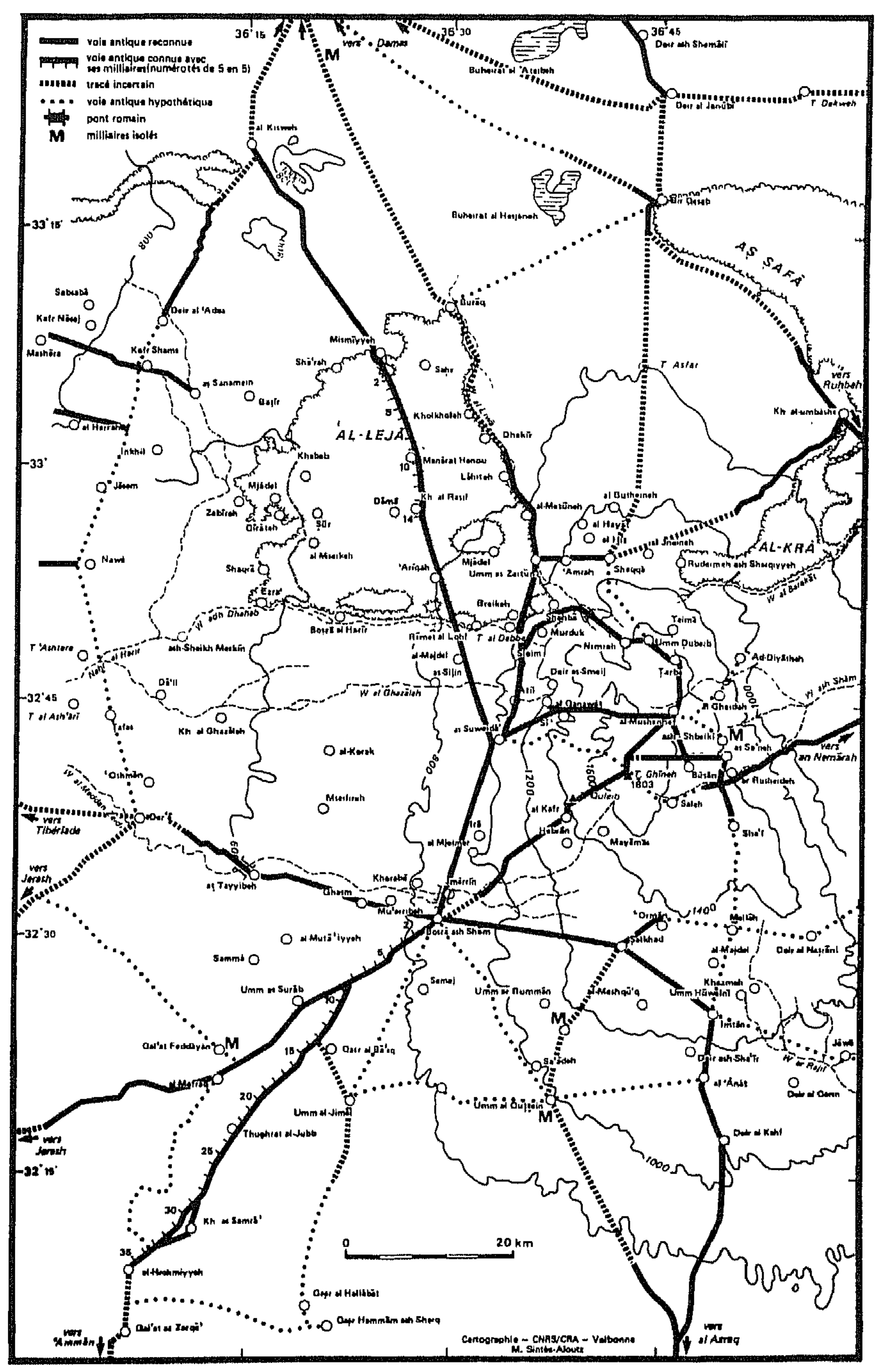


Fig. I. — Carte schématique des voies de la Syrie du sud (cartographie CRA, M[me] Sintès-Aïoutz).

الشكل رقم ١ ـ الخريطة البيانية لطرق سورية الجنوبية (خرائطية C.R.A مدام Sintès - Aïoutz

بالتأكيد، إن شبكة الطرق الرومانية التي احتواها مخططنا، هي أبعد من أن تمثل مجمل طرق المواصلات القديمة في حوران، التي لم تكن تشمل أية شواطىء ولا أية طرق بحرية من أي نوع. والنقل لم يكن مؤمناً إلا بواسطة الطرق، وهذا واضح، لأن جميع القرى كانت مرتبطة مع بعضها بواسطة الطرق البرية التي بقي أغلبها لروقاً وقيد الخدمة، فيما عدا بعض التغييرات، مردها ظهور السيارة ولو فرض جدلاً أن هذه الشبكة كانت موجودة قبل العصر الروماني، فهذا على كل حال، يمكن تعريفه بالمصلحة المحلية.

هناك تمايز واضح بين شبكة الطرق الرومانية، وبين مجمل الطرق القديمة في حوران، فالطرق الرومانية مرصوفة بالحجارة، ولم تستخدمها المواصلات المعاصرة كطرق أساسية، الأمر الذي حافظ عل حالتها في كثير من الأحيان. ليس في هذه الظاهرة مايدعو للدهشة أبداً. لأن متطلبات الطرق المحلية يمكن لها أن تدوم، باستمرار التجمعات السكنية التي كانت تستخدمها، وهذا هو الحال اليوم. وما يمكن أن نصادفه ضمن حدود هذا البحث، ليس سوى نظرة مجملة، عن هذه الشبكة الرومانية للطرق.

١ ـ طرق المواصلات

١ ـ ١ الطريق من دمشق إلى نوى ثم إلى درعا:

(بالنسبة لطرقات السير التالية، لم يكتشف أي طريق عسكري، وليس لدينا أية صور جوية نعود إليها).

إن الطريق الذاهب من دمشق إلى نوى، عبر الجزء العربي من «النقرة»[*١]، كان يمر بعنق الكسوة، التي هي نقطة مرور الزامية بالنسبة إلى من يتجه من دمشق نحو الجنوب الغربي، تتمثل هذه الطريق، بين الكسوة وديـر العدس، بآثار للطرق المعبدة أو المرصوفة بالحجارة عبر تدفقات حمية بازلتية أقل وعورة من تدفقات حمم اللجا. بلاشك، ان هذه الطرق المعبدة حافظت على وضعها، لأن الأرض غير قابلة للزراعة، ومن تتبع آثار هذه الطريق، يبدو أن تخطيطه حاد عن «الصنمين»، واتجه بشكل مستقيم باتجاه مدينة نوى الأثرية المهمة، ومن الممكن استكمال هذه الطريق، بواسطة الطرق الحالية، التي يعتبر تخطيطها واتجاهاتها، كاستطالة واضحة لتلك الآثار القديمة[٢] ويشبه هذه الطريق مجمل الطرق التي أشار إليها مخطط سير انطونين (١٩٦ ـ ١٩٧) (دمشق Damascus) ـ (الصنمين Aere m. p XXXII) (نوى Neue m. p. XXX (بيت رأس Capitoliada m. p XXXIV (أم قيس Cadara XVI m.p (بيسان Seytopoli XVI m. p الخ..[٣] وكان هذا الطريق يتقاطع، غرب الصنمين، مع طريق آخر. كان متجهاً نحو طبريا ـ وأيضاً كان يتصالب في الجنوب مع طريق ثالث موازٍ

للسابق، لا تزال بعض الآثار من هذه الطرق على هضبة الجولان في جوار قنيطرة والبطيحة.
ان تصور وجود طريق روماني، يربط نوى بدرعا، ليس سوى مجرد تخمين يستند على أهمية درعا في القديم، وعلى الفائدة لمثل هذا الطريق، الذي بانطلاقه من دمشق يؤمن الوصول الى عمان[٣٥]، متجنباً المرور بأطراف اللجا. وفي يومنا هذا، يعرف بأن هذا الطريق هو احدى أهم الطرق في المنطقة لأنه يتوافق مع طريق الحج، منذ القرن الثامن عشر[٤]، ومن المحتمل كان في القديم مهماً أيضاً.

١ ـ ٢ من دمشق إلى بصرى ـ عن طريق السويداء:

يميز هنا طريقان رومانيان يربطان دمشق ـ بالسويداء وآخر يربط السويداء ببصرى:

١ ـ ٢ ـ ١ طريق اللجا (اللوحتان IIb , Ib).

في الكسوة يوجد تفرع لطريق دمشق ـ نوى (انظر P.000) يسير باتجاه الجنوب الشرقي نحو المسمية، التي كانت تدعى قديماً (phaena). حيث كان يتمركز بالتأكيد، في القرن الثاني الميلادي مفارز من الفوج الثالث Gallica. والسادس عشر (IGRRP. III1443-á- 1121). Flavia Firma وبعد المسمية كان الطريق يتابع الاتجاه الجنوبي الشرقي، عبر قسم من الأراضي الوعرة. والصعبة المسالك في اللجا، ولا يزال محافظاً على حالته، وفي أغلب مظاهره وطبيعته يشبه طريق La via nova لتراجان في جنوب بصرى. مع نفس الأبراج المترابطة فيما بينها لايصال الاشارات الضوئية، على أبعاد نظامية (اللوحتان IIa- IIIa) ونفس مجموعات المقاييس الألفية، وهي تذكر بالاصلاحات التي اجريت تحت حكم (سيبتم سيفير Septime Sevére)، وديوكليسيان[٥] وهذه الطريق لا تلامس أي موقع سكني قديم إلا (خربة الرصيف) التي تبدو متأخرة بالسكنى (القرن الخامس؟) وثم يمر شرق «عريقة». وفيما بعد يجتاز اللجا، ويصل للضواحي الغربية للسويداء. ومن خربة الرصيف إلى السويداء، يرى بشكل مستقيم جداً آثار هذا الطريق.

١ ـ ٢ ـ ٢ طريق وادي اللواء:

تسير هذه الطريق من جنوب ـ دمشق (انطلاقاً من بوابة القديس بولس لتصل الى براق قديماً (Costantia) وكل ما تبقى من آثار هذه المسافة، هو مقياس ألفي، أشير إليه سابقاً في «نجها» الواقعة على نهر الأعوج (CLI- III- 197 du IV seècle) ومن جنوب «براق» حتى السويداء تبدو الطريق صالحة، ويمكن بواسطة الصور الجوية تتبع آثاره مع طول الحمم البازلتية للجا، مسايراً لمجرى وادي اللواء، اعتباراً من أم الزيتون، يتوغل الطريق داخل الحمم البازلتية ويجتاز الزاوية الجنوبية ـ الشرقية للجا، وبهذا يكون مساره مستقيماً،

متجهاً نحو قاعدة تل الدية، وعند أسفل هذه الأخيرة ينعطف قليلاً ليتجه نحو قرية سليم، ومن هنا يختفي التبليط الحَجري الروماني تحت زفت الطريق الحالي وجميع الاحتمالات تتجه بأن الطريق الحالي المزفت يتوضع على الطريق الروماني حتى السويداء.

١ - ٢ - ٣ من السويداء إلى بصرى:

اختفى الطريق نفسه بسبب دمار حجارته المرصوفة، ولكن لا تزال آثارها منظورة وهي مكونة اليوم من تتالي طرقات ثانوية ترابية، ومن حدود حقلية، فالطريق يسير من غرب السويداء، ويبدو وكأنه امتداد لطريق اللجا. ومساره على العموم، مستقيم تقريباً، باتجاه بصرى مع الخطأ ببعض الدرجات فقط. وبالفعل حينما يصل الى أول نقطة مرتفعة تطل على بصرى، يصحح مساره مقدار ٤ درجات، ليواجه تماماً النقطة المرتفعة الأخرى، التي أشيد عليها مسرح بصرى. أما قبل وصوله لبصرى، فإنه يجتاز وادي الزيدي عبر جسر حجري في قرية جمّرين (اللوحة IVa) [٦] حيث كان يرتفع على نظام من القناطر الصغيرة (راجع P000).

١ - ٢ - ٤ حسب لوحة Peutinger الاتصال بين دمشق وبصرى:

اعتبر جميع المؤرخين، حتى تاريخ حديث، أن طريق السير، حسب لوحة Peutinger طريق دمشق - براق - قنوات (Damascus XXIII- Aenos XXXVII Ghanata) التي تمثل طريق اللجا[٧]. فـ Ghanata التي هي قنوات. و Aenos التي هي تحريف لكلمة Phaena ومع ذلك، فالمسافات ليست مطابقة. لأن المسافة أكثر من ٢٤ ميلاً بين دمشق - والمسمية (خط مستقيم) فالدكتور د. كنيدي[٨] يرى في Aenos, أنها موقع براق، وهو يتخيل أنه كان هناك طريق روماني يمر بشهبا، يصل قنوات من الشمال.

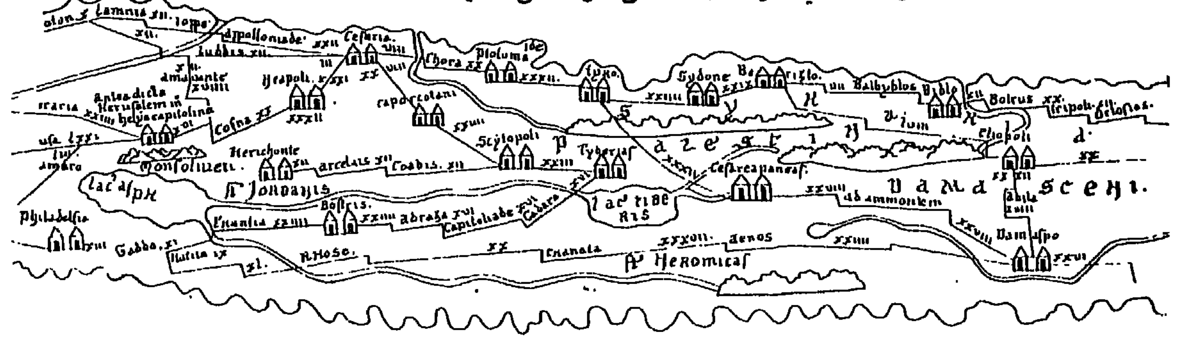


Fig. 2. L'itinéraire du Hauran d'après la Table de Peutinger (détail du segment IX).

الشكل رقم ٢ - طريق حوران حسب لوحة Peutinger (تفصل القسم ٩)

أما مطابقة Aenos ببراق، مقبولة، ولا يمكن ارجاع تاريخ الاسم القديم لبراق المعروف بـ (Coustatia) إلا للسنين الأخيرة من القرن الثالث، وعلى وجه الاحتمال القرن الرابع الميلادي، و Aenos أي براق، يمكن أن تكون اسم مكان، من أصل سامي، قريب من الكلمة الآرامية Ena التي تعني «النبع» وعلى كل الأحوال فالمسافة بين دمشق وبراق - تزيد عن ٢٤ ميلاً. والمواقع الحالية: «بلي» و«بويضان» الواقعتين في شمال وغرب هذه القرية «براق» تتطابق والمسافة الواردة في لوحة Peutinger ، ولكنهما غير واقعتين على الرسم المفترض للطريق(٣٠) الذي ستقتفي معالمه الطريق الحالية، في معظم أقسامها. كما أنه لم يشر الى أية آثار طريق قديم آخر.

ويمكن تصحيح المسافة xxiiii الواردة في اللوحة المذكورة اعلاه مع ملاحظة أن الرقم xxiiii في الأحرف الصغيرة الِفوطية للقرن الثالث عشر. قريب جداً من الرقم xxuii . لذلك فإن مسافة ٢٧ ميلاً تطابق تماماً المسافة الفعلية بين دمشق وبراق. واذا صح هذا التعديل، فإن Aenos ، يمكن أن تكون الاسم الآرامي القديم «لبراق».

وما تبقى من الطريق يوصل الى قنوات Chanata على مسافة xxxuii (٣٧ ميلاً) من Aenos (براق) وما أمكن قياسه على خرائط مقياس ٢٠٠ ٠٠٠ / ١ ، فإن مسافة الـ ٣٧ ميلاً تتوافق مع مسافة الطريق الروماني، «براق - عتيل» بالاضافة الى الطريق الذي يتجه مباشرة من «عتيل إلى قنوات». لا يبدو هذا الطريق ان كان طريقاً رومانياً سالكاً، ولكن لا يشك في احتمال وجوده، في ذلك العصر، نظراً لطبيعة أقسومة الأرض في ذلك القطاع، ومن جهة أخرى، يمثل هذا الطريق، أقصر مسافة بين دمشق وقنوات.

وبعد (Chanata قنوات)، هناك على مسافة ٢٠ ميلاً (موقع Rhose روز. وهذا الاسم لايتفق مع أي موقع معروف في المنطقة، وهو على بعد ٤٠ ميلاً من Hatita أو Gadda (الرسم، في لوحة Peutinger) ، غامض. وإذا اعتبرنا بأن Rhose هي على بعد ٤٠ ميلاً من Hatita (خربة السمرة) فيجب البحث عنها. بجوار صلخد. هذه هي فرضية D.I-Kennedy (٩) التي افضل عدم الاخذ بها لسببين: ان الموقع الذي يعتقد بوجوده لا يتفق مع خراب قديم له بعض الأهمية. كما لايوجد أي طريق روماني يربطه مباشرة بقنوات من جهة، و«بسمرة» من جهة أخرى، وبالفعل يمكن أن نعتبر بأن الأرقام في لوحة Peutinger قد شُوِهَّتْ، ولكن هناك فرضية أخرى.

اذا اعتبرنا أن Rhose مرتبطة بـ Gadda نتأكد أن موقعها ليس إلا في «بصرى» بالذات. ان المسافة بين قنوات وبصرى هي بالفعل ٢٠ ميلاً فقط. إذا تم المرور أولاً بطريق قنوات - عتيل المار ذكره اعلاه، واذا اتبعنا بعدئذ الطريق الروماني الذي يصل مباشرة الى «بصرى» عبر «السويداء». أما بخصوص موقع Gadda (انظر الفقرة ١ - ٤). فإنه يقع في

«الحديد» على طريق (via nova) بين الكيلومتر ٤٠° ـ ٤١° اعتباراً من مدينة بصرى. بهذا تكون بصرى والـ via nova قد تمثلت مرتين على لوحة Peutinger.

ان اسم Rhose غير مؤكد في حوران، وكونه يبتدى بحرف Rh. فهو مشتق بالتأكيد من أصل يوناني الذي كان يشير إلى pwon, كان يعرف بسورية جنوب اسكندرونة، بالثغر القديم «روسوس» Plutarque Demetr 32. pomp- Mela Chorge 1. 12. 12. وهذا الاسم قد يكون مشتقاً من اللفظة الأرامية Resa أو من العربية راس أورووس التي تعني الرأس أو الثغر. ويشار أيضاً إلى أنه في الاسماء القديمة لحوران كلمة Caput اللاتينية غالباً ما عاشت حتى يومنا هذا تحت لفظة Ras. فإن مدينة Capitolias تدعى اليوم Beyt. ras و Caput viae واقعة على حافة طريق اللجا عند مخرج مدينة المسمية في مكان يدعى اليوم «أم راس» (m. Dunaud, cit , 5 p. 530) غير أنه اعتباراً من عام ١٨١ فإن الـ Caput viae من طريق «تراجان» أي على الأقل الشطر الشمالي منه، كان موجوداً في Bostra فهذه الصيغة الغنية الرومانية المترجمة من الآرامية، قد تكون أساساً لمعنى مألوف لبصرى Bostra مثل Pwon كل ذلك ليس سوى افتراض، ولكن التعرف على Rhose في كلمة Bostra له على الأقل الفضل في توافق الطرق الواردة في قائمة Peutinger مع الطرق الرومانية المعروفة.

١ ـ ٣ ـ من دمشق الى شقا:

أشار الأب P.Poidebard (١٠) في خريطته شمال قصر تل الأصفر إلى طريق يمكن مشاهدته من الطائرة، يتجه تماماً الى الشمال. وبالاستناد الى تلك الآثار تتوصل الى افتراض بوجود طريق روماني تربط دمشق. بشقا مروراً ببئر كساب الموجود بشمال الصفا. ومع ذلك فإن الصور الجوية لم تساعد على تحديد أي طريق روماني طبيعي بين شقا وتل أصفر.

١ ـ ٤ من بصرى إلى عمان:

ان الطريق الروماني الذي كان يربط بصرى (بفيلادلفيا عمان) هو من أفضل الطرق المعروفة في المنطقة خاصة، وقد أشير إليه في لائحة Peutinger وأيضاً لكونه لا يزال محتفظاً بأكبر قسم منه بالترقيم الألفي. ويمكن ملاحظة آثاره على الأرض على مسافة العشرات من الكيلومترات شمال الاردن. ومظهره كناية عن طريق معبد بالحجارة، يحتوي على خصائص طريق اللجا (الذي يمكن مشاهدته شمال المسمية مثلاً)، حتى ولو كان قسم من تعبيده. وجميع الترقيمات الألفية منه مبنية من الحجر الكلسي.

تمثل لوحة Peutinger الطرق التالية:

(عمان philadelfia) -XIII- (تل الحديد، أوخربة الحديد) (Gadda) -XI- (خربة السمرة)

IX- (Hatita) (ثفرة الجب thantia) XX XXIIII (بصـرى Bostris) فإذا كانت عمان وبصـرى هما منـذ زمن بعيـد، موصـوفتـان ومعـرفتـان بتأكيـد مطلق، فليس الأمر بالمثل بالنسبة للمواقع الأخرى. فقد ذكرت تفسيرات عديدة حول ذلك.

وهـذا الطريق لايتفق إلا مع الشطر الشمالي للطريق الرئيسي الذي كان يربط بصرى مع البحر الأحمر. ويبدو، تبعاً لملاحظات Butler بأنه لم يكن يمر بصورة منتظمة بعمان(١١) بل من شمال عمان، ماراً بالـرصيفـة ـ الـزرقـاء ـ الهـاشميـة ـ خربة السمرة. ثفرات الجب ثم على مسافة قليلة غرب البعيج (قصر البعيق كتسمية أخرى)، ليصل الى البوابة الغربية لبصرى، دخـول خربـة السمـرة، كان يتضـاعف ليمـر من كل جانب من القلعـة الـرومـانية، التي كانت تربض فوق هذا الموقع.

مع العلم، أنـه بمـوجب لوحـة Peutinger ، فإن المـواقع القديمة الأثرية كانت مثبتة بواسطة مؤشر مسافات يمكن قراءتها حسب الترقيمات الألفية.

قد تكـون (thantia) هي ثفرة الجب، لم تظهـر هنـاك آثـار صروح، بل كتـل صخرية قديمـــة ومبعثـرة، عملة نبطيـة ـ شقف أو أجـزاء خزفيـة نبطيـة مختـومـة tondo رومـاني أو بيزنطـي، وأيـضاً عدد كبير من خزانات المياه القديمة (البرك) الـ (la Nolitia Dignitatum) (or- XXXVII, 29) تشـير إلى أنـه في القـرن الخـامس الميـلادي، كانت تعسكـر الفرقة الأولى الفالنتينية Alà Prima valentiniane) ويمكن اليوم، مشاهدة العديد من الترقيمات الألفية في هذه القرية وهي تعود إلى الطريق الروماني وتحمل رقم ٢٣ ألف انطلاقاً من بصرى.

HATITA وهي خربـة السمـراء (في الاردن) وقـد أجـرى التنقيب فيها وخاصة القلعة الرومانية السيدان (A. Deusreumeaux, J. B. Humler) وتقـع على مسار الطريق الروماني. وعلى مستـوى الـترقيم (الألف ٣١) ولكن لم يعثر على راقم الألف (الصورة: حجر ينصب على مسافة خطوات معينة على الطريق الروماني). وجد فقط نقش على صخرة على بعد ٣ كم جنوب ـ غرب هذا الموقع. سينشر محتواه فيما بعد كإثبات لهذا التعريف ان اسم Hatita قريب من الكلمة العربية Haditha التي تعني المدينة الجديدة.

إن سجـل الغيـلاء (Notitia Digntatum) تدل على تعسكـر فرقـة فيليكس الثانية Ala (Şecunda Felix الـخ، في الـقـرن الخـامس المـيـلادي (or XXXVII .30- 31 CADDA تشابه تقريباً الحديد al. Hadid الذي هو معسكر روماني شوهد ونُقّب من قبل (Brunmow et Domaszewske) في أوائـل هذا القـرن (Pros- Ar II p.p. ٢٢٣ ـ ٢٢٢) إن المـوقـع الكـائن جنـوب الـزرقـاء اختفى كليـاً في يومنا هذا تحت الأبنية الحديثة. وقد يكون موقعه على نقطة الألف ٤٠ ـ ٤١ على الطـريق الـرومـاني وأيضاً في سجل النبلاء (motitia) ورد ذكر الخيالة الرماة العمليون (Equites Sagittarü Indigenae (or XXXIII 20).

ظهر حديثاً اقتراح يقضي بالكشف عن تلك المواقع، سيما وأنها درست بشكل مستقل بوسـائـل السـادة (K. L. Kennedi- A. Dosreumeaux J.B. Humbert) [١٢] وقـد اقـترح كينـدي مطابقاً ارقام لوحة Peutinger على الأرض، مفترضاً بأن المسافة بين ترقيمي الألف على هذا الطريق ليست مطابقة لترقيم الألف الروماني الذي هو ٥ , ١٤٨١ متراً ولكنها وحدة بطول ٨ غلوة التي تقدر بأكثر من ١٦٠٠ م. وهذه ليست بمشكلة، لأنه قد تم استخدام مقياس دقيق جداً لعـدة أميـال على هذا الطـريق، فتبـين بأن الـوحـدة القيـاسية المستعملة انذاك كانت تتراوح بين ١٤٨٠ و١٥٠٠ متراً. لهذا يمكن البت الآن بأن هناك خطأ في لوحة Peutinger.

في كل ميل وُجد سلسلة من الترقيمات الألفية، قد تصل الى عشرة أحجار علام وفي كل مئة متر من هذه الترقيمات الألفية يلاحظ، حسب الخراب القائم، وجود أبراج صغيرة مربعـة الضلع من ٦ إلى ٨ أمتـار، ومكـونـة من جدران مزدوجة الجانب، مبنية من الأحجار الكبـيرة/ الـركائز/ البازلتية ليست دقيقة الصقل، فقد تكون مواقف لتبديل المناوبة/ مزودة باشـارات ضوئيـة أو بصـريـة مشـابهـة للاشـارات المشـاهدة على طريق اللجا. ان كتابات الـترقيـمات الألفيـة هذه تشبه مدى الاعتناء الجماعي، وحسن التنظيم الذي كان سائداً منذ انشاء الطريق عام ١١٤ حتى أوائل القرن الرابع.

١ ـ ٥ الطريق من أمتان إلى جهة الجنوب:

ان قسـماً من طريق «امتـان» باتجـاه الأزرق ومن ثم باتجـاه «وادي راجيل» كان قد نظر إليه من قبل المسافرين، على أنه أقسومة من الصحراء، نظمت لصالح السير بواسطة رصف الحجارة[١٣] ومن الممكن وجود عقدة مواصلات في أم القطين، جنوب صلخد. فقد عثر على ترقيمات ألفية في خراب هذه المدينة، وأيضاً بينها وبين صلخد[١٤] وقد أفاد كل من F.Macler R. Dussaud بأنه كان يوجد تفرع من طريق امتان ـ الأزرق يتجه الى «ام القطين»[١٥].

١ ـ ٦ الطريق من بصرى نحو الشرق ونحو الغرب:

ان الطـريق بين بصـرى وصلخـد مستقيم، ويحمل آثاراً في وسط مساره الذي لا يزال غير مغطىً بالطـريق الحـالي. ومن صلخـد كان ينطلق طريقـان، الـواحـد باتجـاه «امتـان» (المـذكـورة اعـلاه) والشـاني باتجـاه «ملح» ان وجود الخرائب في النقاط المحصنة «شرق امتان وملح» مثـل «جـاوه وأم القصـير»، تحمـل على الاعتقـاد بأن هنـاك دروب أخرى كانت تغوص في الصحراء، وهذا ما كان يتكهن به أيضاً الأب (P. Podebard) الذي لم يعثر على أي ترقيم ألفي على طول هذه الطرقات.

نحـو الغـرب، فالطـريق بين درعـا ـ وبصـرى يحمـل آثاراً منظورة اعتباراً من بصرى

وعلى مدى ثلثي مساره. هذا الطريق الذي كان يمر في «الطيبة» على جسر من الحجر محاذياً وادي الزيدي، بُني بزمن حكم «مارك أوريل»[١٦]. ومن درعا كانت تتجه عدة طرق نحو «جرش» و«طبريا»[١٧]. وعلى ما يظهر أنه من طبريا كانت تنقل الترقيات الألفية، الذي روى عنها M. Roy-Coquais [١٨] والتي كانت تحوي المسافات المعدودة اعتباراً من Homatha وهي موقع قريب من طبريا. أما هذه الأخيرة فكانت مرتبطة «بنوى» بواسطة طرقات أثرية، أشير إليها على خرائط حديثة تجتاز هضبة الجولان.

١ ـ ٧ الطريق من السويداء باتجاه الشرق:

ان الطريق الذي كان يجتاز الجبل بين السويداء و«صالح» يظهر من موقع الى موقع بواسطة الصور الفوتوغرافية الجوية. ويمكن ان تشاهد آثار منه على الطريق، شرق تل غينه، والطريق الحديث يأخذ اتجاه مساره دون أن يغطيه بالكامل، ويلاحظ «برجان» بقرب بعضهما، مع طول مسار الطريق غرب «تل غينة» على سفح هذا التل كان يتصالب فعلاً مع الطريق التي كانت تربط بصرى «بالمشنف». واعتباراً من قرية «صالح» كان الطريق يمر جنوب قرية «الرشيدة» ويتصالب بزاوية مستقيمة مع الطريق الذي يطاول المنحدر الشرقي للجبال. هذا التصالب مرئي بالكامل، على الصور الفوتوغرافية الجوية، ومن «الرشيدة» ينزل الطريق داخل البادية الشرقية تقريباً باتجاه تدمر، ماراً بالمركز الروماني «النمارة» الواقعة في وادي الشام[١٩].

١ ـ ٨ الطريق من شقا الى الشرق:

إن الطريق الذي كان يسير من «شقا» نحو «خربة الأومباشي» في «الصفا»، لم يترك أي آثار، إلاّ في جنوب خرائب تل الخربة، فالخرائط الطبوغرافية التي دونته، تشير الى وجود سلسلة من التفرعات المتوازية لهذا الطريق[٢٠]. مما يحمل على الاعتقاد «في حال غياب أية مصادر معلومات أخرى». بأن هذا الطريق في ذلك الموضع، أخذ صفة الدرب المرصوف بالحجارة. واعتباراً من خربة الأومباشي، تبين الصور الفوتوغرافية الجوية، وجود طريقين. الواحد كان يتجه نحو بئر كساب، مطاولاً الطريق الجنوبي للصفا. الثاني كان يتجه نحو «تدمر» ماراً بالنقاط المرتفعة «entennes» «للكراع». والتنقيب في هذه المنطقة صعب جداً، حيث لا يوجد أي طريق متفرع يسير داخل الاندفاعات البازلتية كما هو الحال في اللجا.

١ ـ ٩ طرق جبل حوران (أو جبل العرب حالياً):

يلاحظ في جبل العرب كثافة شديدة للطرق الرومانية. والجزء الأكثر ارتفاعاً للكتلة

الجبليـة هو المحاط كلية بهذه الطرق، من بصرى إلى أم الزيتون في الشمال، أوإلى ملح في الشـرق، وهـاتـان المـدينتـان كانتـا بدورهما، مرتبطتـين بطـريق يمـر على الخاصرة الشرقية للجبل، غير أن آثار ذلك الطريق بالضبط لم يعثر عليه بعد.

هذه الطـريق الـذي له ثنـايـا شرقيـة، يبـدو اعتبـاراً من قريـة «امتـان» وكأنه احدى استطالات طرف وادي «سرحان» وقد علمت اثارها حول المشنف حيث يتصالب مع الطرق القادمة من بصرى ومن موقع «سيع»، ومن ثم يتجه نحو الشمال، بشكل اصح، نحو«تربة» حيث يتجـه نحـو أم «دبيب» ثم «شهبـا». بينـما المـلاحظات الواردة من الأب Poindebord تفرض وجود تفرعاً باتجاه «شقا». أما بالنسبة للطريق المار شرقي الجبل. فقد عثر على ترقيم ألفي في الشبيكي شمال السعنة، ولكن قد يكون فرعاً ذاهباً من المعسكر الروماني في السعنة الى الصفا.

أما الطريق الذاهب من بصرى إلى المشنف فكان يجتاز قلب الجبل بالذات، ليتوغل بخطـه المستقيم، داخـلاً المنطقة الوعرة أيضاً ـ نلاحظ آثاره على مسافة بعض الكيلومترات من الشـمال الشـرقي لبصـرى وقد دونت تلك الآثار على الخريطة حتى الكفر. ومن قمة تل قليب، شمال الكفر، كان يوجـد نقطـة مراقبـة[21]، وقد اتاح التنقيب تعليم استطالة الطريق المستقيمـة، من الكفـر وحتى سفـح «تـل غينـة» ان الرصف بالحجارة لا يزال محتفظاً بوضعه على هذا الجـزء، واذا كانت الآثـار قد اختفت من الجـزء الأعلى من مسـار الطـريق حيث يتصالب الطريق مع الطريق الآخر، الذي يربط السويداء ـ بصالح، فإنه يعود إلى الظهور ثانية في الجنوب الغربي من المشنف، ويمكن ان نتبعه حتى هذه المدينة.

ان الطـريق الـذاهب من السـويـدا الى المشنف ماراً «بسيـع» ظهـر بفضـل الصـور الفوتوغرافية الجوية. هذا الطريق المبلط بالحجارة يصعد بشكل مستقيم من السويداء، حتى أسفـل النتـوء الصخري لموقع سيع. ليتصل بالطريق القصير نسبياً الذي كان يربط قنوات، ومن موقع «سيع» يمر شمال المعبد، ويتغلغل في الجزء العلوي للجبل، حيث تمكنت الصور الفوتواغرافية الجوية، من تتبعه حتى المشنف[22].

ان مدينـة شهبـا التي سميت «فيليبوبوليس» منذ حكم فيليب العربي، مرتبطة بطرق المنطقة بواسطة الطرق الثلاث التي كانت تنطلق من أبوابها الثلاثة الفخمة في الشمال والشرق والجنوب. والطـريق الشـمالي لم يبق منه أي أثر، ولكن وجود الباب ومسار الطريق الحديث الذي يتتبع الطريق القديم في شمال أم الزيتون ماراً بالباب المذكور يحمل على الاعتقاد بأن الطريق المـزفت كان يصـل هذين المـوقعين. في الشرق، تبين الصور الفوتوغرافية الجوية آثار الطريق الـذي يحاذي بمسـاره وادي اللواء، ليمـر شمال «نمره» ومن ثم لينضم الى طريق شرق الجبل. وفي الجنوب، ان الطريق الذي نشاهد آثاره بشكل زاوية مستقيمة نحو الغرب، عند خروجه من

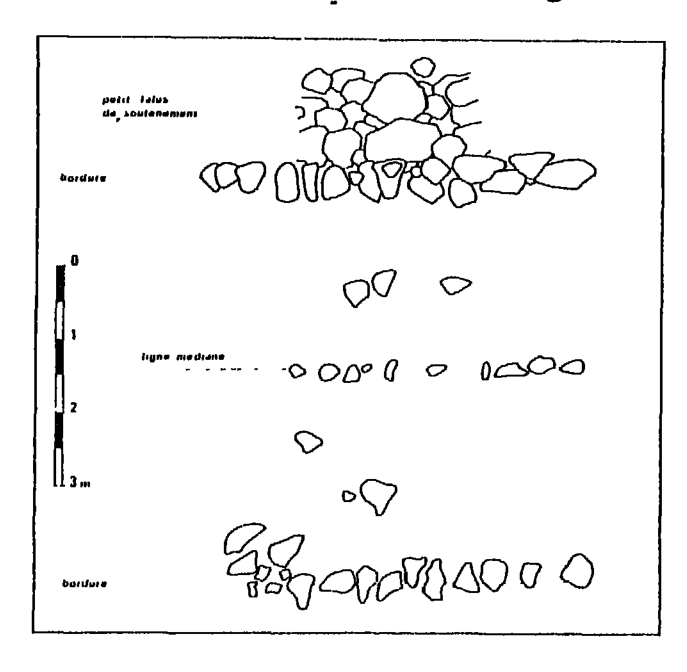
الباب التاريخي، لينضم لطريق السويداء ـ شمال قرية «سليم» أما بين «شهبا» و«شقا» فلم يشاهد أي أثر لطريق معبد بالحجارة يربط مباشرة المدينتين.

٢ ـ منظر الآثار وفن البناء:

أمّا الطرقات الأخرى المعبدة بالحجارة والتي لا تزال بحالة جيدة، فهي كثيرة في حوران وهي تتشابه كثيراً مع بعضها حينما يراد دراسة آثارها. ويمكن لمظهرها الحالي ان يتبدل في نقطة أو أخرى ومع ذلك يمكن استخلاص مثلين منها ذات معنى: ان الطريق المعبد الذي يصل بصرى مع «المشنف» لوحظ فيها عند المشنف، وعلى طريق اللجا ما يشبه مقطعاً وعراً يمكن دراسته وهو على بعد ٢كم جنوب المسمية ضمن أرضه الفخارية.

٢ ـ ١ الطريق نحو بصرى في الجنوب الغربي من المشنف (الشكل رقم ٣):

تبدو الطريق المعبدة، وكأنها طريق مبلط بالحجارة بعرض وسطي ١٥ , ٦م، ومع أن مستوى الأرض على شكل انحدار نحو الغرب، فإن الكومة الكبيرة من الحجارة من الجهة النازلة أتاحت للطريق أن يكون افقياً. فهي محددة بواسطة سياجين من الحجارة المتوازية والمقسمة الى قسمين، بحد وسطي من الحجارة الأصغر حجماً (هذا الحد موجود



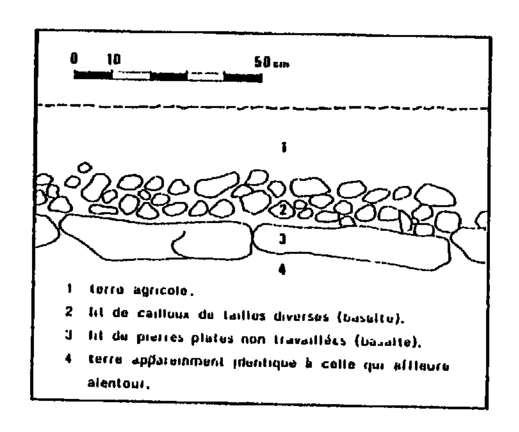
الشكل رقم ٣ ـ مخطط بياني لآثار الطريق الروماني ـ بصرى ـ المشنف (٢٢) P. Gentelle C.f

دائما على جميع طرق حوران، فيما عدا جنوب دير العدس. ولكن هذا الخط لايتواجد دوماً في منتصف الطـريق المعبـد تمامـاً). وبـين هذه الخطوط الثلاثة من الحجارة يملأ الفراغ بحجارة صغيرة من أحجام مختلفة. وفي كثير من الامكنة نشاهد الخطوط الثلاثة البارزة على وجه الطريق المرصوف بالحجارة، وأحياناً يشاهد الطريق مغطى بالتراب تاركاً بعض الحواف من الصف الأوسـط ظاهـرة، وأحيـانـاً أخـرى، نشاهد وجه الطريق المعبدة محدودباً قليلاً أو رصف الحجارة الواقع بين الخطوط الطولانية، منخفضاً محولاً شكل «السنم» الى شكل W مفتوحة كثيراً.

ان جميـع الحجـارة المستخـدمـة لبناء هذه الطريق هي خشنة (دبش) جمعت من حول الطـريق المـرسـوم بصـورة مبـاشـرة، وهذه الحجارة هي كناية عن قطع من حصى البازلت، تحمـل لأول نظرة نفس الخصائص التركيبية، للفرين والحصى البرغلي المبعثر على الأرض المحيطـة بالطـريق، ولا يوجد أي أثر لأي نوع من الاسمنت عليها، وتلك الحجارة متراصة تراصـاً قويـاً، إلا أن الطبقـة الـترابيـة الرقيقة، التي تغطي الطريق حالياً، لاتظهر سوى رؤوس تلك الحجارة، الأمر الذي يجعلنا نراها متباعدة كما هي في الرسومات.

٢ ـ ٢ مقطع من طريق اللجا على بعد ٢ كم جنوب شرق المسمية (الشكل رقم ٤):

لعـدم توفـر الـوقت والـوسـائـل، لم يتم أي سبر لطـريق روماني مرصوف بالحجارة في حوران، ولكن يمكن تكـوين فكـرة مختصرة عن تركيبها بفضل التقعير، الذي سببه منقبون متسـترون، كما ذكـر أهـالي المنطقة، والذي اعترى الطريق الروماني على بعد ٢ كم جنوب شرق المسمية.

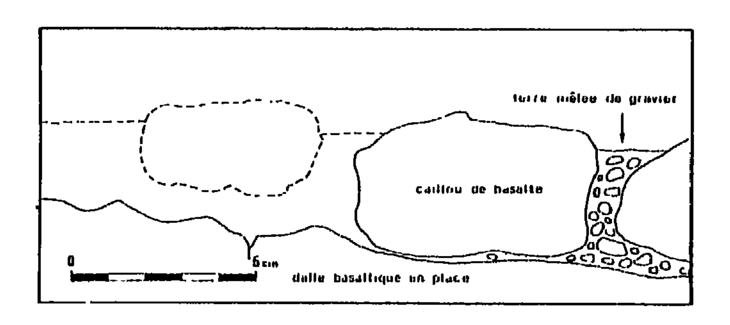


الشكل رقم ٤ ـ مقطع طولاني لطريق روماني في اللجا على بعد ٢ كم تقريباً جنوب المسمية

على عمق ٢٠ سم تحت سطح الأرض الحالي، يشاهد رصفة من الأحجار الصغيرة المختلطة بالتراب مكونة طبقة بسماكة ١٥ سم تقريباً، وهذه الرصفة تستند على صف افقي من الأحجار الكبيرة (الصخور المنفصلة) ليست مقصوبة، ولها على الغالب طابع البلاط الحجري. وقد يختلف حجم تلك الحجارة، فالبعض منها بطول ٥٠ سم وارتفاع ١٠ أو ٢٠ سم ولم تخضع لأي مقياس واضح أو محدد. وهي مرصوفة بحسب وجهها المنبسط، وفي أسفل هذه الطبقة لا توجد حجارة، بل طبقة ترابية تشبه في ظاهرها الطبقات المجاورة للطريق.

٢ ـ ٣ مطابقة بنية الطريق للأرض الصخرية (الشكل رقم ٥، واللوحة Ib):

عند مرور الطريق، على الصخر البازلتي الطبيعي، سواء في اللجا، أو في منطقة «دير العدس» يصبح انشاؤه سهلاً. ولا يلزم الأرصف الحجارة على الصخر، مع احاطتها بمزيج من التراب والحصى. ويتألف وجه الانصبابات البازلتية، عادة، من الحمم المفتولة. وفي بعض الأمكنة المنخفضة من الطريق، ثبتت بعض الحجارة، لتأمين تلاحم المجموعة بكاملها، ومع ذلك فقد اختفت هذه الأقسام من الطريق.



الشكل رقم ٥ ـ بنية تخطيطية للطريق الروماني على حمم بازلتية في اللجا بين «سليم» و«أم الزيتون»

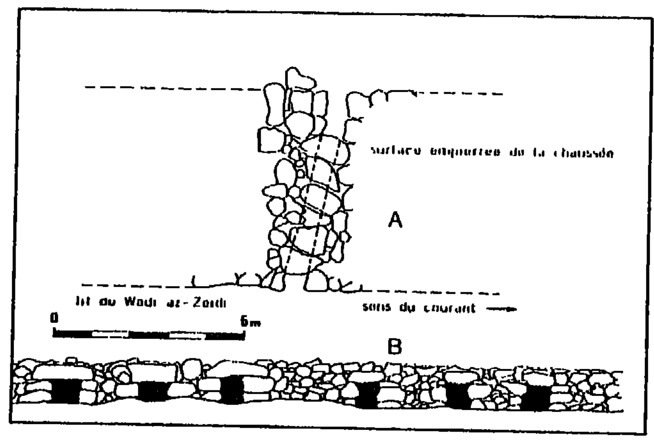
٢ ـ ٤ تخطيط الطرق:

هناك خاصة مميزة لتلك الطرق، هي البحث عن الخط المستقيم. فالعديد من مسافات الطرق مستقيمة، وفي سبيل تغيير الاتجاه، غالباً ماكانت تستخدم طريقة الزوايا، وليس الى طريقة الانحناءات. وأحياناً، حينما كان يصعب اتباع الطريق المستقيم بالدقة المطلوبة كان يلجأ الى تحديد زاوية على الطريق، وبعد مسافة قليلة منها يستأنف الطريق اتجاهه الأساسي المستقيم. وهذا النوع من التخطيط كان حصيلة تبنّي المهندس الروماني تحديد

نقطة علام واضحة، يمر نحوها اثناء تخطيطه للطريق (مثال: عند الانطلاق من بصرى، فإن علام الطريق الذاهب الى المشنف يتجه نحو قمة قليب وبعد انعطافه، يتجه ثانية نحو «تل غينة» التي هي أعلى منطقة في الكتلة الجبلية هناك. كما أن بركان صلخد هو بالضبط داخل محور الطريق الروماني القادم من بصرى، (ويمكن ذكر العديد من الأمثلة الأخرى). وهذا التخطيط يعطي مجالاً للمسافر بمراقبة الطريق، الذي يسير عليه على مسافات بعيدة.

٢ - ٥ الأعمال الفنية:

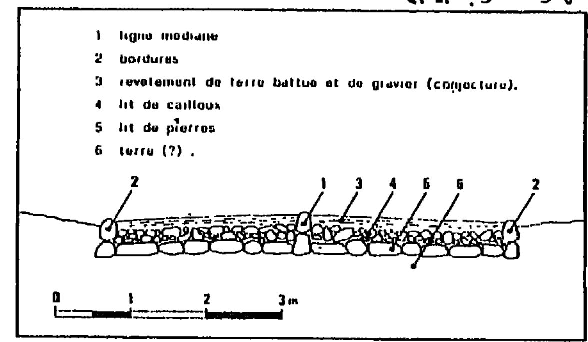
كان عبور أقنية المياه ومجاريها يتم فوق جسور من الحجارة المقصوبة. ويعرف منها اثنان واحد في جمرين (اللوحة IVa) والأخر في الطيبة[٢٣] وكلاهما على وادي الزيدي وهناك جسر ثالث بين بصرى وخَرَبة لايعرف تاريخ اشادته بشكل مؤكد، كما لايوجد أي رسم أو أثر لطريق روماني معبد بالحجارة، اكتشف في هذا الاتجاه. وفي أمكنة أخرى، وفي زمن ضرورة اجتياز واد مياهه فصلية، كان يلجأ إلى اجراء ترتيب محلي في المكان المنتقى للاجتياز. وذلك بتضييق الطريق ورفعه على سلسلة من الأروقة المتوازية تسمح بمرور المياه من الفتحات، وهذا الوضع لايزال موجوداً بين «جمرين وبصرى» (الشكل رقم ٦). وتظهر آثار معبر[**] آخر على طريق اللجا، بقرب من ريمة اللحف، وأيضاً على أطراف اللجا، قرب المتونة[٢٤] وأخيراً في اللجا. يمكن أن يبقى الطريق مستقيماً، عبر بعض المنخفضات الصغيرة التي صادف وقوعها بين كتل البازلت الصخرية. وذلك يفضل املائها بردم من الاحجار الكبيرة، المنقولة من الجوانب القريبة، التي تغطي قسماً كبيراً من الأرض المنخفضة، وهذا الردم قد يصل الى ارتفاع ٣ أمتار (اللوحة IIb).



الشكل رقم ٦ - الطريق المرفوع بين بصرى وجمرين A جسير B رفع الطريق على سرير وادي الزيدى

٢ ـ ٦ الفرضيات حول منظر هذه الطرق في العصر الروماني :

مهما كان وضع هذه الطرق اليوم . فإن صعوبة سلوكها واضح . حتى لو تم سيراً على الأقـدام وذلـك بسبب تبعثـر البحص تحت الأرجـل . واذا ما أخـذنـا بعـين الاعتبار ـ الكوم والطنف الـذي أوجـدتـه الصفـوف الحجرية الثلاث المرصوفة لإملاء الفراغ ، أمكن التقدير بأن التحجير مغطى بطبقة بسيطة من الحصى ، وقد عراه السيل الجارف . والحث بالاضافة الى ذلـك هنـاك حاليـاً ، في قرى حوران الحالية ، على سبيل المثال شوارع قرية «أم الزيتون» ، شوارع تسلكها العربات ، مفروشة بطبقة من الحصى ، ومغطاة بالرمل الناعم المخلوط بالحصا محدداً من الجانبين وعلى صفين متوازيين من الأحجار، كما هو الحال على الطرق الرومانية ، حيث يبدو من المفيد اظهار التقارب بينهما .



الشكل رقم ٧ ـ مقطع عرضاني بياني لطريق روماني في اللجا في منخفض فخاري

وهكـذا نحصـل على تجربـة اعـادة تركيب بقيـة تلك الطـرقـات ، التي تتـوضع فيها العناصر التالية :

a ـ أرض ترابية يصعب التمييز فيها اذا كانت مختلفة عن طبيعة الأرض التي تحيط بها .

b ـ طبقـة سريـريـة من المـلاط الحجري الخام ، المرصوفة أفقياً والتي يصعب التثبت من وجـودهـا في جميـع الطـرق الـرومانية للمنطقة ، وفي الأراضي البازلتية يتحكم الصخر نفسه المتوضع عليها ، والذي يدخل في بناء هذه الطبقة المرصوفة .

c ـ طبقـة مرصـوفـة بكثـافة ١٥ ـ ٢٠ سم مكونة من أحجار مختلفة القياسات مجموعة بكتلة متراصة .

d ـ طبقة كساء سطحية ، التي ولو كانت مشابهة للطبقات التي ترصف بها شوارع القرى حالياً ، فهي مؤلفة من التراب الرملي ومن الحصى الصغير الحجم بكثافة ١٥ سم تقريباً .

جميـع هذه الطبقـات كانت مقسمـة الى ثلاثـة صفـوف من الحجارة . تضمن تلاحم المجموع (اللوحة Ia) ان مثل هذا التركيب ، يمكن مقارنته بالمقاطع الأخرى لطرق رومانية وخاصة الطرقات المشابهة في افريقيا الشمالية[٢٥] .

٢ ـ ٧ الطرق غير المعبدة بالحجارة «الدروب»:

من الواضح، ان الطرق غير المعبدة، ودروب القوافل التي كانت سالكة بصورة أكيدة في حوران خلال العصر الروماني، يصعب تحديدها فعلاً، ومع ذلك يمكن الاشارة الى نموذج من الطرق لوحظ في «الحرّة». لقد أبعد البحص الذي يغطي الأرض المحيطة من على مسار تلك الطريق، ثم جمع في صفّين متوازيين، مما كان يتيح لجمال القوافل أن تمر دون جرح أرجلها[٢٦]. وبالوقت نفسه فإن طرق المواصلات القروية، لا تحمل تقريباً أي أثر مادي مؤرخ. ويعتقد أنها كانت تشبه كثيراً الطرق الحالية المنشأة ضمن جدارين متوازيين ومتعرجين تحددان طريقاً ترابياً خالياً من الأحجار. وهناك جدران صغيرة من الأحجار التي تفصل الحقول[**]، وهي متوفرة وآثارها مكتشفة.

ان طرق المنافد في قرى اللجا القديمة، والتي لا تزال مستخدمة اليوم بكاملها تقريباً كثيرة الانعطاف. لأنها تدور حول المنخفضات والمحدبات في الأرض الصخرية والسديمية، نميز فيها بعض التنظيمات، منها ما يشبه الجدران الصغيرة التي تحد الطريق، حينما تنعدم الرؤيا في أسفل المنخفض ويصعب التوجه، وأيضاً حين املاء الغدران أو الشقوق البازلتية بأحجار من جميع القياسات. تبدو مثل هذه الطرق بأنها، بوجه الاجمال، غير صالحة لسير وسائل النقل ذات الدواليب. أما المنحدرات، فهي وعرة أحياناً.

٣ ـ تسلسل التاريخ

٣ ـ ١ عصر ما قبل الرومان:

تؤكد النصوص والوثائق القديمة. والاكتشافات الاثرية المتتالية على وجود محورين رئيسين للمواصلات المخترقان حوران من الشمال الى الجنوب وبالعكس، ويصلان دمشق بشرقي الاردن وفلسطين باتجاه الجزيرة العربية ومصر وهما:

المحور الأول: يعود الى الطريق الدولي الذي يربط الاردن بدمشق عن طريق درعا ـ نوى ـ الكسوة الخ.. فهو الطريق الطويل الذي يجتاز هضبة حوران من الشمال الى الجنوب، والعديد من المواقع في هذه المنطقة، وقد ورد ذكرها في نصوص مصرية تعود الى عهد ملوك الفراعنة (تحوتمس الثالث thoutmés III) (اخناتون Akhnaton) و(رمسيس الثاني Rumses II)[٢٧] وقد عثر على نصب مصري باسم (Sethi 1or) سيتهي الأول في تل شهاب، ويحتمل أن المصريين كانوا قد اختطوا طريقاً طويلاً للمواصلات، للدخول مع هذه المواقع، بعلاقات، خلال القرنين من الخامس عشر الى الثالث عشر قبل الميلاد. ويمكن اخذ فكرة واضحة أكثر عن شبكة طرق حوران في ذلك العصر، اذا أخذ برأي (D. Redford)[٢٨] الذي اعتبر بأن جميع المدن التي أعتبرت مدمّرة حسب لوائح تحوتمس الثالث (القرن ١٥ ق. م)

استخرجت من النسخ الأصلية المكتوبة عن آسية الغربية والتي عرفت واستخدمت من قبل (المراسلين) المصريين.

المحور الثاني: وهو يتعلق بالطريق الذي يربط، مباشرة دمشق ـ بجبل العرب محاذياً مجرى وادي اللواء، ومن خلال تتبع مجرى الوادي، كشف في «المتونة» موقع من العصر البرونزي (أبحاث في طور الانجاز يجريها السيد مقدسي). كما كشف أيضاً في «تل الدبّة» عن «قلعة» يعود تاريخها الى عصر الحديد (أبحاث في طور الانجاز يجريها (ف. برومير) .F)، (Braamer) وان وضع هذا الموقع الأخير كان يتيح تفتيش نقطة المرور الوحيدة الممكنة بين منطقة ساسية ـ Sacée وهضبة حوران.

أما بالنسبة للعصر الهيليني، فقد بقيت المعلومات عن طرق المواصلات التي تمر بحوران، غير مباشرة، توضح المراسلة التي قام بها «زينون» بأنه كان يعالج بعض الأمور في منطقة الهيت (Eita) و نوى (Noé) والكسوة (la dosa) ، وحتى دمشق[٢٩].

قبيل بدء التاريخ الميلادي، انشئت المستعمرة العسكرية الرومانية في (بصير شرق الصنمين - Bathyra) في trachonetids (اسم اللجا قديماً). والتي انشئت لحماية الجنود القادمين من بابل الى اورشليم[٣٠]. وكان أولئك المسافرين يسلكون، بصورة أكيدة، طريق دمشق ـ الكسوة ـ نوى. وقد أخذت تظهر في الوثائق المصرية التي تعود الى الألف الثاني ق.م.

وقد توخّي في توسع المملكة النبطية نحو الشمال، والتي امتدت يوماً، والى فترة وجيزة حتى دمشق، ربط الطرق الرئيسية التجارية ببعضها لزيادة الثروة، فكانت بصرى في القرن الأول الميلادي عاصمة لهذه المملكة[٣١]. فقد أورد القديس يولس ذكر الوالي النبطي بدمشق[٣٢] وفي أقصى الجنوب. كشف G. Bowersack عن تمركز مخفر نبطي متقدم في الأزرق[٣٣] لذا فإن النبطيين نظموا واستثمروا جيداً طرق المواصلات[٣٤] مرسخين العلاقة بين دمشق ـ والبلاد العربية الوسطى ـ وأيضاً باتباع طريق ترايابوس الجديدة (Traina- vanova)' بشكل واسع للتلاقي مع طريق مدينة بترا ـ بصرى، حيث عثر في مساره على اثار ضيئلة tenues لتواجد المملكة النبطية، وأجزاء خزفية وعملات نقدية في «خربة السمرة» (لا تزال غير منشورة) وفي ثغرات الجب[٣٤] كانت بصرى التي هي منفذاً للطرق، تمثل مركز الامبراطورية النبطية حيث كانت البضائع تنقل نحو الغرب الى درعا[٣٥]، ونحو الشمال، عن طريق وادي اللواء حتى دمشق.

ويعتقد أنه خلال الألف الثاني والأول قبل الميلاد، كانت هناك شبكة مواصلات دولية تجتاز حوران من الجنوب الى الشمال، لتصل الى دمشق مارة من طرفي اللجا التي كان يصعب دخولها آنذاك. كان تمركز النبطيين في القرن الأول قبل الميلاد وبعد الميلاد، في

بصـرى، يشـير الى حركـة تجاريـة وصلت الى ازدهـار لم يسبق له مثيل على هذه الطريق. ونجم عن ذلـك توطن قطـاع الطـرق في المناطق ذات المسالك الصعبة. والتي تحيط بالمحاور الكـبرى، وقـد تطرق الى ذلك كل من[٨٥] Josépe, Strabon[٣٥-٣٦]. لذلك توجّب تأمين سلامة الطـريق بصـورة مستـديمة. ولهذا استوجب تمركز المستعمرة العسكرية في (بصير Bathyra). وقـد أشـار (Strabon) (loc- eit) الى تمركـز الحـاميـات الـرومـانية (وكان يعني بذلك «شقا» ـ و«المسمية»، قاعدتين راسختين في المؤخرة. لمراقبة اللجا والجبل مع البقاء على أقرب مسافة ممكنة من دمشق).

ان الطـريق الحقيقيـة التي تؤدي الى داخـل أعشـاش قطـاع الطـرق يعـود الى زمن هيرودوس وأغـريبـا، وقـد عثـر على نقـوش تحمـل اسميهـما في «قنوات[٣٧] وسيع والمشنف[٣٨]». بمحـاذاة الطـريق الأثـري القـديم الذي يجتاز من الغرب الى الشرق، قسّم الجبل الصعب البلوغ، والـذي كان يوفـر الشروط اللازمة لمراقبة تنقلات (الصفويين؛ الذين كانوا، بصورة خاصة، يذهبون الى منطقة «سيع» للحج[٣٨]. ان النقش المكتشف في قنوات (IGRIII 121) يشـرح بحـد ذاتـه عن اخـلاق سكـان هذه المنطقـة المتـوحشـين. ويبـدو أن الأمراء الموالين للامبراطورية تبنوا في بصير وفي الجبل سياسة محددة أصبحت فيما بعد منهجية عند الرومان اعتباراً من القرن الثاني للميلاد، ألا وهي تنظيم وصيانة طرق المعابر، التي فيما بعد وطدت أمن المواصلات في المنطقة.

٣ ـ ٢ القرن الثاني للميلاد:

ليس لدينا أي أثر لطريق روماني، انشيء في جنوب ولاية سورية، خلال القرن الأول الميـلادي. لم يبتـديء انشـاء الطـرق الـرومانية الوارد ذكرها في حوران، اذا ما اعتمدنا على الـوثـائق المتـوفـرة حاليـاً، إلا بعد الحاق البلاد العربية بالحكم الروماني أي حوالي عام ١٠٦ ب.م. وقد كانت طرق المواصلات الأولى تدور حول بصرى[٣٩].

ان الـترقيم الألفي الـذاهب من «بصـرى» إلى «عمان» يشير الى ان هذه الطريق قد انشيء عام ١١٤ وقد أُحْدِثَ بالكلية بعد شقه ورصفه من جديد[٤٠].

هذه الطـريق التي كانت تحاذي الطـريق القـديم للقوافل النبطية دون أن تندمج بها، تحيد عن المحطات الرئيسية (مثل أم الجمال) وهذا ما كان يميزه بطريق السير السريع، لكونه يتيح لقوات بصرى الانتقال نحو الجنوب للتدخل السريع[٤١]. واستمر العمل في صيانة هذه الطريق حتى حكم ديوكليسيان[٤٢].

إن طريق اللجا (اللوحة Ib- IIIa) الذي بدا واضحاً بأنه من صنع روماني كامل، كان قد انشيء واستخدم في الحقبة الواقعة بين ضم الولاية العربية للحكم الروماني، وبين حكم

مارك اوريـل لقـد أجـريت تصليحـات على الترقيات الألفية الاكثر قدماً في ذلك الطريق، وذلك أبان ولاية «كومود» عام ١٨٦ /١٨٧[٤٣]، وهو الأمر الذي يؤكد وجوده قبل ذلك بعدة سنوات. ويثبت هذه النظـريـة النقش في المسميـة (CIG ٤٥٥١) الـذي بمـوجبـه Julius sturninus) جوليـوس ساتـرنينـوس) يعـالـج تحت حكم «كومود» المسائل التي كانت تعترض المسـافـرين في هذه المـدينـة، ان أقـدم تلك النقـوش المؤرخة، التي عثر عليها مع طول هذا الطـريق في كامـل القسم الصخري في اللجا، تعود الى زمن حكم مارك اوريل[٤٤]. وهذا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الترقيات متزامنة مع زمن دخول هذه المنطقة بالطريق الروماني.

أما الطريق الذي كان يصل بصرى بدرعا، لم يترك أية ترقيات ألفية، بل ترك نقشاً يحدد زمن انشـاء جسـر «الطيبـة» في زمن حكم «مـارك اوريـل» عام ١٦٣ ـ ١٦٤[٤٥]. وهذا النقش لم يحدد بالضبـط تاريـخ انشـاء الطـريق، ولكنـه يحدد قيـام تنظيم هام لخط السـير. وبـالـوقت نفسـه، اذا اتبـع أثـر رحلة antonin انطونين الذي تم أول اصدار لها خلال حكم كراكـــلا Caracalla [٤٦]. فهـي تشـير الـى طريـق ينطـلق من دمـشـق الـى «نـوى» ماراً «بالصنمين»، ليصل الى طريق درعا عند بحيرة طبريا[٤٧]، وهذا، بحد ذاته، يشكل دلالة قاطعة اضافية، بأنه قد تم انشاء مجموعة هذه الطرق، في القرن الثاني الميلادي.

وهنـاك أخـيراً، طريق أخـرى، يمكن ارجـاع زمن انشائها الى ماقبل القرن الثالث الميلادي خلال الحكم المتأخر لأسرة ساويروس، وهو الطريق الذي يربط «بصرى ـ بدمشق» ماراً بالقسم الشـرقي من اللجـا. أي من شمال «مردك» عبر الزاوية الجنوبية الشرقية للحمم البـازلتيـة دون المـرور بمـدينـة شهبا، موطن الامبراطور فيليب العربي الذي حكم من عام ٢٢٤ إلى عام ٢٤٩، والـذي أنشأهـا على مستـوى مستـوطنة كبيرة، وزودها فيما بعد بأهم المظـاهـر العمرانية وبالاسوار[٤٨]، واعاد ربطها بالطرق الرئيسية الرومانية في المنطقة ـ كما ذكر اعـلاه. تبـين الخـريطة الحالية لطرق هذا القطاع، بأن خط السير قد انحرف يوماً ما. اذ أن الطريق الروماني تحدد بالطريق الحديث القادم من دمشق إلى أم الزيتون ومنها انحرف نحو شهبـا كونهـا المـدينـة المهمـة منـذ القرن الثالث الميلادي ومن ثم انضم الى الطريق الروماني الذاهب الى السويداء بالجنوب ضمن مسار محاذ للطريق الأثري القديم. ولكن يمكن لهذا الـزعم ان يطـرح جانبـاً، لأن مســار الطــريق الحـــالي قد تبـدل فعـلاً حينـما أصبحت فيليـوبـوليس (شهبـا) مدينـة مهمـة، ولكون طريق ـ «براق» ـ السويداء»، الذي ترك شهبا جانبـاً قد تم تخطيطـه في زمن كانت شهبــا خلالـه لاتمثـل أيـة أهميـة. من جهـة أخـرى بما أن المنظـر الجيـولوجي الطبيعي للمنطقة، يجعل من وادي اللواء مسلكاً اجبارياً للراغبين بالسفر من الجبل الى دمشق، حينذاك، دون المرور في قلب «اللجا» فمن المؤكد على ما يبدو، أن

هذا الطريق تجدد في أهم أجزائه على الطريق القديم السالك قبل العصر الروماني. غير أن صيانته واعادة استخدامه من قبل الرومان كانت خلال القرن الثاني الميلادي.

والى جانب تلك الطرق التي تربط فيها بينها المراكز، هناك في حوران، مجموعة ثانية من الطرق تخترق جبل العرب ضمن كثافة مقبولة، والأدلة الأثرية التي يمكن جمعها اليوم، ليست كافية لتدوين تأريخ واضح حول زمن انشائها. فالبعض منها مسالك كانت موجودة قبل دخول الرومان، والبعض الآخر اكتسب فعاليته في زمن متأخر. لم ترتبط مدينة «قنوات» مباشرة الى الحاضرات الاخرى بواسطة طرق رومانية مثل شهبا. ولكن هناك طرقاً ثانوية قادمة من قنوات والسويداء والمشنف، كانت تشكل عقدة في أسفل «معبد» «سيع» الذي كان مزدهراً قبل مجيء الرومان، مما يدل على أهمية هذا المعبد كعقدة مواصلات في المنطقة.

وهذه الطرق التي تعتبر تقنية انشائها مماثلة لتقنية الطرق الرومانية[٤٩] هل كانت هي أيضاً بدورها انتظاماً لطرق أقدم منها وأفضل وضعاً؟ أشار جانتيل مع ذلك إلى أن رسم هذه الطرق مخططات تقسيم الأرض واشادة المدافن الواقعة في أسفل تل سيع[٥٠].

٣ ـ ٣ الطرق غير المؤرخة ـ والامبراطورية البيزنطية:

يصعب جداً الحديث عن أية فرضية حول الطرق الأخرى للجبل. ان وجود ترقيم ألفي متأخر، مع تفسير لقراءة غير مؤكدة، في الشبيكي شمال «السعنة» لايأتي بتوضيحات بينة[٥١]. كما أنه لا يمكن من حل مسائل الوقائع التاريخية في هذا القطاع. غير أن المهم في الأمر، هو في وجود مجموعة من الطرق تسهّل الدخول الى الكتلة الجبلية، وتؤمن المواصلات السريعة التي كانت توصل الى مدينة بصرى.

ان الطريق التي تربط المشنف، مباشرة، «ببصرى» ماراً بأسفل «تل غينة» ثم الكفر، هي وليدة هندسة رومانية، نظراً لاستقامتها ضمن أراضي وعرة، وحسب الظاهر، أبتدأت اعتباراً من مدينة بصرى[٥٢]. وقد اكتسب مخططها الدرجة القطعية بواسطة التصويب المتتابع «كتل قليب» ثم «تل غينة» وان غياب الترقيم الألفي مع طول المسار، ليس له أي مدلول حالياً، لأن الترقيات الألفية في حوران تظهر في المناطق الآهلة قليلاً بالسكان، ولأن هذه الترقيات نقلت من قبل الأهالي لصنع «مداحل» لسطوح المنازل، وحتى الزمن الحالي، لم يكن يعرف من هذاالطريق سوى بعض الاجزاء التي كانت تجتاز مناطق آهلة بالسكان[٥٣]. وقد تمت معرفة قسمه الذي كان يجتاز المنطقة الجبلية غير المأهولة، مؤخراً وهذه الملاحظة تنطبق على جميع الطرق التي تجتاز اعلى قسم من الجبل.

لابد من تقريب هذا الطريق الهام من الطريق الذاهب من السويداء الى «صالح». والذي أصبح مساره ضمن طريق حديث[٥٤]. يتقاطع الطريقان في أسفل «تل غينة». وبهذه

الطـريقـة، كانـا يربطـان كامـل السفح الغربي للجبل، مع الطريق العرضاني الذي يحاذي الخـاصـرة الشـرقيـة للمـرتفعـات، والذي لايزال مساره الحقيقي حتى الآن غير محدد تماماً. من خلال مجموعة هذه الطرق، التي لا تتوافق مع خطوط السير التجارية المعروفة سابقاً، تشاهد شبكة مواصلات سريعة، كانت تسهل المراقبة الدقيقة للجبل من قبل الرومان، حيث كانت تنطلق بدءاً من «الـرشيدة» أو «شقا» طرق أخرى نحو البادية باتجاه تدمر. وكانت ترتبط بهذه الشبكة، أبراج حجرية في المنطقة تسمح بمراقبة المرتفعات الجبلية من مسافات بعيدة، وقد عثـر على بقـايـا أبنيـة أثرية قديمة من الحجر البازلتي المقصوب في قمة «تل قليب» التي هـي القمـة الثـانيـة للمرتفعات التي من خلالها تتسع الرؤ يا على منطقة «تل غينة» وعلى الطريق المتجـه نحـو بصـرى - وعلى مقربة من تلك الركائز، حفرت ثلاثة خزانات مياه مهمة، لا تزال سليمة ولكنها مطمورة حتى منتصفها. ومن خلال تلك الاطلال يمكن أن نرى خرائب حصن للمـراقبـة، ونتصـور وجـود حصن آخـر على قمـة «تل غينة»، يصعب، مع الأسف التنقيب عنـه فتلك الأبـراج وهـذه الحصـون المتـوضعـة بجوار الطرق الرومانية الرئيسية، سهلت مراقبة كامل المنطقة الممتدة من «بصرى» الى البادية الشرقية، وبالوقت نفسه مراقبة الطرق ونقل الاشارات الضوئية للاستعلام السريع باتجاه بصرى. هذه الفرضية التي ذكرها M. dunand . لدى تحدثه عن طريق اللجا. تبدو أكثر واقعية بالنسبة للمنطقة الجبلية(**).

وعلى كل حال اذا بقي نظـام الاشـارات التي أوحت به الطبـوغرافيا المحلية، وشروط الرؤ ية الممتـازة، والتقنيـات العسكـريـة الـرومـانية، والأثار المراقبة، فرضيةً، فإن طرق المرتفعات الرومانية تنم عن رغبة جامحة لتسهيل خطوط سيرها حتى أقصى درجة، ولربطها ما أمكن في مدينة بصرى.

ان طرق الصفا وطرق منطقة «امتان» هي الأخرى طرقاً للتفتيش وللدخول. فالصفا باديـة كانت في القـديم مأهولة بالبدو الرحل (الصفويين)(**)، والتغلغل الوحيد للرومان فيها كان يتمثـل بوجـود القـلاع التي كشفها P.Poindebard وكان هدفها مراقبة منابع المياه، ومن وراء ذلك، وضع الرحّل الذين كانوا يرتادونها. والأمر ذاته مطبق في خربة الأومباشي، حيث كان ينطلق منهـا ثلاث طرق رومـانيـة الى «بـيركسب» والى «نـمارا» مع طول طريق وادي الشام الذي ينطلق من الجبل الى الرشيدة. وكذلك تعززت في منطقة «امتان»، حيث تكثر القلاع الرومانية التي تحولت الى أديرة في زمن الامبراطورية البيزنطية، تعززت مراقبة البادية ونقطة نهايـة طريق القـوافـل المـارة في «وادي سرحـان» بانشـاء قلاع مثل الأزرق أودير الكهف. . وطـرق أخـرى رومـانية كانت قد خصصت لتخديمها. ان النقوش والرسوم الموجودة في هذه المخـافـر العسكـريـة مع بعض الـترقيـمات الألفية، تعود الى الولاية الريفية أو الى السلالة الحـاكمـة (كـونستنتنـو - فالانتين constantino- valentinienne) هذه حالة الترقيم الألفي في

الشبيكي المار ذكره. وخاصة الترقيم الذي عثر عليه على بعد ٨ كم شمال شرق «السعنة» والذي يدل بوضوح على تاريخ بناء الطريق الذي عُثِرَ بمحاذاته على الكتابات التالية: طرق ديوكليسيانوس وقسطنطين العظيم.

CTPATA- DLOCLETIANI MAXIMIANT ATT CONSTANTINNI

هذه الترقيمات الألفية في «أم القطين» التي تحمل تاريخ نفس العصر تقريباً(٥٦) وكذلك حالة النقوش(٥٧) المتعلقة بترقيم القلاع كما في الأزرق. Constantino Haximo/ PIO, Victoire Ac trivmfatore Semper/ Avgvsto Et Constantino Et/ Constantio, N(o) B C. illissimis) CAES (aribus) AEDEM (?) inevria Vetvstate/ Parietvm, Rvina Conlapsam/ Refiei (?) IVSSET (٥٨). هذه الأدلة الواردة في النقوش، تتيح لنا أن نعرف بأنه لولا انشاء شبكة الطرق، واقامة المنشآت العسكرية، في تلك المنطقة المنتشرة على المحيط، وفي ذلك العصر، لأحدثت أعمالاً كبيرة بقصد تأمين تلك المنشآت.

٣ ـ ٤ الخلاصة:

تتيح البيانات الواردة في النقوش، والبحث الآثري التاريخي، استخلاص تسلسل الأحداث التاريخية المترابطة جداً، المتعلقة بانشاء الطرق الرومانية في حوران. وكانت الادارة الحسنة للامبراطورية تستدعي بالدرجة الأولى، حسن الصلات بين «بصرى» والمراكز الرئيسية في الشرق الأدنى كما أن الطرق الرومانية الوحيدة التي ثبت وجودها في القرن الثاني الميلادي هي التي كانت تربط بصرى بدمشق وبطبريا ـ بواسطة درعا وبفيلادلفيا (عمان) وهذه الاتصالات الثلاث وهي الوحيدة التي وردت في لوحة Peutenger. الأمر الذي ينزع الى اظهار البيان بأن مصادر هذه الوثيقة المتعلقة بالنطقة التي تخصنا، تعود بتواريخها الدقيقة نوعا ما، الى القرن الثاني الميلادي.

أما الترقيمات الألفية المكتشفة شرق خط (عمان ـ بصرى ـ أم الزيتون ـ دمشق) فهي جميعها لاحقة لهذا التاريخ. غير أنه يمكن اعتبار القرن الثالث الميلادي تاريخاً واضحاً لانشاء الطرق التي تنطلق من شهبا، والتي تربط «الأزرق بصلخد وبصرى»، وقد عثر .Dl Kennedy في الأزرق، على عدة ترقيمات ألفية من ٢٠٩ إلى ٢١٠.

(Arhaeological explorations in north- Eastem Jordan 1982 P.P.170-175) وأخيراً لايوجد أي من الترقيمات الألفية الاخرى المعروفة في شرق وجنوب الجبل، التي تسبق تاريخ (Jetrarchie) حكم الولاية الريفية وهو عهد اعادة تنظيم عمران الـ Strata Dioclitiana واعتباراً من أوائل القرن الثاني الميلادي الى أوائل القرن الرابع، كشف عن تطور منتظم للطرق الرومانية من الغرب الى الشرق بالاعتماد على المسالك والطرق الرئيسية ذات اتجاه شمال ـ جنوب.

٤ ـ مهمات الطرق

٤ ـ ١ التحرك العسكري:

تبدو شبكة الطرق الرومانية في حوران، وكأنها تنظيم ذو طابع عسكري بصورة رئيسية، وهي ليست مهيئة تماماً لتسهيل الدفاع عن المنطقة ضد هجمات القوات الأجنبية (كما هو الحال في الشمال على أطراف نهر الفرات)، بمقدار ما يقصد منها تأمين تنقلات الجيش السريعة في منطقة تتميز بأرض وعرة (جبال وحمم بازلتية) عند التماس مع البدو الرحل الذين كان يصعب اخضاعهم كلياً، والسكان غير المنضبطين، مثل في منطقة الـ trachontide (منطقة صخرية تمتد من شرقي الاردن وحتى جبل العرب) الذين كانوا يستطيعون تهديد المبادلات التجارية بين دمشق وبصرى. هذه الشبكة التي وضعت كامل طرقها الرئيسية تحت سيطرة الانطونيين، والتي دامت حتى تحت حكم عائلة ساويروس Séveres بقيت مستخدمة دون اصلاحات تذكر خلال القرن الثالث الميلادي (باستثناء زمن حكم فيليب العربي الذي زاد من تنمية طرق منطقة «شهبا» بشكل خاص) قبل ترميمها وتوسيعها في عهدي ديوكليسيان وقسطنطين. وقد طبقت المراقبة العسكرية على المنطقة جيداً، تحت حكم تيودور الثاني بتمركز قطعات متعددة في حوران كلها. كما يشهد بذلك سجل النبلاء Notitia Dignitatuem المنشور في عام ٤٢٥ ميلادي. ومن بين الثكنات المعروفة باسماء موقعها المشهور، نذكر وجود خيالة الالير يكيلون وهم الخيالة الرماة المحليون في Motha «إمتان» scutarè illyuéami ź (Molha) (Imtan) des équites promoti illysicami á (salkhad) des quites sagittarü indigenae á Diafenes (Mismiyyeh)é ومن الفرقة الثالثة اللّير ينانيكية (III-e legion eyrenaique) في بصرى وغيرها.

equites Promoti Illysicami á trieamia (salkhad) des ǫuitts sagittarü indigenae ومن الفرقة الثالثة السيرنائكية في بصرى وغيرها.

ويمكن الوقوف على الطبيعة العسكرية، لشبكة الطرق هذه اذا امعنا النظر في مركز بصرى، عاصمة الولاية العربية الرومانية. فقد تمركز الفيلق الثالث اللير يناليكي فيها بعد الاستيلاء على الولاية الجديدة بزمن قليل، وتواجد دوماً في بصرى تحت حكم تيودور الثاني، وكان تعسكره الدائم في الجزء الجنوبي منها، وأفادت النقوش المتوفرة بأن مهمته لا تنحصر في القتال ضمن مواقعه فقط بل بالانطلاق من قاعدته للتدخل في كل مكان من الشرق تقريباً والقيام بحملات كبيرة وتدخلات قد تصل الى مواقع في أقصى الجنوب العربي. وقبل تمركزه في بصرى كان قد دعي للتدخل اثناء الحرب اليهودية الأولى. وفيما بعد اشترك في حرب الامبراطور تراجان، والحرب اليهودية الثانية، اشترك في حرب كاراكلا ضد الفُرس[٥٩] ويمكن لمس اثار تمركز بعض الوحدات من هذ الفيلق في مواقع مختلفة من الولاية العربية،

وحتى البعيدة منها مثل (مدن صالح) شمال الحجاز الواردة في النقوش التالية[٦٠] (مترجمة حرفياً، غير أنها ناقصة ـ خط ـ اوريابوس ـ الرسام).

وفي الأزرق، كما أشار Astein الى نقش على حجر يذكر أن خمس وحدات من الفيالق كانت «حسب الظاهرة» ملتزمة في انشاء طريق، وقد وجد الحجر مفقوداً. غير أن M. Bowersoek أكد بأن Stein قد صوّر حجراً يمكن قراءة مادوّن عليه[٦١] Div- Rian vexili- III cyr ويوجد الكثير من الادلة التي تتيح استشفاف دور الفيالق العسكرية في انشاء الطرق الرومانية في حوران. فهناك مخطوطة (Papyrees) لكرانيس (karanis) محررة في «بترا» عام ١٠٧ ـ من قبل جندي يعود لأحد الفيالق، تفيد بأنه كان يوكل إلى عساكر الرومان، تقصيب الاحجار خلال النهار بكامله[٦٢] والسيد M. Sarter ضمن مؤلفه: «ثلاث دراسات حول الولاية العربية والرومانية والبيزنطية ـ بروكسيل ١٩٨٢ ـ ص ٨٠) يرى في هذه الطرفة، شهادة على انشاء طريق via nova الذي أنشأه الامبراطور تراجان في حوران بواسطة الفيلق الثالث الذي مر ذكره (والذي كان سريع الحركة) ليتاح له التدخل في أي مكان أو موقع عبر هذه الشبكة.

٤ ـ ٢ التنقل التجاري:

يصعب ذكر تفاصيل جميع الشروط المادية، التي كان التنقل سائداً بموجبها في المنطقة، خاصة عند غياب المصادر التاريخية الواضحة. وفي الشرق الأدنى أمكن استخلاص تطور عام، كان يميل، خلال الألف الأول قبل الميلاد، الى الغاء العربات ذات العجلات التي كان يحل محلها حيوانات الجر[٦٣]. وبينما أظهرت النقوش البارزة الآشورية، في القرن السابع قبل الميلاد، أن سكان فلسطين المبعدين، كانوا يشكلون قوافل محمولة على عربات ذات عجلتين وعلى حيوانات الجر[٦٤]، تأكد، في زمن سادت فيه المنافسة بين هاتين الطريقتين من التنقل، ان الافضلية كانت لصالح التنقل على ظهور الحيوانات بحجة أن هذه الطريقة هي الاكثر اقتصاداً[٦٥]، وقد لاحظ ذلك زائر غربي للاماكن المقدسة في القرن السابع الميلادي أنه في اليهودية كلها يندر ان يصادف المرء حتى عربات الخيل[٦٦] [١٠*].

لا يشمل هذا التطور سوى المناطق المأهولة بالسكان. أما في المناطق الصحراوية التي يقطنها الرحل الذين يقتنون الجمال فكان لابد من الانتظار حتى بدء القرن الثاني عشر الميلادي ليتم التدجين الكامل لهذا الحيوان (الجمل) وحتى يمكن القيام بالهجرات الى مسافات طويلة[٦٧]. علماً بأن ظهور السرج العربي (نموذج الشداد) خلال الألف الأولى الميلادي، جعل من الممكن. نقل الاحمال الثقيلة وتمنطق المحاربين الراكبين بالرمح والسيف متمتّعين بإمكانية احتمال قوة الصدمة[٦٨]. وفي هذه الحالة اجتمع في العربي شروط القدرة

الاقتصادية والسياسية. الأمر الذي دعا الى توقع ظهور السير والتنقل بقوافل الجمال التي لعبت دوراً كبيراً في حوران القديمة.

وقد ثبتت هذه السمات العامة، آثار وصروح المنطقة، ويبدو أن السير بالعربات ذات العجلات، لم يكن مؤكداً التأكيد الوافي[١١٥]، بل يعتقد أنه كان محصوراً في الداخل وفي حواضر المدن فقط. ولم يلاحظ على أرضية طرق المدن، مثل بصرى أو شهبا، أية آثار لعجلات العربات، كما لوحظت مثل تلك الآثار في الغرب، وفي جرش، أيضاً. وتجدر الاشارة هنا الى جزء من نقش بارز كاد يندثر، شوهد في موقعه في (منارة هانو manara Hanu) على جانب طريق اللجا، تمثل آثار عجلة من العربات اللوحة (IIIbo) [٦٩]. وقد يتعلق الرسم بتمثيل طابعه ديني، كعربة المواكب المنقوشة على العملة الفيلادلفية[٧٠]، وبموضوع مرتبط بالطريق الروماني المجاور، وعلى كل حال، فإن الطرق التي تقود إلى القرى الأثرية القديمة المبعثرة في اللجا، لم تكن قابلة لسير المركبات ذات العجلات، ومع ذلك، فإن مجموع الطرق الرومانية المعبدة بالحجارة كانت عموماًمتوافقة مع هذا النموذج من السير فيها اذا تمت صيانتها بشكل مناسب[٧١].

ان الادلة حول التنقل بواسطة الحيوانات كثيرة جداً. وهناك نقش بارز في متحف السويداء اللوحة (IIId) يمثل حماراً يحمل حملاً يقوده صاحبه[٧٢]. وهناك أيضاً نقش من الموزاييك في دير العدس اللوحة (IVb) محفوظة في مجموعة المنحوتات في بصرى، ويمثل قافلة صغيرة من الجمال المحملة يقودها رجل خفيف التجهيز[٧٣]، فالجمال ليست كثيرة، ولا يوجد معها مرافقة كبيرة، ولا شيء يشير الى العدد أو القوة التي كانت تزود بها القوافل الكبيرة التي تجتاز الصحراء (أو الجيوش أثناء المسير) المستدعاة من قبل Strabon [٧٤]. ربما كان ذلك الرجل فلاحاً يتجه الى السوق عبر البرية، وهو مشهد الحياة اليومية السائد في العصر المتأخر في حوران القديمة.

نجد صدىً لوصف سير قوافل الجمال في سك العملة في بصرى، التي كانت تمثل مع دمشق، محطة الوصول للقوافل القادمة من الجنوب[١٢٥]. وعملات بصرى تتخذ صورة الجمل كشعار لها[٧٥] وكان الجمل يتمثل لديها طليقاً، متجهاً الى اليمين، يمتطيه أحياناً رجل رافعاً يديه (إليه دون شك). ولكن لا يمتطيه أبداً محارب، وهو لا يحمل البضائع ـ هذه النقوش قد يكون لها طابع ديني يشبه صوراً (للآلهة الجمالة) المنقوشة على قسائم تذاكر دخول مسارح تدمر[٧٦]. لنلاحظ ان هذا النوع من النقش على خلف العملة غير مطبوع على عملات المدن العشر أو عملات الولاية العربية، بل فقط على عملات بصرى. والجمل لم ينقش على عملات الامبراطورية الرومانية، الا كرمز للولاية العربية التي كانت بصرى عاصمة لها[٧٧].

تظهـر بعض هذه الآثـار الدور البارز لمسيرة قوافل الجمال في الحياة الاقتصادية لحوران القـديمـة، غير أنـه حتى الآن، تنقص الـوثـائق والمستنـدات، لمعرفة فيها اذا استخدم هذا الحيـوان في التجـارة خلال العصـر الـرومـاني كما هو اليـوم(١٣٥). يقـول السيـد بلين ان التي تقطعهـا قوافـل الابل في العصور القديمة يومياً فقدرها: بموجب الأرقام المعطاة من قبله، ٧, ٢٤ ميلاً وهي تساوي ٣٧ كم(٧٨). وهذه هي النسبة الوسطية للمسافة التي يقطعها في نهار واحد جيش حسن التـدريب(٧٩). وعلى سبيـل المقـارنـة، هنـاك معطيـات بأرقـام تتعلق بسـير الحيـوان (الجمل) في المنطقة التي نحن بصددها تعود الى عام ١٩٣٠. فكانت الجمال تحمل ٢٠٠ الى ٣٠٠ كغ من البضائع. والبغال ٨٠ كغ، والحمير ٥٠ كغ، (وهكذا كان حمل القوافل التي كان يشـترك فيهـا الحيـوانـات الثـلاث عام ١٩٣٠) ولكن من غير المؤكد، أن هذه الأحمال كانت تطبق بنفسها في العهد الروماني). كانت القافلة تحط في نهاية اليوم بعد اجتياز مسافة ٢٥, ٣٠كم. وكـان يمكنهـا بدون حمل، اجتيـاز مسـافـة ٤٠ كم(٨٠). ولكن (les mensions comelorun) مانوّه به بليـن لربما كان يقصـد محطات وحدات الهجانة وليس القافلة المثقلة بالأحمال.

واذا عدنـا الى الميـدان الاقتصـادي نجـد ان النقل بواسطة الجمل الذي كان يناسب المنـاطق الجـافـة وشبـه الجـافة في الشرق الأدنى، كان بالوقت نفسه، مربحاً، بالنسبة لتلك البـلاد المحـرومـة من المـواصـلات البحرية. ان مرسوم «ديوكليسيان» حول الأسعار المؤرخ عام ٣٠١م، حددثت تعـريفـات النقـل المتنـوعـة، حسب الوسيلة المستخدم: فإن أجرة نقل الليبرة الواحدة من أصل ألف بواسطة (الجمال) هو أقل بـ ٢٠٪ تقريباً من أجرة نقلها بواسطة عربة جر أبقـار(٨١). والضـريبة المفروضة على «الجمال» هي أقل بكثير من الضريبة المفروضة على وسـائـط النقـل الأخـرى حسب القـانون الضريبي التدمري لعام ١٣٧م. ولكن بموجب الحالة الأخيرة، يكون الموضوع متعلقاً بأجراء هدفه حماية الفعالية التجارية الوطنية ذات الدخل المـربـح(٨٢). وعلى كل حال، فإن مثـل هذا الاجـراء المتخـذ في البـلاد التي كانت تسمـح طرقها الرومانية بسير عربات الجر، يحمل على الاعتقاد بأن الجمالة الذين كانوا يحتلون مكاناً متفـوقـاً، لم يحتفظـوا في سوريـة، خلال القـرن الثاني الميلادي، بالامتياز التجاري للنقل. وهي ظاهرة حصلت في بدء العصور الوسطى(٨٣).

مع أن حوران القـديمـة لم تكن تدرك الحـاضـرات الكبرى للقوافل، كما هو الحال في «تدمر» و«بترا»، فقد حبّذ بعض كبارها العمل في تجارة القوافل. وتضاريس جبل حوران مع قممـه المخـروطيـة الـبركانية، قدمت للجمالة نقاط علام منظورة من بعيد جدا، اذ بفضلها كانوا يتمكنون من التوجه الصحيح(١١٥). وعلينا أن نتذكر أنه في حال عدم توفر الطرق المعبدة بالحجـارة، كان المسـافـر يتـوجـه بواسطـة النجوم أثناء الليل، أما في النهار فكان يتم التوجه

بواسطة نقاط العلام المميزة[84]. وليس على سبيل الصدفة، ان الطرق الرومانية والدروب القديمة تنصب جميعها باتجاه التل البركاني لصلخد المنظور دائرياً على بعد عدة كيلومترات. وبقيت بعض المناطق صعبة السلوك للقوافل، مثل اللجا والجبل والحرة (Harra) المغطاة بالحصى الصغير الحاد والقاطع الذي يجرح أرجل الجمال[85]. ولتسهيل الوصول الى مركز القوافل في بصرى، فقد تم، في العصر الروماني انشاء طرق معبد محمية بالأبراج في اللجا والجبل، كما تم تبليط الطرقات بالحجارة في «الحرّة»[86].

بالاضافة الى هذه الخصائص الطبيعية، وهذه التحضيرات الأساسية، كانت القوافل في حوران تلقى الكثير من التسهيلات في مجالات شتى، بالقرب من مواقع «الصفويين» الذين كانوا يحتلون المناطق الشرقية والجنوبية من الجبل جاوا (Jawa) نمارا (namara) وعدة مواقع أخرى شرق اللجا. وبالقرب من مربي الخيول والجمال والحمير[87]، كان يتيح لتلك القوافل اقتناء الحيوانات بسهولة، كما أن سلسلة المخافر الرومانية المحصنة والمتمركزة بصورة مفضلة على نقاط المياه، كانت توفر الحماية النسبية ضد البدو الرحل وقاطعي الطرق، كما أن (Phrauria) الفروريا المشهورين، كانوا يقومون بمهمة الضابطة الجمركية في العصر البيزنطي[88]. وكانت البركة تؤمن الشرب للحيوانات والتزويد بالمياه من جديد للمسافرين. واسم «بركة الحج» في بصرى يفيد بأنها كانت مخصصة للمسافرين بصورة أساسية. وكان في بصرى في العصر الروماني جماعة من صانعي القرب لهم أمكنة مخصصة على المسرح[89] وكانت نشاطاتهم مرتبطة بالقوافل التي كانت ترتاد المدينة.

ومع انحطاط حاضرات القوافل في «بترا» ثم في «تدمر»، فقد ازدادت نسبياً أهمية المراكز الأخرى لهذه القوافل مثل دمشق، وبصرى في نهاية العهد القديم. وتفيد المراجع الأدبية العربية التي درسها P.Lammens [90]، بوضوح، عن أهمية تجارة القوافل المتجهة نحو «حوران» في القرن السادس والسابع للميلاد. وقوافل الحجاز التي كانت تراقبها، لدى دخولها الى الامبراطورية الرومانية، حيث كانت اللجان التجارية تصل الى مدن غزة وبصرى[91]. يبدو أنه لم يكن يسمح للبدو بالذهاب بعيداً نحو الشمال. وبدت بصرى وكأنها مكان لفك الترحال[**]،حيث منها يعاد نقل العطور العربية الجيدة وزبيب الطائف والجلود والمنتجات الأخرى الحجازية[92] الى دمشق والى فلسطين أو لبنان، بينما العرب كانوا يتزودون بالمنتجات السورية. وكانت هذه التجارة مراقبة بدقة متناهية، حتى أن البيزنطيين كانوا يمنعون تصدير بعض المنتجات المطلوبة بكثرة، مثل الذهب والسلاح والزيوت، والنبيذ[93]، ومع الحبوب المسموح بتصديرها، تكون جميعها من عداد منتجات حوران الرئيسية. وكان يوجد طائفة من صانعي المجوهرات في بصرى، على الأقل خلال العصر الروماني[94]. وأيضاً من صانعي الأسلحة[95]. ولا بد من الاشارة أيضاً الى

صناعة الأسلحة الشهيرة بدمشق، وقد أكدها سجل النبلاء Motitia Dignitatum الصادر في القرن الخامس الميلادي[٩٦]، واستمرت شهرتها حتى القرن ١٩، وأخيراً كانت زراعة الكرمة والزيتون هامة جداً في الجبل، وكانت تصل هذه المنتجات الى الحجاز بفضل الاتفاقات التجارية التي كانت تجري مع رؤساء القبائل الغسانيين، الذين كانوا، في ذلك الزمن، يقومون بتفتيش ومراقبة طرق «حوران» التي تبعد عن مراكز المدن.

أصبحت بصرى ابان العصر البيزنطي، وكأنها مركزاً لسوق واسع جداً، استناداً للمصادر العربية، وكانت المدينة مُسوّرة، وكان ترحال القوافل يحط عند أسفل الأسوار والتجارة التي مارسها النبي «محمد» في طفولته، والتي كانت تجري حسب الاعتقاد في الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة، وفي حدود المكان الذي كان يعتقد أنه معسكراً للفيلق، وحسب الحديث والرواية، كانت تنوخ ناقة النبي في هذا المكان، أثناء السفر، وقد شيّد على أرضه مسجد في مطلع الاسلام دعي (مسجد مبرك الناقة) أي المكان الذي كانت الناقة تبرك فيه[٩٧]. وقد يكون لهذه التسمية، التي لا تأتي بصراحة على ذكر النبي، مصدر قبل الاسلام يشير الى ذكرى المحطة الأخيرة للقوافل.

٤ ـ ٣ المواصلات بين القرى: والمواصلات بين المدن:

ان آثار تقسيمات الأرض القديمة، من حيث وفرة ونوعية ضرائب العصر الروماني، وبعض ينابيع المياه التي بقيت حتى وقت متأخر[٩٨]، تثبت بأن حوران كانت في القديم منطقة زراعية وغنية جداً في انتاج الحبوب في «النقرة» ـ والاشجار بالجبل، ونتيجة لهذه الفعالية، يفترض وجود شبكة ريفية كثيفة، كانت تستخدم لنقل مختلف المنتجات نحو الأسواق، مثل بصرى ـ دمشق أو نحو مدن فلسطين. ان غياب آثار الطرق المعبدة بالحجارة في «النقرة» تدعو الى الاعتقاد، بأن مجموعاتها السكنية كانت ترتبط فيها بينها، بواسطة الطرق الترابية. وقبل الحرب العالمية الأخيرة. كان هناك مثل هذه الطرق في هذه المنطقة، مشكلة حول كل قرية بما يشبه نجمة (عقدة اتصال). وهذا ما كان يتفق مع انظمة الصيانة القديمة المتبعة في الأراضي، ومما لاشك فيه فقد حافظت الطرق المعبدة على طرق هذا الموضوع أكثر من ذلك.

ان حركة المرور المدنية التي كانت تختلط مع حركة المرور العسكرية على الطرق الرومانية جعلت حياة سكان المدن الرئيسية صعبة، وقد انشئت خانات سميت باليونانية «Eenwnes» وفق النقوش المكتشفة ـ لحل مسائل الإقامة. عرف منها اثنان في حوران على طريق دمشق ـ بصرى، في مدن المسمية والسويداء[٩٩].

الخلاصـة

إن أهم ماقدمه هذا البحث، كان وضع طبوغرافية واضحة للطرق الرومانية في جبل حوران وجـواره . ومع ذلك لم تتناول الطرق الرومانية فقط . ووسائل البحث التي أجريت هنا (من معـاينـة الصـور الفـوتـوغرافية الجوية، والتحقق على أرض الواقع خلال عام ١٩٨٨ / ١٩٧٨)، لم تطبق بصورة منتظمة في البحث حول طرق المواصلات الثانوية التي كان يسيطر عليها الأهالي والتي كان يرتبط بها العديد من قرى حوران .

ومـوضـوع آخـر لبرنـامج الأبحـاث هذا يمكن أن يدرس دراسـة دقيقة، العلاقات القـائمـة للطـرق بين الطـرق الـريفية في منطقة الجبل، حيث الكثافة لآثار الطرق الرومانية فيها، مهمة جداً(*١٦) .

من جهـة أخـرى، فإن الـوضوح الطبوغرافي الذي أمكن الحصول عليه هنا في الجبل غير متـوفـر في النقـرة، وفي أطـراف الجـولان، نظـراً لنقص الصـور الفوتوغرافية الجوية التي تكشف عن هذه المنـاطق . وهـذا الشـك يترك موضوع الطريق المستقيم الذاهب من دمشق الى درعـا معلقـاً(*١٦)، وهو اليوم على غاية من الأهمية، ولوكنا غير متأكدين بأنه ينطبق على طريق روماني قديم سبق انشاؤه .

ان امتـداد البحث نحـو فلسطـين ـ تدمـر ـ والاردن، يسمـح بتحديد مدخل خطوط السـير الكـبر ى الستر اتيجيـة والتجـاريـة بدقـة أكـبر، دراستهـا الحالية ابانت الالتقاء مع «بصـرى» وهـذا أيضـاً يتطلب الأمـر، بصـورة خاصة، الاهتمام بالدراسة حول المعسكرات العسكـريـة الـرومـانيـة في الشـرق من الجبـل وزيادة الدقة بتحديد الطرق الستراتيجية غير المعـروفـة تمامـاً حتى الآن في هذا القطـاع . على سبيـل المثـال : خط السير المستقيم Strata Diocletiana ، الذي لا يزال موضوع مناقشة وخلاف Controvers .

وأخـيراً، ستجـري دراسة عميقة حول الشروط التجارية التي كانت سائدة في المنطقة في العصـر الـرومـاني حيث لا تزال معلومـاتنا نادرة جداً . وحتى بالنسبة للعصر البيزنطي(١٠٠) وأيضـاً ستجـري دراسـة منتظمـة حول تجمـع النقوش الأثرية الصفوية التي قد تساعد على المعـرفـة الحقيقيـة لمدى فائـدة استخدام الطرق الرومانية أوبالعكس، مدى مضاعفة فاعلية الطرق التجارية الكبر ى . حول خطوط سير القوافل التي كانت ترتاد مدينة بصرى في القرن الأول وحتى القرن الخامس الميلادي .

th- Bauzou

p.s ان هذه المقـالـة التي كتبت خلال عام ١٩٨٠، وتم تنقيحهـا عام ١٩٨٢، تشـرح بطريقة تركيبية وضع المسألة الراهن في هذا التاريخ وعام ١٩٨٥ جرى تحديث فهرسة بعض

المراجع والنقاط. ولا تزال معلوماتنا حول طرق المواصلات في حوران تتطور وتتعمق، على سبيـل المثـال: العثـور على نقوش، من قبل منقبين انكليز في منطقة الأزرق أوضحت مدى فعالية الطرق الرومانية في هذا القطاع تحت حكم سيتيم سفير.

وبـدون العـودة الى تكـرار المنـاقشـة حول النتـائـج الرئيسية لهذا البحث، نذكر بأن التنقيبات الأثـرية هي حالياً نشطة جداً في سورية الجنوبية وفي شمال الأردن، حيث تظهر في كل عام المكتشفات الجديدة.

مراجع البحث

المـراجـع المـذكورة ادناه تتناول الترقيات التي عثر عليها على طول الطرق الرومانية التي تمت دراستها هنا. البعض من هذه الصّواة (احجار تنصب كل ألف خطوة على الطرق الرومانية) خرب خلال العصر الذي وضع فيه، والبعض الآخر اختفى.

آ ـ ترقيات ميلية على طريق اللجا من المسمية الى عريقة.

السيـد دونـالـد ـ الطـريق الروماني للّلجا. Mem اكلنسو١٣، ١٩٣٠ ـ ١ ـ ٢ ص ٥٢١ ـ ٥٥٧.

ب ـ الترقيات ميلية de la via nova traiana (من بصرى الى عمان)

١ ـ «جرمر دوران» عرض حول الاستكشافات الأثري، خلال عام ١٩٠٣، للطريق الروماني بين «عمان وبصرى» المجلة الهندسية JHS ١٩٠١ ـ ص ص ٣ ـ ١١.

٢ ـ وبرونو ودومازويسنكي، الولاية العربية، ستراسبورغ. ١ ـ ٤٤ ـ ١٩٠٥ ص ٢٢١ sq

٣ ـ د. ماجي PPUAES ـ ٣ ـ A ـ ٢ ملحق ١٧ ـ ٢٨.

٤ ـ ب كومسون oie ronischen Meiliusteine للولاية السورية (العربية وفلسطين) 20 pv ـ ١١ ـ ١٩١٧ ص ٣٤ ـ ٤٧.

ـ CH ـ ٣ ـ ١٤٥٠ ـ ٥، ٦، ٧.

٥ ـ م. سارتر ١. ١. الى ـ ٢٢ ـ ١٩٧٢ ص ١٧١ (بالنسبة للميل رقم ٤ بدء من بصرى.

ـ IGLS ـ A ـ رقم ٩١٠٠ و٩١٠٢.

جـ ـ ترقيات ميلية عثر عليها في قلعة (فدين)

١ ـ ر. ديسّو رحلة رقم ١١٥ ـ ١٥٠.

٢ ـ جـ. جرمر دوران ـ art - cit ص ١٢٤٤.

٣ ـ برونو ودومازويسكي op- cit- ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

٤ ـ ب ـ تومسون art - cit ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

د ـ نقوش تتعلق بطريق «بصرى ـ طبريا» .

١ ـ جسر الطيبة

ر. ديسّو الرحلة رقم «١٥٤»

ـ جـ جرمر دوران art - cit ص رقم ٥٤ .

ـ ترقيمات ميلية لعدد ٩٣ ألفاً اعتباراً من Hamathra

ج . ب ده كوكبيس - AAS ـ ١٩٦٥ . ١ ـ ص ٧١ رقم ٧

م ـ سارتر IGLS ـ ١٣ رقم ٩١٠١ .

هـ ترقيمات ميليه بصرى لمسافة ٩٣ ميل اعتباراً من «حماتا» Hamatah .

١ ـ ج . ب دوكوكييسو AAS ١٩٦٥ ـ ١ ـ ص ٧١ رقم ٧ .

٢ ـ م سارتر، IGLS ، ١٣ رق ١٩٠١ .

و ـ ترقيمات ميلية «صيحا» .

ـ E ليتمان، PPUAES ، ٣ ـ A ـ ٢ ـ رقم ٤٤٤ .

ز ـ ترقيمات ميلية «ام القطين»

١ ـ ر. ديسّو رحلة رقم ٨٧ .

٢ ـ E ليتمان، PPUAES ـ ٣ - A - ٢ ـ رقم ٢٠٥ ـ ٢٠٨ .

ح ـ ترقيمات ميلية «تل الغربة» بين صلخد وأم القطين

ـ ر. ديسّو ـ رحلة رقم ٤٠٢ .

ـ ترقيمات ميلية في الشبيكي : R. Dussaud رحلة رقم ٧٣

P. Thomsen (art, cite صفحة ٣٠ .

ـ ترقيمات ميلية Strater Diocletiana على بعد ٨ كم في شمال شرق السعفة

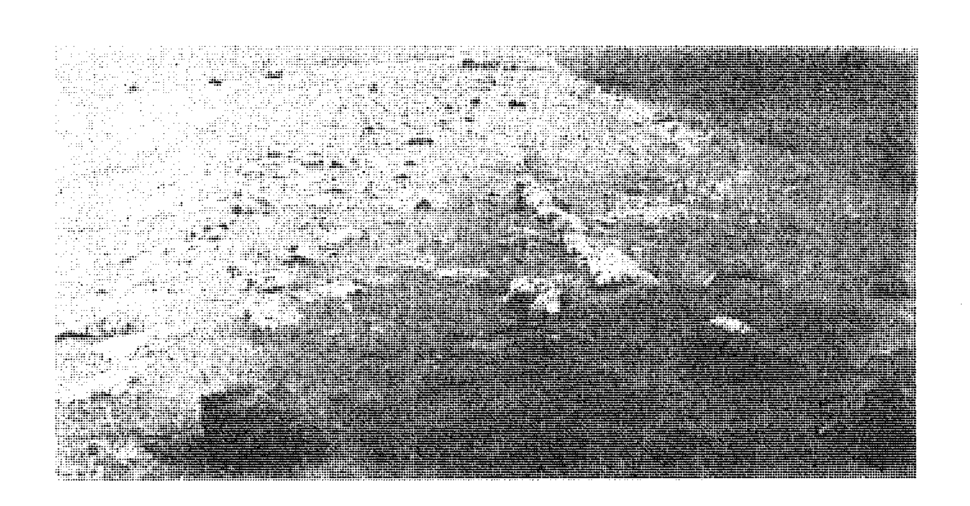
السيد دوناند NL II RB strater Diocletiana عام ١٩٣١ ص ٢٢٨ .

ـ ترقيمات ميلية في منطقة الأزرق .

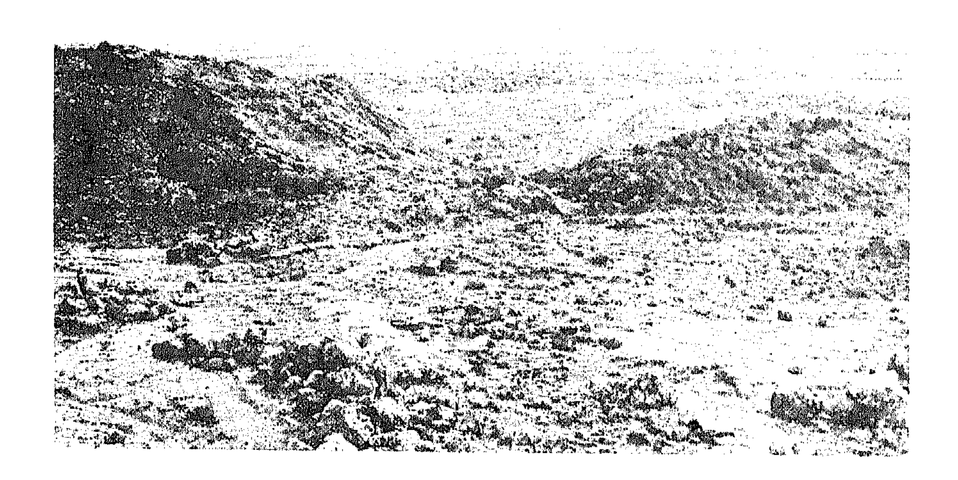
D. L. Kennedy : التنقيبات الأثرية على التخوم الرومانية وشمال شرق الاردن

BAR, I net, S عام ١٩٨٢ ص ١٦٢ ـ ١٨٣ الأرقام ٢٨ ـ ٣٦ .

ان مجموعة الترقيمات الميلية لطريق Via nova trouana بين بصرى وفيلادلفية ستجمع في مدونة Corpus osc hanstif شاملة، تحتوي على العديد من الوثائق غير المطبوعة (t. Bauzou ان طريق تراجان الروماني بين بصرى وفيلادلفية، في خربة السمرة، .D.A) Desreumaux et J. B Hambert (قيد التحضير) .



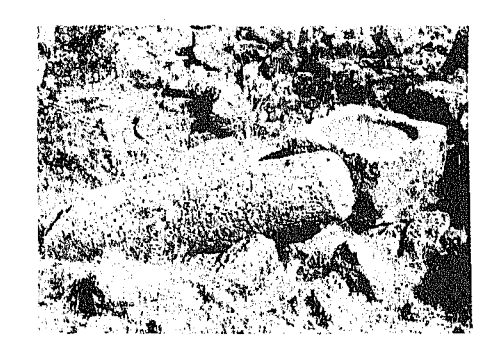
أ ـ الطريق الروماني ـ من بصرى الى جيرازا (Gérasa) قرب أم السراب



ب ـ الطريق الروماني في «اللجاء» بين التدفقات (الحمم) البازلتية

أ ـ طريق روماني في «اللجاء» ـ قرب منارة الحنو ـ قاعدة الترقيم الميلي مع البرج

ب ـ نفس الطريق ـ مع ردم منخفض



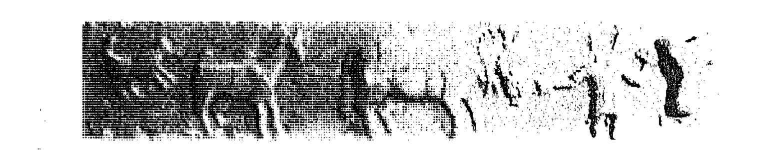
أ ـ طريق روماني في اللجا
قرب منارة الحنو ترقيم
ميلي مع قاعدة



ب ـ تضريس عليه دولاب من حجر في سحر saher



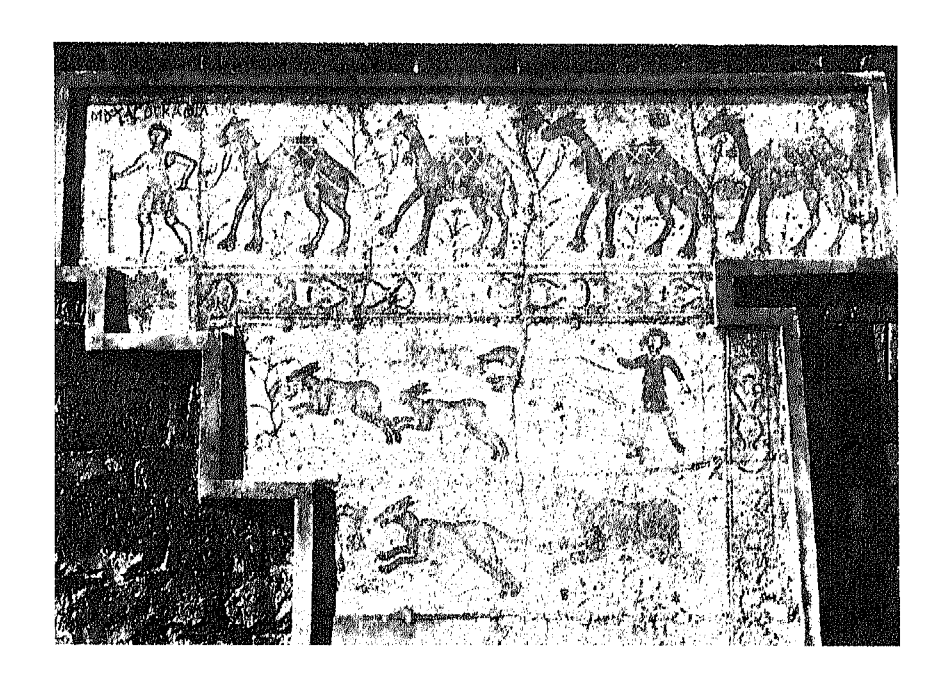
ج ـ تضريس، عليه دولاب في منارة الحنو



د ـ تضريس مع نقوش (قافلة من حمير) في عين الرمان ـ متحف السويداء رقم ٢٣١ .



أ ـ جسر روماني في جمرّين ـ قرب بصرى ـ



ب ـ موزاييك في «دير العدس» في متحف مجموعة المنحوتات في (قلعة بصرى).

هوامش

١ ـ فيما عدا الخريطة العامة التي هي ملحقة بهذا المؤلف التي هي بمقياس صغير، يمكن عند طلب الاستدلال على توضيح المسائل الطبوغرافية للرجوع الى خرائط ذات مقياس ١/٥٠٠٠٠ التي هي اكثر تفصيلاً بالنسبة لحوران.

٢ ـ C. F خريطة مقياس ١/٥٠٠٠٠ الصنمين.

٣ ـ الطرق البرية والبحرية في عصر انطونيوس واغسطس o Gunz- ed الطرق الرومانية ليبزيغ ١٩٢٩

٤ ـ D. Sourdal الموسوعة الاسلامية S.V بصرى.

٥ ـ M. Dunanad طريق اللجا الروماني mém Ac, Inscr XIII ـ ١١ ـ ١٩٣٠ ـ ص ٥٢١ ـ ٥٥٧.

٦ ـ PPUAES ٣ ـ A ـ ٥ ص ٣٠٣.

٧ ـ Dunand ef - ٩ seg المرجع نفسه.

٨ ـ D. H. Kennedy التنقيب عن الآثار (. . . .) في الشمال الشرقي للاردن ـ BAR Serie international ١٣٤ ـ ١٩٨٢ ص ١٥٧.

٩ ـ Ibid المرجع نفسه.

١٠ ـ A. Poidebard آثار روما في صحرا (بادية) سورية XVIII BAH ١٩٣٤ الخريطة.

١١ ـ Appendix - PPUAES,III A2 ص ١٤.

١٢ ـ cit- op- D, A. Kennedy ص ١٥٢. A. Desereumaux et J. b, x Humbert خربة السمراء (قيد الانجاز).

١٣ ـ ر. دوسّو ـ و ـ ف. ماكلر، رحلة ص ٤٣٣.

١٤ ـ PPUAES, III, A, 2 من رقم ٢٠٥ الى رقم ٢٠٨.

١٥ ـ Supra- CR. رقم ١٣.

١٦ ـ R. DSussaud et F. Macler, Mision. P. 290 No 154: J. Germer- Durand, Bull, Arch, CTHS, 1904. p. 32. No 51.

١٧ ـ Die Ramisch Strasse von Gerasa nach Adraa- S. Mittmann 2 DPV ، ٨٠ ـ ١٩٦٤ ص ١٤٣، ADAJ ـ ١١ ـ ١٩٦٦.

١٨ ـ A.A.S ـ ـ ١٩٦٥، ص ٧١، رقم ٧.

١٩ ـ RB- 1931- m. Dunand, La Strats Diocletiana ٤٢ نيسان ص ٢٢٧ ـ ٢٤٨ (تموز صفحة ٤١٦ - ٤٣٤) تشرين أول ص ٥٧٩ ـ ٥٨٤.

٢٠ ـ c.f خريطة مقياس ١/٥٠٠٠٠ خربة الاومباشي.

٢١ ـ من المفيد الاستعلام عن تاريخها دون التعمق في الدراسة. ولكنها ترجع الى ركائز بعض الأبراج الرومانية التي امكن مشاهدتها قرب قنوات.

٢٢ ـ Cf- Suppra- P. Geutelle.

٢٣ ـ Cf. Supra رقم ٦ ورقم ١٦ .

٢٤ ـ يمكن مقارنة هذه البنية مع بنية الطريق الروماني بين انطاكية وشالسي الذي درس من قبل السيد يونديار وموتارد في مؤلف سورية ١٠ ـ ١٩٢٩، ص ٢٢ .

٢٥ ـ F. Salame ـ الطرق الرومانية في افريقيا الشمالية . الجزائر ١٩٥١ ، بالنسبة للعربية ef مثلاً : برمو ودومازويسكي ـ الولاية العربية ١١ ـ ص ٢٤ .

٢٦ ـ Cf Waddingtsn رقم الحاشية ٢٢٦٤ .

٢٧ ـ F. M. A. bel جغرافية فلسطين ١١ ـ صفحة ٨ ـ ٩ .

٢٨ ـ D. Bedford دراسة في تاريخ الآثار في الاردن (يجب ان لايختلط مع الندوة الحديثة التي نشرت من قبل (آ ـ حديدي) وقد ذكر ذلك F. H. Abel -op- cit ـ ص ١٠

٢٩ ـ المرجع نفسه ـ ص ١٢٩ .

٣٠ ـ Aj.-Jos ٢٨٥ ـ ١٦ ـ

٣١ ـ Cf سلسلة امتان ، كليرمون ، جانو، RAO . ٤ ـ ص ٧٠ كتابة الديوان Cis II ٢١٨ ـ دوسو، ماكلر الرسالة ص ٤٧٤ C. V. Bowersoke رومان / ارابيا ص ٧٣ .

٣٢ ـ cor .II ١١ ، ٣٢ ـ ٣٣ .

٣٣ ـ C.W. Bowersok تقرير حول الولاية العربية JRS ـ ٦١ ـ ١٩٧١ ص ١٩ ـ رومان آرابيا ـ ١٩٨٣ ص ١٥٥ .

٣٤ ـ النشر قيد الانجاز وسيشترك فيه J. b. Humbert, - A. Desreumaux خربة السمرة .

٣٥ ـ نشرت في الحاشية رقم ٣٠

٣٦ ـ Strab ١٦ ـ ٢ ـ ٢٠ .

٣٧ ـ القنوات ، وارينغتون . ٢٣٢٩ ، سيع آي ، ليتمان PAES ١١١ ـ A رقم ٧٦٦

٣٨ ـ المشنف . لـ ـ برانتيس . AAES ـ ٣٨٠ .

٣٩ ـ يلاحظ مع ذلك بأن الطرق الرومانية في الولاية العربية قد بدىء بإنشائها في جنوب الولاية . أما الطرق المنشأة في منطقة البترا انشئت عام ١١١م وبصرى لم ترتبط بفيلادلفيا الا عام ١١٤م .

٤٠ ـ مستخرج من أعمدة (مقاييس الأميال) من ١١١ ـ ١١٤ التي أمكن العثور على البعض منها مع طول هذا الطريق .

٤١ ـ infra - Cf ص ١٥٤ .

٤٢ ـ Cf رقم ١١ .

٤٣ ـ م ، دونان (حاشية رقم ٥) ص ٥٤٣ في الميل ١٤ .

٤٤ ـ وادينغتون (رقم ٢٤٣٨ (العريقة) ورقم ٢٥٢٥ المسمية) .

٤٥ ـ ر. دويسّو ـ و. ف. ماكلر، الرسالة رقم ١٥٤ .

٤٦ ـ cf ـ مثال : A و Levi M Hinerarum picta روما ١٩٦٧ ص ٢٨ رقم ٣٠

٤٧ ـ Hinerarium أنتونيني ـ ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٤٨ ـ وادينتون رقم ٢٠٧١ .

٤٩ ـ آثار الطريق مرور وادي مماثل لمايشاهد جنوب جرين . قد عثر عليه بين قنوات وسيع .

٥٠ ـ Supra- P. Gentelle . ef

٥١ ـ R. Dussoud الرحلة رقم ٧٣ .

٥٢ ـ ان الصور الجوية لم تكشف أي آثار للمحيط المباشر لبصرى.

٥٣ ـ تنقيب عام ١٩٧٨ ـ خريطة السويداء مقياس ١/٥٠٠٠٠ لم تشر إليه إلا كطريق ريفي (درب) مماثل للطرق الاخرى (وهذا كان خطأ)

٥٤ ـ تختلف الآثار بكل وضوح بعد كيلومتر واحد من جنوب شرق «تل غينة» وهذا ما يتيح مشاهدة الطريق الرومانية

٥٥ ـ م . دوناند ـ (حاشية رقم ٥) . MAIBL ـ ١٣ ـ ١ ـ ٢ ـ ص ٥٣٢ ـ ٥٣٦ ـ Cf حول مبادىء الاشارات الضوئية في الجيوش الرومانية . MEFRA- végéce et la Télégrephe chappe- R. Rebuffat. ٩٠ ـ ١٩٧٨ ص ٨٢٩.

٥٦ ـ م . دوناند R B - La Strata Diocletiana ١٩٣١ ـ ص ٢٢٨ .

٥٧ ـ PPUAES ١١١ ـ A ـ ٢ رقم ٢٠٥ الى ٢٠٨ .

٥٨ ـ cit G. W. Bowersock (رقم ٣٣) ص ٢٣٠ .

٥٩ ـ اعيد نشر تاريخ الفرقة (الجحفل) السيرانيكي من قبل ف . شايو في مؤلف حدود الفرات باريز ١٩٠٧ . والوثائق التي اعتمدت عليها هي التالية : يحتمل تاريخ ـ ٥ ـ ١ جوزيف B.j ـ ٥ ـ ١٤ حرب اليهودية الأولى ـ cil ١٠ ـ ٣٧٣٣ حرب البارث تراجان cil ـ ١٤ ـ ٢٦٤٠ و Ep Ann ـ ١٨٩٥ رقم ٧٠ حرب اليهودية الثانية ـ cig ١٦١٠ أو يمكن ١٦٥١ ـ ووادينفتون ١٩٢٨ ـ الحرب البارتية لكراكلا ـ السيد سبيدل ANRW ـ ١١ ـ ٨ ص ٦٩١ ـ ٦٩٧ .

٦٠ ـ G. W. Bowersock (حاشية رقم ٣٣) ص ٢٣٠ .

٦١ ـ آ ـ ستين ـ مشاهدة الطريق الروماني على الحدود في العراق وشرق الاردن . الجريدة الجغرافية ٩٥ ـ ١٩٤٠ .

٦٢ ـ ميشيغان بابيري ٨ ـ آن ـ أربور ١٩٥١ ـ رقم ١٦٦ ـ المرجع ، السيد سارتر ـ cit op ص ٧٨

٦٣ ـ R. Bulliet «الجمل والدولاب» كمبريدج (ماس) ١٩٦٥ .

٦٤ ـ صور فوتوغرافية معادة في آ ـ بارو ـ اشور ـ coll ـ دنيا الاشكال ص ٤٤ ـ رقم ٥٣ ـ ص ٤٦ ـ رقم ٥٥ .

٦٥ ـ مؤلف «ديوكليسيان» ، حول الاسعار . تعرفة تدمر . infras ص ١٥٧ ورقم ٨١

٦٦ ـ آدمناني . ده . لوسيس سانكتيس ١١ ـ ١٢ ـ كوربيس ـ كريستيا نوريوم ـ سيري لاتينا CLXXV ص ٢١٤ .

٦٧ ـ Albrighl- W. F ـ الآثار في ديانة اسرائيل ص ٩٦ ـ ١٠٠ .

٦٨ ـ R. Bulliet ورد في الحاشية ٦٣ .

٦٩ ـ Cl . الصورة URA رقم ٢٠ in Situ

٧٠ ـ Spijkerman - A زوايا ديكابوليس ، في الولاية العربية ـ القدس ١٩٧٨ ـ ص ٢٥٠ رقم ٢١ ـ sq .

٧١ ـ cf. supror فيما يخص انشاء الطرق او ترقيمها ، من جهة اخرى يوجد آثار لترميم طريق اللجا شمال خربة الرصيف .

٧٢ ـ U. R. A. cf photo رقم ٢٠ ـ متحف السويداء رقم ٢٣١ . منقولة من عين الرمان .

٧٣ ـ cf. fig. URA رقم ٢٠ متحف بصرى.

٧٤ ـ سترابون ١٦ ـ ١ ـ ٢٣ .

٧٥ ـ آ ـ سبيجكرمان cit- op ص ٦٨ ـ و sq رقم ٣ ـ ٤ ـ ٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ الخ.

٧٦ ـ R. du mesnil du Buisson أقسام تذاكر المسرح وعملات تدمر باريز ١٩٦٢ ـ ص ٤٣٥ .

٧٧ ـ دينيه . م يميليوس سكورس (سيدينهام رقم ٩١٣) رسالة تراجان ARABIA ADQVISITA Bic رقم ١٤٢ .

٧٨ ـ phne ١٢ ـ ١٤ ـ ٣٢ ـ ٦٤ .

٧٩ ـ vegece : يدل في هذا الموضوع على ٢٤ ميل (Epilom 1-9)

٨٠ ـ R. thoumin الجغرافية البشرية لسورية الوسطى باريز ١٩٣١ ص ١٨٩ .

٨١ ـ R. Boulliet cit رقم ٦٣ صفحة ٢٠ .

٨٢ ـ J. G. Fevrier بحث حول التاريخ السياسي والاقتصادي لتدمر باريز ١٩٣١ ص ١٨٩ ـ ١٩١ .

٨٣ ـ cf رقم ٦٦

٨٤ ـ Strabon 1.45 ١٧ ـ ١ ـ ٤٥ .

٨٥ ـ R. Duosoud مدخل ص ١٣٥ كانوا مضطرين الى لف أسفل أرجل الركائب بأشياء واقية من الحصى الحاد ليتمكنوا من متابعة المسير. هذا الموضوع كان سائداً في العصر المتوسط. انظر معلقة لبيد ص ٢٣ وقد رواها P. lam mens «في مكة في مستهل الهجرة».

٨٦ ـ Cf. Supra

٨٧ ـ F. Dussoud المدخل صفحة ١٣١ .

٨٨ ـ ب . لا مانس (حاشية رقم ٨٥) ص ١٤٣ .

٨٩ ـ م . سارتر IGLS ـ ٨ رقم ٩١٥٨ ـ ٩١٦٠ .

٩٠ ـ ب . لامانس (حاشية رقم ٨٥) Passim

٩١ ـ المرجع نفسه ص ١٢٩ .

٩٢ ـ عطور العربية السعيدة ـ زبيب الطائف جلود الحجاز (ب . لامانس ١٢٠ sj . ٨ ـ ص ١٢٠ ـ ١٧٨ ـ ص ١٨٨ .

٩٣ ـ ب . لامانس (حاشية رقم ٨٥). ص ١٣٨ .

٩٤ ـ م . سارتر IGLS١٣ ـ رقم ٩١٦١ ـ ٩١٦٣ .

٩٥ ـ ب . لامانس ـ art (حاشية رقم ٨٥) ص ١٤٢ .

٩٦ ـ الصناعات الشرقية ٥ (. . . .) (Scrutaria et armorum Damasci) .

٩٧ ـ سليمان مقداد ـ بصرى حاضرة اسلامية (الآثار) ١٤٨ ـ ١٩٨٠ ـ ص ٢٦ .

٩٨ ـ ر. دوسو. طبوغرافيا ـ والرسالة ـ Passim

٩٩ ـ المسمية GIG ١٥٥١ ـ السويداء ـ وادينفتون رقم ٢٣٠٩ .

١٠٠ ـ D. van Berchem جيش ديوكليسيان والاصلاح القسطنطيني. باريز ١٩٥٢ ص ١٠ ـ ١٣ . M. Sarter ثلاث دروس حول العربية الرومانية والبيزنطية بروكسيل ١٩٨٢ ص ١٣٣ .

هوامش المترجم

*١ ـ النقـرة هي الجـزء الـواقـع غربي طريق دمشق دعـرا شرقـاً والطـريق الواصل بين دمشق ـ القنيطرة ـ الحمة ـ غرباء وبين نهر الأعوج شمالاً ووادي اليرموك جنوباً.

*٢ ـ ان افـتراض وجـود هذا الطـريق أمـر منطقي لأنـه يربـط بين عاصمتـين هامتين هما: دمشق والبتراء، لاسبـاب ستراتيجيـة وتجـاريـة واداريـة، خاصـة إذا علمنـا أن هذا الطريق كان معروفاً منذ العصر الهيليني وطوال العصر النبطي.

*٣ ـ تجدر الاشارة هنا أن المسافة المذكورة عن لوحة بوتنجر تنطبق تقريباً على احدى القرى القديمة الواقعة شمالي «المسمية» وتسمى «أم القصـور» ويبـدو من بقـايـا آثارها أنها كانت قرية هامة، وغنية بالأبنية الجميلة وتستحق الدراسة.

*٤ ـ يطلق السكان على هذه المعابر البدائية اسم «مخاضة» عندما لا تكون مبنية بشكل فني يتخللها فتحات مسقـوفـة وتعـد استمـراراً للطـريق. وهـذا النوع من المخاضات موجودة بكثرة في محافظتي درعا والسـويداء هدفها سهولة تجاوز الوديان في فصل الشتاء.

*٥ ـ يطلق السكان في محافظتي درعا والسـويداء على هذه الجدران اسم «خَبكَة» واحياناً اسم «سنسال» أو «حبلة» إذا كانت اكثـر ارتفـاعـاً، وتستخـدم في بنـاء الأحجار والحصى الذي يتجمع من الأراضي والحقول المجاورة وغالباً ما تكون بعرض يتراوح بين (٥٠ الى ١٠٠) سم ولا يزيد ارتفاعها عن نصف متر إذا كانت من النوع الموجود حول المسالك، او من الحقول الزراعية.

*٦ ـ يتضح من هذا النص أن الطرق الرئيسية الستراتيجية الواصلة بين دمشق والجزيرة العربية ومصر عن طريق فلسطـين كانت مخططـة ومعـروفـة منذ العصر النبطي، وقد تم تحسينها ومضاعفتها بطرق اخرى مثل الطريق العسكري السويداء ـ المسمية ـ دمشق.

*٧ ـ ويتابع هذه الطريق ايضاً إلى نوى والكسوة فدمشق.

*٨ ـ جوزيف: كاتب ومؤرخ يهودي يسمى فلافيـوس جوزيف وقـد خدم عسكـريـاً في الجيش الروماني، ويقال أنه ألف كتاباً باسم «حرب اليهود ضد الرومان» صور فيه الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في عصر السيد المسيح، وهو في رأيي كتاب وضع في وقت لاحق.

*٩ ـ نسبة إلى منطقة الصفا الواقعة في البادية شرقي جبل العرب.

* ١٠ ـ إن هذه الحجـة لا تكفي للتأكيـد على عدم وجـود العـربـات التي كانت تجرهـا الخيول والابقار في القرون السابقة للميلاد والقرون الأولى التالية، ذلك أن الطرق الرئيسية كانت صالحة فعلاً لسير العجلات بالاضافة لقوافل الابل.

*١١ ـ إن نظرة عاجلة على الطريق المرصوفة بالحجارة تؤكد أن استخدامها لم يكن لسير قوافل الأبل، فهذه تفضل السير على الطرق الترابية التي لا تؤذي أقدام الأبل.

*١٢ ـ وطبيعي جداً أن تكون قوافل مخصصة لنقل البضائع من الجزيرة الى الشام وبالعكس وهذه الحركة التجارية الواسعة التي تؤمن التبادل بين الخليج والجزيرة ومصر، لابد وأن يكون بواسطة الأبل، ولا غرابة في أن تفتخر بها بصرى عاصمة الانباط الثانية، فتسك نقدها بصورة قوافل الابل. أما النقل داخل المنطقة الحضـريـة الممتـدة بين بصرى ومدن الشام في الشام في الشمال فكانت تحتاج الى عربات الجر احياناً وكذلك التنقل الى مدن فلسطين.

*١٣ ـ لاأظن بأن خفي عن نظـر ومـلاحظـات الكـاتب ندرة استخـدام الأبل في النقل حالياً داخل محافظتي السـويـداء وحـوران. بعـد انجـاز شبكـة الطرق الواسعة الحالية وتوفر وسائل النقل الحديثة التي اصبحت الوسيلة الاساسية للنقل في هاتين المحافظتين خلال العقود الاخيرة من هذا القرن.

*١٤ ـ يؤكد هذا الرأي ما جاء في أشعار امرؤ القيس قبل الاسلام، وشعر الشريف الرضي بعد الاسلام، ولما بدت حوران والآل دونها... الخ.

*١٥ ـ كانت بصـرى في القـرنـين الأول والثـاني ق.م وحتى القـرن الثـامن الميلادي مركزاً تجارياً هاماً تؤمه القوافل القادمة والآتية من شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام.

*١٦ ـ المقصـود هنـا هو الطـريق الحـالي الـواصل بين دمشق ودرعا مروراً بالكسوة وغباغب، والصمنين، وشيخ مسكين وابطع وداعل...

الكتابات والنقوش النبطية
وتاريخ سورية الجنوبية وشمال الأردن

تحمـل هذه الكتـابـات والنقوش تاريخ العصر الهيليني والعصر الروماني الأكثر أهمية. غير أن معظم هذه النقـوش يعـود إلى العصـر الأول الميـلادي، ويمكن أن يذكـر منها ٢٥٠ نقشـاً، أغلبهـا من منطقـة بصـرى وجبـل حوران (حـالياً جبل العرب)[1] وبعض المعطيات التاريخية تشرح تلك التقسيمات.

١ ـ التاريخ

١ ـ ١ الأنباط في العصر الهيليني (الأغريقي):

ورد أول ذكـر للأنبـاط في المكتبـة التـاريخيـة العائدة (لدِيُودُور دوسيسيل) الذي أورد الحملات غير المثمرة لـ (Antigône) خلال عام ٣١٢، ضد مدينة بترا التي كانت ملجأ لهم.

وقد قدّمهم لنا كرعاة وقادة قوافل وكذوي فعاليّات في مؤخرة بلادهم الصحراوية بين سورية ومصر. وصفوا بأنهم عرب (ولكنهم أرسلوا كتاباً إلى Antigone بحروف سورية)، وهذا يعني بأن لغتهم الرسمية كانت الآرامية، حتى لوكانت أسماؤهم تكشف بأن لغتهم الأصلية هي العربية، لهذا يعتقد بأنهم قوم لايتجاوز عددهم العشرة آلاف. (11-48et IX 94-1003) (**).

وهناك دلالة واضحة على بدء وجود النبطيين في المنطقة (وهو الشيء المهم هنا) كشفتها مخطوطة من محفوظات Zénon الذي كان وكيلاً لوزير المالية لـ Ptolomée phladelphe الذي قام بمهمة تفتيش للولاية المصرية (Coelesyrie - سورية الوسطى) وفينيقية في عام ٢٥٩ وقد ورد في هذه المخطوطة الاتجار بالعبيد، وكان يقوم بها شخصان اتجه الأول منهما إلى منطقة حوران «Eis Aupava» وفيها قام بالاتجار مع النبطيين. غير أنه فيما بعد، دخل بشجار معهم انتهى بسجنه لمدة سبعة أيام[٢].

هناك مخطوطة أخرى من نفس المحفوظات، تشير إلى تسليمات حنطة إلى جماعة Rabbelos [٣]. ورابيل اسم اسرة مالكة، ويمكن بالتالي أن يدل على اسم ملك نبطي. وَجَد J. T Milik في محفوظات متحف دمشق ـ نصباً نبطياً غير معروف يشير إلى ملك نبطي، وقد وقد عزي تاريخ الكتابة المنقوشة على النصب الى القرن الثالث، اذن إلى عصر زيونون على الأقل، ولم يعرف أصل أو مصدر هذا النصب، ولكنه يعود إلى أمثاله الواجب البحث عنها.

وصف لنا Diodore النبطيين، بأنهم كانوا مستقلين عملياً في عصر Diadoque ويبدو أنهم استمروا على هذه الحال، خلال كامل القرن الثالث الميلادي وحتى الزمن الذي كان فيه البطالمة يقومون بتفتيش ومراقبة المنطقة حتى طرابلس ودمشق، ومن ثم خلال سيطرة السلوقيين أيضاً. وفي عام ١٦٣ ميلادي التقى بهم يهوذا المكابي[٢*] Judas Maccabée في جوار بصرى بعد ثلاثة أيام من اجتيازه نهر الأردن وسيره في الصحراء أي في المنطقة الواقعة شرق اربد. (I. Maccabeés, 5,24. 28 ef 28 ef 2 Maccabeés 12, 10,12) حيث يتواجد هؤلاء النبطيون الذين كانوا يدعون عرباً وهم جماعة رحل ورعاة، ولديهم ٤٥٠٠ فارس.

ان الحدود التي كانت تفصل المملكة النبطية عن الامارة أو الولاية السلوقية في (بلاد جلعاد) كانت مهزوزة وقابلة للاختراق. وبلاد جلعاد كانت تمتد من بلاد موآب حتى بلاد الشام (باستثناء دمشق) وتشمل في شمال اليرموك، مقاطعات الجولان (gaulanitide و Batanée شمال جلعاد و trachonitide اسم اللجا قديماً و auranitide حوران) وأراضي هيبوس hippos و (ديون Dions) تل الأشعري. أما في الجنوب أراضي (gadara أم قيس و Abila تل القويلبة) (على بعد ٢٠ كم شرق gadara أم قيس)[١].

(٣*)

وحوالي عام ٩٣ ميلادية، اصطدم الملك اليهودي الكسندر جانيه (Jannée Alexandar)

مع قوات العرب الموابيين وسكان جلعاد (هنا المعنى مُقيّد) ثم دخل الجولان وفيها بوغت وهزم من قبل هجانة عبد اس أول ملك للعرب (A.j + 111-37) s-q.B.j 1-89-sq وقد خلفه فيها بعد اريتاس الثالث الفيلهلليني (è(philhellin (حول أعوام ٨٥ - ٦٠) الذي أصبح سيد دمشق ، وسورية الوسطى (Coélé- Syrie) فيما بين عام ٨٤ - ٧٢[٥]. ونحو عام ٨٠ جدد الكسندر حملاته إلى ما وراء الأردن ، فاستولى على (Pella) وعلى (de Dion) تل الأشعري (gadara) أم قيس. ثم فيما بعد على الجولان الواقعة في (Batanée) وذلك في زمن أوشيب الذي أفاد بأنها عممت أسمها على المنطقة وعلى سلوقية على بعد ٢٨ كم إلى الشمال والغرب من سلوقية ، وأخيراً على (gamala جملة) التي هي موقع محصن على بعد ١٨ كم شرق بحيرة طبرية ، قرب قرية جملة الحالية ، وهذا يعني على كامل الجولان (A. J. + III- 392-399. R. J-1-103-106) .

١ - ٢ - المملكة النبطية على هامش الامبراطورية الرومانية :

بدأ احتلال تيفران لسورية منذ عام ٨٣ ق . م ولكن النبطيين لم يغادروا دمشق الا عام ٧٢. كما أن دخول الرومان وتحويل سورية الى ولاية رومانية من قبل (Pompée) بومباي عام (٦٤ - ٦٣) أرجع الأمراء المحليين الى حدودهم التقليدية ، وبسط نفوذهم على الحاضرات اليونانية ، التي اعترفت بالحكم البُومْبيني في شمال وجنوب اليرموك ، وشكلت اتحاداً هشاً فيما بينهما دعى (اتحاد المدن العشرة) Décapole ، ولم تعد المملكة النبطية تشمل على حوران (aurantide) حينذاك ، ولكن كان من ضمنها مقاطعتا درعا وبصرى ، سيما وقد أقيم في هذه المدينة الأخيرة ، هيكل منذ السنة الثانية لحكم الملك ماليخوس الأول (الماليكي) (نحو عام ٦٠ - ٣٠ ق . م) . إذا أخذنا بعين الاعتبار نموذج الكتابة النبطية (cus 11, 174) . وحتى نهاية حكمه تقريباً (عام ٣٠ ق . م) كان لماليكي علاقات جيدة مع السلطات التي كانت تحكم اليهودية مثل الحاخام هيركان الثاني "Hyrcan (٦٣ - ٤٠) ووزيره الايدومي Antpiater الذي قُتِل مسموماً عام ٤٣ ق . م . وابن انتيبار والأميرة النبطية سيبريس ، وهيرودس ، الذي أوكل اليه حكام سورية قبل تسلمه الحكم (٤٠ - ٤) مهمات جعلته على علاقة مع النبطيين وقد عينه Sextus Julius Ceasar (٤٧ - ٤٦) القاضي الأول على (سورية الوسطى Coelé- Syrée . (C. Cassius longinus, (A. J. XIv 180, Bj. 1. 213) (٤٤ - ٤٢) أثبت له لقب Epimélète المسؤول عن سورية كلها Aj. XIV, 280, B. J. 1. 225 [٧] .

ومن عام ٤١ الى عام ٣٠ ق . م . كان انطوان (أحد الحكام الثلاثة) سيد الشرق . ولكن تحت تأثير كليوباترا Cléopatre التي عادت الى المطالبة بعودة الـ Lagide البطالمة الى البلاد جنوب (الوادي الكبير Eleuthere) الذي قام بتعديل خريطة الولاية العربية ، ومنحها لها

ضمن بعض الأراضي، عام ٣٦، مملكة كالسيس Chalcis (لبنان الشرقي) و(Coelé- Syrie سورية الوسطى) وفي عام ٣٤: منطقة أريحا وقسماً من مملكة الماليكي (المفتوحة على بحر خارجي (البحر الأحمر) (المؤرخ Antoine plutarque) ـ ٣٦ ـ ٢)[٨]. ولكن هير ودس وماليكو تمسكا بعناد بالأراضي المفصولة، فقد أقام هير ودس نفسه ضامناً لماليكو لدى كليوباترا، ولكن ماليكو تخاذل وظهر عاجزاً، وعندئذٍ أمر أنطونيو هير ودس بمهاجمته.

تغلب هير ودس(**) في بادىء الأمر على النبطيين في Diospolis (Dion) تل الأشعري غير أنه فيمابعد، هزم في قنوات (وهو موقع في سورية الوسطى Coele- Syrie A. J.XV, 112, B J. 1, 366 . فالنبطيون الذين غُلبوا، في بادىء الأمر، حصلوا فيما بعد على مساعدة (أهالي منطقة قنوات) بدافع من اثينيون Athénion الذي كان مخططاً حربياً لكليوبترا، ويحمل دوماً العداء لهير ودس B.J. 1.367 : فهو القاضي المحلي A.J. XV , 116 أي حاكم مدينة قنوات التي كانت مركز (ائتلاف المدن العشرة) ومركز ال aurantide حوران القديمة[٩]. حدثت هاتان المعركتان خارج مملكة الماليكو maleku . والى تلكَ الأعمال التي قام بها سكان منطقة قنوات يعيد J. t milek . تدوين النقوش النبطية التي عثر عليها، في البرج الجنائزي الكائن في المقبرة الواقعة على سفح تلة «سيع»، على بعد ٢ كم شرق قنوات Res- 2033 [١٠].

في الربيع الذي تلا عام معركة «أكتيوم» Aqtium (٢ ايلول عام ٣١). اجتاز هير ودس من جديد الأردن وهزم النبطيين قرب عمان، رغم كونها مدينة من أصل (ائتلاف المدن العشر). ويبدو، حسب رواية يوسيفوس، بأنها كانت تشكل جزءاً من المملكة النبطية A. j. XV 147. 161- Bj.1, 380, 386 ef 129 . وفي الاسكندرية بعد انتحار انطونيووكليوباترا، وسع أوكتاف دويلات هير ودس. فقد اعطاه أراضي Hippos (Susiyeh) وفي الجنوب، أراضي gadara أم القيس A. j. XV, 217. B.j- 1. 396-397 وهما حاضرتان (مكدونييتان) من أصل (ائتلاف المدن العشر) Le Syncelle 1, edit Dindorf p.5581 لاتنتميان للملكة النبطية رغم أنه وجد في gadara أم القيس شاهدة قبر جنائزية، لم تنشر بعد، دونت بلغتين «النبطية واليونانية».

خلف عبداس الثاني (٣٠ ـ ٩/٨) ماليكو الأول وقد كان ضعيف الشخصية بحيث سيطر عليه وزيره syllaios ، الذي قاد خلال أعوام ٢٦/٢٥، الحملة التي أرسلها أوغسطس الى العربية السعيدة. وقد قدم هير ودس خلالها ٥٠٠ رجل (A.j. XV. 317) . ولكن فيما بعد تسممت العلاقات بين هير ودس وعبداس. وبعد ألعاب الاكتيات الأولى actiaque (٢٤ق.م) أوكل أغسطس الى هير ودس حكم اللجا التي كانت جزءاً من Batamée شمال جلعاد. ومن حوران. (راجع يوسيفوس A. j. XV, 342-364. B. j. 1- 398- 399) وكان يسود الاعتقاد بأن تلك المقاطعات تعود الى مملكة كالسي Chaleis المهداة من قبل انطوان الى كليوباترا التي بدورها أجرتها الى رجل اسمه زينودور. وعلى كل الأحوال، لابد أن نذكر بأن

زينـودور باع (auranitid حوران) الى العـرب (أي الى عبـداس (٣٥٢ XV) لقـاء خمسين وزنـة. وقـد تم هذا البيـع بعـد موت كليوباترا (في آب عام ٣٠ ق. م) غير أن حوران هذه لم تدم في وقتها نبطية إلا بضع السنين فقط. وهذا بحد ذاته يعتبر، مدة قليلة لوصف الكتابة الآراميـة المستخـدمة في السويداء و«سيع»، في نهاية القرن، بأنها نبطية، Cis, 11, 162, Res 805 ef 2023 سيما وأن شكل حروف تلك الكتابات لا ينصح جيداً في تطور الأبجدية، كما هو ثابت في بترا[11]، إذن موضـوع الحـديث هنـا يدور حول نوعية محلية من الكتابات الآرامية، مشتقـة من نمـوذجهـا الأصـلي[12]. ويمكن عزو ديمـومـة استعـمال الآرامية في النقوش، في المقاطعات الحدودية للمملكة النبطية، الى نفوذ وسيطرة هذه المملكة، والى التماثل النسبي للمكان. ولكن كلما ذهبنا بعيداً نحو الغرب، كلما كان استعمال الكتابة اليونانية في النقوش متفوقاً (كما هو وارد في الخريطة).

وبعـــد وفـاة Zénodore عام ٢٠ ق. م أعطى أوغسطس الى هيرودس(**) ماتبقى من دويـلاتـه وهي القسم الـواقـع بين Trochonitide اللجا، والجليل، وهي oulatha و poneas بانياس والمنطقة التي تحيط بها (A.j. XV. 360) وهذا يضم طبعاً (الجولان gaulantide) وكان من الواجب على هيرودس أن يتدخل في اللجا لضبط قطاع الطرق واللصوص فيها، سيما وهي المنطقة التي كانت توفر لهم الملجأ الأمين ضمن متاهاتها البركانية (A.j. XV. 344, 348). وقبيل السنـة التاسعة لما قبل الميلاد، تغلغل هيرودس في المنطقة النبطية واستولى على جماعة من هؤلاء قطـاع الطـرق، كما انتصـر على جماعـة من النبطيـين كان قد أرسلهم (سيلايس Syllaios) لسـاعدتهم وقد أوعز أغسطس الى هيرودس بإقامة ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف آدومي idumeeus في منطقة شرقي الأردن، وحـوران Trachonitide كما أفـرز حوالي ٥٠٠ خيالاً في بصير Bathyra الواقعة على طريق اللجــا (A.j. XV1273, 292. XVII23, 31) وسيكـــون من المفيـد التحقق من أن هؤلاء المستوطنين تركوا آثاراً في التسميات القديمة في هذه المنطقة.

بعـد موت هيردوس الـذي وقـع في (ربيـع السنة الأولى قبل الميلاد) نفذ أغسطس وصيته وعـين فيليب، أحـد أولاد هيرودس المتـوفي رئيساً للربع على حوران والسويداء Bataueé، شمال شرق الأردن وبصـــرى Trachonetide وحـوران auranitide. وعلى بعض أجـزاء من البيت الزينودوري Zenodore (A.j. XVIII, 319. B.j. II. 94. 95) بالاضافة الى كامل الجولان gaulantide (ef. B.j.11. 168. A.j. XVIII 28) أما المدن اليونانية (أم قيس Hippos, gadara). ألحقت بسورية (A.j. XVII, 320, B.j. 11,97) واعيـدت البـيرة والجليـل الى واحـد من أولاد هيرودس، وهو (هيرودس انتيباس (A. j. XVII, 318. B.j. 11,97 (4-39)[13].

وخلف اريتاس الرابع الملك عبداس الثاني على المملكة النبطية في شتاء عام ٨/٩ وكانت احدى بنات اريتاس قد تزوجته هيرودس أنتيباس، لذا كانا يعيشان سوية، منذ زمن طويل

ثم فيما بعد طردها ليتزوج من امرأة أخيه هيرودياد، والدة سالومة[٦٥] التي ستتزوج فيليب رئيس الربع فيما بعد. أما اريتاس الذي كان يمتلىء حقداً وضغينة، فقد تذرع بالنزاع حول الحدود في أراضي (gamala) «جملة» ولجأ الى القتال، وبسبب الخيانة وفرار الرجال الذين كانوا تابعين لرئيس الربع، فيليب، ويحاربون مع هيرودس، فقد سببوا الهزيمة الكاملة لهيرود، الذي شكا الأمر الى (طيباريوس tibére) الذي انضم مع قاضي سورية Vitellus (٣٥ ـ ٣٩ ب. م) لمجابهة اريتاس، ولكن موت الامبراطور في آذار عام (٣٧ ب. م) الغى هذه الحملة.

وقد أورد يوسيفوس أن بعض اليهود كانوا يرون في هزيمة هيرودس انتقاماً ربانياً فخافوا ثورة الجمهور الذي كان يصغي الى نبؤات يوحنا الملقب بالمعمداني، فقام هيرودس بسجن هذا الأخير في «ماشير رنت Machérounte) وأمر بقتله (A. J. XVIII. 109. 125).

حسب الأناجيل، كان التأنيب والتبكيت اللذين وجههما يوحنا المعمداني الى هيرودس بشأن زواجه من امرأة أخيه، السبب في مقتله (مرقس ٦ : ١٤ ـ ٢٩). وقد وقع هذا الزواج عام ٢٨ ب. م على أبعد تقدير، وقد انتظر اريتاس حتى عام ٣٥ ب. م ليبلغ ثأره. وصعوبة أخرى كانت تكمن في رواية يوسيفوس التي يمكن استيعابها أكثر، فيما لو كان رئيس الربع فيليب على قيد الحياة في الزمن الذي كان اتباعه يشكلون جزءاً من القوات التي جندها أخوه هيرودس. غير أن فيليب المذكور توفي عام ٣٣/٣٤ب. م (وطيباريوس tibére) الحق مقاطعاته بولاية سورية (A.j. XVIII. 108)، وقد تكون المعركة وقعت خلال عام ٣٤، أي قبل وصول القاضي Vitellus بقليل، لذلك فإن شكوى هيرودس الى طيباريوس (tibére) لم تصل الا بعد سنتين، وأخيراً هناك مسألة جغرافية، تهمنا هنا، وموضوعها أن قرية جملة (gamala) ليست بوضع يستدعي النزاع الحدودي، بين المملكة النبطية وبين المملكة الهيرودية. لذا تم تصحيح للكلمة اليونانية gamalitide . الواردة في قسم من المخططات في galaadit أو gabalitidi (الواقعة جنوب البيرة pérée) [٦٦]. ويوجد كلمة أخرى مختلفة gamalitique التي عثر عليها في (B.j. III, 56)، التي تُحصي وتُعدد أقاليم مملكة (اغريب الثاني) (انظر أدناه). حيث كان اليهود مختلطين مع السوريين. وكلمة gamalitique كانت تطلق على الأراضي التي هي بجانب (الجولان gaulanitide) بينما وردت في مكان آخر كجزء منه.

(والأب ابل Abel) يرفض تصحيح النص، فهو يفترض بأن هيرودس كان مكلفاً بحماية البلاد التي كانت عائدة لأخيه، وبأن اريتاس كان يهتم بالمصالح التي لم تستطع التقسيمات السياسية الوصول اليها[٦٥]. فمن السهل جداً أن يستمر النزاع حتى نهاية حكم فيليب، والذي كان يتناول أراضي «جملة» gamala الملاصقة لجنوب النبطية (خاصة وأن Abila, Capitolias كانتا تنتميان الى اريتاس في ذلك الحين. وبعد مهاجمة فيليب، أصبح أريتاس

بتياس ومواجهة هيرودس المرتبط بأخيه، بموجب اتفاق سري عسكري. والى ذلك يضاف زواج فيليب بابنة هيردويا التي جلبت التعاسة لابنه اريتاس.

ان أراضي ولاية الربع لفيليب، لم تبقى طويلاً تحت السيطرة المباشرة للقاضي الشرقي لسورية بل أعطاها Caligula عند تسلمه الحكم الى أحد احفاد هيرودس الكبير المدعو اغريبا الأول مع لقب ملك (في آذار ٣٧ ب. م) وضم إليها أيضاً ولاية الربع التي كانت خاضعة لـ Lysanias (A.j. XVIII, 237 sbjll- 181) والذي كان رئيس ربع Abilene (في عام ١٥ لعهد طيباريوس (Luc. 3 I) . وهي امارة ايطورية شرق دمشق[١٦]. وفي عام ٣٩ نفى كاليكالا هيرودس انتيباس وضم الجليل والبيرة إلى ملك اغريبا (A.j. XVIII 352, B.j.II-183). في بداية عام ٤١ خلف كلود كاليكالا، وقد اكمل المملكة اليهودية بضم Octroi ضرائب ومكوس اليهودية والسامرة. وربما بالتوسع في الأراضي السورية. قام أحد أخوة اغريبا باسم هيرودس باستلام مملكة (شالسي chalcis) التي هي جزء من المملكة الايطورية القديمة التي تحمل نفس الاسم (A.J.XIX,274, 277 351. B.J.II, 215P.217)[١٧]. توفي اغريبا الأول في ربيع عام ٤٤ب. م. ووضعت مملكته مؤقتاً تحت الادارة الرومانية[٧*]. وفي عام ٤٨ ب. م، مات هيرودس ملك Chalcie وقام كلود باعطاء هذه المملكة الصغيرة Chalcie الى ابن اغريبا الأول الصغير الذي دعي اغريبا الثاني (A.j. XX. 104, B.j. 11.223) وفي عام ٥٣ ب. م بادل الامبراطور كلود لاغريبا الثاني، بمملكة شالسي الصغير وبولاية الربع القديمة التي كانت لفيليب، وأيضاً بـ (فاروس Varus) ولاية ربع قديمة في شمال لبنان (A.j. XX. 138, B.j. 11. 247. VII. 97 Arca)[١٨]. وفي تشرين أول عام ٥٤ خلف نيرون، كلود. وفي عام ٥٦ ضم الى مملكة اغريب الثاني أراضي طبريا، وطريشه Taruche وجزء من البيرة (A.j. XX 159- B.h..III.252.ef,III.565)[١٩] وفي عام ٦٦ انفجرت الثورة اليهودية الأولى وكان اغريبا الثاني بجانب الرومان وكذلك ماليكوس الثاني (٤٠/ ٤١ الى ٧٠/ ٧١) الذي خلف اريتاس الرابع (B.j. 111, 78, ef, 11,500) . لقد فقد اغريبا الى حين السيطرة على الجليل والجولان الثائرين بزعامة (جوزيف Joseph) الذي حصّن سلوقة Seleucie وسوغانة اليهودية (بين سلوقة وبحيرة طبريا) وجمالة gamala التي سقطت بعد حصار ملحمي شديد جداً، في تشرين أول عام ٦٧ ,B.j. 11, 568, 574). 4-1. 83, Vita 114. 177. 187. 398)

وفي العام التالي، وبعد الهدوء الذي ساد البيرة (B.j. IV, 413, 439), pérée أصبح اغريبا من جديد سيد مملكته التي وسعها أيضاً الامبراطور (Vecpasien وسباسيان) اعتباراً من تموز عام ٦٩ (ولكن بدون ايضاح Photius Biblioth, 33) . مات اغريبا الثاني عام ٩٣، والحق دوميسيان املاكه في البيرة والجليل و gaulamitide) بالولاية اليهودية التي اوجدها

Vespasien كما الحق ولاية الربع القديمة لفيليب الى الولاية السورية[٢٠]. في ذلك التاريخ كان دابيل الثاني قد خلف والده ماليخوس الثاني منذ ٢٣ سنة وطيلة مدة حكمه لم يطرأ أي تغيير على حدود المملكة النبطية. وفي ضمير على بعد ٤٠ كم شمال شرق دمشق، قُدِّم هيكل، يعود تاريخه الى عام ٥٩٤ ق.م، بمناسبة اعتاق عائلة من حكم القضاة الأنباط الأوائل (Cis 11, 161)، وكان نص الكتابة: «في شهر أيار (نيسان أو أيار) من عام ٤٠٥ من الحكم الروماني (والتاريخ السلوقي Seleucide هو شهر تشرين أول من عام ١١٢ قبل الميلاد». الذي يصادف السنة ٢٤ لحكم الملك Rabbel). وهذا بدوره لا يعني «ضمير» فقط الواقعة في البادية جنوب البلاد التدمرية التي كانت جزءاً من مملكته، ولا يشمل حساب الأعياد السلوقية éSeleucid المعمولة به في سورية الجنوبية الذي دوّن في أمكنة سابقة. غير أنه عرف أيضاً العديد من النقوش النبطية في حوض بحر المتوسط، مؤرخة حسب سني حكم ملوك بترا[٢١] وخلافاً لذلك حينما تحمل كتابة أو نقش نبطي تاريخاً مغايراً لهذا الاسلوب، فيتحتم أن يكون موضعه خارج المملكة النبطية. وهناك أيضاً مقدمة من «حبران» مؤرخة بشهر تشرين (ايلول أو تشرين الأول) من عام ٧ بحكم كلود سيزار (عام ٤٧ ب.م) تدلنا بأنه رغم كون تلك المدينة مأهولة بسكان نبطيين، فقد كانت عائدة للولاية السورية (Cis, 11, 170).

١ ـ ٣ الولاية العربية:

انتظر تراجان بلاشك موت رابيل الثاني ليجعل من المملكة النبطية ولاية رومانية أي المنطقة العربية المتضمنة المملكة القديمة، وجميع حاضرات ائتلاف المدن العشر (Dion، تل الأشعري، Philadliphia. Gerasa عمان) المرتبطة قديماً بولاية سورية. ان جميع النقوش منذ ذلك الحين كانت تحمل تاريخ عصر المنطقة (٢٢ آذار ١٠٦) كما أن آثار ترسيمات الحدود الشمالية للولاية العربية لم تكن معروفة بكل تفاصيلها[٢٢]، بينما اختلطت في قائمة واحدة مدن هاتين الولايتين ومدن سورية، أما فلسطين التي وحدّها كلود تيوليمة البطلمي (الدليل الجغرافي ٧ ـ ٧، ١٤ ـ ١٧) في منتصف القرن الثاني ب.م. بمعطيات من عصور مختلفة[٢٣]

في عام ١٩٥ حينما قسم Septime sérère ولاية سورية الى اثنتين Coélé Syrie (سورية الوسطى) في الشمال و(سورية[**] فينيقية) في الجنوب، واقتطع من هذه الأخيرة L'auranitide و Batanée (شمال جلعاد ـ السويداء وجبل حوران) الجنوبية لصالح الولاية العربية. وفي عام ٢٩٥ اضاف ديوكلسيان الى هذا الاقتطاع (شمال الأردن trachonitide) وشمال (Batanée) وبقي الحد العربي نهر العلان الذي كان يفصلها عن الجولان الذي هو من عداد سورية،

في الجنـوب ، كانت الـولايـة العـربيـة مقتطعـة من منطقـة «بـترا» العـاصمـة القـديمـة للنبطـيـين ، ومـن المـرفأ الـواقـع في خليـج الـعـقـبـة ، عائـلة أيـله ومن شبـه برزخ سينـاء . ولكن هذه المـرة لصـالـح ولاية فلسطين . ورغم التقلص التدريجي للكيان النبطي ، فإن اللغة النبطية استمرت نسبياً حتى منتصف القرن الرابع في (Hegra هجرة) وحتى زمن أقـل من ذلـك في بصـرى وأم الجـمال التي عثـر فيهـا على شاهـدة قبر لجابي الملك قادمـات Chadimat حول عام ٢٧٠ب . م . امـا شاهـدة قبر الملك امـرؤ القيس فقـد عثـر عليهـا R. Dussoud في قرية Nomara (Res483) وترجع الى عام ٣٢٨م ، واللغة العربية هي التي كانت سائدة بينما الكتابة كانت بالنبطية[٢٤] .

٢ ـ أعمال النقش

للوصـول الى نظـرة شاملة والى المـراجـع حتى عام ١٩٣٠ نستنـد الى المؤلف J. Contineau النبطي «١ . ص (١٣٠ ـ ٢٥ ـ ١١) ـ ص (١٨ ـ ٢٠٢)» لابد من الاشارة هنا الى حملات التنقيب الاكثـر نجـاحاً ، والى أهـم المؤلفات المتعلقة بسورية الجنوبية ، والاردن الشمالية فقد قام المستشرق J.g. Wetezstein الـذي كان قنصـلاً لبر وسيـا في دمشق منذ عام ١٨٤٨ بثـلاث رحـلات استكشـاف ، ونشر عام ١٨٦٠ في برلين مؤلفهُ Reisebericht üger Hauran und die trachonen وفي عام ١٨٦١ ـ ١٨٦٢ ، طاف في نفس المنـاطق السيـدان M. de vogüe و Waddington ، فكانت الكتابات والنقوش النبطية كثيرة ، وعلى غاية الأهمية ، وقـد نشـرهـا vogüe في مؤلفـه (سورية الوسطى والنقوش السامية) في باريس عام ١٨٦٨ ـ ١٨٧٧ صفحـة ١٠٠ sq . واعيـد طبعهـا في المؤلف Corpus inseription Sémitique الجـزء الثـاني ـ صفحـة ١٦١ ـ ١٩٤ (وفي المجلد الأول ـ الفصـل الثـاني ١٨٩٣) . وفي غضـون ذلـك . قام ch.Clermont ganneau بتـوضيـح أكثـر من نص وخـاصة في كتابة مجموعة الآثار الشـرقيـة الجـزء الأول من عام ١٨٨٥ . وقـد استفـاد من المؤلف Corpus وقـد اكمـل هذه المجموعة حتى عام ١٩٢٤ (RAD- VIII).

بينـما نشـرت اكاديمية النقوش والآداب كراستين عن (Corpus) المجموعة النبطية 11) Tome, 1, fasc, 3en 1902, 11, tome, 11, fase, 1en 1907) ولكنها لم تتناول منطقتنا وفي مجلد (فهـرس النقوش السامية (Repertoire d'épigrophie sémitique) AIBL) كليرمون غانوروج . ب . شابـو Clermant Ganneau, et. j. b, chabot تبـين أنـه أعـاد بشكـل منظم ، نشـر جميـع النقـوش النبطيـة المكتشفـة ، والمنشورة في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن ٢٠ الميلادي ، ومنها عشرات من قبل (F. Macler, R. Dussowd) . وفي رحلاتهما من عام ١٨٩٩ الى عام ١٩٠١

(رحلة أثـريـة الـ الصفا وجبل الدروز) باريس ١٩٠١ Res ٨٢ ـ ٩١ (ورحلات الى سورية الـوسطى) باريس ١٩٠٣ ـ Res ٤٦٢ ـ ٤٨٣ وأكثـر من مئـة رسـالـة، ومنها ٨٤ رسالة غير منشـورة دوّنهـا E. Littmann (في منشـورات جامعة برنسيتاون للبعثات الأثرية الى سورية من عام ١٩٠٤ الى عام ١٩٠٥ وعـام ١٩٠٩ ـ القسم الـرابـع، الفرع (١) نقوش نبطية) وكان السيد E. Lettmann قد شارك بأعمال البعثة الاميركية الداخلية ولكن ما يخص النبطية كانت قليلة الأهميـة من حيث الكميـة (منشورات البعثة الأثرية الى سورية عام ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠) (٤) نيـويـورك عام ١٩٠٤ (Res 803-808) . ولابـد من الاشارة الى النصوص المكتشفة من قبل الأب R. Savignae عام ١٩٠٤ (R.B ١، ١٩٠٤ صفحة ٥٥٧، ٥٨٤ . Res ٨٣٣ ـ ٨٣٤ ـ ٨٣٥ ـ ٨٠٤ ـ ٨٠٥) وفي عام ١٩٠٥ (R.B ٢ ـ ١٩٠٥ صفـحـة ٥٩٢، ٥٩٦ : Res ٦٧٦ ـ ٨٣٦) .

ان المؤلف J. Contineau يضـع النقـاط على الحـروف، من حيث العمـل الكتـابي والنقشي المكمل حتى الانسلاخ عن الامبراطورية التركية . غير أنه لم يستطع اغتنام الفرصة في أوائل الانتداب الفرنسي على سورية، لاعادة النظر بالنصوص التي عثر عليها . ومع ذلك فالمختصـرات التي احتفـظ بها تبقى ثمينـة جداً (النبطيـون الجـزء الثـاني، باريس ١٩٣٢ ـ المنصوصة عن حوران صفحة ١١ ـ ٢٥ ef صفحة ٤٩ شاهدة قبر في (نمارة Nemara) انها (Res ـ ٢٠٢٣ ـ Cis ١٦٤ ـ Res ١٠٩٢، ٢١١٧ ـ Cis ١٨٢، Res ٢٠٥٢ ـ ٢٠٥١، Cis ١٦١، Res ٤٧١ ـ ٨٣، ١٠٩٦، ٦٧٦، ١٠٩٧، ٤٨٣) وبـالمقـابـل طاف Maurice Dunaus المنطقـة عدة مرات اعتبـاراً من عام ١٩٢٥ ومـع ان النقـوش التي عثـر عليها، تعد بالمئـات، فهـو لم يصـادف الا القليـل من النصـوص النبطيـة، (متحف السـويـداء باريس ١٩٣٤ ـ رقـم ١٥٧ (Res ٢١١٨ ـ ١٥٨) (Res ٢١١٧ ـ ١٩٦) «لحـبران» وحـاليـاً في متحف السويداء ٢٠٣ (مسلة جنائزية Stéle) في جنيرة (شنيرّة Jénireh) والفضل بذلك الى المساعدة المالية لـ AIBL ـ فقد جُبْتُ ومعي J. t. Milik أشهر المواقع النبطية الأثرية في الأردن خلال آذار ونيسان ١٩٥٥، وفي سورية خلال تموز من نفس العام، على أمل المعلومات عن (Corpus inscriptionuus seniticarum), cis ويمكن الاطلاع على خلاصة من معلوماتنا التي صدرت في مجلة الآثار (R.B, 64- 1957 p. 223, sq ففي جبل الدروز وخاصة في «سيع» تبين أن ابحـاثنـا حول تدقيق النصـوص قد خيبت الآمال، لأن الهدم واعادة البناء قد طمساها . كل ما هنـالـك، هو وجـود عدة نصـوص مهمـة، منهـا نقش مسجـد (نصب ـ هيكل) غير معـروف، وكـانت قد جمعت في متحف السـويـداء . ان كثـرة المـواقـع الأثـريـة في السهـل الحوراني، اضطرتنا للسير وراء أكثر من عشرين منها، سواء في سورية أو في الأردن، وكانت مثمـرة جداً واعطتنـا مايعـادل ٥٠ نقشـاً نبطياً غير منشور، نصفها كان في بصرى، نظراً لجهود

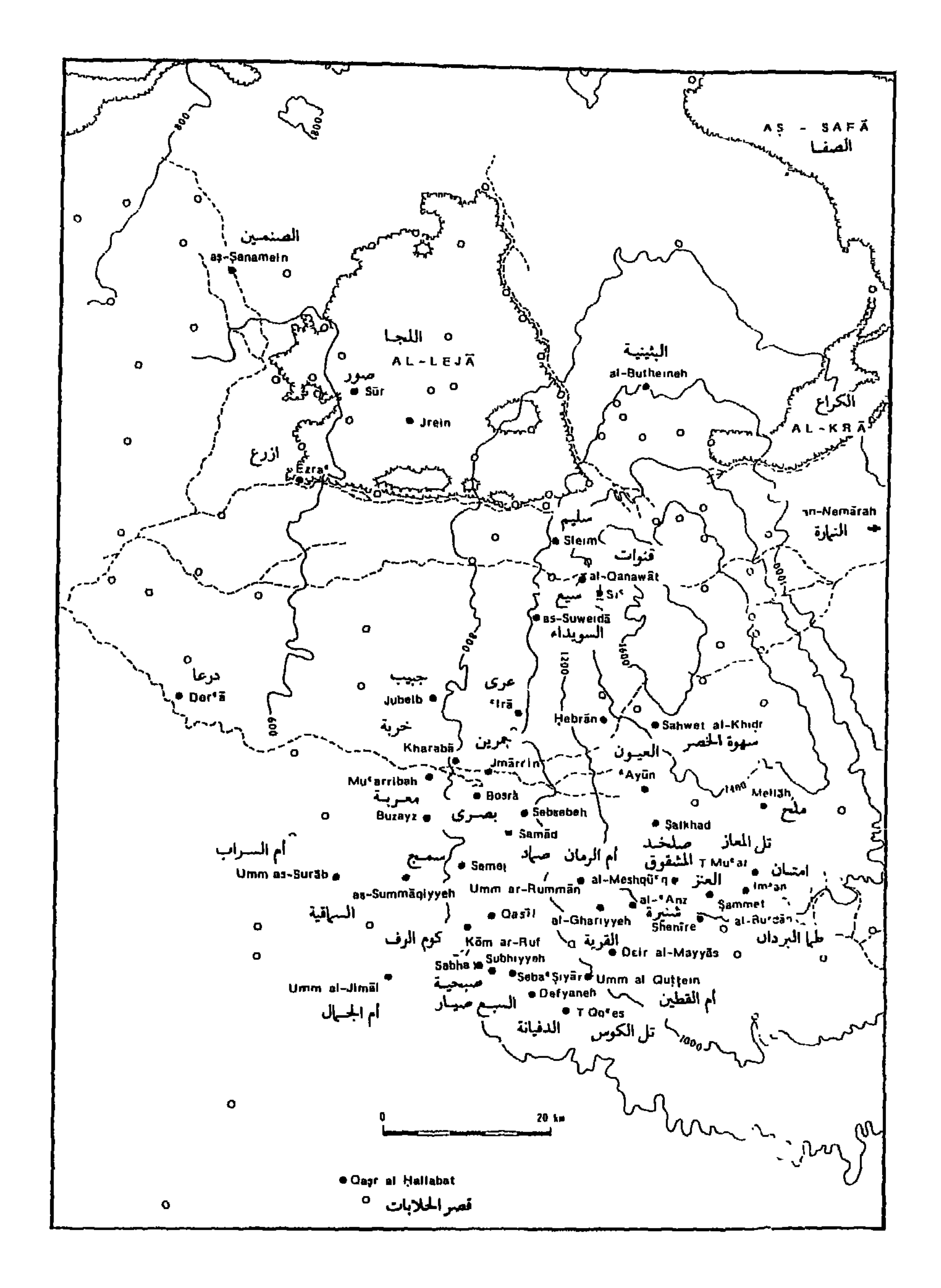
مدير آثار هذه المنطقة السيد سليمان مقداد، الذي استطاع ان ينظم مستودعاً ثميناً مليئاً بالاحجار المكتوبة، ولا بد من ذكر «معربة» حيث اطلعنا بواسطة الفلاحين على نص كتاب مؤرخ في السنة الثانية لحكم ماليكو (٤٧ بعد الميلاد)، وذكر «جمرين) حيث ظهرت شاهدة قبر تحمل لغتين، ونذكر بصورة خاصة «أم الجمال» التي عثر فيها على ثمانية نقوش كتابية نبطية غير منشورة. وفي مجلة سورية ٢٥، ١٩٥٨ ص ٢٢٧ (sq)، نشر السيد J. t. milik صورة المسجد في العدد ٢ ص ٢٣١، ونقش «معربة» (العدد ٥ ص ٢٤٢) وشاهدة قبر جمرين (العدد ٤ ص ٢٤١) ـ وكلمة اهداء الى الاله الأدومي (كوس Qos) الذي وجد في بصرى (العدد رقم ٣ ص ٢٣٥)، أما النقوش الأخرى غير المنشورة من هذا النوع كانت موجودة في أقصى الجنوب. ان العدد رقم ١ صفحة ٢٢٧ أظهر أن cis ١ ـ ١٨٣ ليس سوى تتمة لـ (cis 11 184)، وهذا النص المكتشف يبين كيفية تكريس «معبد اللاّت في صلخد» (cis ـ ١١ ـ ١٨٢) وقد أصلح (J. t. Milik) أيضاً القراءة المدونة في RES ٢٠٥٢ ـ صفحة ٢٢٩، وحول مسجد صلخد هذا (انظر تفسيري الحالي الوارد في المؤلف الميتولوجي اليونانية الرومانية، منشورات المركز الوطني للأبحاث العلمية. باريس ١٩٨١ [ed CNRS] صفحة ١٢٣.

ومنذ صدور نشراتنا في عام ١٩٥٥، تم اكتشاف عشرات من النصوص الجديدة، وقد عرفنا على تلك النصوص السيد سليمان مقداد، وأيضاً السيد موريس سارتر الذي نشر خلال عام ١٩٨٢ النقوش اليونانية واللاتينية في بصرى (IGLS VIII. 1) وتمكنا من تدقيق قسم منها في مكانه خلال تنقلاتنا. وسوف توضح هذه النصوص النبطية ضمن الجزء المتعلق ببصرى الذي يعده السيد ل. ت. ميليك بمساعدتي في المستقبل، ولا بد من الاضافة بأن قراءة مجمل النصوص النبطية المنشورة ستجري عليها تعديلات مهمة.

٣ ـ الكتابات النبطية ـ مواقعها وطبيعتها ـ

تبين الخريطة (رقم ١) الأمكنة والمحلات التي قدمت الكتابات النبطية. وجميعها تقريباً واقعة في جنوب خط «حبران ـ الكرك»، أي في الجزء الشمالي من المملكة النبطية القديمة. والاستثناءات قليلة العدد، فيما اذا وضعنا جانباً، الكتابات الموجودة في مقبرة «قنوات» والموقع المرتفع «لسيع» في قلب حوران، التي تطرح مع شاهدة قبر «حمرات» Hamrat. في السويداء مسألة خاصة. وقد تبين لنا بأن كتاباتها يجب أن تُعزى الى الأرامية قبل النبطية، ولكن لأسباب عملية يستحسن عدم الغائها من الكتابات النبطية.

كانت شاهدة القبر التي تحمل لغتين في «حمرات» تعود الى ضريح هرمي الشكل، ليس له وجود الآن، وتعني Stéle باليوناني nofshah بالأرامي، والتعبير الآخر، الذي يعني



الشكل رقم ١ ـ خريطة النقوش (الكتابات) النبطية

«النفس أو الشخص»، بقسمه الأول. يحدد بكل وضوح المسلة الصغيرة الجنائزية. أو بالتعميم، الضريح نفسه. وتشير وثائق كوربوس مجموعة (162-11) الى التقليد القديم للخط الذي يمكن أن ينسب الى القرن الأول قبل الميلاد، دون تقديم المزيد من أي ايضاح.

ان قنوات هي مصدر «الهيكل» المُهدى الى (Gud) «الاله الحامي» الذي يعود تاريخه الى القرن الأول بعد الميلاد (RES, 53. 806, 1474) وشاهدة القبر (Cis 11, 169) وفي المقبرة الواقعة شرق المدينة، فقد سجلنا شاهدات القبور (Res, 2033 et 805) التي ترجع لعام ٣٠٨ من عصر السلوقيين حتى ٥/٤/ قبل الميلاد. ويجب أن يضاف الى ذلك، شاهدة القبر التي تحمل لغتين (RES, 1093 ef 2022) وأيضاً نقش غير منشور اكتشف مؤخراً من قبل البعثة الأثرية الفرنسية في سورية الجنوبية (URA No20).

لقد زودنا معبد «سيع» الذي يشرف على المقبرة باثني عشر نقشاً، أو بالاحرى بقايا نقوش آرامية، وكان المهم فيها كلمة الاهداء لمعبد «بعل شامون» وهي تتعلق بسبعة أجزاء من نقوش لعوارض أعمدة واجهة الملعب الواقع أمام المقصورة «Cella» الرئيسية (H.C, Butler. PPUAES, 11.A. 1939 P. 380) التي عثرت عليها M. de Vogüe (Cis. 11- 163) راجع البعثة الاميركية للآثار (E. Littmann, PAES, IV, P 84, No1, Res 803) (والأب سافينياك .P Sevignae RB, 1, 1904, p. 581 Res 804) والنص الكامل تقريباً اعاد النظر فيه (PPUAES, IV, A, No 100, Res 2033) E. Littmann و(J. Contineau النبطي ١١ ـ صفحة ١١ ـ عدد ١)

ونورد فيما يلي النص والترجمة:

Dkwvn i6 imlykt. br' wsw br m' yrw dy hvv bnh 'i bs myn byrt' gwyt' wbyrt' bryt' d'winit (it'.....) Snt 280 d' Snt 311 wd hyyn b'Slm.

وترجمتها: الذكرى العاطرة لماليك بن (أوشي Aushu) (بن ميري Mu'airu) الذي اشاد لـ «بعل شامين» الـ Birla (المقصورة العليا الداخلية) والـ Birla (والمقصورة الخارجية)، والمسرح والرواق من عام ٢٨٠ الى عام ٣١١ وحتى نهاية الحياة بسلام. وقد شوهد الختم، والتاريخ ثابت (٣٣) (٣٢) الى ٢/(١)، أما المسرح فليس سوى ملعب، بدرجات عُثر ضمنه على عوارض. ويُشير J.Contineau الى أن birla التي معناها العادي (قلعة) تعني في المجموعة (١ ـ ٢٩) و(١ ـ ١٩) (berah العبري) أي معبد. أما Butler (في الصفحة ٣٧٨ من مؤلفه) فيعتقد بأن Cella لم تكن تعني في بادىء الأمر سوى الغرفة الداخلية التي أحاطها «ملكات» فيما بعد بحائط آخر ودعيت المقصورة Birla الخارجية. ولكن بالنسبة لهذه الأخيرة قد يمكن أن تأخذ معنى (حائط السور المنيع) والمقصورة الداخلية Birla هي كناية عن مجموعة الـ Cella (أي تمثال الإله في عبادة الرومان والاغريق) وتحت الدهليز الذي يحوي

عامـودين ، كانت تنتصب أربعـة تماثيـل : تمثـال ملكـات يحمل كلمة اهداء يونانية (٢٣٦٧ waddington) ويبـدو أنـه أوكـل اليـه بنـاء المقدس (hieron) وبعض الأبنية التي تحيط به . أمّا التمثـال المجـاور وكلـمـة الاهـداء المكتوبـة باللغتين (Cis, 11, 164, et waddington 2366) فيعـود الى ملكـاف بن Müairu بن ملكـات ، الـذي أشاد المقصورة العليا (birla) وأعاد رفع المذبح Hieron وهـو بلاشـك حفيـد المؤسس (biron) . كان الخط مطابقاً للنموذج النبطي الكـلاسيكي وهـو يثبت المـدة الـزمنيـة لجيلين. أمـا الاهداء اليوناني للتمثال الثالث ، فكان موجهاً الى أسرة هيرودس (٢٣٦٤ Waddington ، أي الى هيرودس الكبير في نهاية حياته (مات في السنة الرابعة قبل الميلاد) . أما مقصورة المعبد (Cella) فقد أكملت قبل الملعب ذي الأعمدة في الواجهة ، وهذا أمر طبيعي . وكلمة اهداء التمثال الرابع مفقودة .

أمـا المعبـد المجـاور الـذي يقـال أنـه لدبشـاره Dushara قدم لنا RES ١٠٩٢ بلغتين (راجـع صفحـة ٢٣٢ ـ ٢٣٥ J. K Milik سوريـة ٣٥ ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤٨ وجـاكلين دانتـزر سوريـة ٥٦ ـ ١٩٧٩) وكتـاب اهـداء في السنـة ٣٣ ، للسيـد فيليب (٢١١٧ Res) اذ يعـود التـاريـخ الى عام ٢٩ / ٣٠ وهـو تاريخ ثابت . وقد حفر النص على قاعدة التمثال التي تشبه قاعـدةالمعبـد ، ومنهـا اشتقت كلمـة (bivnis) المنسـوخـة عن اليونانية (Bômos للتعبير عنها . والمحفـوظـة في متحف السويداء هو فقد اعلى البناء (المدماك) ١ ـ ٣ (المتحف رقم ١٥٨) . أمـا اسفـل البنـاء فقـد طمست معـالمه . ان الأجزاء (Res, 1091 PPUAES, IV, A رقم ١٢ ، وتحمـل كلمـة hgrp'mlm' وليس (hgrps'-milk') أي الملك اغريبا(٩٩) (الأول من عام ٣٧ ـ ٤٤ أو الثـاني ٥٣ ـ ٩٣) وقـد دوّنـا الأجزاء (Cis ـ ١١ ـ ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ ١٦٧) المحفوظة في متحف اللوفر (Cat متحف ليون رقم ٦١ ـ ٦٠ ـ ٥٩) والتي يجب أن يضاف إليها (Cis ـ ١١ ـ ١٦٨ و Res ـ ٨٣٥ ـ ٢١١٨) أمـا الجـزء B فقـد أخـذ من قبل Dunand (المتحف رقم ١٥٧) ولكن قراءتـه لا تطبق مع الصـور (PPUAES, IV, A, no 107 Pl, XXXIV) الاسم الحـرفي على تمثال (خيّـال) . ويجب أن تأخـذ ترجمـة هذه النصوص الأرامية بعين الاعتبار النقوش اليونانية s.q. رقم ٣٢٦٤ Waddington رقم ٧٦٦ ـ ٧٨١ ـ P.PUAES, III,A.

تبـعـد «حـبران» مسـافـة ١٢ كم جنـوب شرق الـسـويـداء وهـي في حوران (Huranitude) لأن (Cis ـ ١١ ـ ١٧٠) مؤرخ في السنـة ٧ لحكم كلود(١٠٠) . وكلمة الاهـداء (أو التكـريس) هذه التي نقشهـا على أحـد الأبـواب كاهن (الـلات) (» Kmr«cl) المحفـوظة في اللوفر، تمثل خطاً من النموذج النبطي ، والأمر نفسه بالنسبة لـ (Cis ـ ١٧١ ـ ١٧٢ و RES ٢١١٤ والمتحف ١٩٦) . وهي كناية عن نصب «نسر» في متحف السويداء . والمكان قريب جداً من المملكـة النبطيـة . وأن «سهـوة الخضر» التي تبعد ٦ كم شرقاً ، هي جزء منها (راجع ٢٠٢٤ ، , Res -Aviyonah -, -op -cit صفحـة ١٧٢ ـ ١ ـ) مؤرخـة فعلاً عام ١٥ من حكم

ملك نبطي . فهذا الاهداء من قبل رئيس كهنة eparque أي قائد جناح الفرسان للمسجدا (masgida) وهـو بمعنى صومعـة أو معبـد ، وقد تمكن J. I Milik من اكمال قراءة الخط (راجع المجموعة اللاحقة) . أما المجموعة (RES ٢١١١٥) فلا تزال غامضة .

في شمال حوران Huranitude ، داخـل اللجـا Erachonitude ، نسـخ ر. دُيسّو بعض الأحرف النبطية واقعة على جائز يعلو باباً في قرية «جرين» (٤٦٤ ، RES) كما نسخ بعضها M - Dumand من على «معبـد» في قريـة «البثينـة» (RB ـ٤١ ، ١٩٣٢ ، ص ٤١٠ ـ حاشيـة ٤١) . وفي تلك المحلّة التي يُذْكـر اسمهـا ، باسم Batanée (راجـع R Dussaud) الطبوغرافيا التـاريخيـة لسـورية القديمة وسورية الوسطى ١٩٢٧ ص ٣٥٠ ـ (راجع ٣٢٦ و٣٦٧) على حدود «تـراخـونيتيد» و«باتانة» يوجد «ازرع» (Zorava) حيث قام وادينغتون Waddington ، بنسخ نقش من خمسة أسطر ولم تتوضح قراءتها (Cis ـ ١١ ـ ١٨٦ . وفي Batanée نفسها نقل W. Ewing في عام ١٨٩٢ سطـرين باللغـة النبطيـة (أو الآراميـة) من الصنمـين (Aere) (RES-١٩٢١) ولكن لايمكن استخلاص أيِ شيء من صورتها (PEFQS ، ١٨٩٥ . ص ٥٧ ، رقم ٤٣) علماً ان جميـع تلك المقـاطعـات ، وأيضـاً أراضي ديـوم انتهى بها الأمر الى الحـاقهـا «بـالـولايـة العـربيـة» . ولكن الكتـابـات النبطيـة النادرة كانت تُعرف بواسطة الآثار القليلة التي احتفظت بها مدينة «بترا» بعد انضمام عام ١٠٦ ب . م .

وعلى عكس ما تم في المملكـة النبطيـة على جانبي الحـدود السورية ـ الاردنية الحالية ، وعلى امتـداد ٥٠ كم من الغـرب الى الشـرق ، فقـد أعطت ثلاثـون «محلة ونيّف» مذكـورة في خريطتنـا ، نصـوصـاً نبطيـة تلت جزئيـاً عام ١٠٦ مائـة منهـا أتت من «بصـرى» ، وأغلبهايعود الى مابعـد ملك «اريتـاس الـرابع (ولكن المؤرِّخ منها قليل ، واذا استثنينا (١٥) نقشا ، نرى بأن موضـوعـاتهـا تدور حول كتـابات جنائزية ، وجميعها تقريباً من المسلّات المستعملة للمرّة الثـانيـة ، في المقـابـر التي تحيـط بالمـدينـة ، وقـد نُشـر من هذه المسـلّات عشـرون (EIS ١٧٥ ـ و RES ، ٨٣٤ و٢٠٩٥ ـ ٢١١٢ . وكـانـت المسـلة الأخـيرة قد نشـرت من قبـل «لـيتـمان» PPUAES, IV, A رقم ٧٤ ـ ٩١ . أمـا المسـلّات الأخـرى فقـد كشفت من قبـل J. L. Hilik و J. Stardky ، خاصـة خلال عام ١٩٥٥ ، حيث اشـترك معهم السـادة . سليمـان مقـداد وم . سارتـر، على أمـل ادخـالهـا في مجمـوعـة الوثائق (Corpus) في المستقبل . أما الكتابات غير الجنائزية ، فلم يعثر عليها ، على مايبدو ، في الموقع . وبذلك لايمكن أن تساعد على تحديد مواقـع المعـابـد التي كانت تُكرَّم فيها الآلهة المذكورة مثل : إله كازيو (dieu de Qasiu) (CIS ـ ١١ ـ ١٧٤) «وبعـل شامـين» (١٧٦) (و A'ra ـ ١٧٧) راجـع (RES) Dushara A'ra, ٨٠٨ RES ـ ٦٧٦) من عام ٤٢ من عصـر الابـرشيـة (Eparchie) أي ١٤٨ بعـد الميـلاد . و (Dushara ٢٠٢٥) و (Al-ozza ٢٠٩١) Qos سورية ـ ٣٥ ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣٥ رقم ٣ .

بعد «بصرى» كان المركز النبطي الأكثر أهمية هو «صلخد» حيث (Cis ، ١٨٢ و RES ٢٠٥٢) ثَبّتَ وجود معبد «اللات» و RES ، ٢٠٥١ ، كما تؤكد عبادة «بعل شامين» و (RES و٢٠٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٠٢٧) وكلاهما مسلات جنائزية . أما التواريخ فالمجموعة (CIS ١١ ـ ١٨٢) تقابل عام ٥٦ ـ ٥٧) و (CIS ـ ١١ ـ ١٨٤ ـ ١٨٣ ، تقابل عام ٩٤ ـ ٩٥) و (RES ، ٢٠٥١ تقابل عام ٦٤ ـ ٦٥) راجع (المجلة ـ Nam ـ ١٩٥٨ ص ١٧ ـ آخر مجموعة : الرقم ٢٣ (ليتمان) الذي قرأ (عام ٣٣) من حكم (ماليكو maliku) الذي لم يحكم سوى ثلاثين عاماً . فالصورة تتيح قراءة ٢٥ ـ أو ـ ٢٦ أوحتى ٢٧ ـ ٢٨ (راجع ص ١٩ (cit- op- J.. contineaux ـ ١١) . ويعود تاريخ الهيكل (Cis ، ١٨٥ ـ RES ٢١٢٠) الى حكم «رابيل الثاني» : وفيما يخص الوثيقة (Cis, tnc) اقترح قراءة اسم مدينة (Slhdw) صلخدو كما هو الحال في النقش الأثري رقم ٢٢٦ الذي أظهره R. Savgnae ، قرب الهجرة (البعثة الأثرية في «العربية» ٢ ـ ١٩١٤ ص ١٩٣) . فهو المعبد الذي شيده (Rawalu) الى (اللّات allath) المهم الموجود في صلخد والذي انشأه Rawahu والد جد Rawahu المذكور اعلاه (l'it, ththm, dy, bslhdu dy nsb rwhu وهذا يتعلق بصنم الأجداد المنصوب في نهاية القرن السابق في أوّل «معبد» من الطراز العربي (راجع أدناه) وعلينا أن نذكر أيضاً ، نصاً مشابهاً ، مأخوذاً من جوار صومعة «اللّات» في تدمر . وهذه التقدمة أو الهدية pyrée كانت مهداة من قبل « Caddarsu» . . . الى سيدة المعبد وهي «صنم» أشاده Mattanai الذي هو أصغر جد لـ qadarsu (السيد H Gawlikowsk مجموعة نقوش تدمرية جاءت من التنقيبات السورية ـ والبولونية الحديثة في تدمر لعام ١٩٧٤ ص ٧٢ رقم ١٤٣) تعرف J. t. Milik ، على (صنم) صلخد في (Cis ١١ ـ ١٨٤ ـ ١٨٣) حينما قال (هذا هو المعبد الذي أعاد بناءه Ghautallah الى «اللّات» والى سيدته (L'it wivgrh سورية ، ٣٥ ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١) .

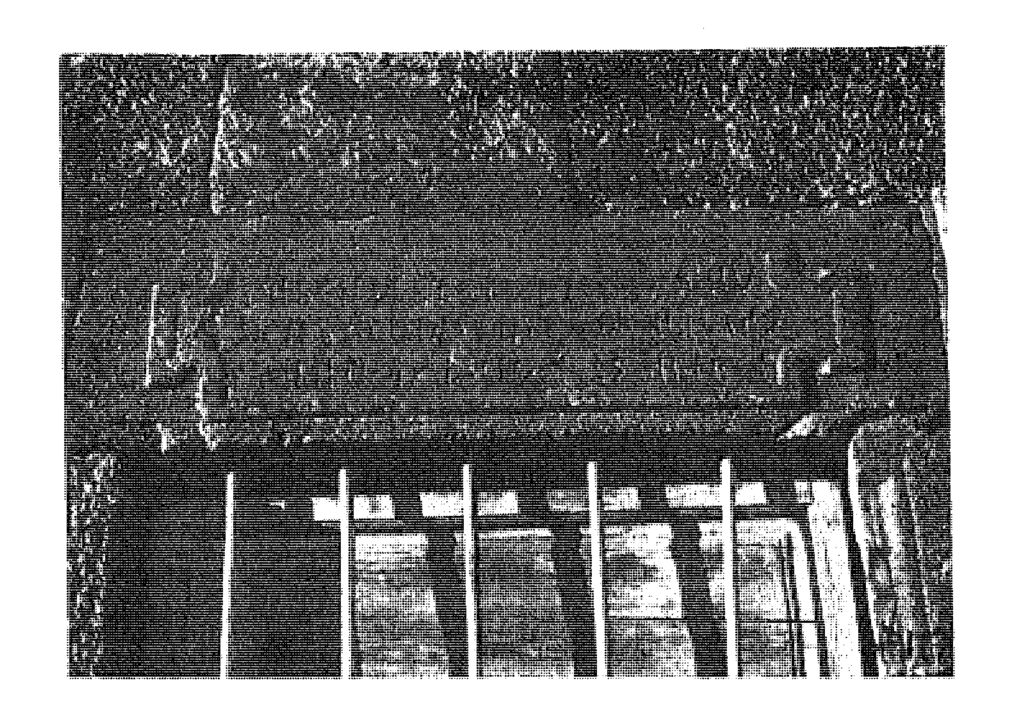
هناك موقع آخر يمتاز بكثرة نقوشه وكتاباته النبطية وهو «أم الجمال»[١١٠] في الاردن ، ولكن من بين (٤٠) نقشاً (٢٨) منها نشرت من قبل «ليتمان» (RES ، ٢٠٦٣ ـ ٢٠٩٠ و٨ بقيت غير معروفة) ، جميعها تقريباً جنائزية : ثلاثون من المسلّات و(٦) أو (٧) من النصوص التأسيسية ، لنذكر شاهدة القبر المزدوجة اللغة لجابي المال (تروفيس Tropheus) لدى Ghadmatls ملك التنوخيين ، الذي كان معاصراً «لزنوبيا» (٢٦٧ ـ ٢٧١ (RES ١٠٩٧) والذي يثبت استعمال اللغة النبطية التي كان يغلب عليها الصفة العربية ، حتى مطلع العصر البيزنطي ، حيث ستزدهر المدينة (أي «أم الجمال») وستستخدم المواد النبطية لتستر بين كنائسها وبيوتها الفسيحة . ومع ذلك يجب أن يشار الى مدفن نبطي ، لا يزال بحالة جيدة تقريباً في الجنوب الشرقي للمدينة (RES ٢٠٨٢ ـ ٢٠٨٩ ـ PPUAES, 11, A ص ٢٠٦) حيث تنتصب ثماني مسلّات مصطفة أمام المدخل ، وهذا يذكر بتلول الصفائيين . ان عيادة

Qushara A'ra ثابتة بالاهداء المكتوب باللغتين الموجود في Pyrée «البيرة» (RES ١٠٩٦) .

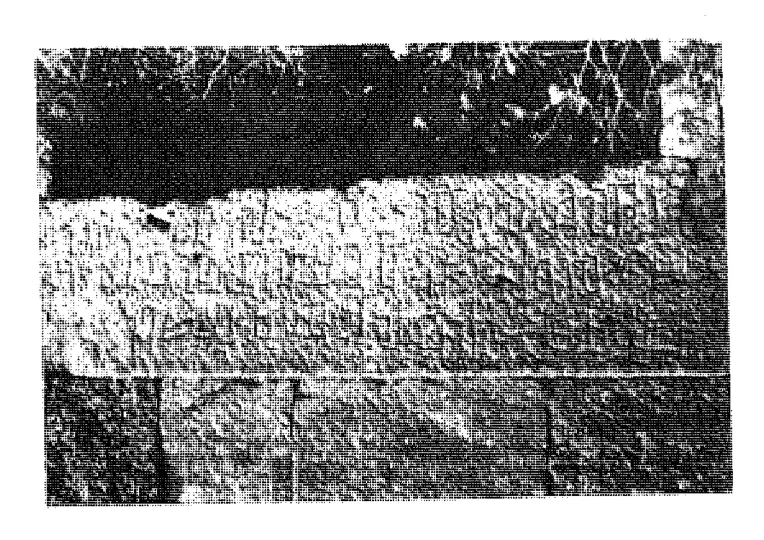
وقد أُلتُقِطَ في (٣٠) محلّة أخرى من المنطقة ، أكثر من (٧٠) نصاً نبطياً . كانت درعا الواقعة في الغرب ، جزءاً من المملكة النبطية ، ولكن لم يعثر فيها إلّا على (٢) و(٣) مسلات جنائزية مذكورة في (RES ـ ٨٣٣) . وكانت النقوش والكتابات النبطية قد بدأت في المنطقة المجاورة «لبصرى» منتشرة بدون كثافة ، نحو الشمال ، (في «عرى» ١٨٩ ـ ١١ ـ Cis مسلة جنائزية) وفي «جبيب» RES ٨٣٦ ، وتكررت مشاهدتها عام ١٩٥٥) في «خربة» حيث يوجد نصان جنائزيان RES ، ٨٧ و٤٨١ مع كلمة اهداء دينية RES ٤٨٢) والنقش البارز المهدى للّوفر ٨٥ ـ ١١٢١٥ ، وهو نموذج من الفن النبطي في متحف ليون ١٩٧٨ ـ ١٨٧٩ ص ٤٣ ـ رقم ٤١) وهو بلا شك من «خَرَبةْ» مؤلف من مسلتين حجريتين (RES ٢١١٣ ، واحدة بدون كتابة ، والنقش المزدوج اللغة (سوّرية ـ ٣٥ ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢٤١ رقم ٤) وفي «معربة» النقش المؤرخ عام ٩ من حكم الملك «ماليكي» (٤٩ ـ ٥٠ ب . م ـ loc- cit ص ٢٤٢ رقم ٥) .

هذا وقد تركزت كتابة النقوش النبطية في جنوب وشرق «بصرى» وأغلب المواقع لم تُخلف سوى مسلات جنائزية ، أو جوائز حجرية منقوشة أو مكتوبة على المدافن ، مثلاً : من الغرب الى الشرق في «خربة الروم» مسلّة لم تنشر بعد ـ في السماقيات جائز لم تنشر كتابته مع تسعة مسلّات (RES ـ ٤٧٦ ـ ٤٧٧ ـ ٤٧٨ ـ ٤٧٩ ـ ٤٨٠ ـ ٢٠٣٢ ـ ٢٠٤٠ ـ ٢٠٤٤) مزدوجة اللغة . و(٢) لم تنشر نصوصهما (Bezayiz البيزابيتو RES ، ٢٠٣٨ ـ سيسية ٢٠٣٩ . في صماد قام M. Sarte بالكشف عن نقشين مشوَّهين أحدهما قرب ضريح فخم في «كوم الرف» (RES ٢٠٤٣ ـ ٥) أحجار كبيرة أعيد استخدامها حيث تبتدئ شاهدة القبر بكلمة g br (قبر) في الصبحية RES ٢٠٤٧ ـ في «السبع صيار» مسلة غير منشورة في «تل قويس» RES ٢٠٦٢ ـ في دير اليّاس RES ٢٠٤٧ (في شمال صلخد يوجد uyüm أو Ayún ـ ١١ ـ Cis ـ ١٨٧) في شرق ملح الصرار RES ٤٦٧ = ٢٠٢٨ هناك جائز جنائزي ٢١١٦ مسلة) في جنوب «أم الرمان» (٥) مسلات RES ٢٠٥٦ وأربعة غير منشورة في «شنيرة» أو جنيرة يوجد مسلة في المتحف رقم ٢٠٣ .

أما موقع «امتان» فهو اكثر أهمية ، بالاضافة الى مسلتين جنائزيتين RES ٨٤ والأخرى غير منشورة . ويجدر الاشارة الى جائز منقوش ومشوه ولكنه جنائزي بالتأكيد . والى معبد يحمل إهداء تالف أيضاً ، كلاهما غير منشورين . وكان «دوسو» قد استخرج من ذلك الجائز اهداء محفوظاً لمعبد ربما أُحضر من موقع مجاور «لتل معاز» ، وهو مهدى إلى Dushara A'ra إله سيدنا الموجود في بصرى في عام ٢٣ لحكم الملك «رابيل» Rabbel ملك النبطية الذي يُحيي ويخلص شعبه (RES ـ ٨٣) J. Contineau . النبطي ، ١١ ، صفحة ٢١) A'ra ، اذاً ، هو إله بصرى المتمثل في Dushara إله النبطيين . في «صمّا البردان» قامت حملة Princeton



الشكل رقم ٢ ـ شاهدة قبر نبطية منقوشة ضمن بيت حديث في صور (اللجا)



الشكل رقم ٣ ـ نقوش في «الخرائب» (قرب قرية ام الرمان) كليشة F. Breamer

بنسخ مسلة جنائزية (RES ٢٠٥٥) وأيضاً النص حول تأسيس بناء ('bnyn) من قبل سيدنا Maliku ، ملك النبطيين (RES ٢٠٥٤) وتحت حكم هذا الملك الأخير (٤٠/٤١ - ٧٠/٧١) وحكم «رابيل الثاني ٧٠/٧١)، ١٠٦ أصبحت «بصرى» العاصمة الثانية للمملكة النبطية قبل أن تصبح عاصمة للولاية العربية ، وفي السنة السابعة لحكم «القيصر أدريان»(١٢٥) (١٢٤) تمّ وضع تاريخ بناء حمّانا hammana في معبد الإله Asheru أو (Asadu) (RES ٢٠٥٣) في دير المشقوق ، حيث وجدت مسلّة جنائزية غير منشورة ، وأيضاً في قرية «عنز» الذائعة الصيت ، كشف R. Dassaud نصّاً من بناء مُشوّه (RES ٤٧٢) وفي «تل القريّة» أو (غرية الشبيح) هناك ثلاثة نصوص : مسلة بلغة مزدوجة (RES ٨٥ = ٤٧٠ = ١٠٩٥) ونقش على جائز (RES ٤٦٩) ـ واهداء arkata (rkt) (للإله sha'aal - qaum «شائع القوم» في عام ٢٦ لحكم الملك رابيل الثاني ، ملك النبطيين الذي يحيي ويخلص شعبه (RES ـ ٨٦ ـ ٤٧١) والنبطي ١١ ـ ص ٢٠) فهل يعود ذلك لبناء يشكل قوس (-arcus) أو شكل صندوق (Area) أو رواق (وهو معنى مفترض من العبارة المماثلة لصوت « rknt» من (١١ ـ cis ـ ٣٥٠) ومن نفس المحلّة اُلتُقِطَ اجزاء صغيرة من (باحة cratère) بازلتية (أناء حجري ذو عروتين كان يستعمله الرومان) سجل عليها «رابييل الثاني» وهي موجودة الآن في متحف السويداء تحت رقم (٢٢٠ متاحف).

في قرية «ام القطين» جنوب الأردن ، عثر على جزء من جائز يُثبت نفس الملك (RES ٢٠٥٨) ونصّ لتأسيس بناء جنائزي من خمسة اسطر لعام ٢٣ لحكم «رابيل الثاني» ٩٢/٩٣ (RES ٤٦٨) = ٢١٢٦ ، وجائز آخر مشوّه (RES ٢٠٥٩ ـ مع ثلاث مسلات جنائزية (RES ٢٠٦٠ ـ ٢٠٦١) واحدة غير منشورة . وفي الغرب في («صبحة» Sabha) وُجد خمس مسلات (Res ٤٧٣ ـ ٢٠٢٩ ـ ٢٠٤٨ ـ ٢٠٤٩ ـ ٢٠٥٠ ـ . واحدة منها لم تنشر بعد . وجائزات عليها كتابة (Res ـ ٤٧٤ = ٢٠٣٠ مشوه ، والثاني مشوه أيضاً ولكنه جنائزي وغير منشور . ثم نصّ غير جنائزي (N. Glueek تنقيبات شرق فلسطين ٤٠ ـ ١٩٥١ ـ ١ ـ ص ٢٢ رسالة R. Sovignae نقحّها J. t. Milik.

والجدير بالذكر أنه عثر في قرية (كاسل) أو (تسيل» في الشمال على صخرة كتب عليها رسالتين أعيد استعمالها (RES ٢٠٤٦) وفي قرية سمجْ هناك جائز حجري يحمل عبارة اهداء قرأها Littman هكذا : (هذا صنع قبيلة « Qasiu» لإلههم «بعل شامين» (Res ٢٠٤٢) اذاً ، هو نفسه الذي أشير إليه في بصرى (cis ١٧٤) بالعبارة الوحيدة المجهولة (إله كاسيو) (1h') qsyw راجع Cis ـ ١٦٥ «السيع» ، iqsyw ، إلاّ إذا al'l ـ ليس بمعنى القبيلة . و Qasiu هو جد العائلة التي نقلت عبارة اللّات الى «صلخد» وهي بلاشك كانت آلهة مماثلة «لبعل شامون» (Res ٢٠٥١) بالنسبة لقبيلة Qasiu ، والقبيلة المقربة من Ravvahu (Res, Jrw hW.

٢٠٦٥ ـ أم الجمال) وقبيلة السلاميين (L. Slmiw') ٢٠٦٦ من نفس الموقع (انظر مؤلف J. t. Milik سوريــة ٣٥ ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢٢٨، S ، و٢٣١ رقـم ٢ معبــد Dushara في متحـف السويداء من مصدر غير معروف، وفي «دير سمج» على بعد خمس دقائق شمال شرق سمج يوجد نقش في tabula ansala غير كامل (RES ـ ٢٠٣١).

حافظت «ام السـراب» في أقصى الغـرب (وفي الأردن) على مسلّة جنـائـزيـة (Res ٢٠٣٧) وعلى جائـز يشـير الى بنـاء (اربعانة arba'ana) ('rb'n') أربعين، تحت حكم الملك «راببيـل الثـاني» (Res ٢٠٣٦). هذه العبـارة المشتقـة من 'rba' (أربعـة) تذكّر بكلمة (Rbt') Rab'ata التي أثبتت، بالنسبـة للمنطقـة التي تهمنـا في «بصـرى» (Res ٢٠٩٢ ـ في سبيـل الاله.) وفي «خربة» (Res ٨٨ ـ ٤٨٢) يقترح Rittman ـ بأنها مقصورة من الطراز الإيراني (Pyrelhée) (IV PPUAES ـ ٨ صفحـة ٤ ـ S) ويمـكن أن تعنـي بنـاء صغـيراً عربيـاً من النمـوذج المكعب على طراز الكعبـة وكلمـة «حمانا» تعني pyrée أو pyréthée أما المعنى الثاني فإنـه يتـوافق مع (Res ـ ٢٠٥٣) المكتـوب على جائز (وفي ٢١١٥) على طبلية مرفوعة على تاج عمـود في «سهـوة الخضـر sivera lectea، ثمـة كلمة اخرى تحمل معنى أصليّاً، ومعنى مشتقاً مميزاً للمنطقة وهي (masgeda) (masgd) من أصل sgd أي سَجَدَ. وأحياناً هو الهيكل الــذي هو Pyrée من النـوع المتطـاول (Cis ١١ ـ ١٦٢ ـ ١٨٥ ـ (Res ـ ٨٣ ـ ١٠٩٦ ـ (masgd) واحيـانـاً هو الحـرم الـذي يحويـه (Res ٢٠٢٤) وهو على طبلية موضوعة على تاج العمـود في «سهـوة الخضـر» (هـذا المسجـد masgida) الذي صنعه وبناه..) وهذا المعنى

أستخدم في العربية، مسجد masgid. أما العبارة محرمتا (Mahramta) (Mhrmt') فإن كان لها معنى الصـومعـة (راجـع بالعـربي حَرَمْ) في كلمـة اهـداء سيدون (sidon) - (Cis ـ ١٥٨)، يقترح «ليتمان» تسميتها مكاناً معداً لـ (Res ٢٠٩٣ ـ ٢٠٩٤) والثاني بارز على مخروط جاء من مسرح «بصرى».

أمـا كلمـة naphsha (np's') المألـوفـة في المعنى الجنائزي التذكاري، باللغتين النبطية والتدمرية، فإنها تشير احياناً، الى المسلّة البسيطة الممثلة للشخص نفسه naphsha المرحوم واحياناً تعني القبر وبالنسبة للمنطقة التي تهمنا، فالمعنى الأول هو الأدنى تأكيداً، ولا يمكن أن يذكر إلّا المسلّات التي كانت درعا مصدراً لها (Res ـ ٨٣٣). واذا كانت Res ـ ٢٠٨٢. (npw Zbwd, br, smtnr) «نفسه زابودي ابن شاميتو» «nephesh de zabudu fils de shamitu» كناية عن مسلّة صغيرة بشكل عادي، فهي منتصبة تماماً على يسار مدخل (القبر النبطي) في «أم الجمال»، بينما السبعة الأخر من (٢٠٨٣ ـ ٢٠٨٩)، حيث اسم المرحوم غير مسبق ب (nps') فهي في حالـة مبنيـة من (np's') فإنهـا تصطف عمـوديـاً الى ٢٠٨٢. ولا بد من ترجمة النص هكـذا: (قـبر «زابـودي») مع أن هذا الاخـير يبـدو وكأنـه أصـل بقية المرحومين. ويترك

البراهين الأخرى لـ nps وكأنها مرتبطة بالقبور، وذلك بناء على إسنادها. (Cis ۱۱ ـ ۱۹۱ ـ Res ۱۰۹۷ ـ ۲۰۵۳) أما المسلات الثلاثة الموجودة في «أم الجمال» (Cis ۱۱ ـ ۱۶۲) والضريح الضخم في السويداء، وفيه تُمثل nps'h الأنثى بصورة تامة. الموضوع هنا يدور حول متوفاة أو رجل ينتهي أسمه بلاصقة مؤنثة مثل مدفنها في حمرات Hamrat وهذا اسلوب مألوف في قاعدة الصرف والنحو السريانية (Cis ۱۱ ـ ۱۶۹ ـ في قنوات ـ المقبرة الكائنة في أسفل «سيع» Res ـ ۱۰۹۳ ـ ۲۰۵۹ ـ ۲۱۲۶ ـ (ام القطين).

ومن المفيد دراسة المصطلحات الادارية (قليلة العدد)، وخاصة منها الاعلامية، لتحديد سكان المنطقة، يعتبر هذا العمل مشترك مع علم النقوش اليونانية ـ اللاتينية ـ الصفائية والنبطية، ويُكتمل بفضل الدراسات التي قام بها J. t. Milik و/م. سارتر/.

وأخيراً يجب أن نؤكد بأن النقوش النبطية في جنوب المنطقة الحدودية، (السورية الاردنية) تصبح نادرة، ولا شيء يذكر سوى: مسلة جنائزية منقولة من Gadara «غادارة» ـ غير منشورة ـ ومدفن np's' في «بيت راس» (Caputolias) الواقعة شمال «اربد» cis ۱۱ ـ ۱۹٤)، وحاضرتين لم تكونا من عداد المملكة النبطية , M. Avi- Yonah, op, cit) صفحة ۱۷٤ ـ s).

وحتى في الشرق، في البادية، لايمكن ذكر سوى «قصر الحلابات» (على بعد ۲۰ كم شرق الزرقاء) الذي اعطى بعض بقايا النقوش. غير أنه في جنوب «عَمّان» تزداد، تدريجياً النصوص النبطية، وتصبح كثيرة على جدار مدينة «بترا».

ملحق Appendice

في عام ١٩٨٢ ، اكتشف موريس سارتر على جائز[١٣٥] يحمل نص Nephesh (الصورة رقم ٢٠) في قرية «صور» في اللجا، من أعمال «Trachonitude» منطقة اللجا القديمة، ان النقوش النبطية فيها نادرة. وقد أعيد استعمال هذا الجائز بحيث إتجه النقش الى الخلف، وهو الآن جائز لشباك يحتوي على احجار أخرى، اعيد استعمالها، وذلك في بيت واقع شرق القرية، على بعد ١٠٠م خلف مخفر الشرطة. وأنا ـ ج. ستاركي ـ اشكر السيد سارتر بحرارة، لأنه وافق على تفويضي بنشره في هذا الكتاب.

إنه حجر بازلتي بقياس (١٠١ × ٣٠, ٠م) والكتابة فيه نبطية على ثلاثة اسطر (٦٦, ٠ × ١٩, ٠م) وهو موضوع في Ta bula ansola بقياس (٨٦, ٠ × ٥٢٣٥)

- bx'nt is «igldys qysr np's »

-irw brt mlykt rb'wsw br mly

- kt wln'l bnyh 'b dw mn b'trh

وترجمتها الحرفية: في عام ٩ من حكم كلود سيزار، مدفن Ateru ، ابنة مالكات القديم: Ausu ابن مالكات وتانيل (tanel) ولديها (à elle l') وقد شيّد ذلك بعدها. أي بعد الموت.

هذه الكتابة تشبه كتابة حوران في منتصف القرن الأول، والذي يشابه النموذج الرسمي لخط «بترا»، ولكنه يحتفظ ببعض الخصائص للخط الآرامي الذي ساد في سورية الجنوبية، والذي اعتقدنا أننا تعرفنا عليه في النقوش القديمة «لسيع»، ويشبه (Cis ـ ١٦٤) اهداء على شرف (مالكات) الذي سبق أن أشاد معبد «سيع»، الذي بناه واحد من أسرة (المالكات) الذي قد يكون جدّه، ولا يستبعد أن يكون هذا الاخير هو مالكات القديم المقصود وإن اسم Ausu موجود أيضاً في هذه النقوش. هناك في «صور اللجا» معبد مهم جداً. وان tan' él صفائي Safaltique ، ويقرأ كثيراً تحت الأشكال، -Zoun- Zonun Zanáel, el- Zan (E. a Suspecte) اشتبه به (فهرس وتوافق الاسماء والنقوش العربية قبل الاسلام). و Tanel «تانيل» هو النقش الآرامي (راجع iglo XIII p 395 et RES 1093) شاهدة قبر في سيع، مزدوجة اللغة لقبر Tanemos Tanenoul.

ـ ارتبطت Trachonitide مع ما تبقى من الولاية العربية القديمة «لفيليب بن هير ودوس»، مع الولاية السورية من عام ٤٤ الى عام ٥٣ ، وشاهدة القبر كانت تحمل التاريخ ٤٩ ، وفي حبران، جنوب الولاية الربعية القديمة، كان قد أُكتُشِفَ نقش مكتوب ومؤرخ في شهر (تشرين Tichri) من العام ٧ لحكم الامبراطور «كلود سيزار» وهو محفوظ في متحف اللوفر (Cis ـ ١١ ـ ١٧٠)[٢٥] ـ تشرين ٤٧ ، ,qgsr, qldys وقد ثبت ماعرف عن «جوزيف»

وخاصة عن الفتوحات المتعاقبة لهذه الأراضي التي وُجدت انها لم تقع قط خارج السيطرة النبطية .

ومن خلال بعثة تنقيب في جبل العرب وحوران في خريف عام ١٩٨١ ، اكتشف (Frank, Breamer فرانك بريمر) عدة نقوش من بينها ، اهداء باللغة النبطية (غير منشور) حيث أرسلت لي (أي للمؤلف) صور عنها (الصورة رقم ٣) وهي معادة الاستعمال وموضوعة بالعكس على حائط الخزان الكبير ، شمال «الخرائب» ، الواقعة جنوب «أم الرّمان» على الهضبة التي تمتد على الجنوب الشرقي من «بصرى» ، والتي عثر فيها على العديد من النقوش النبطية .

- DNH, MHRMT, DY, BD, YLMW, BR, MRW
- BR' MRW, LOWSR, LH, MRN, RBI, MLK'
- BSNT, 31, LRB'L, MLK' MLK, NBTW,

وترجمتها الحرفية : هذه هي الصومعة (للمعبد) التي بناها «عيلمي بن عمرو بن عمري الى Dushara إله سيدنا الملك «رابيل» في عام ٣١ لحكم «رابيل» ملك النبطية .

ان عام ٣١ لحكم الملك «رابيل الثاني» (٧٠ ـ ٧١ الى ١٠٦) تعادل ١٠٠ ـ ١٠١ ب . م . ويُعتبر هذا أحدث النقوش والكتابات المؤرخة عن حكمه التي وُجدت في هذه المنطقة ، في «تل الشريبة» tell chariych على بعد ٤ كم جنوب شرق «أم الرمان» . وكان ر . دوسّوقد اكتشف لوحة اهداء تحمل تاريخ عام ٢٦ لحكم الملك «رابيل» ، ملك النبطية الذي أمّن الحياة والسلام لشعبه (Res ـ ٤٧١) ويجب أن نشير الى غياب تدويننا لهذه العبارة ذات الخصائص عن تثبيت «رابيل الثاني» في الحكم . ولنذكر ان السنة الأخيرة لحكم «رابيل الثاني» مدونة في نقش في منطقة (Hegra هجرة) كما يلي : السلام . بقرات Bagrat بن نادرو Nadru عام ٣٦ من حكم «رابيل» (Jaussen et Savignae) (البعثة الآثرية الهندسية في العربية ص ٢١٧ رقم ٣٢١) .

أما بالنسبة للكلمة (Mahrametá) محرماتا التي ترجمناها بمعنى (الصومعة) راجع مجلة الكتاب المقدس ـ ٦٤ ـ ١٩٥٧ ـ ص ١٩٩ ـ S ـ نجهل لأي نموذج بناء ديني تعود . واسم Ailomu , هو جديد ، ولكن من دراسة الأعلام لنفس الأصل ، ثبت أنها «تدمرية» هكذا ylmy وخاصة في الصفائية (فهرس وتوافق الأسماء والنقوش العربية قبل الاسلام) أما Amru فهو اسم دارج أي متداول في النبطية والعربية Sur Dusehara ، أي دوساريس Dousares (في الكتابة اليونانية) هو الإله الرئيسي للانباط وإله «رابيل» (راجع J. T. Milik سورية ٣٥ ـ ١٩٥٨ ـ ص ٢٣١ ـ ٢٣٥) .

J. Starky

هوامش

١ - محافظة جبل العرب مركزهاالسويداء بصرى، تتبع محافظة حوران التي مركزها درعا والتي تمتد من الشمال الى سهل نوى وسهول الصنمين أي Batanée القديمة، غير أن بعض العلماء يدمجون المحافظتين تحت اسم حوران.

٢ - C Vitelli et atü publi cazioni della Socileta per la Riverca dei Paperi greei e latini in Eggito IV Florence 1917 No 106 cof1. 1. 1724.

٣ - C.C. Edgar - (Zenon Papyri) نموذج عام (كاتالوج) للآثار المصرية في متحف القاهرة - ١ - ١٩٢٥ رقم ٥٩٠٤.

٤ - CF. M. Avi- yonoh the Holy land from the Arab conguest 536 BC to A. S. 640) Grands Ropids Michigan, Baker Book House Conpany, 1966, P 49 - 51 et carte 3, et les carte 18- 21 P. 165, sp

٥ - E. T. Newel Pate Seleucid Mints in Hke ptolemais and Damascus new York 1939 P. 02- 94.

٦ - ed klosternan- onomastikon صفحة ٦٤ تدعى اليوم سحم الجولان.

٧ - بالواقع يعني سورية الجنوبية Coelé- Syrie هذا الاصطلاح الجغرافي اخذ رويداً رويداً معنى ضيقاً.

٨ - بالنسبة لتاريخ تلك المعطيات والمصادر الأدبية. E schürer- ef القصة ٤ صفحة ٢٨٧ - ٢٨٩ - ٥٦٥.

٩ - H. Aoi- Yenoh الأرض المقدسة ص ١٧١ - ١٧٣ والصورة ٢١.

١٠ - بحث J. T. Milik في ١٣ / ١/ ١٩٨١ في U R A رقم ٢٠.

١١ - Cf. SDB VII C. ٩٣٠

١٢ - اكتشفت البعثة الأثرية الفرنسية في سورية الجنوبية عام ١٩٨٠ (رقم ٢٠ U.R.A) في أسفل تل سبع خطاً مزدوج اللغة يذكر من خلال رسوماته الخط الموجود في تدمر والذي يعود الى القرن الأول ق. م. الأمر الذي يثبت هذه الخاصة. وقد تميز فيه فن المنطقة الحورانية وخاصة سبع (٩٤١ ef. S D B V IIe).

١٣ - على حدود المقاطعات، وفيما عدا AVI yonch (الحاشية رقم ٤) يشار الى E. Schürer القصة رقم ٤ (١٩٧٣) ص ٣٣٦ حاشية رقم ١ - و F. M. Abel جغرافية فلسطين ١١ - ١٩٣٨ - ص ١٥١ - ١٦٠.

١٤ - E. Schürer - C. T. القصة رقم ١ (١٩٧٣) ص ٣٥ والحاشية رقم ٣٣.

١٥ - تاريخ فلسطين ١ - ١٩٥٢ ص ٤٤٢.

١٦ - E. Schüeer القصة رقم ١ (١٩٧٣) ص ٥٦٧ - ٥٦٩ - ef ٤٧٦.

١٧ - شرحه ص ٤٤٥ و ٣٦٧ S.q.

١٨ - شرحه ص ٤٧٢ و ٥٦٩ S. q.

١٩ - شرحه ص ١٧٢ sq

٢٠ - شرحه ص ٤٨٠ - ٤٨٣ M. Avi Yonah الأرض المقدسة ص ٤٤٠

٢١ - C-V-SDB ٩١٣، ٩١٦، ٩١٩.

٢٢ ـ F. M. Abel الغرافيا ١١ ـ صفحة ١٦٦ ef- sq أيضاً ادناه .

٢٣ ـ Domas zercs'ki C. F. Brünnow الأقاليم ١١١ ص ٢٥٠ .

٢٤ ـ C - VII Cf. S D B ٩٣٢ للهجرة (F Altheim) و Dir Arabes in der allen vell, R stichl ٥ ـ ١ ـ ١٩٦٨ ـ ص ٣٠٥ sq شاهدة قبر معاوية (sic) ٣٥٦ بعد الميلاد .

٢٥ ـ في هذه الدروس الثلاث ـ السيد سارتر عرض أهمية عبارة الاهداء (Cis ١١ ـ ١٧٠) حول عائدية هذه المنطقة الى ولاية سورية ، حينها انشأت هذه الصفحات ، لم أكن اهتم لهذه الدراسة الرائعة ، التي جعلت من هذه الصفحات جزء لمهمة مزدوجة فقد وجدنا فيها ، ان أغلب المعطيات تتيح رسم الحدود المتابعة للدويلات النبطية ، الهيرودية ، والولايات الرومانية في سورية وفي العربية ، اليهودية ، والفلسطينية ، (راجع بصورة خاصة الايضاحات حول مدن الائتلاف العشر) . والمؤلف يتساءل في الصفحة ٤٧ ، اذا كانت «مأدبة» لم ترجع نبطية إلاّ بعد موت هيرودس الكبير. فإن الكتابة (Cis ـ ١١ ـ ١٩٨) لعام ٤٦ لحكم «ارتياس الرابع» (٣٧ بعد الميلاد) يضع على كل الاحوال تاريخاً قبل عام ١٠٦ .

هوامش المترجم:

*١ - تؤكد المصادر العربية والأوروبية وغيرها أن الأنباط هم أحد فروع العرب الذين استوطنوا بلاد الشام بين سهول دمشق وخليج العقبة وصحراء النقب وبادية الاردن، وقد انشأوا مملكة واسعة خلال الفترة الواقعة بين القرن الثاني قبل الميلاد ونهاية القرن الأول الميلادي، أو بالاحرى بعد ضم جنوب سورية للامبراطورية الرومانية حوالي عام ٩٣م. وكانت عاصمتهم الرئيسية «البتراء» وجعلوا من مدينة «بصرى» عاصمة ثانية لهم وكما حكم أحد ملوكهم مدينة دمشق خلال القرن الأول الميلادي، ويؤكد هذا الكتاب الذي نحن بصدد نقله للعربية، هذه الوقائع التاريخية وفي أكثر من مناسبة، ولهذا لا يُعقل أن يكون عدد الأنباط عشرة آلاف نسمة، وقد وصل تعداد جيوشهم في بعض حروبهم الى أضعاف هذا الرقم. .

*٢ - قتل يهوذا المكابي من قبل الجنرال السوري باخشيديس (المصدر كتاب Je mondie juif ness le tempole jesus psuch. guigne bert. p. 45 ورد في كتاب (Le monde Jusf)

*٣ - أما يدعى بالملك اليهودي الكسندر جانيه، تأليف السيد غنبيوبيرت، الاستاذ في جامعة الصوربون، ما يلي حرفياً من الصفحة (٤٥) من الفصل «النظام السياسي»:

«حتى ذلك الوقت، بقيت سلطات الماكابيين عابرة، وكانوا يشبهون رؤساء العصابات أكثر مما يشبهون حكاماً مستقرين. وحتى خلفاؤهم، هركان الثاني، وارنستوبول الثاني، والكسندر جانيه، لم يصمدوا الا بفضل الفوضى التي عمت جيرانهم آنذاك، ومع ذلك حاولوا تدريجياً أن يأخذوا صفات الملوك الصغار (Roitilets) . . . » وفي الصفحة (٨٧) من نفس المصدر يصف المؤرخ، الكسندر جانيه، بالملك المتبجح، ويروي قصة رميه بالخضار العفنة من قبل أتباعه اليهود في عيد المظلة اليهودي. وأخيراً هزم على يد ملك الأنباط.

*٤ - ورد في كتاب «Le Monde juif» تأليف الاستاذ «Guignebert» في جامعة الصوربون الصادر عن دار نشر «Allin Mechel ١٩ تشرين الأول ١٩٥٠ مايلي من الصفحة (٤٦): «وبارادة رومانية سُمي العربي «هيرودس ابن المدعو «أنتيباتر»؛ وقد اختاره القيصر لحكم يهوذا في عام (٤٧ ق. م) وكان قوياً وماهراً. وأصبح فيما بعد ملكاً لليهود. . وصديق وحليف للشعب الروماني وكان صهراً لملك الأنباط «أريتاس». . وقد توفي عام (٤ ميلادية).

*٥ - هيرودس الملك العربي الذي عينه الامبراطور الروماني ملكاً على اليهود.
(المصدر كتاب العالم اليهودي).

*٦ - يقول المؤرخ «غينبوبيرت» أن زواج هيرود بزوجة أخيه «كان بمثابة فضيحة، وانتج الراقصة «سالومة» التي كانت سبباً في قتل القديس يوحنا المعمداني، وهذه القصة معروفة ومذكورة في الآداب المسيحية.

*٧ - يلاحظ من تكرار عملية فصل أو ضم بعض المدن أو المناطق للملوك في حالة الرضا عنهم أو الغضب عليهم، أو في حالة التعيين أو الوفاة، الأمر الذي يدل على أن هؤلاء كانوا ولاة تابعين لروما ولا يمكن تسمية مملكتهم باليهودية، كما يحاول الكاتب اطلاق هذا الاسم على مملكة اغريبا احد احفاد هيرود المار الذكر في الحواشي السابقة والغاية من هذا التحريض هي الالحاح على أنه كانت هناك ممالك يهودية، بينما

نجد أن تاريخ اليهود يسخر من هؤلاء الملوك، بل لقد حدث ان طلب اليهود أن ينضموا تحت لواء حاكم سورية في عهد الملك «ارشيلاوس» ابن هيرود، بسبب طغيانه (المصدر: العالم اليهودي - ص ٤٧٠).

*٨ - ليس من الحكمة الجزم بهذا الأمر، لأن حشر اغريبا الأول والثاني أمر يثير التساؤل

*٩ - هو القيصر كلود الأول ولد عام (١٠ ق. م) وأصبح امبراطوراً لروما في الفترة بين (٤١ - ٥٤) ميلادية.

*١٠ - موقع «أم الجمال» يقع على الحدود السورية الاردنية، الحالية، ومقابل قرية «طيسية» السورية، مباشرة.

*١١ - المقصود هو القيصر هادريان أو أدريان (٧٦ - ١٣٨)م وأصبح امبراطور روما خلال الفترة الواقعة بين (١١٧ - ١٣٨م). وقد اشتهر ببناء التحصينات الدفاعية على حدود الامبراطورية واخماده للتمرد اليهودي في القدس عام ١٣٥م.

*١٢ - الجائز اينما ورد في هذا البحث المقصود منه، العتبة العلوية، أو «الحنت» والقطعة الحجرية المستطيلة المستخدمة في الأبواب والنوافذ والسقوف الحجرية.

النقوش والكتابات الصفائية

١ ـ المكتشفون والناسخون

منذ قرن وربع تقريباً جازف الرحالة الانكليزي «غراهام» بالتوغل في القعر البازلتي السوري «الحرّة» وهي المنطقة الواقعة شمال ـ شرق جبل العرب (جبل حوران قديماً) والتي تدعى الصفا، ونسخ بصورة مستعجلة ثلاثين نقشاً مكتوباً، وبعض الصور المنحوتة على الصخر. وفي عام ١٨٥٨، أي بعد سنة من تلك الرحلة، اكتشفها الجمهور الأوربي، الواسع الإطلاع، في المجلد ١٢ من ZONG وفي نفس العام، جلب الروسي J. g. Wetzsten في نهاية رحلة ممتعة، قام بها في نفس المواقع أكثر من ثلاثمائة نقش، كما التقطت البعثة الفرنسية لِ W. H Waddinglon, m, d. vogue عام ١٨٨١ خمسمائة نسخة. والنسخ التي أعدها وادينغنون هي موضوع ثقة، كما كانت تسجيلاته اليونانية التي وضعها عن منطقة حوران موثوقة أيضاً.

عند منعطف هذا القرن، ظهرت عودة نشيطة للاهتمام بالاستشراق المتعلق بهذا الفرع الجديد للنصوص السامية القديمة، لدى القيام بمشروعين مستقلين: الرحلات

الأثرية لِـ ـ «رز دوسّو» ولـ ـ «ف . ماكلر» خلال اعوام ١٨٩٩ ـ ١٩٠١ ، التي قدمت ١٣٠٠ نقش صفـائي . والحملة التي لامثيـل لها لجامعـة برنستون التي جاءت على ثلاث مراحل وخلال أعوام ١٨٩٩ ـ ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ استكشفت بدقة الاراضي القديمة القابلة للزراعة والبـاديـة في جنـوب سورية وكان على «أ . ليتمان» الذي أوكل إليه نشر وطباعة النقوش السامية ، أن يعـالـج ١٥٠٠ نصّ صفائي تقريباً ، دُوِّن منها باعتناء ، وقطعة ـ قطعة ، عددٌ غير يسير ، ومنذ عام ١٩٠٩ وفي مؤلفه Zur Eentzifferung der safa inschriften ضبط هذا العالم بصورة نهائية ، القيم والمعايير الصوتية ، للابجدية الصفائية القريبة الصلة بالخط الجنوبي العربي . وقـد أجمـل المهم من القـواعـد ، وضبـط الخـط ، وتـركيب الجمل ، لهذه اللغة ، ونشر في عام ١٩٠٥ ١٥٠ نموذجاً وبرهن على صحة قراءاته لتلك النصوص .

لم يظهـر القسم الأكـبر من مؤلفـات «ليتـمان» ، مع ذلـك ، إلاّ خلال الحـرب العالمية الثـانيـة عام ١٩٤٣ ، وفي نفس الـوقت ، كرّس الراهب البلجيكي G Reykmans عشر سنين من حيـاتـه ، في جهـد مضنٍ لتجمـيع مجموعة الوثائق عن النقوش Sara cenique (Cis ـ ٥ ـ ١ ـ ١٩٥٠ ومن المفارقة ، ان حرية التنقل التي كان يضمنها الانتداب الفرنسي والانكليزي في الشـرق الأدنى خلال فترة ما ، بين الحـربـين ، لم تستثمـر إلاّ قليلاً في اغناء المادة النقوشية والكتـابيـة موضـوع بحثنـا . إن الجـزء الأكـبر قيمـة «في مجموعة ريخمان» والتي بلغت ٥٣٨٠ وحـدة ، هي بلا جدال ، محتـويـات دفـاتر الأثري ، «م . دوناند» ، الذي قدّم حوالي ٢٦٠٠ نقش بيد مرفوعة ، ولكن بخط ثابت ودقيق لمصور فني . وقد احتلت هذه النقوش ٤٥ لوحـة من أصل ١٠٢ في المجموعة L V à XC VIII, lis

بعـد الحـرب ، سيتم التخلي عن الكشف النقوشي في الأراضي التقليدية ، الكائنة في الصفا وفي جوارها ، لصالح الحدود الجنوبية لمنطقة «الحرّة» الجيولوجية نفسها والمدرجة ضمن المملكـة الأردنيـة الهـاشميـة ، ومن المهم التمسـك بإسمـين : في بادىء الأمر ، عالم النقوش الكنـدي ، السيـد F. V. Winnet الـذي قسّم وقت عمله بين ممتلكات السموديّة والصفائية ، وبـالنسبـة للآخـيرة ، كان اهتـمامه الرئيسي منصبّاً على النقوش الصفائية في الأردن (تورنتو ١٩٥٧) . وإن الـ ١٠٠٩ رقماً ، المكتشفة يقسمها الأكبر حول التلال الغربية من H5 ـ هي عمـل مستعجـل ومُهْمَـل ، ولكن القـراءة كانت صحيحـة بأغلبيـة وقـائعهـا بالنسبة للصور المودوعة في متحف «عمّان» والتي ظهر فيها فهرس قيّم وثمين .

ثم ، في نفس المنطقة ، استكشف المرحوم «هاردينغ» في عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ، ونقّب عام ١٩٥١ في «تلة هاني التي اشتهرت فيها بعد عن قديس صفائي من العصر الامبراطوري الروماني قُتل بسهم من قطاع الطرق (ADAj- (hwit ١١ ـ ١٩٥٣ ص٨-٥٦) وعن مائتين من النقـوش تقـريبـاً ، في التلول الضـريحيـة ومـا هو حولهـا ، حيث تتمثل فيها الشهادات الغالية (لمدرسة الفنون والنقوش) التي يديرها الاستاذ (أكربان Aqraban).

يدل هذا التاريخ، بالتأكيد، على بدء عهد علم النقوش والكتابات الأثرية في هذه المنطقة، وقد أُدخلَ في المجلد الفخم الذي نشره هذان العالمان بعنوان: النقوش المستخلصة من (٥٠ ـ تلاً صفائياً) جامعة «تورنتو» ١٩٧٨ ـ سلسلة جديدة من ٣٩٣٦ رقماً. بأنها مجموعة ذات قيمة عالية، رغم بُقع الطباعة والاخطاء الطرائقية ـ وقد نَشَر أحد المشتركين في البعثة W. g. Oxtaby خلال عام ١٩٦٨، قسماً من ٤٨٠ نقشاً منها بعض النقوش للبدو الصفائيين، في كتابة خمسين تلّة، وفي كتاب «هاردينغ». (فهرس وتوافق الأسماء والنقوش العربية قبل الاسلام). في «تورنتو» عام ١٩٧١، نجد مراجع البحث الكاملة لهذا الموضوع. ومن جهة أخرى نجد في المؤلّفين المذكورين نظاماً مناسباً لصياغة حروف اوائل الكلمات يصلح أن نتبناه.

وهكذا نجد، في وقتنا الحاضر، ان مضمار النقوش الصفائية، المتميزة في مجملها، يتضمن عدداً كبيراً من الوحدات النقشية وعدداً مرتفعاً أيضاً من الوحدات النقشية المصوّرة التي يتجاوز مجموعها (١٣) ألفاً. والقسم الأكبر من هذه النسخ يمكن الأخذ بها، وخاصة، مايعود الى «ليتمان» ـ ود. دونالد ـ واوكستوبي ـ وهاردينغ. وهكذا يفتح لبحث مستقبلي بعيد المدى أفقٌ واسع من المعلوماتوضحّ نزراً منها كل من ـ ليتمان ـ دوسّو ـ قريم ـ دايكماس ـ اوكستوبي وينّيت ـ هاردينغ.

٢ ـ مجالات التوسع في النقوش الصفائية

ان مجال انتشار الخطوط الصفائية كبير. في الشمال تصطدم بالفرات، حيث تظهر نقوش مثبتة في نقاط معينة مثل Dura Europos، وفي مناطق اخرى مثل تدمريات الشمال الغربي ـ وادي حوران ـ الرطبة ـ وقد ازدهرت النقوش الصفائية على عشرات الركامات Tumili الضريحية والتذكارية، وعلى مئات من أراضي الحصى المبعثرة أو المتراصة أو المكدسة بشكل تلال في المساحات الواسعة (للحرة) جنوب سورية، وشمال الأردن، مع رأس نحو الغرب، المُمثّل في سلسلة جبال لبنان الشرقية من الشمال، وعبر مضيق شرقي الأردن الحضري. وتمتد مساحة النقوش الصفائية حتى العربية السعودية، محاذية خط التابلاين، وبالأخص على مجموعة من التلال بجوار «بدانا Badana» الموجودة في مكان معين من بادية الجوف التي كانت تدعى (هاد. دومات had- Dumat) وهذه المجموعة التي تعطي معلومات ثمينة، عن السياسة العرقية ـ الاجتماعيّة للملوك النبطيين، قد فُقدت مع الاشعار ولايمكن التعرف عليها إلّا من خلال بعض المئآت من النقوش المنشورة بصورة غير كافية من قبل A.Jamme ومن قبل «هاردينغ» بالنسبة لبعض العشرات منها ـ غير أن نقوشاً صفائية منفردة، كشفت أيضاً ضمن لوحات ثمينة جداً للأب «سافينياك» (البعثة الأثرية في العربية ١٩٠٩ ـ

١٩١٤) وقد التقطت هذه النقوش على طول الطريق، التي كانت تربط المراكز التجارية المدنية، للعربية الشمالية، مع مراكز رعيهم. ويمكن أيضاً اضافة حفنة من النقوش المستحضرة من العراق ـ سورية ـ الأردن ـ العربية السعودية ـ فلسطين ـ التي نشرت من قبل «وينيت» ـ هاردينغ ـ وعلماء آخرين غربيين وعرب.

والواقع سواء من وجهة النظر الجغرافية ـ الجيولوجية أو من وجهة نظر علم الدلالة.

فإن النقوش الصفائية السورية، أو نقوش أولاد عمها في الأردن الوسطى، والجنوبية تغوص، دون احساس، في بحر من الرمال المتحركة مع الأسف، فيما يخص هذه الممتلكات النقشية والكتابية التي يقال عنها (تاموديون)، حيث يعرف عنها حتى الآن، حوالي أربعة آلاف نقش مكتوب قصير، أغلبها منسوخة بشكل غير كامل أو سيّء. (وعدم وجود أية نسخة أفضل من نسخة عاطلة). قال ذلك هاردينغ استاذ هذه المادة. يجب أن يضم إليها الآن حوالي تسعة آلاف نقش مخطوط، التقطت أثناء حملة «فيليبي ـ رايكمانس ـ ليبينس ـ عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ في وسط وجنوب العربية السعودية، وهي لا تزال غير منشورة فيما عدا، عدد قليل من النقوش الأثرية التي يمكن قراءتها بواسطة الصور ضمن مؤلف (الفن الصخري في قلب العربية Louvan ـ ١٩٧٢) لِـ E Anati. أما في نطاق العلم الجغرافي وعلم الصخور الصفائية ـ الثمودية ـ فقد دققت مجموعة من الأقطار المترابطة مثل (الليهيانت Lihyante) في الوكالة التجارية، لدادان 'el-'ula للتيميين taimanite والحسيين Haséen وبالاحرى لِلـ Hagaretes المهاجرين من الخليج الفارسي) وبتوافق مع هذه الوحدة في المجال الجغرافي، الوحدة في المجال الباليوغرافي (علم قراءة النصوص) بشكل دقيق، وبالوقت نفسه، يوجد بينهما قرابة لغوية متوسطة الدقة.

٣ ـ الخصائص اللغوية

كان يجب في هذا الصدد، تجنب التسميات العامة، مثل شمال العربية القديم Early North Arabi. Fruhnordarabiach أو بالأحرى، عرب العربية قبل الاسلام، حتى في اللغة الفرنسية، كانت العبارة «العربية» تؤخذ بالمعنى الجغرافي أكثر منه بالمعنى اللغوي. وبرأيي (أي رأي المؤلف) ان تلك السمات مضللة. وخلال العصر الحديدي الثاني، وخلال العصر الفارسي، واليوناني، والروماني، تمت تقسيمات مرضية كانت تستند الى معايير حرفية أولية قوامها أداة التعريف. وقد أمكن التوصل الى تخطيط منطقتين محيطيتين، وفي مجال شمال بلاد ما بين النهرين: جماعة اللهجات الآرامية (حيث كان الواحد منها يعرف باستعمالها العالمي) وهي الاداة ـ المضاف إليها حرف ـ â ـ وفي اليمن: الجماعة مزدوجة اللغة من السايخاديك Saekhadeque تفسير Beeston الذين يختصون بالاداة المضاف إليها حرف an

وهنـاك منطقـة مركـزيـة واسعـة لها لهجـات محليـة متعـددة، ولكنهـا موحـدة بواسطة الاداة المسبقـة han، ينجم عن ذلـك، ان اللغـات والكتـابـات النقشيـة، الصفائية، النمورية، اللهيـانيـة، التيميـة الـخ . . . تقـارب اللغات النقشية للشمال ـ الغربي السامي (نسبة الى الساميـة) المتـوسـط، كاللغة الفينيقية والعمانية والموابية، وان اللغة الكتابية لهذه المجموعة المشتقـة من نفس موجـة الهجـرة اللغـويـة السـاميـة، التي هي لغة الكتابات القديمة لليهود السامريين، وسكان ا ليهودية، والطوبيين Tobeades وإليك على سبيل المثال تفصيلاً صوتياً موثـراً. في العـبر ي التوراتي وفي اللغة الفينيقية، وفي تدوينات دول أخرى في المنطقة، تبين التحـول العـام لحرف n في الاداة الى الحـرف الساكن الأولى للاسم. هذا الواقع الصوتي، يغطي غيـاب نفس النغم الصـوتي السـاكن لأداة التعريف في النصوص الصفائية، فيما عدا بعض الاستثنـــاءات، غير أن العكس الصـــريـــح، هو أنّ لدى الثمـــوذيين والحسنيين، والكيداريين يكون الشكل الأولى لِـ hn مكرّراً وخاصة فيما يتعلق بالاحرف الخارجة من الحنجرة.

وفي الواقع، لايمنع ذلك، من أن بعض انواع اللسانيات الاساسية، تقّرب اللغات الشمـالـية العربية والسيخادية من العربية الكلاسيكية الغنية: فالنظام الصوتي غني (٢٨ أو ٢٩ حرفـاً ساكنـاً) وصـرف الاسـماء غني (مثـلاً جمع التكسير) وكذلك صرف الأفعال (سلم تصـاريف متطـور). رغم كل ذلك يجب أن يستيقظ ضمير تعاقب المصوّتين التاريخي، لدى فكـر عالم الكتـابـة النحـوي. ان لغـة lá الـواردة في الأداب الإسـلامية والمسيحية في القرون الـوسطى الأولى، لها سلف قديم ومشهـور، ألا وهي لهجـة là النبطيـة العربية. ولكن هذه اللفظـة الأخـيرة لم تظهـر تقريباً، خارج دراسة اسماء العلم théonymie وخارج علم اشتقاق الاسـماء من الالهـة. فمن النبطيـة العـربيـة، ومن لغـات là الأخرى الوسيطة (الوثنية). لا يعـرف إلّا بعض النقـوش والكتـابـات. وتجنبـاً للوقـوع في شرك نظرية شمول اللغة العربية وكذلك شمول اللغة التوراتية. غير السويين منهجياً، يليق بنا، في بادىء الأمر، ان ندرس النقـوش الكتـابيـة التي تهمنـا هنـا، وضمن المفهـوم التاريخي اللغوي للشرق الادنى خلال الألف الأولى قبل الميلاد. وهكذا يُستبعد الشعور بأي مفاجئة، لدى مصادفة الفعل اللازم الأصـلي natan بمعنى اعطى donner، بجـانب الفعل العربي «وَهَبَ» التي هي بالارامي yahab، في شمال العـربيـة، وحتى العصـر الأشـوري. ولهـذا يجب العمـل في ادخال فكرة الجماعات المهاجرة بالتتابع، وكذلك اللهجات المختلفة، حسب الطبقات الاجتماعية لنفس السكـان، لتتـابـع البحث بنفس الاتجـاه. لقـد كانت محفـوظات المفردات التي لاتنضب في القواميس العربية الكلاسيكية، لاتزال تقدم خطأ أو صواباً، الايضاحات عن علم الدلالة، وبشكـل كامـل للصيغـة الصفـائيـة والثمـودية. ومع ذلك، يتم تدريجياً استخلاص مصدر

مفـردات تلك اللغـات المغـرقـة في القـدم، التي تبـتر (أي تعزل) مفردات لغات ha (n) و ā كالالفـاظ السـاميـة الأكثر قدماً: كالأكادية والمينّية والكتابانية. نذكر منها التسميات المنادية من نوع mdber الـصـحـــراء الـقفـــر RKb الجمـــل ـ وهـــذان اللفظان ذُكـــرا في القَصص الاشورية تحت شكل كتابي (madbaru Rukubbu) (nhb ـ داري ـ وهي شجرة النخيل في العـربي الكـلاسيكي msrt معسكـر oryx-dsy. ومما لاشك فيه أنه يجب بالرجوع الى لفظة ab,ovo فحص مفـردات العـربيـة hon لتحـديـد وتبيان الفروق، في النطاق الدال على النصوص، على ألّا تستنـد بالأسـاس، إلّا على المعيـار الـوحيـد المعـروف بأهميته لعلم تأليف القوانين ولمعـرفـة القـرائن: القرنية اللغوية للحملة نفسها ـ القرائن غير المباشرة لمجموعات النقوش المتواجدة في المركز والمتسعة رويداً، رويداً، حيث تتدخل غالياً، وبقوة صور وتماثيل.

فإذا سهلنـا الطـريق خطـوة، خطـوة، لهذا العمـل الاستكشـافي بالنسبـة للقـواعـد والمفـردات وتـركيب الجمل، يمكن احترام القاعدة المطلقة للاملاء في اللغة العربية الشمالية كما في الفينيقية، وفي الشكل الخطي الصفائي الخ... ويُعتبر ايضاً، وبكل عصر، ناقص، ولا يمثـل الأحـرف الصـوتيـة الـداخليـة، ولا نهاية الاحرف الصوتية الطويلة والقصيرة ولا مزدوجـة الصـوت. هذا التـوافق الاملائي الذي لاحظه «ليتمان» كان منبوذاً من الاخصائيين (المعتـادين على العـبر يـة التـوراتية) الذين لم يسمحوا لأنفسهم بالتمشي مع نشاط المكابرة المبهمـة في صيـدا Scriptiones Plenae وبذلـك يمكن العثور على قائمة ضئيلة من التعابير الخطيـة عنـد الـدخـول الى (الخمسين من التلال Cairn هذا النقص في الاسلوب، لم ينطلي على كل من «م. س. آ. مالدونالد. و، و. د. مولّر) اللذان دققا الكتاب. ولكن هل كانت ملاحظاتهم. كافية لاعادة التوازن فيما يتعلق بهذا التفصيل الذي هو ليس بثانوي ولا يقابل اهمال؟

٤ ـ الاطار التاريخي للاحداث وسلسلة الانساب

ان البحث الأكثـر عمقـا الـدائـر حول النقـوش والكتـابـات لا يمكن فصله عن إطار الـترتيب الـزمني، سواء كان نسبيـاً أم مطلقاً، واضحاً أم تقريبياً، وفيما يخص العالم القديم، بقي الـرعـاة الصفائيين (حسب اعتقادي) الوحيدين الذين كانوا يعرفون مبدأ كيفية احصاء تعـاقب بعض طبقـات اجـدادهم. بشكـل يصل أحياناً، الى أكثر من عشرة أجيال، لننظر ثلاثـة نماذج منهـا: اثنتـان غير سويتـين، وهـذا يجب أن لايخـدعنا إذ أن الاخطاء في تعداد الاجداد لديهم نادرة جدّاً. وإذا اسقطنا كلمة brr التي تعني بن في الكتابة رقم ٢٦٤٦ ـ C ـ لدينا.

Ns2 znn kmd mgny sr sby qšm sry hngš ('bd omes)

مثال : 'bd hnn s'd في ٢٩٨ sij ـ ٣٠٠ C- 4629. Whben' dy qmr'd

فالإسمان الاخيران تغيراً من قبل الناسخ باليد -hnn'l /ms'l/ «mr» nzm'l

والترتيب الصحيح مثلاً راجع ٦٨١ ty' stiq bdn znn hrm 'wd wbel

وأخيراً في ١١ W ٣٩٩ Znil rgl grm'l qhš hdg swr, hmyn' gddl' ndt wsytdf

لاشيء يثير الدهشة. لأنه منذ ثلاثة أرباع القرن كانت مجموعات النقوش الصفائية تُزيِّن بأشجار صغيرة من سلالات الأنساب. ولكن هناك واقع آخر يتمثل في محاولة حصرها في التشعبات الصاعدة نحو الأجداد الأول لهذه الجماعة العرقية. وبعض التجارب الداعية الى الانطلاق من الأساليب الاعلامية. لا تبدو بأنها اعطت حتى الآن، نتائج ملموسة. وقد علمت بواسطة «د. م. مالدونالد» أن الدكتور peter قام بعمل غير مفيد (تحليل شامل للسلالات الصفائية)، لأن معطياته التحليلية أخذت من «وينيت Winnet غير أنني بوسائل بسيطة جدّاً قمت منذ عشر سنوات، بوضع مخططات ولوحات انساب اكثر فهماً.

وقد سبق لي أن قدمت في جميع كلمات الاهداء ١٩٧٢ ـ صفحة ٩٩ ـ ١٠١ بشرح مختصر عن الاجداد الثلاثة الأول لذلك الشعب المتحضر والنصف حضري. لقد كان من السهل التعرف على هؤلاء الثلاثة فقط، واعني بهم الأب واحد أولاده وابن أخ لهذا الأخير. الذين وصلوا الى مراتب الآلهة حسب الترتيب الوطني، باسماء إلهية «الثروة» أو «الحظ» وهكذا قام «عاد. و هيسل» بتوجيه مصير الأمة الوهبعلية، سبع مرات في القرن وتلخص احدى العبادات الأولية لأحد الأصول الحورانية الزراعية، وبالتجديد المتواتر «للفاد عويد». وذكرت احدى الكتابات اليونانية في قرية «رامة» في محلة أحد مخططي المعارك المنتمي الى العويديين Wadd ٢٢٣٦. أما الأصل أو العرق الآخر الذي تتألف غالبيتهم من مربي الخراف، والماعز، والجمال والجياد، فانني اقترح رفض التسمية التقليدية التي اطلقت على اسم الجد الثالث «ديف».

واذا أخذنا بعين الاعتبار البراهين التي ستورد فيما بعد يجب علينا من الآن فصاعداً ان نقرأ «داف»، وفق طريقة صرفية عرفت في مكان آخر، فإن المنطقة (أرضى بالمؤنث) التي كانت خاصة أحفاد «داف» هي أراضي رعيهم التي أقيمت فيها بعض الأبنية الحجرية الدائمة، وكانت تسمى «هاد ـ دافت» Had- dafat، اكتسبت اسماً مؤنثاً للمنافسة، وعلى ذلك النهج جاء اسم موقع (الصـ) صفا ـ as/ Safa ـ الذي لايزال العرب المعاصرون يُحافظون عليه بكل أمانة، وهكذا سمي إله الحماية المحلي لتلك المنطقة بِ (إله هاد ـ دافت). وقد ترجمت هذه العبارة الى لغة بصرى اليونانية PPUAES, III, A (558) Zûs Saphathènos فإسم السلالة «دفائي». تأكد مرتين: في المرة الأولى أساء فهمها «دوسّو» والثانية لم تلحظ حتى الآن، في اسم احدى قرى اللجاء، على بعد ٤٠ كم شمال بصرى،

المنسوخ باليونانية في «وادينغتون» ٢٣٩٦ من قبل «بوريشات ساباوون» Barechath Sabaôn لا يظهر بأن «سابايوا Saba (i) oi» هم انفسهم الـ Sabaéensبل ال Sapaioi ، أو Safaioi أي الصافيون أو الصاييون وال Dafay (hdpy)C)١٣٤٤ ـ Wll ١٠٦٠) وفي المجموعة Wll ، نذكر هذه القرية «بريكة» حالياً، عدة مرات، باعتبارها مصيفاً للرعاة الصفائيين (Brkf- Wqyz ٢٨٩ ـ ٢٩٨ ـ ٤٢٣). (ثم التعرف عليها بالمنشورات ص ٩١) ويبدو أن هذه السلالة مع مجموعتين أخريين، كانت الجارة المباشرة للنبطيين، حسب L'Acien Pline ـ ٧١ ـ ٣٢ ـ ١٥٧ وبالتعبير الخطي Taueni المتعاقبة عن اليونانية تابنوا Dapéens, tabenoi الصفائيين.

هناك أيضاً نقش من (خمسين بروزاً) الرقم ١٤٤٧، يجب اضافته الى الرقم السابق، واجراء تفسير مغاير له، يسمح بتحديد أصول بشرية (أعراق) جديدة في سورية الجنوبية، حيث كان افرادها ينتجعون في (الحرّة) وكان أهل سلفها يحمل اسم (الجد زمهر) gadd zamhar تنغيم متفق عليه لاسم العلم). وهناك عدد محدّد من النقوش الصفائية التي تنحدر من هذه الفئة الخاصة، وتبين بأن «زمهر» كان أحد أولاد yzr أو ysr الذي لا يُمثل سوى yatur ياطور، الكلمة المنحدرة من اللفظة الآرامية رمز الايطوريين المشاغبين والمتقدمين في التمدن.

وعندما نستخدم للسهولة بعض العبارات، مثل (أمّة ـ شعب ـ عرق ـ فرع ـ قبيلة ـ فخذ ـ أسرة ـ عائلة)، تتبع بذلك مصطلحات مستوحاة من النموذج الاسلامي والاسكتلندي ومن الشعوب القديمة. وندخل بعض المميزات التي قد تضلّل كثيراً أوائل المهتمين في بحثنا بالواقع، فإن الواهبليين Wahbelits ، والصفائيين والعويديين وايضاً الثموديين (الهاغاريت hagurits) أو النبطيين، لم يكونوا يعرفون سوى تسميتين عرقيتين hl' و l' ـ كانت ahl (العائلة) تمتد حتى الدرجة السابقة من القرابة التي تمثل المفهوم الاجتماعي القضائي الذي يصادف في زوايا أخرى من العالم، لدى ولادة (ثامن ـ ٨) خَلَفْ ذكر، أو عند فرض اسمه، كان ينظم احتفال هام دلالة على ولادة قبيلة جديدة، al أو lâ مجانساً للجد السابع، وفي نفس الوقت دلالة على إعلان المعلم الإلهي الخاص، الجد أو الإله أو بصورة استثنائية الإلهة Elahat ، ومن تلك المناسبات كان يتجدد خلال الثمانية أجيال، تاريخ الصفائيين. وعدد المائة والخمسين ال 'ا من نقوشهم هو أقل من الرقم المنتظر. واذا كان سخاء الآلهة ا (d) الصفائيين، لا يزال دائماً يُبهر «هاردينغ»، ذلك أنه كان يتخذ اللفظة بمعنى قبيلة بدوية حديثة، يصل تعدادها الى عشرات بل مئات من الأشخاص. وبالوقت نفسه فإن عدد theoi تيوا حسبما دونتها النقوش اليونانية في «حوران» وما حولها وهي أقل مما كان يفكر به. إذاً لابد من أن الحديث كان يوحّد تجمعات هامة بالفعل. ومن جهة أخرى، فإن الإله العرقي بهذا الإتساع سيتطابق بسهولة مع إله كبير أو إلهة سماوية وكونية.

وحتى تاريخ حديث، لم أكن أتوصل إلى تحديد مثل تلك الفئة، أو حادثة من التاريخ الـوهبيـلي (سنـة كذا لشخص أو لحادثـة) ضمن بنيـة زمنيـة نسبيـة، إلاّ مع ارجـاع احـدى الكتـابـات «مثـلاً، الى جيـل Wahbel» السـابع عشر، الذي هو «العويدي السادس عشر» والصفـائي الخامس عشر. لقد ظهر ذلك في العديد من الاحداث المتزامنة التي لاغنى عنها وفي نطاق التاريخ النبطي. وهذا البحث الذي هو قيد الانجاز يثبت لي أكثر فأكثر، وبعمق وسعة الاشتراك الدقيق والمخلص لجميع أسر (العويد owidh وداق ـ وعمرات الخ. . . .)، خلال ازدهـار مملكتي «بـترا ـ وبصـرى»، وفي الـواقـع، واذا لم أُخـدع، فإن النقـوش الصفـائيـة المسنـودة نسبيـاً الى «المجمـوعات الجنوبية والشرقية المشابهة لها، هي في وضع يجعلها واحدة من أشهـر المصـادر المكتـوبة في ايضاح الحركات والحياة اليومية للنبطيين واتباعهم ـ حلفائهم والمتـآلفـين معهم، وأقـل مايقـال عنهـا، فإنهـا ترقي الى مصـاف المسكـوكات الملكية، والى النقـوش والكتـابـات النبطيـة الآراميـة، والى الملخصـات الأدبية القديمة، منذ الآشوريين وحتى الرومان، وهي بالفعل تسمو بغنى ثروتها التي لا تنضب.

إن لفظـة (hmlk (Rois ـ هملك) في «السِّيَرْ النبطيـة»، تعـود، بدون استثناء، لملوك نبطيـين، وقـد نوه بذلـك السـادة «فينّيت وهـاردينـغ». وثـلاثـة ملوك سمـوا بوضوح هم: (Bdt عبـوداس) (Rabbel- rbl) (Arétas- hrtt) كما أتى التـاريـخ الـدولي الكبـير على ذكـر الصفـائيـين. ففيـه نجـد اسم (pompée بومبـاي) وعـدد مراجع للغزو الفارسي خلال أعوام ٣٨ ـ ٤٠ قبـل الميـلاد، بما فيهـا اسم بوكـوروس Pochorus ، وتحقيقـات أحداث مع تاريخ يوسيفـوس. ويبـدو هكـذا ان تاريـخ أنسـاب الصفائيين، قابل مبدئياً للصياغة حتى القرن الأول من تاريخنـا. والسنـة الصفـر أو الأدنى في حسـاب أعياد الوهـبليـين Wahbelito أو بالاحـرى لزمن وصـولهم الى القطاع الهامشي السوري للواكوميين Oikoumiene، تقع في قلب العصر الفارسي القديم أي نحو عام ٥٠٠.

تلك الفئة من المهاجرين العرب ، ان لم نقل الآراميين أو الكلدانيين، كانوا يعرفون الكتـابة من لحظة عبورهم الصحراء الكبرى الممتدة من الخليج العربي الفارسي الى سورية، واعتقد أنه يمكنني معرفة وتحديد تواقيع المربين الزراعيين الصفائيين واخرين منهم من الجيل الثـاني والثـالث المنحـدر، اعتباراً من «وهبيل» ومعاصريه. ويندرج في الجيل الثالث، تاريخ الحجـر (٤ ٢٠٠ WII) الذي قراءته وترجمته كما يلي: ebnyt bn ghm bn bdn bl 'rg,sn وُقع من قبل B ابن G ابن Bel (Ôdieu) B (دعني أتعثر إذا كان الأمر يتعلق بعدم احترام ميثاقنا) وقد قيل في ترجمة اخرى، اذا كنت انا وجميع ذريتي لن نحافظ عليه: تواقيع كل من. . ابن H ابن (bn bn 'wdbnn gm'slnntst) Awidl (ان جمعيـة الشهـود السمـاويـين ـ الطبيعيـين ـ البشـريين) تكرس صلاتنا في سبيل ان يُصبح هذا السلام (العقد السلمي) واقفاً ـ Izid الموقع بحرف Z.

نجـد أنفسنـا الآن أمام تحالف عربي، جرى باحتفال قام بوصفه هير ودوت الثالث ـ
٨ ـ (قد يكون حلفاً أو معاهدةً «بَقَسَمْ» وفيها تضرع الى Alilat واورتال (اقرأ ho ratlai)
إن Allat و Roday اللتـان هما اهم المـدن لمراكـز النقش الكتـابي الصفـائي، يتعلقَ الأمر هنا
بالتزام عائلة من البدو الرحل، بحراسة قطيع لعائلة حضرية على العموم، أما الموقع الثالث
فهـو واسطـة، وأنـا اعرف العديد من الأعمال الأخرى، من هذا النوع صَيغتْ بعبارة مماثلة،
ومسجلة على الحصى الـبركـانيـة على مدى أول اثني عشر جيلاً من الذرية الصفائية. وفي
الجيل الخامس الذي يمتد بين عام ٣٨٠ ـ ٣٥٠، وقع واحد اسمه ndh bn W'syt، في W II
عام ١٩١٨، وتوقيع والده وُجد في ٨٨٤ W II. أما في الجيل السادس، فقدوقع شخص آخر
gddt ben 'mdt ٣٩٥، a. وابن عمّه Zkr, bm, rft, bn, W'sgt يعود في ١٥٨٣ C الخ...
من القـرن الثـالـث الى القـرن الأول ق.م. غصّت بادية الشام بهذه المصنفات الوطنية sub
divo على المستوى الشعبي مثل هذا التوسع في الخط ليبقى دون موازٍ في عالم البحر المتوسط.
وغيرهم.

ج. ت. ميليك

باريس تشرين الثاني ١٩٨٠

السكان والتطور في «حوران» القديمة
على ضوء النقوش والكتابات اليونانية واللاتينية[1]

إن العدد الكبير من الكتابات والنقوش اليونانية واللاتينية التي عثر عليها في حوران[2] تدعو المؤرخين للتساؤل عن الفائدة المكتسبة من هذه النصوص بالنسبة لتاريخ التطور والتوطن في تلك المنطقة. في القديم، وبصورة أوضح خلال الخمسة قرون الواقعة بين الفتح الروماني وظهور الجيوش الاسلامية، ان الأهمية، من حيث الكم لهذه اللقى تتيح القيام بعدة أساليب من البحوث حول هذه المواضيع. ولهذا، في بادىء الأمر، من المناسب تنظيم سلسلة من النصوص المتعلقة بمختلف المعايير التي تسهل العثور على ضوء أساسي ومفيد، حول السؤال المطروح مثل: مكان المكتشفات، التاريخ، المضمون، اللغة، الخ . . . وحسب المادة المراد العمل بها، يستخدم واحد أو العديد من هذه المعايير. ان مختصر البعض من النقوش، وعدم وضوح التواريخ ووفرة شواهد القبور التي تحمل عبارات مختصرة، توجب تنظيم تلك المسلات من النصوص التي رغم عزلها، تظهر لنا وكأنها صعبة التفسير، وهي تأخذ بروزاً خاصاً وتساهم بدقة في أن تجعلنا نقدس ونحترم تاريخ «حوران» القديم.

ان التجربة التي اقدمها هنا، ليست درساً نظامياً لما تعلمه النقوش والكتابات الحورانية ولكن الهدف منها هو تخليص بعض خطوط البحث التي تبدو غزيرة، عن طريق الامثلة الصريحة. وبسبب كثرة المخالطة في حوران، تبين بأنه لا يزال الكثير مما يجب كشفه. فقد برهنت «بصرى» بأن استثمار علم النقوش الذي هو، مع ذلك، متقدم على البحوث الأثرية، لم يصل الى نهاية المطاف[٣] ان جميع المواقع لم تعطِ نقوشاً جيدة بمقدار ما أعطته «بصرى» سواء ما أعطى منها الكثير مثل: «أم الجمال» أوما أعطي منها القليل. ولكن علينا أن لا نفقد الرؤية، لأن العديد من النصوص الجديدة، ستظهر في السنين القادمة مع اعادة العمل بالنتاج النقشي الكتابي في المنطقة. وقد يؤدي ذلك في بعض النقاط الى تعديل النتائج التي كنا قد توصلنا اليها، بالوثائق التي بحوزتنا الآن. لذا، لابّد من ربط النتائج التي تقدمها هنا باشارة الشكل كما يجدر بنا ان نعتبرها بمثابة استعراض مؤقت قد يمكن للمستقبل ان يبّدل فيها.

ماذا علمتنا النقوش اليونانية واللاتينية عن سكان حوران القديمة ؟ وهل بفضلها يمكن تنظيم خريطة للمواقع المأهولة بالسكان وتصنيفها حسب التاريخ، وكشف تنقلات السكان وتحديد أهمية السكان في مختلف القطاعات التي تشكل حوران؟ بالحقيقة، يمكن أن تقسم المنطقة الى ثلاث قطاعات جغرافية من حيث، التضاريس ـ توضع المياه ـ والمناخ ـ وبالنتيجة فالامكانات الزراعية تبدو مختلفة: فهناك سهول «النقرة» ـ وجبل العرب ـ وهضبة اللجا البازلتية، وعلاوة على ذلك، كان من الممكن، ايضاح المخطط التنظيمي هنا، والتمييز بين السهل الجاف والسهل الرطب، والسفح الشرقي، والسفح الغربي للجبل. الخ. . ولكن هذه الفاتحة البسيطة تبدو كافية في مجال حديثنا بالوقت الحاضر. اذاً، يمكن التساؤل عن عصر تطور تلك القطاعات المختلفة، هل تسمح النقوش بالبتّ حول التطور المبكر لهذه المدينة أوتلك المجموعة من القرى؟ وهل يمكن أن تشهد زوال مدن أخرى؟ وهل يمكن استخلاص اهمية التوطن في مختلف المراحل بين القرن الثاني والسابع الميلادي. فجميعها اسئلة مغرية ولكنها بدون شك، عمومية. وفي حال عدم امكان الإجابة المباشرة، يمكن وضع بعض الفرضيات التي تحمل عناصر الأجوبة والتي تطرح بدورها أسئلة جديدة.

١ ـ خريطة المواقع الأهلة بالسكان

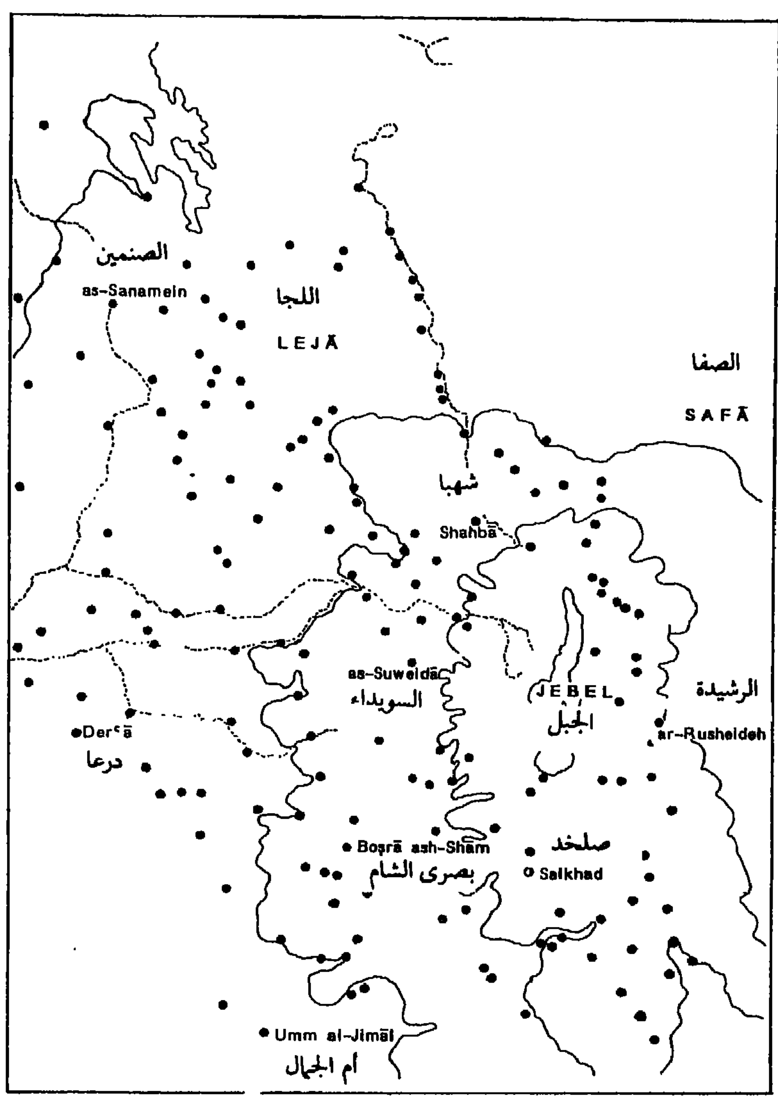
إذا كانت هناك أمور كثيرة يجب الكشف عنها، فلا بد، مع ذلك، من التأكيد بأن قلّة من المواقع القديمة أوالحديثة أفلتت، حتى الآن، من فضولية الرحالة العلماء، إن بعض القرى الممتازة التي كانت تحوي الخرائب المذهلة مثل «بصرى ـ قنوات ـ شهبا ـ أوشقا»

استقبلت جميـع البـاحثـين في المنطقـة تقـريبـاً. ولكن البعثـات العلميـة التي سبقت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ مثـل بعثـات (واتـزتـاين ـ وادينغتـون ـ برومـو ـ دومازيولسكي ـ دوسو ـ وماكلر من جامعة برانستون الخ . . .)

ومن ثم البحث الـدقيق «لمـوريس دونان» خلال الأعوام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠، انتهت الى عدم ترك أي موقـع، تقـريبـاً، خارج البحث، وبـالعكس، فإن القليل من المواقع المقفرة حالياً، قدمت مثـل هذه النقـوش. ان زوار القـرن المـاضي سبق أن اشـاروا الى وجـود العديد من القـرى الأثـريـة خاصة في سهل «حوران». وفي جنوب جبل العرب التي كانت تتعرض الى غارات من البـدو الـرحـل وقطاع الطرق، ولم يتردد هؤلاء الـزوار بعـرض وفـرة وغنى تلك المستندات التاريخية الأثرية، التي كانت هي مجمل البرهان الثابت عن الآثار القديمة، رغم الكـآبـة التي كانت باديـة على وجـوههم. ولكن منـذ خمسين عاماً (أي نصف قرن) تبدلت الحـالـة جذريـاً. لأن عودة الاستقرار والأمن أدى الى عودة النشاط، ومع ذلك يلاحظ حالياً التطابق الكامل بين توضع القرى القديمة الأثرية، وبين القرى الحديثة. فالخريطة رقم (١) المبينـة لكافة مواقع اكتشاف النقوش تثبت ذلك. ويلاحظ ان هذا التطابق واضح في اللجا، بصورة عامة، وفي جبـل العـرب، وفي الجنـوب والجنـوب الشـرقي لحوران، وبالحقيقة يبقى العديد من القرى دون نقوش وكتابة في «النقرة» ويعود ذلك، الى استكشاف للنقوش الأقل انتظـامـاً. ولكن الفراغ الذي يشاهد في هذه المنطقة، يمكن اعتباره حافلاً اذا ادخلنا ضمنه الملّف الأثري للعديد من القرى التي، حتى الآن، لم يعثر فيها على أي نقوش كتابية ولكنها تحتـوي على بقـايـا نقـوش أثرية، خاصة في «النقرة» الجنوبية (مثل: سعادة ـ سكار ـ بكا ـ صُهب حمّاس ـ غسان ـ هزهز ـ أم المياذن ـ أم المزابل ـ كحيل ـ قرطة أو قيراطة ـ كريس ـ تل عبـد معـار ـ أم القصـور ـ خازمـة ـ غير أنه يمكن أن يكتشف فيها، يوماً ما، النقوش، بكل فطنة[٤].

هكذا يبقى تحت تأثير الشعور السائد بأن الاستيطان القديم كان مُقساً بشكل يُماثل تقريباً السكن الحالي[٥]. وهذا يعود لعدة عوامل يمكن تعدادها باختصار. إن القرويين اليوم يستفيـدون من وجـود العـديـد من الحجـارة المقصـوبـة، ولـذا، يكفي التجوال في أي قرية حورانية لمقياس مدى اهمية اعادة استعمال القديم في الابنية الحديثة. من جهة أخرى. فإن وجـود الينـابيع في الجبال، والخزانات المنحوتة في الصخر (وفي السهل) تبين، وضـمن معيار كبـير، أهميـة استمـرار الامـاكن المأهـولة. وأخيراً، فإن العديد من قرى النقرة، تمثل روابي أسـاسهـا ظهر الحمم البركانية العشوائية، فبالامس كما هو اليوم، يعتبر الأمر مغلقاً، بسبب ترك الاراضي الجيدة الصالحة للزراعة وتمركز السكان على الصخور حيث يتعذر النماء.

وطبقـاً للشكـل الذي تُشاهد فيه حوران أمام أعيننا اليوم، فهي تشبه حوران القديمة



الشكل رقم ١ ـ مواقع القرى والمدن التي عثر فيها على نقوش كتابة يونانية ولاتينية

بغناها وتوزع سكانها. هذه الخلاصة للمظاهر المعتادة، مثيرة للدهشة في سورية الجنوبية، لأنها ليست كسورية الشمالية ذات المدن الميّتة، بالاضافة الى ذلك، يلاحظ في حوران أن الترتيب المدني أعاد نفسه نسبياً. فالمدن القديمة تُعد اليوم من بين القرى الكبيرة الحالية مثل (بصرى ـ شهبا ـ قنوات). أما المدينتان الوحيدتان الحقيقيتان اليوم، فهما مدينتان قديمتان: درعا ـ والسويداء. والحالة الوحيدة، التي تبدو مخالفة تماماً، هي قصبة «أم الجمال» التي لا تشكل ابداً مدينة رغم تجمعها الكبير، بينما كانت فيها مضى، احدى

المدن الأكثر استيطاناً في المنطقة. غير أن الموقع بالذات، أصبح مقفراً والقرية الحالية، ليست سوى ضيعة متوسطة جداً[٦].

هذا التوافق بين السكن القديم، وبين السكن الحديث، الذي تجلى بنفس الوقت بالنقوش والآثار. يمكن أن يعتبر، من الآن فصاعداً، بمثابة مكتسب ثابت نهائي. وستسمح الاكتشافات اللاحقة، بدون شك، بتنويع هذه الخلاصات، ولا اعتقد انها ستطرح للبحث مجدّداً.

٢ ـ تأريخ المواقع

مع علمنا بأمكنة المواقع القديمة الأثرية، فهل تسمح لنا كتابات النقوش، الذهاب بعيداً في بحوثنا؟ مثال على ذلك. هل تقود تقسيمات النقوش الكتابية المؤرخة الى نتائج واضحة سواء في تاريخ تطور هذه القرية، أو تلك، أو مجموعة قرى هذه المنطقة في «حوران» أو غيرها.

ان التحقيق الذي أجريته بصورة منتظمة للنقوش الكتابية الحورانية، لا تتيح اعطاء الايضاحات اللازمة حول التطور الخاص لهذا القطاع دون الآخر. ظهرت نقوش كتابية يونانية منذ القرن الثاني للميلاد، في النقرة، جبل العرب، واللجا في آن واحد، وبطبيعة الحال، لم تقدم كافة القرى، حتى الآن، نقوشا، عن هذا العصر. ومع علمنا بهذا العدد القليل النسبي من النصوص، فلا نجد ذلك مستغرباً. واذا جاءت بعض القرى بعد القرن الثاني، فإن علم النقوش والكتابة لم يقدر على معرفتها. غير أنه حسب المعطيات الحالية، يبدو أن تطور القطاعات الثلاثة الكبرى المحددة اعلاه. يوازي تقريباً أول القرن الثاني الميلادي وهو الوقت الذي ابتدأت خلاله دراستنا. وهذه النتيجة مفيدة بحد ذاتها. ولم يستخدم «الجبل» ولا «اللجا» القاحلة كصورة مميزة.

جَهَدْتُ أن أتوغل في البحث بعيداً فيما يخص اللجا، فرأيت أنه يمكن تقسيم قراها جغرافياً الى مجموعتين: مجموعة القرى الموجودة على أطراف الهضبة بتماس مع القشرة البازلتية والأراضي السهلية المجاورة والغنية بتربتها المنحلّة مثل (المسمية ـ براق ـ ذكير ـ خلخلة ـ شهبا ـ نجران ـ ازرع ـ خبب) ثم المجموعة الأخرى، بالمقابل، الواقعة على الهضبة بالذات، قرب منخفضات صغيرة، حيث جمّع الطمي البازلتي بعض الأتربة القابلة للزراعة على حساب امتداد الحمم البازلتية (مثل: داما العليا ـ عريقة ـ جرين ـ سحر ـ لبين ـ صور اللجا . . الخ. .) المعروف ان «اللجا» التي كانت تدعى بالقديم «تراخونيتيد». كان لها في الماضي السحيق أهمية كبرى كونها كانت ملجأ الثوار والمتمردين

والخـارجـين على القـانون[٧] وكانت أيضاً مخبأ للدروز الذين ثاروا عام ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ على الاتـراك وفي عام ١٩٢٥ على الفـرنسيـين. لذلك فإن مظهرها الخارجي مع دورها التاريخي يساعدان على صياغة ثلاث افكار دون اختيار بالنسبة للسكن في اللجا:

١ ـ امـا أن تكـون قرى الهضبـة ـ القـرى المـلاجىء ـ سابقـة لقرى الأطراف، وهذه الآخيرة لم تنشأ إلّا عندما استتب الأمن وتخلصت الهضبة من قطاع الطرق.

٢ ـ أو بالعكس ـ لم تتطور قرى الهضبة وتنمو إلّا في زمن متأخر. وبعد أن استصلحت جميـع أراضي السهـل المجـاور. وتـوطن السكـان فيهـا، سيما وانها كانت في منأى عن طرق المرور. وأن مواردها الطبيعية كانت قليلة.

٣ ـ أمـا أن تكـون هاتـان المجموعتان المذكورتان أعلاه متزامنتين من حيث الظهور أو أنهما تتطورتا بشكل متوازٍ. وعلى كل حال، كانت تعتبر ان قديمتين في بداية الاحتلال الروماني، بحيث كان من المستحيل التمييز بين القرى القديمة والقرى الحديثة.

ولكن هل تتيـح المكتشفـات الكتـابيـة باختيار إحدى تلك الفرضيات الثلاث؟ من الجَرْدْ المنظَّم للنصوص المعروفة حتى الآن، يستنتج مايلي:

أنـه وُجـد في القـرى المحيطـة باللجـا، نقوش كتابية تحمل تواريخ متدرجة من القرن الثـاني الى السـادس الميـلادي، وكانت الوثائق فيها متقطعة، في بعض المواقع، ولكن بوجه الاجمـال كانت هذه القـرى موجـودة بأغلبيتها، منذ القرن الثاني الميلادي، الأمر الذي يعنى احتمال وجودها منذ زمن بعيد.

إن قرى الهضبة هي أيضاً غنية بالنقوش الكتابية، كقرى محيطها، وفيها أقدم النقوش الكتـابيـة المؤرخـة مثـل («صـور» في عام ٧٥ ـ ٨٠) («جـدل» عام ١٠٦) («مُسيكة» عام ١٣٣ ـ ١٣٦) («جرين» عام ١٤٠ الخ...). وفي القسم الثاني من هذا العصر المذكور. عثـر على الكثـير من النقـوش والكتابات المسيحية في جميع القرى، من هذا تُستخرج صورة القرى القديمة التي كانت مزدهرة منذ القرن الأول أو الثاني الميلادي، والتي استمر ازدهارها حتى الفتح الاسلامي (وقد يمكن الى ما بعد هذا الفتح، ولكن ليس هذا من اختصاصي). وفي جميـع الاحـوال، كانت هذه القـرى تقـدم الفوائد لسكانها بصورة كافية حتى أن انتشار الحكم الروماني في جميع حوران، لم يحملها على ترك هذه الهضبة القائمة للتوطن بالسهول الضاحكة.

ويبدو ميزان البحث، لأول وهلة، سلبياً كونـه يثبت بأن الفـرضيـة الأخيـرة من الثلاث فرضيـات المصـاغـة اعـلاه هي الأكثـر غمـوضـاً فجميـع القرى (أوعلى وجه التقريب) كانت آهلة بالسكان قبل الفتح الروماني[٨]، وبقيت كذلك حتى العصر البيزنطي دون الفصل بين قرى داخـل الهضبـة وقـرى محيطهـا. من جهـة أخـرى، كانت جميـع القـرى متأثرة بالطابع

الاغريـقي (الهيلليني) وسيُعـرف فيـها بعـد القصد من ذلك، بها فيها القرى التي كانت تبدو لأول نظرة صعبة الارتياد. وهذا يدحض فكرة (الهضبة المغلقة، أو الهضبة الملجأ كما صورها حتى الآن فلافيوس يوسيفوس في نهاية القرن الأول ق.م). لأن ماكان صحيحاً ومسلّماً به في الأزمنة الأولى من الفتح الروماني لسورية. لا يصح بعد القرن الأول الميلادي.

من المحتمـل ان الحكـام الـرومـان عملوا في تطـوير اللجا وشهال جبل العرب (راجع الخـريطـة ٢) ـ بالمقـارنـة مع جنـوب حوران، تطـويراً نسبياً. من جهة أخرى، لا يُعتقد أنه بالامكـان ايضـاح وجود النقوش الكتابية، ذات الطابع الخاص، المدونة باليونانية منذ القرن الأول في هذه المناطق (وهذا ما ثبته وجود الكتابات الرسمية في «الصنمين» وسيع ـ قنوات ـ الهيت المشنف ـ صور اللجـا ـ الهيّـات ـ في الـسـويـداء وعقـربـة[٩] ـ وفي شهال جبل العرب المعروف بـ (Eilha) الهيت حالياً انها اعطيت لقب «قيصرية» Caesaria. وليس من انسان كما يبـدو، حاول الاهتـهام باسبـاب اعطـاء هذا اللقب، وبـالعصـر الـذي منـح فيـه. ويمكن المـلاحظـة بأن جميـع قيصريات الشرق كانت قد شيّدت في زمن أوغسطس، أوزمن خلفائه المباشرين. من جهة أخرى، هناك ثلاثة مدن بهذا الاسم (من اصل الستة مدن التي اسسها الرومـان عام ٢٠ قبل الميلاد، على شرف أوغسطس. وقيصرية فيليب paneas التي اعاد بناءها فيليب رئيس الربع في العام ٢/١ قبل الميلاد. وقيصرية في لبنان وهي اسم جديد (لـ Area) شيّـدت بإرادة ملكيــة من الحـكـام الـرومـان واعـتـقـد أن قيـصــريـة الهيت احتلت مكـانهـا في هذه السلسلة، والتي ارى الـبرهـان بأن الرومـان كانوا يفكرون بإنشاء مدينـة أو حاضـرة، في شهال حوران مثلما هو الحـال في فلسطـين، وعلى جبل حرمون، أوفي لبنـان الشـهالي، تصلح لتكـون منـارة، أوبالتفضيـل. قطبـاً اغـريقيـاً في المنطقـة. وبنفس الطـريقـة. فإن اعـادة الأمن في اللجـا تلاه القيام بجهد حقيقي وفعّال للإستيطان والتنمية وكـانـت «صـور اللجـا نقطـة الاستنـاد الـرئيسيـة للهـير وديين في هذا القطاع. وكانت هذه السيـاسـة مثمـرة جداً لدرجة ان الرومان في القرن الثاني، لم يخشوا فتح المواصلات والمرور في هذه الهضبة عن طريق دمشق ـ السويداء ـ بصرى[١٠].

بالمثل، المذكور اعلاه، الذي اعطى عن اللجا، نرى كيف أبطلت النقوش الكتابية فرضية، كانت تبدو بالأساس هي المؤكدة. وهناك مثل آخر يرينا أن النقوش الكتابية يمكنها معاصرة علم الآثار.

٣ ـ النقوش الكتابية الجنائزية وتطورها

يركـز علماء الآثـار شيئاً فشيئاً، طرائق تتيح تأريخ الآثار الحورانية بطريقة دقيقة جداً، نوعاً ما: مثل دراسة تحت الاحجار ـ ديكورها ونقشها الخ.. دون ذكر طرائق التنقيب نفسها

التي تسـاعـد على تحديـد عصـر تشييـد الابنية، ولكن من المعلوم ان المكسب من التنقيبات المعمّقة يبقى لمدة طويلة، امتيازاً لعدد قليل من المواقع والابنية التي لها طابع فريد من نوعه.
من جهـة أخرى، عُلم منذ زمن طويل، بأن بعض طرائق البناء لاتزال مستعملة في حوران، منذ الأزمنة الغابرة حتى يومنا هذا[11]. واخيراً ظهرت بقايا الأبنية التي لا تزال مرئية حتى الآن في بعض المـواقـع، كأنهـا شيّدت في زمن متـأخـر (زمن البيـزنطيـين مثـلاً) وهي تغطي جميع المستـويـات جزئياً أوكلياً، خلال السيطرة الرومانية والنبطية، وفي هذه الحالة لايمكن تقدير مدى أهميـة وجـود مستـوطنـة من العصـر الروماني أو النبطي.. وبذلك نستنتج بأن النقوش الكتابية تؤدي خدمة ثمينة.
تظهـر في «أم الجـمال» وفي وسـط كومـة من الخـرائـب، يصعب غالبـاً تحديد هويتها، الخـرائب التي تمثـل ابنيـة بيـزنطية. وخاصة الخمس عشرة كنيسة التي شيدت بين نهاية القرن الـرابـع والقـرن السادس الميلادي. ولا يمكن معرفة تاريخ أغلب الأبنية الأخرى. وهناك. (مدافن وقبور تحت الأرض) (ومدافن على شكل ابراج) تعود بالتأكيد الى زمن قديم سابق، على وجـه التقـريب الى القـرن ١ ـ ٢ بعـد الميـلاد. ولكن أهميـة المـدينـة السـابقـة العصر البيزنطي. لا يمكن ان تكتشف بواسطة الدلائل الأثرية الظاهرة للعيان حاليا.

لحسن الحظ، فإن المكتشفات الكتابية صحّحت الانطباع الأول هنا. فلوأخذنا بعين الاعتبار، النقوش الكتابية الرسمية، وخاصة منها ما يتعلق بأبنية أوبكتابات ورسوم كانت قد انشئت على شرف الأبـاطـرة ـ الحكـام ـ أو المـوظفـين الـرومـان، يُلاحظ غياب شبه كامل للنصوص السابقة للقرن الرابع. وبصعوبة نكاد نظهر بناء فالّوس vallus نحو عام ١٧٧ ـ ١٨٠[12]. وفيـه كتـابـة على شرف الملك غودريان الثالث[13]. وبالعكس هناك سلسلة ذات أهمية، من النصوص المتأخرة اعتباراً من عام ٣٧١، تعود على الغالب، لأبنية الكنائس[14] فإذا ما تمسكنـا بالنقـوش الـرسمية، علينا أن نشير الى شدة التوافق بين الفحص الأثري السطحي وبين ما تقدمه النقوش والكتابات. فإذا ما تقيدنا بذلك، نستنتج بأن التجمع القديم الواقع في «أم الجمال» قد ظهر بلا شك، بين القرن الأول والقرن الثاني بعد الميلاد. ولكنه لم يتطور بالواقع إلّا في القرن الرابع.

مع ذلـك، اذا أردنـا الأخذ بعين الاعتبار، جميع النقوش الموجودة في المدينة، وخاصة منها شواهد القبور، ستصبح النتائج متبدلة عمّا هو بالسابق. ولكن قبل المتابعة، يجب علينا فتح قوسين؟
خلافـاً لما يظهـر تطبيقـه عادة في جميـع مناطق سورية، العربية تقريباً (مثل الدمشقية Damascène) ـ الانطـاكيـة ـ الأفاميـة ـ بلاد موآب ـ أو الأدومية)، فإن النقوش الجنائزية في

حوران لم يُعطَ لها أي تاريخ تقريباً[١٥]، ثلاثة نقوش من أصل ٢٤٩ نقشاً في «أم الجمال» وثلاثة من أصل ٢٣٠ نقشاً (٣/٢٣٠) في بصرى فقط. ان الغياب الكلي، تقريباً، للديكور، وخشونة عمل قصاب الاحجار والنقاشين، كانت مثبطة لكل محاولة لوضع التاريخ حسب معايير دراسة الأساليب. وبذلك لم يبق سوى علم دراسة النصوص القديمة، غير أن تلك الدراسة، لا تزال قليلة التطور ومشكوكاً فيها. وقد حاولت من خلال نقوش «بصرى» التي كنت حائزاً على وثائقها مباشرة، أن أظهر أنه بالامكان اكتشاف بعض التطورات، وتأريخ بعض أشكال الحروف. وما كان يبدو لي ذو طابع مميز في حوران هو حرف (M) المسطح مع وسط مدوّر M، يجعله يبدو نموذجاً لما ورد في القرن الثالث وبدء القرن الرابع الميلادي، ولكن لابد من التحلي بالفطنة في هذا المجال، لأن هناك قائمة واسعة مستندة الى رسومات «ليتهان» تبين ان كانت حروف M ذات المحور المستدير، هي من قواعد القرن الثالث. فقد ظهرت منذ النصف الثاني للقرن الثاني[١٦] وبأن الطريقة كانت تمتد احياناً، الى ما بعد عام ٣٥٠[١٧]. ليست هذه الملاحظة في علم دراسة النصوص القديمة، مهما كانت هشة ودقيقة، على نقيض مع بقية الملاحظات التي يمكن ان تعطى حول شواهد القبور. مثال: ان قائمة أسماء المواقع الجنائزية في حوران لاتحوي إلّا القليل جدّاً من الأسماء المسيحية (وهذا خلافاً لما هو في بلاد موآب مثلاً). كما أن الرموز المسيحية غير موجودة البتة، رغم وفرة المسلات المسيحية، وليست هناك أية عبارة يمكن تفسيرها «كمسيحية» فيما عدا: الاسم - الكنية - العمر - والمسلات لا تحمل إلّا الكلمات «يوجد هنا» وغالباً وبشكل قليل (يقيناً ما من أحد خالد على الأرض) أيّ كونه: وثني - يهودي - أومسيحي - ومن الفرص المواتية جداً، ان الأغلبية الواسعة من المسلّات الحورانية كانت تسبق زمن انتصار المسيحية أي كانت تعود الى القرن الثاني والثالث الميلادي، والبراهين تُجمع على أنها سبقت منتصف القرن الرابع. ومن المحتمل وجود مسيحيين بين الموتى مادامت قد انتشرت المسيحية منذ القرن الثالث، ولكن التقدير الذي جاء به هؤلاء يشعر بأن وقوعات هؤلاء الأموات حدثت قبل منتصف القرن الرابع. ويمكن أن نضيف على سبيل المقارنة، أنه قد لوحظ في «آدومي» تطورات متميزة ليس لها أي أثر تقريباً في حوران - لذلك فإن المسلّات الوثنية الموجودة في المدن النبطية، في النقب مشابهة تماماً لمسلّات حوران، سواء في عرضها أوفي مظهرها المادي. وقد ظهر اعتباراً من منتصف القرن الرابع الميلادي عدد كبير من المسلات المسيحية التي تتضمن عبارات وصيغاً مختلفة تماماً، ولها تاريخ وعبارة دفن تنم عن تبديل عميق في التسميات المحلية (أي تبديل شبه كامل من أسماء عربية الى اسماء مسيحية)، الأمر الذي لا يلاحظ مثل هذا الطابع في حوران، لأن السكان هم من نفس الأصل لأهالي النقب، وهذا يحث على الاعتقاد بأن المسلات في حوران تسبق القرن الرابع ب.م. بتاريخ وجودها.

ان الثلاث مسلات المؤرخة في «أم الجمال» تثبت تلك الفرضية، كونها تحمل التواريخ ١٩٥ ـ ٢٠٨ ـ ٢٣٣ ـ هذا في «أم الجمال» بصورة خاصة، ولكن في العديد من قرى حوران، أيضاً، يوجد العدد الكافي من المسلات الجنائزية من نفس عينات المسلات التي كانت مجالاً للتساؤل، والمصاغة بلغة نبطية وبخط لايمكن أن يتخطى تاريخه، القرن الثالث، وبالنتيجة، فإنني احدد المسلات الحورانية لكونها من النوع العادي (فهي كبيرة ـ مستطيلة ـ أومستديرة ـ في القمة، وتحمل بوجه عام، اسم المتوفي ـ كنيته ـ غالباً، عمره ـ وفي بعض الأحيان، عبارة مختصرة عن راحته. وبصورة نادرة تحمل ديكوراً محدوداً على شكل سعف نخل أوتعبير بين الأسطر[١٨] بالنسبة لأبنية القرن الثاني والثالث والنصف الأول من القرن الرابع الميلادي.

إذاً، هذه المسلآت كثيرة جدّاً في «أم الجمال» وكثيرة أيضاً في المدن الكبرى مثل: «بصرى» والنتيجة الحقيقية التي يصعب تجنبها هي أن «أم الجمال» منذ القرن ٢ ـ ٣ كانت مدينة مهمة كثيرة السكان[١٩] ولو ان ابنيتها، في ذلك لعصر، كان يصعب مشاهدتها بسبب اخفائها بأبنية العصر البيزنطي. ونحن هنا أمام واقعة مستثناة تقريباً، حيث يمكن ايضاح مقدمة النقوش، حتى الأكثر اختصاراً منها، في حال تعذر التنقيب الأثري المكثف).

من النادر جداً مصادفة مثل تلك الفروقات بين الأدلة الأثرية الظاهرة، وبين المكتشفات النقشية، ولكن في بعض الاحيان يمكن استعمال أدلّة متناقضة داخل المسلات النقشية نفسها. ويُعتقد أنه كان من الممكن أن تسند للقرن ٢ ـ ٣ الميلادي. الكميات الكبيرة لشواهد القبور في حوران[٢٠] ولكن هذا لايعني انعدام عادة حفر ونقش الشواهد. بل هناك في المنطقة العدد الكافي من النقوش الجنائزية المؤرخة في القرن ٤ ـ ٥ الميلادي، ورغم اختلافها عن السابقات، فهي في اغلبيتها تحمل التاريخ، وتتمتع بطابع عمراني بين مجموعتي وثباتاً. (هذا الأمر يتعلق بجوائز «الأبواب الحجرية»). وإذا ما تمت المقارنة بين مجموعتي الشواهد، يمكن القول بأن المسلات العائدة للقرنين الثاني والثالث هي غزيرة في كل مكان. والشواهد ذات التاريخ المتأخر هي نادرة جداً اينما كان.

غير أن قرية «صلخد» قدمت دلالة معاكسة، فهذا التجمع القديم في حوران، قدّم حسب علمي، القليل من النقوش الكتابية حتى الآن (تقريباً ثلاثون اذا استثنينا من المجموع الاجزاء غير المقيدة والتي ليس لها معنى). ومن بين مجموع نقوش المدينة، لم يكتشف سوى نقشين جنائزيين للقرن ٢ ـ ٣ الميلادي، حيث وُجد فيها على الأقل عشرة جوائز جنائزية جميلة يرجع نحتها لعام ٣٢٢ ـ ٤١٩ (دون تعداد ثلاث شواهد مشبوهة التاريخ، منها اثنتان يرجع اشادتها الى القرن السابع الميلادي. كيف يمكن تفسير وجود مثل هذه العدد الكبير من الجوائز المتأخرة الصنع، وغياب المسلات المشتركة الكامل التي

هي اكثر قدماً؟ ليس هناك سوى جوابين ممكنين: فإما أن المدينة لم تتطور إلاّ في زمن متأخر، بعد ولاية الربع ظاهرياً، وإما من المفيد اكتشاف مقابر تعود للقرنين ٢و٣ الميلادي، إن توفر العدد الكبير من النقوش النبطية للقرن الأول الميلادي، يثبت بأنه كان للمدينة أهمية كبرى تحت حكم «رابيل الثاني»، كما يبدو،أنها تهدمت تحت الحكم الروماني لتعود وتعرف إنطلاقة جديدة في القرن الرابع. ان أدلّة ووثائق النقوش بقيت نادرة الى حدٍ ما. وان استكشافاً أكثر بروزاً يمكن أن يفصل بين الفرضيتين المذكورتين اعلاه.

٤ ـ تسلسل أحداث البناء

الملاحظ، بأن قائمة النقوش الأثرية، لا تعطي بشكل قاطع ضوءاً على موضوع التسلسل التاريخ لسكنى حوران القديمة، حتى لو اتاحت، في بعض النقاط تعويض نقص الاستكشاف الأثري الصرف. وبالمقابل فإنه يمكن لهذه النقوش أن تعطي معلومات قليلة الأهمية، عن مظاهر السكن الأخرى، مثل درجة الصبغة الأغريقية وازدهار المسيحية وتطور بناء المدن والقرى حسب العصور. كما نظّمت وفي مناسبة أخرى[٢١] كشفاً لتنقيب قمت به عبر النقوش الكتابية في حوران في (Gerasa) وفي منطقة «مأدبة»، وفيما إذا سمحت الظروف، لفرض تنظيم صورة عن النمو الكمي للأبنية في هذه المناطق، وفيما اذا من الممكن إبراز نواحي الاتفاق والاختلاف حسب الأمكنة والأزمنة، وللوصول الى نتيجة جديرة بالاطمئنان، يجب، بشكل طبيعي، استبعاد جميع النصوص المؤرخة بصورة تقريبية والتي يبدو موضوعها غير مؤكد، ومن جهة أخرى، يجب تجهيز عدد كافٍ من النصوص حتى لا تعزى النتائج المكتسبة الى صدفة الاكتشاف. وهذا بحكم الضرورة، يجعل البحث مقتصراً على القرون ٤ ـ ٧، وبشكل خاص على القرن السادس الذي يتلاءم جيداً والمعايير المحددة اعلاه.

وهكذا يمكن تلخيص نتائج البحث بما يلي:

١ ـ في القرنين ٤ ـ ٥ كانت المستندات لا تزال قليلة العدد نسبياً، وايضاً كان يجب تفسير عدم وجود البناء كإشارة للانحطاط الاقتصادي أو الديمغرافي للمدن أو القرى. وبالعكس فإن الفعالية المهمة نسبياً، والتي لوحظت خلال بعض الحقبات. مثلاً، في منتصف القرن الرابع والخامس الميلادي ليست سهلة التفسير، مثلاً، حاجة إعادة التعمير أو توسيع الكنائس نظراً لازدهار المسيحية[٢٢].

٢ ـ اعتباراً من نهاية القرن الخامس وحتى أول القرن السابع، أصبحت الوثائق والمستندات كافية لأن تسمح بالحصول على نتائج اكثر ثباتاً.

ارتفع العديد من الأبنية في حوران، في بصرى و Gerasa في نهاية حكم زينون وأنستاس.

وخلال الثماني سنين من حكم جوستان (٥١٨ ـ ٥٢٧) لم يرتفع أي بناء سوى كنيسة «بروكوبيوس» في Gerasa في نهاية حكمه فهل يعود، هذا الوضع الى الظروف الطارئة للاكتشافات (خالدة قصيرة)؛ أم يتوافق ذلك مع توقف بناء الكنائس خلال زمن اعادة النظام في ولاية الربع للأسقفية العربية. (نفي أسرة «سيفير لصالح الخلقيدونيين)، بينما كان أغلبية المؤمنين يعتنقون مذهب الطبيعة الواحدة.

٣ ـ اثناء الحكم الطويل لجوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) أظهر العديد من النصوص تقسيمات في الأبنية لايمكن عزوها للصدفة. ومنذ أول حكم جوستنيان، ارتفع العديد من الأبنية في «جيرازا» وعلى جبل «نبو Nebo» وبعدها بقليل (٥٣٩ ـ ٥٤١) في «بصرى»، حيث تم إشادة أو إصلاح العديد من الكنائس ـ السدود والواجهات المدنية المختلفة (مثل الجسور ذات القناطر) وفي بصرى. كانت الارادة الامبراطورية هي الرائدة في العمل، كما هو وارد في كل نص في النقش، بينما لم يرد ذلك في بقية مدن الولاية. من جهة أخرى، تثبت جميع النصوص الكتابية في الأبنية منذ عام ٥٣٩ ـ ٥٤١ بأن الدفع في «بصرى» كان ينطلق من الأعلى. وهذا الاخراج الفريد من نوعه، الذي كان مقتصراً على عاصمة الولاية «بصرى» وعلى معبد ذائع الصيت في جبل نبو Nebo، وعلى مدينة Gerasa الكبيرة، لم يتناول المدن والقرى الأخرى الا بعد خمسة عشر عاماً (أي نحوعام ٥٥٠ ب. م) ومن ثم تتابع حتى نهاية الحكم. وبذلك تضاعفت الكنائس، بفضل كرم المؤمنين من فلاحين وحرفيين وتجار. واحياناً بمساعدة رئيس قبيلة عربي «أزرائيل» في حرّان (٥٦٧ ـ ٥٦٨) أما التأخير الذي نلاحظه في ما تبقى من حوران بالنسبة لِـ Gerasa جيرازا، وبصرى لايمكن اسناده الى صدف الاكتشافات النقشية لأنها كثيرة جداً، ولا بد من قيام تطابق غير عادي حتى يمكن الحصول على مثل هذا التقسيم في النصوص. في بادىء الأمر، يمكن تفسير هذا التأخير بالهجمة القاسية لمرض الطاعون الذي اجتاح السكان نحو٥٤٣ ـ ٥٤٤م. فإذا كانت الارياف مستعدة للسير على منوال المدن. لمنعت من ذلك خلال عدة سنين، وازدهار الكنائس الملاحظ والذي عاد خلال العشر سنوات بعد الطاعون، يثبت بأن هذا الازدهار قد عاد ايضاً، وان وفرة السكان لم تتناقص. بالاضافة الى كل ذلك، يجب الحذر من هذه النقطة، من جهة، نحن نجهل، ما هو حجم الكنائس المشادة في هذا العصر، بالمقارنة مع الكنائس التي كانت موجودة سابقاً. ومن جهة أخرى، فإن حجمها مرتبط بالتقوى وبكرم الطائفة المسيحية وليس بحجم تلك الطائفة.

٤ ـ بعد حكم جوستنيان الذي كان يُمثل، بالتأكيد، أحد قمم الازدهار في حوران

فقد تباطأت حركة البناء، دون التمكن من الادعاء بنقص السكان، وضعف النشاط الاقتصادي، بل بالعكس وهو العصر الذي حافظت فيه «بصرى» على علاقات تجارية مثمرة مع الحجاز ـ ومكة وبصورة خاصة. وثمة مايلاحظ تجديد لهذه الفعالية بحوران حتى عام ٥٨٩ ـ ٥٩٧ في «مأدبة» وفي جبل Nebo في منتصف القرنين السادي والسابع الميلادي. فهل لانحلال رئاسة القبيلة الغسانية الكبيرة عام ٥٨١، له علاقة وتأثير على هذه الظاهرة؟ وهل كان الأمن غير كافٍ، وخاصة على حدود الأراضي النصف صحراوية للولاية؟ هل شهد سكان القرى، الاكثر تعرضاً للتهديد، تراجعاً بسبب غارات البدو الرحل؟. فإذا كانت جميع الكنائس المبنية فيما بين عام ٥٨١ ـ ٦٣٥ موجودة غرب «بصرى» هل كان هذا بفعل الصدفة فقط؟. وقد تكون هذه من الأدلة، إلاّ أننا سنعمل على تفسيرها بحذر نظراً للعدد القليل المتوفر من الوثائق[٢٣].

من هذا نجد، كيف يمكن لعالم النقوش مساعدة عالم الآثار علماً بأن هذا الأخير لايمكنه وضع تاريخاً للابنية التي تشيدها، رغم حقيقة توفر أدواتها ووضوحها. من جهة اخرى، وعلى ضوء الدراسة الحالية، لايوجد سوى العدد القليل جدّاً من واجهات الأبنية التي تم تعيينها. والنقوش الكتابية إذاً هي بمثابة وثيقة مهمة حول الأبنية التي لا تزال مختفية أو الأبنية غير المنقبة. وهي التي يمكن أن تساعد على تأريخ التطور الهندسي. وأبعد من ذلك أيضاً، تأريخ السكان، بعد ايضاح، أزمنة الازدهار والانحطاط، وبعد تلخيص التنقلات التي كانت تطرأ على السكان وعلى هجرة القرى. هذه بمجموعها شهادات يجب تفسيرها بكل دقة. وإلاّ بقيت غامضة لدينا في كثير من النقاط المهمة، مثل نحت ونقش الواجهات وغناها وما نالها من الترميم لتحديدها، مع أنها لا تزال غير قابلة للإبدال[٢٤].

٥ ـ ميزات الهندسة المعمارية الهيلينية أي الصفة الاغريقية

هناك نقطة أخيرة بقيت قيد البحث. وهي موضوع صفة العمران. أنه موضوع واسع ولا مجال للالمام بمعالجته في جميع مناحيه، ولكن يمكن أن نسأل الكتابات والنقوش حول مظاهر العمران المتعددة: اولاً حول نشأته ـ بفضل الرجوع الى الاعلام، مثلاً، ما هي النواحي الخاصة بالأصل الآرامي، وبالعطاءات النبطية والصفائية واليونانية ـ الرومانية وغيرها؟ بعدئذٍ يمكن قياس ما هو مدى نفوذ وتأثير الاحتلال الروماني على سكان حوران. هل الهللينية[٢٥] أصابت ولامست المدن والريف على حدٍ سواء؟ فإذا كان الجواب نعم، هل هناك تفاوت في تاريخ الاحداث بين هلينة هذه المناطق أو تلك؟. وماهي حدود التغلغل في الثقافة اليونانية ـ الرومانية واخيراً هل كان الازدهار مستمراً بالنمو، أم بالعكس؟ هل من الممكن كشف أوجه رد فعل أهلي؟.

ساترك جانباً أول نقطة من التساؤل، التي من أجلها حاولت ايجاد تحليل أو تفسير مفصل، انطلاقاً من دراسة اعلام «بصرى»[٢٦]، فيما يتعلق بالازدهار الهلليني، فالبحث ليس سهلاً لقلة النصوص المؤرخة، ومع ذلك يمكننا العودة الى بعض الاسئلة المطروحة اعلاه.

هل هناك تضاد بين المدينة والريف، فإذا تم التمسك بالمعايير المذكورة أعلاه في ما يخص الهلينة، أي استعارة اسم يوناني ـ روماني، أو استخدام اليونانية في النصوص ذات الاستعمال الخاص. مثل: شواهد القبور أو التكريسات الدينية، نلحظ للوهلة الأولى فرقاً يسيراً بين المدن (كبصرى وقنوات مثلاً) وبين القرى، وعلى كل حال فالجرد الذي حققته حول «اللجا وبصرى وأم الجمال» يؤدي الى نتيجة تظهر فروقاً دقيقة.

واذا نظمنا جدولاً بجميع أسماء الأعلام الشائع استعمالها في اللجا يُلاحظ بأن: الأسماء الأهلية المحلية تعود في غالبيتها العظمى الى القرنين الثاني والثالث ب.م. وبالتأكيد أيضاً الى القرن الرابع. وفيما بعد، اختلطت هذه الاسماء بكثرة باسماء العلم اليونانيّة ـ الرومانية أو المسيحية، حسب النصوص العائدة للقرنين الخامس والسادس (منها الاسم الجميل «تيفور شمش» الذي يحتوي الله).

إن الاسماء اليونانية ـ الرومانية ليست نادرة على كل حال. ولكن يجب ان نميز فيها بينها بعض الفئات التي لها صلة مفيدة بهذا البحث:

أ ـ الاسماء المسيحية (مثل جان ـ انستاس الخ . . .) وهي نادرة وليست بذات قيمة في دراستنا هذه.

ب ـ اسماء أوريليوس وهي متداولة بدرجة كافية ولكنها دون أهمية كبرى، كونها تعود بجملتها للقرنين الثالث والرابع تقريباً.

ج ـ إن الجنود والمحاربين القدماء الذين لايعرف أصلهم، لا يمكن الاستفادة من أسمائهم حتى لو كان اصلهم من اللجا ـ لأن اسماءهم اليونانية ـ الرومانية. لا تعطي الدلالة بأنهم مندمجين بثقافة المحتل، بل هي رمز، لصورة مميزة، لا يمكنها ان تظهر الود لقراهم.

د ـ أما الاهالي الذين يحملون اسماً يونانياً ـ رومانياً هم عديدون، ومنبتهم المحلي هو الضمانة لهم سواء بيوتهم وسواء باحتواء النص ذاته للعديد من الافراد الذين يحملون اسماً سامياً، ويمارسون مثلهم الوظائف والمهام القروية. ومع ذلك، في القليل من النصوص، هناك افراد يحملون أسماء أجنبية، لايمكن الاعتراف بها بصورة مؤكدة، بكونها أهلية، لأنها متأتية من مصادر أخرى.

فإذا أُستثنيتْ أسماء المسيحيين والجنود والمحاربين القدماء وبعض الأفراد الغرباء عن المنطقة، يمكن الحصول على ٣٢٪ من الافراد الذين يحملون اسماء يونانية ـ رومانية مقابل ٦٨٪ يحملون اسماء سامية[*].

أعطي نفس الكشف المنظم في «بصرى» الذي استبعد بنفس الطريقة، الموظفين والجنود وجميع الأفراد الأجانب بالتأكيد[٢٧] نتيجة مغايرة نوعاً ما: ٥٥٪ من الاسماء السامية مقابل ٤٥٪ من الاسماء اليونانية ـ الرومانية. فإذا كانت الارقام محققة فعلاً. حينئذٍ يجب اتباع الفطنة في اعادة تفسيرها. غير أنه، ولدى النظرة الأولى، تبدو (هلينة) اسماء العلم في «بصرى» اكثر قوةً مما هي في اللجا: ولكن الأسباب قد تكون مختلفة:

فإما قد جرى تبني الأسماء العلمية الأجنبية بسرعة، بين سكان عاصمة الولاية الذين كانوا بتماس يومي مع المحتل، ومع العديد من الأجانب، ولهذا وجب الاعتراف بأن الهللينية هي بالواقع كانت اكثر عمقاً في «بصرى» وفي المدن. مما هو باللجا والارياف؟.

وإما أن احصاءاتنا كانت خاطئة بسبب وجود غير مكتشف لأجانب كانوا يدفنون في «بصرى» حسب التقاليد المحلية (مسلة بسيطة) دون أن يذكر أصلهم الأجنبي، وفي هذه الحالة، اذا توفرت احصائية تشمل فقط السكان المحليين الحقيقيين. فإنها تعطي نتيجة مختلفة ولكنها قريبة من تلك التي استخلصناها في اللجا.

في محاولة لتجاوز تلك الصعوبة، ولاظهار قيمة واهمية الطريقة، فقد قمت بجرد ثالث في «أم الجمال» متبعاً دوماً نفس المعايير في انتقاء المستندات، لم أختر «أم الجمال» عفوياً، لأن هذه المدينة أعطت عدداً وافراً من النقوش وخاصة من شواهد القبور في القرنين الثاني والثالث، مما سمح بوضع احصائية ذات قيمة، فجاءت نتيجة الجدول واضحة جداً: ٨٠٪ من الاسماء السامية، مقابل ١٥٪ من الأسماء اليونانية ـ الرومانية[٢٨].

اذا كانت هذه النتيجة قريبة من تلك التي حصلنا عليها في «بصرى» لامكننا ان نستنتج بأن المدنيين (كون أم الجمال، تجمع من نوع تجمعات المدن رغم انعدام استقلاليتها) كانوا يتصرفون في المدينتين التصرف نفسه. علماً بأن «أم الجمال» هي مدينة بدون جنود وبدون موظفين والمقارنة بين «بصرى وأم الجمال» اثبتت بأن النتيجة المستخلصة بالنسبة «لبصرى» كانت جيدة بفضل السكان المحليين ونظراً لعدم وجود أي اسم غريب مموّه يفسد الاحصائيات. ان فقدان التوافق بين المدينيتين وحتى التباين الكبير المفترض لايصلان الى حد البت ضمن مفهوم معاكس، لكون المدينتين من طبقتين مختلفتين، أمّا النتيجة الحاصلة في «أم الجمال» فيمكن عزوها الى التجمع الكبير المحلي الذي لم يحدث معه أي تماس مع المستعمر الروماني الذي لا يحوي إلّا القليل من الأجانب المقيمين (مثل الجنود) و(موظفي الأمبراطورية).لقد اقتصر الأمر بالنسبة «لبصرى» على عدم امكانية الفصل بين الحلّين الواردين اعلاه. ومع ذلك اعتقد بأن الحل الأول اكثر واقعية، حيث لايوجد بالفعل سوى العدد القليل من الجنود والموظفين الذين لم يدخلوا في القائمة، لأن معظمهم سجلوا ألقابهم أو وظيفتهم، أو أنهم كانوا يكتبون اللاتينية، واذا حدث دون علم منا، ان انزلق بعض اسماء

الأجـانب(٢٨)، بين المتـوفين المدفونين على الطريقة المحلية. أوبين مؤلفي كلمات الاهداء، منهم فنيون واطباء ـ وتجار وعددهم لن يكون كبيرا بالنسبة للعدد الاجمالي للسكان، ولا يوجد أي سبب يجعل عدد النصوص التي تذكرهم مرتفعاً بصورة خاصة. واعتقد في نهاية المطاف بأن الارقـام التي أمكن الحصـول عليها بالنسبة «لبصرى» هي جديرة بالثقة ـ ولوكانت تقريبية، غير أنها تساعد على برهنة ما نبتغيه.

اذا وجـدت الهللينيـة الكبـيرة المـوجـودة في تسميـات العَلَم في «بصرى» بكل سهولة تفسـيراً للواقـع المتعلق بعـاصمـة الولاية، فكيف يمكن تبرير الاختلاف الكبير الذي كان يظهر بين عدد الاسماء اليونانية ـ الرومانية المؤكدة في اللجا، وبين مايشاهد في «ام الجمال»، ولأجـل ذلـك يجب الرجوع الى الشطر الثاني من السؤال المطروح اعلاه. ماهو الدور الذي لعبـة الـزمن؟ هل اقتفت الاريـاف حركـة الهلينـة في المـدن بصورة متأخرة. ان مثال «أم الجمال» يثبت الـرأي المعـاكس، ولكن لابـد هنـا من أخذ عامل آخر بعين الاعتبار، ألا وهو استعمال اللغة اليونانية في النقوش الكتابية الخاصة.

بالنسبة «لبصرى» أعترف بعدم استطاعتي الجزم فيما اذا استخدمت اللغة اليونانية من قبـل الأهـالي في القـرن الثـاني الميـلادي، والنصوص الوحيدة السابقة لعصر عائلة «سيفير» جميعها نصوص رسمية باستثناء كلمة اهداء واحدة، حرّرها مواطن محلي عام ١٤٣ ـ ١٤٤. (igls ـ ١٣ ـ ٩٠٠٥). ومن الممكن أن تظهـر شواهـد قبـور أخرى من نفس العصر، ولكن يستحيل توضيحها لنقص النقوش المؤرخة.

في اللجا، ثبت استعمال اللغة اليونانية بواسطة العديد من النقوش الكتابية منذ القرن الثاني للميلاد (في عام ١٠٦ ـ ١٣٣ ـ ١٣٦ ـ ١٤٠) وحتى في القرن الأول للميلاد (في عام ٧٧ ونحو اعوام ٧٥ ـ ٨٠).

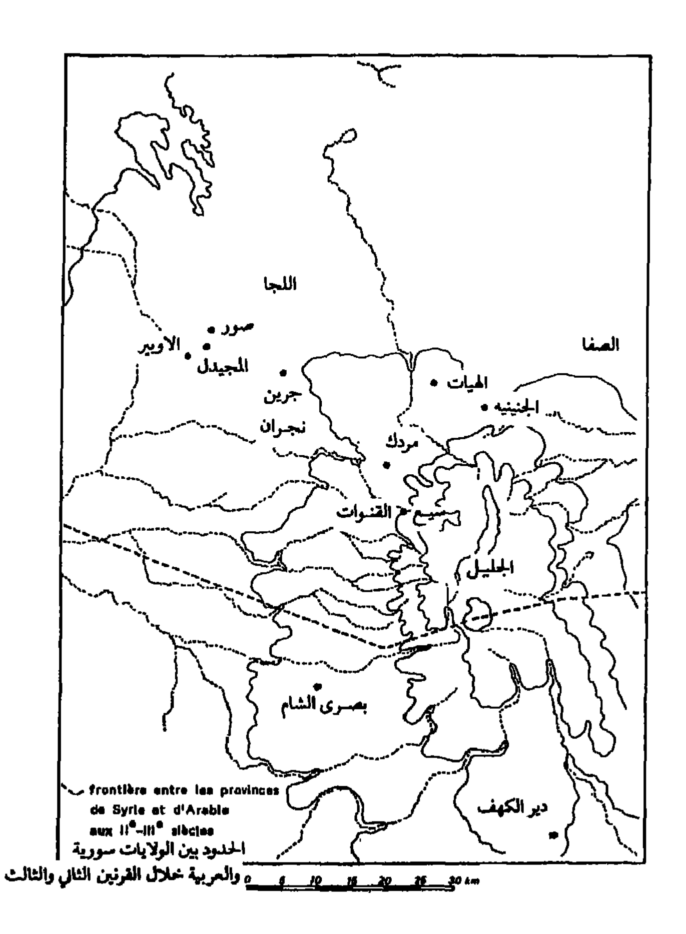
في «أم الجـمال» ان شواهـد القبـور الوحيدة التي وجدت مؤرخة كانت تعود الى اعوام (١٩٥ ـ ٢٠٨ ـ ٢٣٣) ولا يوجد أي نقش خاص كان يمكن ان ينسب للسابق بكل تأكيد.

هل يمكن استخلاص نتائج، بالاستناد الى أسس ذات مظهر ضيق؟ إن الاستعمال المبكر للغة اليونانية في اللجا، ليس بالمؤكد، إذا كان غياب المستندات الثابتة، في «بصرى» و«أم الجمال»، ليس هو بالدليل المناسب اعتماده في المدينتين. فإن استمرار الصلاة والتقديس باليـونـانيـة باللجـا لم يكن عرضيـاً. يمكن الاستنتـاج بأن ادخال اللجا (تراخونيتير) ضمن الممتلكـات الهـيرودية في القـرن الأول الميلادي، بشكل متقطع في ولاية سورية قبل ضمها نهائيـاً الى الامـبراطـوريـة. بعـد موت («أغـربيا الثاني» حول عام ٩٣ ـ ٩٤) قد أدخل آثار بصمات في النقوش الكتابية (الخريطة رقم ٢)(٢٩).

فعمليـة التكـامل هذه الاكثر قدماً في الامبراطورية، وقرب المناطق التي هي منذ زمن

طويل على احتكاك مع الاغريقية ومع روما (مثل المنطقة الدمشقية) يفسر ان هذه الهلينة المبكرة، وقد ترجم ذلك باستعمال اللغة اليونانية وبتوغل الاسماء اليونانية - الرومانية السريع في اللجا، وليس في «أم الجمال» البعيدة. وبصرى التي ضُمت الى الامبراطورية بنفس زمن ضم «أم الجمال»، تمكنت من استدراك تأخرها عن اللجا بالسرعة الكافية وللاسباب المذكورة اعلاه: (مثل كثافة السكان الأجانب - دورعاصمة الولاية) ويمكن أن يضاف الى ذلك وجود طبقة حضرية ميسورة أوغنية كانت أسرع من الريفيين في معالجة الخدمات الجديدة التي ادخلها المستعمرون.

السكان والتطور



الشكل رقم ٢ - الحدود بين سورية والعربية في القرنين الثاني والثالث - (تقسيم بمعهد اغربيا وخلفائه).

وعلى كل حال، لا بـد من تجنب الاعتقـاد، بأن سكـان «بصـرى» «أم الجـمال» أو «اللجـا». هم من أصـول مختلفـة أو أنهم خضعـوا لهجـرة كثيفـة، من مصـدر يوناني روماني ولكن الأمـر، في الـواقـع، يتعلق بالسـاميين في كل مكان، فالجذور القديمة الأرامية هي بلا شك قويـة جداً في اللجـا. بينـما تكـون الغلبـة في حوران الجنـوبية، أي في المملكة القديمة للجذور النبطية، ولكن في كل مكان بقيت التسمية العلمية العربية بشكل واسع. ولا بد من ظهـور اختـلافـات كبـيرة وعميقـة حتى يمكن الكشف عن وجـود سكـان غربـاء أو سكان اصطبغوا بالصبغة الهلّلينية.

إذا قورن اسـم الـعـلـم (لـبـصـرى) مع تـسـمـيـة Gerasa جيرازا يفـهـم بسـرعـة اننـا أمـام عالمـين مختلفين - ففي Gerasa لا يوجد تقريباً أي اسم سامي، انما هناك القليل من المسلات الكبيرة السائدة في حوران بما فيها بصرى. وما يمكن استخلاصه، هو إمـا غيـاب السـاميـين (وهذا يمكن تفسيره وفق الجذور القديمة في المدينة)، واما أن الجميع تهلينـوا منـذ زمن طويـل[٣٠]. ولتحـري الدقة، يمكن قياس المسافة بكاملها الواقعة بين الأساس القـديم للهيلّلينيـة وبين العاصمة الجديدة للعربية الرومانية، حيث لا تعتبر الهيللينية سوى طلاء متشقق نوعاً ما[٣١].

لا اعتقد بامكانية الذهاب بعيداً في هذه الطريق، مثال: لم استطع كشف تراجع في الهلّلينيـة في القـرنـين الخـامس والسـادس. فاستمرار وجود اسماء محلية في حوران (مثل بلاد موآب) يثبت بأن اللغة اليونانية لم تتوصل الى محو اللهجات أو اللغات المحلية الآرامية، الأمر الـذي تمكنت اللغـة العـربيـة من تحقيقـه فيـما بعـد. لم تكن اللغة اليونانية سوى لغة المظاهر «العظمة» فقط، لأنها كانت تستخدم في التظاهرات الخارجية زيادة في الشهرة، (مثل الاهداء والتكـريس الـديني)، حتى في العصـر البيـزنطي حينـما كانت كتابة النقوش على اهداءات الكنـائس، أو على المـوزاييك، مكتوبة باللغة اليونانية هل كان ذلك لعلاقته باللغة الدارجة أم بلغـة الكنيسـة؟؟ بكـل تأكيـد، كان جميـع الناس يفهمون اليونانية على درجات متفاوتة ولكن على كل حال، كانت تبدو الهيللينية قليلة العمق.

الخلاصة

في الختام، ارغب اثارة ذكر طبقة من سكان حوران، يصعب على علماء الآثار العثور على بقـايـاهم أو آثـارهم: انهـا طبقـة البـدو الـرحـل، فبعض النصوص تتيح معرفة امكنة وجـودهم في المنطقـة منـذ القـرن الأول، اصلهم العـرقي، وأمـاكن اصطيافهم في حوران، ولكي لا أفـرط في اطـالـة المـوضـوع. اسمح لنفسي بارجاع القارىء، في هذا المجال، الى كشف الكتـابـات والبحـوث عن البدو الرحّل، والى الخلاصات التي سبق واستخلصتها في

موضع آخر[٣٢] لنعد الى الأذهان بأننا نعرف، بفضل النقوش والكتابات اليونانية، ان القطاع الشمالي لجبل العرب، الذي كان مركزاً مهماً للاصطياف، وبأن قادة المنطقة الصفائيين كانوا يتواجدون هناك بصورة خاصة. من جهة أخرى، فإن تسمية الاعلام في الكتابات اليونانية تبين بأن قسماً من هؤلاء البدو الرحل تحضروا في الجبل، وان كثرة الاسماء الصفوية (العربية في الواقع، والمؤكدة بشكل أساسي وبكثرة لدى الصفائيين) كانت أكثر أهمية في جبل العرب منها في أي مكان آخر في حوران. وقد اكتشفت ظاهرة التحضير هذه عبر الكتابات التي تذكر القبائل، وهي كثيرة في الجبل واللجا، الّا أن المسألة تبقى معقدة وتستحق معالجة خاصة[٣٣].

لا يشك أبداً بان مضاعفة المكتشفات، وانشاء مجموعة مدونة كاملة للكتابات والنقوش الحورانية، تتيح دراسة اكثر منهجية عن سكان المنطقة وبعلمنا أنَّ اغناء تلك المجموعات والغناء اللامساواة في استكشاف مختلف المناطق، توصل الى معلومات أوضح حول أصل السكان وحول تقسيماتهم حسب العصور ـ ودرجة هلّلينيتهم الخ. . . . . ان ما عرض أعلاه ليس له أي مطمع سوى اظهار ما يمكن معرفته، وخاصة ما يمكن توقعه.

موريس سارتر
«تور» حزيران ١٩٨٠

هوامش

١ ـ مع علمنـا بطبيعـة هذا البحث، فإنني مغتبـط لتقـديم تعليقـات وحـواشي خفيفة مستندة على النقوش الكتـابيـة حتى لايضخم حجم المـادة وبكـل سهـولة يمكن مراجعة النصوص في مصنفات النقوش الكتابية الحورانية.

٢ ـ يمكن تقديم العدد بأكثر من ٢٠٠٠ الأمر الذي يرى فيه الكثير، بالنسبة لمنطقة قليلة الاتساع، دخلت مؤخراً ضمن العالم اليوناني الروماني.

٣ ـ IGLS - ef ٨/ ١ باريز ١٩٨٢، تعد ٤٧٢ رقماً منها ٢٤٩ رقماً بدون نقش كتابي.

٤ ـ بالحقيقة عثرت على نقوش كتابية في «ام الميادن» وفي «كحيل» عام ١٩٨٢.

٥ ـ يجب ان يُنظر في الحساب ان العديد من المؤسسات الزراعية المنعزلة قد اعيد ترميمها أو استخدامها بينما حالياً لا يوجد سكان منعزلين.

٦ ـ اترك جانباً، وبطيبة خاطر، وضع «سيع»، التي كانت في القديم موقعاً مهماً. وأما اليوم، فهي مهملة جداً لأنها بصفة أساسية تتعلق «بمعبد» الأمر الذي لايمكن مقارنته مع قرية أخرى.

٧ ـ جوزيف AJ (١٦ ـ ١٣٠) و(٢٧٣ ـ ٢٨٥) ـ (١٥ ـ ٣٤٤) ـ (١٧ ـ ٢٣ ـ ٢٨).

٨ ـ كانت تراخونيتيد (trachonitide) جزءاً من الولاية السورية الرومانية في الحقبة الزمنية التي كانت تفصل الازمان حيث كانت هذه اللجا Trachonitide تحت سلطة الامراء الهيروديين هذه الحالة كانت بين عام ٣٤ ـ ٤١ ثم بين عام ٤٤ ـ ٥٤.

٩ ـ وادينغتون ـ ١ ـ سورية ٢٤٤٣.

١٠ ـ راجع السيد دوناند «الطريق الروماني في اللجا» ـ باريز ١٩٣٠.

١١ ـ راجع ج لاسوس (J. lassus). الصوامع المسيحية في سورية/ باريز ١٩٤٧.

١٢ ـ PAES ٣ ـ آ ـ ٢٣٢.

١٣ ـ PAES ـ ٢ ـ آ ـ ٢٧١ ـ ان فقـر «أم الجمال» ـ في الـوثـائق الـرسمية تتقـاطـع في هذا المضمار مع غنى «بصرى» سيتوضح ذلك فيما بعد.

١٤ ـ PAES ـ ٣ ـ آ ـ ٢٤٥ ـ ٢٧٠.

١٥ ـ في «طفس» شمال درعا ـ ان جميع الطقوس الجنائزية مؤرخة، وهي حسب اعتقادي، القرية الوحيدة في «حوران» المؤرخة فيها هذه الطقوس.

١٦ ـ PAES ـ ٣ ـ آ ـ ٦٥٩ (في ١٥٥)، ١٥٥ (في ١٦٩ ـ ١٧٠) ٦٥٢ (في ١٩١) ولكن يشاهد حروف M في ١٥٧ (PAES -A- ٧٠٠) في ١٦٤ (راجع ٧٠٦).

١٧ ـ PAES ـ ٣ ـ آ ـ ٧٢٤ ـ و٧٢٦ (في ٣٥٩) ٦٧٠ (في ٣٩٢) ولـكن حروف M مستقيمـة منـذ المنتصف الأول للقرن الرابع. PAES ـ ٣ ـ آ ـ ٦٨١ (في ٣٠٥) ٣٩٥ (في ٣٣٣) ٦٩٧ (في ٣٢٣).

١٨ ـ وجد مطرة، أي نموذج منه في IGLS ـ ١٣ ـ fase ـ ١ ـ بصرى ـ باريز ١٩٨٢.

١٩ ـ ليست «أم الجمال» سوى قرية تابعة لأراضي «بصرى» كما يثبت ذلك النقوش الكتابية، أما غياب ذكر الموظفين الرومان فيها (فهذا ما هو مستغرب، نظراً لوضعها المهم جداً في هذه التجمعات السكانية ـ ندرة كبيرة في الجنود ـ عدم. وجود أي حاكم بلدي في الوقت الذي كان الحكام موجودين في العديد من القرى التي كانت تقل عنها عدداً بالسكان هذا مايثبت بأن «أم الجمال» لم تكن سوى تجمع أجنبي من السكان غير العسكريين وغير الاداريين. وحتى أنها لم تكن تتمتع بنفس الاستقلالية القروية التي كانت سائدة. تمتد اراضي «بصرى» باتجاه الجنوب حتى الرحاب (Rehab).

٢٠ ـ لا يخلو ذلك من بعض المسائل ـ لماذا ـ هل بدأت العادة أو التقليد بالاضمحلال بصورة خاصة، بالنسبة لمناطق اخرى يقطنها نفس عناصر السكان (مثل المؤآبيين ـ والايدوميين). ان المسلّات المسيحية هي كثيرة وبوفرة هنا.

٢١ ـ راجع بصرى باريز ١٩٨٥.

٢٢ ـ رغم ان المسيحية كانت دخلت مبكراً الى بصرى (منذ أوائل القرن الثاني ب. م. على أبعد تقدير). غير أنه بقي ما يعادلها من الاوثان في المدينة في عهد جوليان ـ (راجع بصرى).

٢٣ ـ الكنيستان الاخريان المبنيتان في المنطقة هما في الكفر عام ٦٥٢ ـ وفي عرمان عام ٦٨٨ ـ أي في شرق المنطقة ولكن الأمن لم يستتب الا بعد الفتح الاسلامي.

٢٤ ـ الفضل بحث حول سكان حوران هو بحث «ف فيللينوف» في مؤلفه «بحوث حول قرى حوران» الأثرية دكتوراه Cycle III باريز ـ ١ ـ ١٩٨٣ ـ ص ٢٣ ـ ٩٨.

٢٥ ـ مع التحفظ وتظاهرة هيلّلينية بالنسبة لرجل ما ـ مثلاً ـ اسمه مشترك بين اليونانية والرومانية، أو استعملت اليونانية في النقوش الكتابية الخاصة (شواهد قبور ـ نذور) فهذا بكل وضوح يعتبر كمرحلة بدائية جداً من الهيللينية ولكن هي من أول نوع لوحظ في حوران.

٢٦ ـ راجع «بصرى».

٢٧ ـ لوحظ بأن جميع الاشخاص الذي يكتبون اللاتينية هم من الأجانب.

٢٨ ـ يجب أن لاننسى، بأن بعض الاسماء اليونانية والرومانية ليست سوى اسماء هيللينية ولاتينية اخذت كطابع لفظي للاسماء السامية، وايضاً في حوران مثل اسم (واليس وميلون/ يوناني) وأيضاً الكلمتين اليونانيتين (سابيونس وامنوموس) وقد اعتبرتها هنا كاسماء أجنبية مع الاحتمال بدون مسوّغ بتضخّم عدد الاشخاص الذين اتخذوا اسماء هيللينية.

٢٩ ـ بالاضافة الى ممارسة النذور، فإن تواجد الهيروديين في المنطقة ترك آثاراً أخرى، في قنوات والمشنف، كانت تجري وفقاً لذوق ورغبة الامراء على سبيل الشهرة والبذخ وليس في سبيل التقدم السياسي الحقيقي للمنطقة. بالحقيقة قد أوردنا فيما سبق التفسير الذي من أجله انشئت قيصرية الميت وعلى كل حال، فإن دراسة اسماء الاعلام تثبت بأن هذه الحقبة الزمنية لم تدع السكان غير مكترثين. فقد أحصيت جميع البيانات لاسم اغريبا في سورية وأسماء المشتقين عن هذا الاسم مثل اغريبانوس ـ اغريبينا ـ اغريبياس ـ الخ. . .) فكانت النتيجة مدهشة (الخريطة رقم ٢) خمسة من حاملي تلك الاسماء وجدوا خارج حوران (واحد في بيروت وادينقتون ١٨٥٣) واحد في انطاكية (EGLS ـ ٣ ـ ١٠٥٧) ثلاثة في مدن وقرى سورية الشمالية (EGLS ـ ٤ ـ ١٥٠٦ و١٦٢٧ ـ SEG ١٩، ٦٤٨). ولكن وجد ٢٥ من هذا الاسم في حوران ومن أصل هذه الى ٢٥ وجد ٥ خارج الادارة الهيرودية (٢ ـ في دير الكهف ـ ٢ في بصرى ـ ١ في جيرازا Gerasa)

والأسماء العشرون الأخرى، وجدوا في مدن وقرى اللجا «جرين - نجران - صور - الأوبير - الخارصة» وفي جبل العرب الشمالي (في الجنينية - سبأ - الهيات - قنوات - مجادل مردك) وذلك دون ان تدخل في التعداد لعائلة (بانياس سيزاره فيليب Paneas Césarée de phileppa) وانني أشك بأن هناك اكتشافات متأخرة تمكنت من القيام بهذا التوزيع. وقد أجري نفس التفتيش والبحث حول اسم هيرودس، ولكنه أقل وضوحاً. غير أنه مع ذلك مقنع. فقد عثر على هذا الاسم أربعة عشر مرة في كل سورية منها: ٧ في نفس قطاعات سورية الجنوبية التي تعود الى الأمراء.

٣٠ - من المفيد اجراء المقارنة بين مدن الائتلاف العشر. يبدو لي بأن جيرازا Gerasa هي منعزلة لأن الاسماء السامية هي ثابتة جداً في درعا - وقنوات، وأيضاً في عمان (راجع الآن ٤P - (كاتييه Gatier) النقوش الكتابية اليونانية واللاتينية في الاردن ٤ - ٢ - باريز ١٩٨٥.

٣١ - الطريقة التي كان اتحاد المدن العشر يقوم بموجبها نشر عناوينها واسماءها القديمة اعتباراً من منتصف القرن الثاني ب. م. على عملاتها، كانت على مايعتقد التمييز وعدم الاندماج مع المدن الحديثة مثل: بصرى وبترا - وكان هذا منذ منتصف القرن الثاني، على أقرب تقدير. اذ تمكنت (قنوات) من تدوين مؤسسها (غابينيوس وبلا، Gabvinius et pella) وماركيوس فيليب حيث اعلن غادارا Gadara نفسه انه مؤسس بومباي Poumpée وأن جيرازا استعاد اسم انطيوخس كريزورداس (Chrysorrhoas) وهذا يذكر بانشائها من قبل اسكندر الكبير مثل: (كابيتولياس Caputolias).

٣٢ - راجع بحوثي الثلاثة حول العربية الرومانية - بروكسيل - ١٩٨٢ ص ٤٢٤ - ٤٢٨.

٣٣ - راجع القبائل والافخاذ في حوران القديمة (الأثرية) سورية ٥٩ - ١٩٨٢ ص ٧٧ - ٩١.

هوامش المترجم

*١ - ملاحظة ضرورية أن نسبة الاسماء السامية العالية وتعني ذلك النبطية تدل بحد ذاتها على السكان المحليين أنفسهم، الأمر الذي يحاول الباحثون عدم الاشارة اليه بما يستحقه.

*٢ - من الأمانة الاشارة الى أن وجود الأسماء اليونانية على شواهد القبور في بصرى أو المدن والقرى الأخرى في حوران، لايمكن الاستناد اليه للحكم على أن هؤلاء من الأجانب، وأن محاولة اعطاء هؤلاء الأجانب صفة الفنيين من أطباء أو مهندسين كما الح بذلك كاتب البحث، يعتبر تسرعاً لا مبرر له ولأن استقرار الامبراطورية الرومانية والبيزنطية وقبلها الاغريقية حوالي تسعة قرون واختلاط المحتلين بالسكان المحليين، وهلينة الكثيرين ممن انتسبوا للجيش أو الادارة، أو لمجرد تبني الثقافة اليونانية لبعض المدن والقرى بكاملها، يحملنا على أن نرجح رأياً مخالفاً لرأي الكاتب، وهو أن نسبة ١٥٪ أو أكثر من الاسماء اليونانية لا يعنى أبدا أن هؤلاء كلهم من الاجانب، وبالتالي لايمكن اعتبارهم جميعاً من الفنيين الأجانب، والأخذ بهذا الرأي معناه الانحياز لنظرية مسبقة الصنع.

العملات نتيجة التنقيب في «سيع»
التداول بالعملة القديمة في حوران

أوضاع التنقيب

حتى الآن كانت دراسة العملة القديمة في حوران مهملة تقريباً، وكان يتخلل التنقيب في هذا المضمار، فجوات بالنسبة لكافة هذه المناطق، ولجبل العرب ولما حوله من مقاطعات مجاورة لسورية الجنوبية وللاردن، جاءت المنشورات ضئيلة، بالمقارنة مع بلاد الشرق الأدنى القديمة الأخرى مثل سورية الشمالية، الداخلية والساحلية وفينيقية وفلسطين، التي رفدت علماء المسكوكات، منذ زمن طويل، بوثائق وفيرة أغنيت باستمرار.

ان طبيعة العملة المكتشفة في حوران توضح، بدون شك، سبب ندرة النشر عنها: فهذه القطع الصغيرة من البرونز السيئة السكّ أحياناً، المفرضة، أو المقصوصة، البالية والتي يصعب قراءتها، وطابع التكرار في أنواعها لم تثر اهتمام جامعيها. من جهة أخرى، يُترجم التكامل السياسي والاداري للبلاد في العصور الهيلّينية والرومانية، من خلال المكتشفات النقدية التي يضلّل تنوعها الباحث. كانت عدة طرق تتصالب في تلك المقاطعات المأهولة لتربط الطرق الدمشقية بشرق الأردن وأطراف الصحراء بفلسطين، الأمر الذي يضاعف

التواصل بين السكان الذين كانوا من جذور مختلفة. إن منطقة «سيع» بصورة خاصة، كانت قريبة جداً من الحدود غير الثابتة والمتنازع عليها والتي فصلت التقسيمين الكبيرين، في سورية، الجنوبي والمركزي خلال حقبة كبيرة من العصر الهيلّليني، ثم أبان السيطرة الرومانية. وكذلك جاءت الى جانب بعض العملات المحلية ـ قليلة هي المدن كان لها ورشة خاصة بالسباكة ـ مجموعة ضخمة من القطع الصادرة عن ورشات خارجية متعددة، تقع في فلسطين وشرقي الأردن أوفي سورية، لتؤكد تعاقب أوتداخل السلطات ـ المالك الكبرى، والاسر المحلية الصغيرة، والادارات في الامبراطورية وفي الولاية، وفي البلديات، أبان العصر الروماني، وهذ التنوع في ضرب العملة. جعل دراستها شائكة.

في مجموعات التصنيف العامة القديمة في معظمها والموثقة توثيقاً غير متساوٍ، رأى الباحث نفسه مقتصراً على جميع معلومات مؤشرات مجزأة، فهو بالمقابل اعزل كما تظهر ذلك المراجع، تجاه الدراسات الاختصاصية ذات الموضوع الموحد، والتي كانت سابقاً تجري بصفة استثنائية، بينما تتضاعف حالياً مقدمةً وثائق غنية جداً حول اصدارات الممالك المجاورة (من نبطية وغيرها أيضاً) وحول سك النقود في المدن والحاضرات، من جهة أخرى، كان هناك عدة أعمال تنير السبل في مجال نشر وتأريخ العملات الرومانية والامبراطورية أو في الولايات التي تدخل دائماً في جزء كبير ضمن العناصر المركبة للاكتشافات. ولكن مهما كانت قيمة هذه الدراسات، فإن موضوعها لايراد منه التبصر في التسلسل التاريخي لسك العملة ولا لبعد علاقاتها.

بالنسبة لمنطقة حوران، فالمسكوكات، بصورة خاصة، هي مجردة، بسبب نقص الادلة الواضحة عن المكتشفات، ولكن، على مايبدو، فقد تم وصف كنز واحد فقط. وتشير التقارير القديمة للمهام، أوللرحلات، أحياناً، الى العملات دون ايضاح مسهب. واذا ادّى التوسع الكبير في التنقيبات والحفريات التقليدية منذ سنين، الى تضاعف اكتشاف العملات النقدية التي نادراً ما أشير اليها[1] فإن النشر عنها بحد ذاته قد بقي معدماً.

ان تنوع النقود المتداولة في هذه المنطقة المتنازع عليها، وطبيعة ثم اختلاف الاشغال التي لا تخلو من ثغرات، تتطلب جهداً ضرورياً لإخراجها الى النور. ومن المفيد عرض الموضوع ضمن نطاق علم المسكوكات، مقتصرين قدر الامكان، على منطقة جبل العرب، وعلى مواجهة جميع المعطيات العمومية، بعد ذكر جميع الأدلة النادرة التي امكن اكتسابها، وخاصة النتائج التي يمكن استخلاصها من العملات المستخرجة من تنقيبات «سيع».

٢ ـ توزيع العملات التي عثر عليها في «سيع»

هذه العملات تشكل موضوعاً لا سبيل لإهماله، ان البعثات الأربعة لعام ١٩٧٧ ـ

٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠) سلّمت ٢٩٣ قطعة من البرونز حصراً عُثر على جميعها تقريباً في الطبقات الآثارية، وضمن مساحة ضيقة نسبياً. فالبعض من هذه القطع الملتقطة من على وجه الأرض تقريباً. كانت على مقربة من مكان التنقيب مباشرة، ورغم الاهتراء وحالة التآكل لبعض القطع من هذه النقود، فقد امكن تصنيف وتحديد هوية مجموعها تقريباً. بالاختصار يمكن اعتبارها نموذجاً (مسطرة) معبراً لدراسة كيفية تداول العملة المحلية سابقاً. وهي مدعاة للاهتمام رغم الثغرات التي فيها.

ان الجدول التالي رغم كونه مختصراً وموقتاً، فإنه يوجز بخطوطه العريضة والتقسيمات أو التوزعات التاريخية للعملات هذه:

العصر	نوع العملة	العدد	المجموع
العصر الهيلليني	اللاجيد Lagide	٢	
	السلوقيون: انتيوخس الرابع	٢	
	انتيوخس الثامن		٤
الملوك الانباط	ارتياس الرابع	٣٥	
القرن الأول	ماليخوس الثاني	١٠	
بعد الميلاد	رابيل الثاني	١١	
	(غير معروفين) انصاف قطع نقدية	٢٨	
	اجزاء من عملة نبطية / غير معروفة	٢٦	١١٠
الاسرة اليهودية(*)	هيرودس الأول	١	
القرن الأول ق. م	هيرودس فيلبوس الثاني	١	
القرن الأول ب. م	اغريبا الأول	١	
	اغريبا الثاني	٣	
	غير معروفين	١	٧

العصر	نوع العملة	العدد	المجموع
عملات المدن	قنوات تحت حكم كاليكالا	٢	
	دوميسيان	٦	
	كومود Commode	١	٩
من القرن الأول	بصرى تحت حكم مارك اوريل	٣	
الى	فوستين Faustine	٢	٥
الثالث الميلادي	صور في وسط القرن الثاني	١	
	انطاكية تحت حكم فيليب الثاني	١	
	غير معروف	٢	٤
مجموعة من الصغيرة (سك محلي)	نقود صغيرة (سك محلي)		١١٨
نقود رومانية	تراجان	٢	
	من القرن الثالث	١	
	غاليان gallien	٢	
	ماكسيمين الثاني Maxemin II	١	
	قسطنطين	١٤	٣٠
	قسطنطين الثاني	٥	
	فالانتينيان Valantinien	١	
	اباطرة في القرن الرابع / غير معروفين	٤	
عملات اسلامية			٢
عملات حديثة			١
عملات غير مقروءة			٣
	المجموع العام		٢٩٣

٣ ـ تداول العملة تحت الحكم الفارسي

في باديء الأمر، يُستنتج بأن تلك المستندات هي صامتة، أي أنها لا تذكر شيئاً عن العصور الاكثر قدماً، ان أقدم عملات «سيع» تحمل تاريخ العصر اللاجيدي Lagide، وعلى ما يبدو، لا يوجد أي لقية أخرى محليّة تحمل تحديداً لتاريخ وشروط استعمال، وتداول لعملة المنتشرة في قطاع جبل العرب. ان هذه المنطقة التي كانت من ضمن حوران تعود الى التقسيمات السياسية للاقليم الخامس الذي يحكمه «مرزبان» التابع (لقبيلة بازرغاد الفارسية Achéménide) وليس هناك أي مصدر، بالنسبة للعصر القديم. يتضمن دلالة يمكن تطبيقها على هذا القطاع المتأخر اجتماعياً والقريب من الصحراء، ويدل على الطريقة العامة للتطور النقدي في المملكة الفارسية التي وضع عنها (د. شلنبرجر D. Schlumberger) جدولاً متماسكاً: عوضاً عن المقايضة بالمعدن الموزون، ظهر نظام نقدي، مستقىً من المملكة الليّدية التي كانت منذ عام ٥٦٠ تقريباً، على دراية باصدار العملة (الذهبية Créséïdes) (والفضية sicles التي خلقت المجموعات الأولى من مزيج الذهب والفضة (Eléctrum). لقد افتتح الملك الكبير قبيل نهاية القرن السادس أو أول القرن الخامس، مهرجاناً لسك أول عملة من الذهب، اطلق عليها اسم (داريك Darique) الوحيد (اسم الدينار القديم الفارسي)، الذي انتشر في جميع ارجاء المملكة، حتى في الخارج. وبصورة موازية ايضاً، اصدر المثقال الفضي الذي كان تداوله مقتصراً على الأناضول الغربية والجنوبية، ومن هذا الاصدار الملكي المرزياني الذي أمتد باستقرار ملحوظ في جميع هذه الأنواع حتى عهد الاسكندر لم يعثر على أيّة قطعة لا في موقع «سيع» نفسها ولا في منطقتها.

يجدر بنا ان نشير بالنسبة للفترة الكلاسيكية، وفي منطقة مجاورة، الى مؤشر هام جداً، سيما وأنه يبدو اليوم، فريداً من نوعه، الّا وهو الكنز المكتشف عام ١٩٦٧ بالقرب من «بصرى»، في المنطقة الحدودية الحالية السورية ـ الاردنية، الذي حصل متحف أوكسفورد[١] «Ashmalean Maseum» على القسم الاكبر منه[٢]. وكان حصراً من الفضة من حلى صغيرة الحجم اجزاء من السبائك. و١١٣ قطعة نقدية كاملة أو مجزأة. هذا الكنز كان قد خُبِّيء (حسب التقسيمات الاثارية التاريخية للنقود الاثينية، نسبة الى أثينا، نحو عام ٤٤٥ ق.م، وتعود أهمية هذه اللقيا الى قدم تاريخها والى منطقة كشفها. كما تحملنا على الشك في قيام ـ ضمن سهل بصرى وفي أواسط القرن الخامس ـ تجارة متطورة نوعاً ما تفسر استعمال القطع النقدية الصغيرة من الفضة التي كانت توازي القطع النقدية اليونانية الصغيرة، وحتى القطع النقدية الكبيرة السليمة المسماة (عشر دراخمات) ـ (اثنان ـ ثمان دراخمات) (عشر تترا دراخمات) (خمس ستاتير) Statére (الستاتير يساوي ٢٠ دراخما). ويصح افتراض قيام علاقات مع بعض موانيء الساحل، ومنها صور على وجه الاحتمال. ويزودنا الكنز أيضاً

بنموذج ذي دلالة معبرة عن الأنواع التي كانت متداولة داخل الامبراطورية. وبذلك يوضح النتائج التي توصل اليها شلامبرجر، ولا يختلف، من جهة ثانية، تركيب الكنوز الأخرى المتزامنة معها أو التي بعدها، سواء كانت من فلسطين أو من مصر نفسها، وفي حال غياب الداريك (الدينار) الذهبي، فإن الاصدارات الملكية الفارسية لم تكن ممثلة إلاّ عن طريق سك مثقال واحد من الفضة، بينما بالمقابل، كانت النقود الفضية اليونانية أكثر من ثمانين نوعاً صادرة عن أربع قطاعات رئيسية، مثل بلاد (تراخوملا سيدونية Trachomcaedoines) : ١٣ قطعة ـ وأثينا ٣١ قطعة (والجنوب الغربي لآسيا الصغرى ١٥ قطعة) (وقبرص قطعة) مع بعض القطع المنفصلة في غرب المتوسط (ماسانا وكورسير قطعة واحدة) (من اليونان: ايجين ٢) (كورنث ١) (ايليس ١) (ديلوس ١). كذلك من الساحل الشرقي: (صور ١) (ربما من غزة ١ ولكن في ذلك شك). هناك بعض النقود وخاصة نقود شمال بحر «ايجة» واثينا كانت قديمة التداول منذ ٢٥ ـ ٣٠ سنة سبقت عهد الطمر.

بالفعل، فمنذ تأسيس رابطة ديلوس Delos وحتى عام ٤٢٥، انتشرت الفضة المسكوكة بواسطة المدن اليونانية، أو بواسطة بعض السلالات الحاكمة المشتركة في نطاق الثقافة اليونانية، بما فيها سلالات «قبرص» بشكل واسع في الامبراطورية الفارسية (وحتى في مناطق هي أبعد حدّاً من الجهة التي فيها حوران) وذلك مقابل انتشار «الداريك» الذهبي الذي لم يكن له أي منافس، والشيء المميّز في كنز «بصرى» وفي المكتشفات الأخرى، هو وجود مواد أو بقايا فضة من كل نوع: وافضل مثال على ذلك هو «هكسيلبر Hacksilber»، المنتشر في مكتشفات القرن الخامس في سورية، وفينيقيا وفلسطين، وهذا يبين أن الفضة المسكوكة مقبولة في المبادلات المراقبة عادة بالوزنات، ليس بالنظر لقيمتها العددية، بل لقيمة السبك فيها، وإنه اذا كانت بعض أنواع العملات المعروفة بسبب قدمها، فذلك لانها كانت متداولة لضمان العيار الجيّد (Scklumberger).

وهذه الطريقة في التداول تفسر ـ بعد أن أدت حرب البيلويونيز الى ندرة في العملة الأتيكية في الشرق ـ ظهور سك جديد للعملات غير اليونانية في الامبراطورية الفارسية. وهو سك لاقى رواجاً وتطوراً شديداً في القرن الرابع الميلادي ولكنه بقي تقليداً لوجهين. عملات «التترادراخما» أو «الدراخما اليونانية»، والبعض منها، انزل للتداول منذ القرن الخامس مستندة على ضمانة دار المسكوكات في «غزّة». وكان التقليد جزئياً أو اشتقاقياً، وهي حال، عملات «فيليستو آراب» التي كانت ممثلة في خزائن العملات للقرن الرابع الميلادي في فلسطين ـ وفينيقية وسورية[٣].

حتى قبل الاصدارات الكبيرة للعملة التي قام بها الحكام الفارسيون. شوهد ظهور وانتشار العملات التابعة للمدن والسلالات الحاكمة في «فينيقية وفلسطين»، والتي يفكر

الملك حيالها، بمنع أو تحديد سك الفضة[1]. لنأتي على ذكر العملات المسكوكة في دور سك غير معروفة وغير محددة. وفي دور مسكوكات المدن الكبرى الساحلية مثل: صور - صيدا - ارواد - بيبلوس، ومهما كان حق الاسبقية (التي طال الجدال فيها)، لهذه الدار أو تلك بالنسبة للجوار. فقد بدأ ضرب العملات هذه، بسك عملات صغيرة جزئية، بينما كان التداول أيضاً، قد بدأ (من الستاتير: العشرون درهماً) أو التترادراخما، ومن قطع نقدية من النموذج اليوناني التقليدي[5].

مع الأسف، لم تفدنا أية لقيا في حوران، عن كيفية تداول العملة، خلال القرن الأخير من حكم الفرس، والتي كانت مقتصرة، بدون شك، على الذهب الملكي، وعلى الفضة ذات المصادر المختلفة التي كانت من عائدات المعاملات والعقود اليومية، كانت العملات من صنف (philesto arabe) الفلسطينية - العربية) السائدة فعلاً على الساحل الفلسطيني - الفينيقي، تصل الى هنا، والفضل في ذلك يعود لدور رؤساء القوافل، الذي كان يقوم به العرب الانباط، على طرف الجنوب، بين العربية الوسطى، وبين البحر الأبيض المتوسط[6] وهذا يدعو الى الاعتقاد بأن التوسع نحو شمال تلك المناحي (الاتجاهات) كان موفقاً بصورة فردية ومُشتّتة ونحو نهاية ذلك القرن، ظهرت، لأسباب مماثلة، السلسلات التي كان يطلق عليها اسم (المصرية العربية)، وكان يُعتقد على الغالب، بأنها قادمة من الشمال الغربي للعربية، وبصورة خاصة من الحجاز[7].

٤ - نهاية القرن الرابع

لم تظهر أية دالّة، على أن المسكوكات المحلية التي ضاقت شهرتها، بسبب التبدلات التي قام بها الكسندر وخلفاؤه خلال الأعوام بين ٣٢٣ - ٣٠٢ ق. م بالنسبة للنظام النقدي، حسب المعلومات لدينا، فإن التنقيبات التي حدثت في المنطقة لم تعطِ أي دليل عن الحملات التي قادها الفاتح نفسه، أو قواده، ضد العرب الايطوريين وضد بلاد شرقي الأردن. ولا ضد الفتح (الانتيغونيدي ontigonide): سلالة أسسها أحد خلفاء الاسكندر واسمه (أنتيغونوس) اعتباراً من عام ٣١٨ ب. م. في هذا المضمار، وضمن نطاق المسكوكات كان التباين شديداً بين سورية الجنوبية وشرقي الأردن من جهة، وبين سورية الشمالية وباقي المناطق الساحلية والفينيقية والفلسطينية، من جهة أخرى، حيث تظهر الاكتشافات الكثيرة للكنوز[8]، التوسع الوحيد للعملة الفضّية، فأصبحت مقبولة كما هي دون تطبيق الوزن عليها في جميع البلاد، أما الدراخما الرباعي والدراخما من عيار أثيني، والتي تحمل اسم وشخصيات الفاتحين، فقد حلّت في تركيب تلك الكنوز، محل عملات الحاكم الفارسي، أو العملات المستقلة المسحوبة من التداول.

ان فتح ورشات جديدة للسك، في الشرق (ومنها ورشات مارانوس - وعله - يافا - عسقلان - دمشق) ووصول العملات الكثيرة المسكوكة في أسية الصغرى - قبرص - شرق الامبراطورية، كانت تجلب معها زيادة كبيرة في احجام الذهب، وخاصة الفضة التي كانت قيد التداول. وقد دام تداول دراخما الاسكندر، في كل الشرق وحتى في القرن الثاني قبل الميلاد.

وايضاً، في أواخر سني القرن الرابع، ادخلت وعممت بصورة واسعة في الشرق، العملة البرونزية التي ظهرت من جراء التنقيبات العديدة (باستثناء الذهب) ولكن لم تظهر أبداً آثار هذه النتائج وهذه الفعالية، حسب الموجود الحالي للمستندات، في المكتشفات داخل البلاد.

٥ - العصر الهيلليني

مقابل ذلك، تعطي العملات الهيللينية المكتشفة في موقع «سيع»، نموذجاً متواضعاً (٤ قطع) يُثبت تعاقب الاصدارات اللاّجيدية والسلوقية، ان القطعتين البرونزيتين اللاّجيديتين (Lagides) المنسوبتين الى بطليموس الثاني، أو بطليموس الثالث، رغم تآكلهما الشديد، هما إنعكاساً ضعيفاً لمسكوكاتهما الوفيرة المجهولة التفاصيل. اما دور السك الفينيقية والفلسطينية التي كانت نشيطة جداً منذ حكم بطليموس الثاني (بطليموسات عكا - يافا - غزة - بيروت - صيدا - صور - طرابلس - ماراتوس) ومراكز السك الأخرى في الاسكندرية وقبرص كانت تضرب (تسك) كميات كبيرة ليس فقط من الفضة (مثل: رباعية الدراخما والدراخما) والذهب أحياناً، بل ايضاً البرونز الجميل لمختلف النماذج. كما إن مكتشفات عديدة في الساحل الشرقي، وفي وسط البلاد، وفي الأردن خاصة تثبت الانتشار الواسع لهذه العملات[٩]، ولكن مع الاسفار لم تتمكن العناصر من إيضاح الوقائع المتنازع عليها، مثل تبعية دمشق للامبراطورية اللاجيدية أو السلوقية خلال الحرب السورية الأولى والثالثة[١٠]، تلك الوقائع لم تكن لها أن تمر بدون نتائج بالنسبة لقطاع حوران، حتى لو لم يتأثر نظامه بها.

إن ضآلة العدد، في مكتشفات موقع «سيع». لا يتيح أيضاح الوضع النقدي في حوران، داخل المملكة السلوقية من عام ١٩٨ الى عام ٦٤ق. م - والقطعتان البرونزيتان التابعتان لهذا العصر، يعود كل منهما الى اصدارات سك يمكن ان تعتبر هي الأكثر ابتذالاً والأكثر في المناطق السورية تحت حكم «انطيوخس الرابع عام (١٧٥ - ١٦٤ ق. م)، وانطيوخس الثامن الذي اشترك مع والدته (كليوبترا) في الحكم (١٢٣ - ١٢٠ ق. م) وعلى كل حال، يوضح هذا النموذجان مثل بقية المكتشفات في سورية الجنوبية والاردن، أوسع

تداول نقدي برونزي مرقم ومسكوك في دور السك الشمالية وإذا صح فإن انطاكية كانت مكاناً لاصدار فئات تلك المسكوكات . لقد تطور وتنوع سك واصدار العملة الملكية اثناء حكم السلوقيين مع المحافظة على الطابع الأثيني الاساسي . اما بالنسبة لدور السك في الشمال والتي كانت نشطة منذ نهاية القرن الرابع الميلادي (وخاصة دار السك في انطاكية) . فقد تعززت بعد احراز النصر على «اللاجيديين بدور السك الواقعة في مدن الساحل ، وكذلك بدار السك الملكية في دمشق التي شهدت نجاحاً كبيراً تحت حكم الاسكندر وخلفائه ، رغم تراجعها المتواضع حينما كانت اسرة البطالمة تسيطر على فينيقية ، ثم عادت اعتبارا من حكم انتيوخس السابع (١٣٨ ـ ١٢٩) واصبحت احدى الدور الاكثر انتاجاً في المملكة[١١] بفضل عودة التجار بين البادية والساحل اثناء حكم السلوقيين ، كما يبدو ، وبسبب نقص اللقيات في حوران ، فإن بيوت العملة (دور السك) في جنوب سورية ـ فلسطين ـ الأردن ـ أظهرت كيف أن الدراخما الرباعي ـ والدراخما السلوقية حلت محل الفضة البطلمية[١٢] التي مع كل هذا استمر تكديسها وخاصة في الأردن .

ولكن تركيب المكتشفات اشادت في النصف الثاني للقرن الثاني ، والعقود الأولى للقرن الأول ق . م ، الى عودة ظهور العديد من الاصدارات المحلية الفينيقية ـ أو البلدية ـ أو المستقلة باسم ووفق نماذج اصدارات المدن : مثل (Arados) ارادوس) في القرن السابق . وهكذا جميع المدن الرئيسية ، تقريباً ، اما بدأت أو عادت الى سك النقود البرونزية ، وفي أغلب الاحيان ، الفضية . البعض منها كان يتبع أسلوب العصر السلوقي ، والبعض الآخر كان لها اسلوبها الخاص (مثل : سلوقية ـ ارواد ـ طرابلس ـ صيدا ـ بيروت) . اما اصدارات الدراخما الرباعي الدراخما من قبل العديد من هذه الدور (سلوقية Ladicée ـ أرواد ـ صيدا ـ طرابلس ـ صور ـ عسقلان) ، التي كانت تبدّل أو تنافس العملة الملكية . فقد شهدت تطوراً عظيماً في نهاية القرن الثاني ق . م ، وخلال كامل القرن الأول ، وامتدت حتى الحقبة المهمة جداً من العصر الامبراطوري ، ولهذا اصبحت عملة الدراخما الرباعي (اصدار صور) مشهورة وهي العملة الفضية الاكثر رواجاً في القرن الأول . ان الانتشار الواسع لهذه القطع النقدية التي غالبا ما اشير اليها من قبل المؤلفين ، قد اثبتت وجودها بتوفر كمياتها من المكتشفات حتى ضمن سورية الداخلية . وان العديد من درر سك العملة البرونزية المستقلة في ٢٥ مدينة سورية على الأقل ، قد سك من هذه العملة في أوائل القرن الأول ، ورغم كون تداولها ضعيفا . غير أنها احتفظت بأهمية محلية كبيرة . أما الحالة التي كانت تستحق الذكر في سورية الجنوبية ، فهي عملية سك العملة البرونزية (الديمتر ياسية) ، وهذا اللقب استخدمته دمشق مؤقتاً ، في عهد ديمتر يوس الثالث (٩٦ ـ ٨٧ ق . م) .
اصداراته هذه شبه المستقلة Pseudo autonome كانت معاصرة للعملات الملكية المسكوكة في

نفس المدينة[١٣] في حوران، كان غياب الأدلة قد قاد الى السؤال عن النقود البرونزية الصينية التي كانت متداولة في هذا العصر ـ هل كانت العملات الملكية أو شبه المستقلة في دمشق تنافس عملات دور السك الأخرى؟ وهل كانت القطع البرونزية الصغيرة والوفيرة في المرافىء الفينيقية، والفلسطينية (عسقلان ـ صور ـ صيدا) تصل الى تلك المناطق؟؟

اظهرت بعض المكتشفات العائدة للمناطق المجاورة، في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الأول ق.م، انحلال السلطة السلوقية، وعداوات الممالك المتنازعة، ووجود قطع برونزية مختلطة بالعملات المستقلة الفينيقية، وبالعملات البرونزية الملكية السلوقية، وهناك فئات أخرى سُكّت من قبل رئيس الربع الإيطوري (لشالسي Chalcis) فقد سك نقود «بطليموس بن منّايوس» نحو عام ٨٥ ق.م. ولكن العملات البعيدة والأكثر وفرة، هي عملات ملوك النبطيين والتي على مايبدو، بدأ سكّها في «بترا» نحو نهاية القرن الثاني. ق.م. تحت حكم «اريتاس» وبين عام ٩٣ ـ ٨٥ وسّع عبوداس الأول، أملاكه على حساب «اسكندر جانيه»، من الجولان الى بلاد موآب وجلعاد وتغلب على الملك السلوقي انتيوخس الثاني عشر فأصبح النبطيين اسياد «بتانا» (Batanée كانت تحوي السويداء وحوران. . . المترجم) (Auranitide) وحوران القديمة، وحتى دمشق فيها بعد، بين عام ٨٤ ـ ٧٢ ق.م. وقد أوكل على العموم الى دار السك الأخيرة (بدمشق) سك جميع الوحدات والفئات النقدية البرونزية الصغيرة، ذات الطابع اليوناني والعائدة للملك «أرتياس الثالث الـ Philhellène) الذي استدعي للمساعدة من قبل الدمشقيين ضد التهديدات «الايطورية» قبل حكم تيفران (٧٢ ـ ٦٩ ق.م) والتدخل الروماني. من المؤكد، ولصالح تاريخ حوران الذي لم يكن معروفاً خلال هذه الحقبة الزمنية المضطربة. فإن المكتشفات النقدية، وخاصة البرونزية منها، كانت قد قدمت أثمن الأدلة.

٦ ـ من الفتح الروماني الى انشاء الولاية العربية

تعطى الملاحظة ذاتها حول الحقبة التي تلت الفتح البومبي Pompeienne وتنظيم الولاية السورية، وفي هذا المضمار. فإن التنقيبات في موقع «سيع» لم تعط، أية دلائل. فقط هناك عملة وحيدة تحمل تاريخ القرن الاول ق.م. لقاء نسبة كبيرة من العملات المعروفة (بمقدار ٩٧ نسخة أي ٣٣٪ من المجموع). تدرجت تواريخها ضمن القرن الأول بعد الميلاد، موضحة جزئياً، التاريخ المضطرب لهذا القرن بسبب مضاعفة وتراكم مختلف العملات المسكوكة والمتداولة في هذه المنطقة.

لم يتم الحصـول على أيّـة دلالـة حول انتشار العملات الرومانية في نهاية الجمهورية، وخـلال القـرن الأول للامـبراطـوريـة. غير أن استنتـاجاً مماثلاً نشأ من جراء فحص بعض الكنـوز التي تعـود لزمن الحـروب الأهليـة، وخـاصـة، في فلسطـين[١٥] حيث تم العثور أثناء المكتشفات المنعزلة، وأثناء التنقيب على اللقى، وخاصة على الساحل الفينيقي السوري، مما أكّد بوضوح الدور المتصاعد الذي لعبته العملة الرومانية في الشرق. وكان قد أشير الى هذا الدور في العديد من النصوص التاريخية والنصوص التوراتية[١٦] وكانت في بادىء الأمر، تتنـاول، خلال الحـروب الأهليـة، بعض اصدارات العملة الذهبية (aurei) وبصورة خاصة العملة الفضيـة المسكـوكـة في الغـرب، ومن ثم في عهد «بروتوس» و«كاسيوس» في اليونان، وفي آسيا الصغرى، انعكس تدخل انطوان في الشرق بين عام ٤٢ - ٣١ق. م - في كثرة تلك النقـود التي تعـود فيـها تعود الى دار السك (Ephése) التي سكت العملة لصالح «أوكتاف» اعتباراً من عام ٢٨. والى نفس الزمن، تعود إصدارات العملة، في العديد، من دور السك العـائـد للسـاحل السـوري الفينيقي (بـيروت - طرابلس - أرواد - Balanca) منها قطع من الـبرونـز عليهـا صورة انطـوان وكليـوبـترا VII اجتمعت صورتها على قطع نقدية (الدراخما الـربـاعي - فضيـة مشهـورة، أسفلهـا كتـابـة تفسيرية باليونانية سكتها، على ما يبدو، مع دراخمـات مماثلة، دار السـك بانطـاكيـة. وفيـها بعد، وطيلة حكم «أوغست وأباطرة» القرن الأول، استمـر توسـع وضرب العملة الرومانية لأسباب عسكرية ومالية، إن العملة الذهبية والدراهم الغربية، وخاصة ما يتعلق بآسية الصغرى (مثل: Perganne- Ephèse - قيصرية كابادوقية) أو القطع البرونزية الاسكندرانية التي ظهرت في الأراضي السورية وفي فلسطين. فقد قامت الادارة الرومانية، منذ حكم «أوغست وحتى ثورة عام ٦٧ - ب. م. بسكّ قطع نقـديـة صغـيرة من البرونز باسم حكام الولاية اليهودية، دون أي نماذج مصوّرة. ولكن منذ ولاية «اغسطس»، قامت دار السك في انطاكية، بوضع التداول لكميات كبيرة من العملة المسكوكة للولاية السورية[١٧] (بوعد مستقبل بعيد)، ان هذه الاصدارات الطبيعية التي تحمل رسم صورة الامـبراطـور وأحيـانـاً كتـابـة يونـانيـة أو لاتينيـة، استمرت حتى القرن الثالث الميـلادي، وهي تتضمن الكثـير من العملة الفضيـة (خـاصـة من الـدراخما الرباعي، ومن الدراخما ومختلف الجزئيات). وايضاً، قطعاً نقدية برونزية، باقطار كبيرة، منذ السك الأول (٢٠/١٩ - ق. م). اصبحت الدراخما الرباعية الانطاكية تنافس الدراخما الرباعية الشهيرة «لصور» ولم تتأخر في الحلول محلها.

خلال هذه الحقبـة، وبفضـل مبـادرة المـدن، وصلت دور ضرب العملة المستقلة الى انحطاط تدريجي، وخاصة بالنسبة للفضة. فقد أنشئت خلال القرن الأول ق. م - العديد من دور سك العملة الكبـيرة مثـل: «سلوقيـة - لاوديسية Laodicée أرواد - صيدا - صور)

وتخصصت في سك نقود (الدراخما الرباعية). أن كنوز العملة الفضية وأيضاً، النصوص التي تشير الى رواج الدراخما الرباعية المسكوكة في صور تكشف عن ذلك. ولكن دار السك في صورة هي الوحيدة التي تابعت الاصدار بشكل منتظم خلال وبعد حكم أوغست وحتى عام ٥٦ ـ ٥٧ ب. م. وفي هذا التاريخ ترك، بالنسبة للفضة، المجال حرّا للعملات الرومانية ـ وللدراخما الرباعية الانطاكية. ومقابل ذلك، انّ سك نقود البرونز ذات الشروحات المستقلة، لم ينقطع في القرن الأول ق. م ـ. في أغلب المدن الساحلية (وقد عاد ايضاً في «بيولومية ـ عكا piolemais- Ake) عام ٤٤ ق. م وتعاقب بصورة عامة، حتى عهد أوغسطس، منتشراً حتى في المدن الأكثر أهمية في القرن الأول ب. م. (طرابلس ٦٧ يوماً) وحتى في القرن الثاني («أرواد» ١١٦ يوماً) (صيدا ١١٨) (صور ١٩٥). ومن جهة أخرى. فقد ظهرت منذ عصر بومبي Pompe ، إصدارات سك عملة من البرونز المستقل بشكل وفير. ولكنها كانت محددة من حيث الزمن المتداولة فيه. وهذه كانت حالة «دارا Dara» في عام ٦٤ ـ ٦٣، وخاصة عدة مدن داخلية، وبصورة خاصة منها، في سورية الجنوبية (Gadara أم قيس) عاصمة ائتلاف العشر مدن. وقد سكّت في عام ٦٣/٦٤ أيضاً عملات حملت تاريخ السنة الأولى لحكم «روما». وقد أعيد سكّها بصورة افرادية خلال العقود اللاحقة تحت اسم الغادارابين (ملك ، أم قيس). وهي مؤرخة حسب التقويم البومبي pompéenne [١٨] وبنفس السلسلة والنوع يعود اصدار العملة البرونزية في دمشق قبل حكم أوغست بقليل. ولكن أهمية السك المستقل، تبدو بكل الاحوال محدودة، وهي لا تسري على الفئآت المسماة (الامبراطورية اليونانية) التي كانت قد ظهرت، فقد قرر أوغست أن هذه الاصدارات للعملة المحلية ذات الكتابة اليونانية، تجمع، من حيث الحقوق، صورة اسم الامبراطور على الوجه الأول ـ ورمزاً خاصاً بكل مدينة، والاصل على الوجه الثاني، في عصر أوغست كان عدد المدن المنتشرة، لا يزال متواضعاً في سورية ،لايزيد عن اثنتي عشرة بالمجموع ومنها، في الجنوب، دمشق التي اوقفت سك النقود بعد طبريا Tibère ، ثم فيما بين حكمي «نيرون وهايدريان» (أم قيس Gadara) حيث الفئآت الصغيرة النقدية حلّت محل الاصدارات المستقلة، بالوقت الذي كانت مرتبطة بولاية سورية عدة مدن من إتلاف العشر مدن. وفي فلسطين جرت عدة اصدارات امبراطورية للعملة في غزّة وعسقلان، ومع انشاء المستعمرة الرومانية ببيروت عام ١٥ ق. م. ظهرت فئة أخرى من العملات البرونزية المحلية ذات كتابة لاتينية، وأيضاً ظهرت اصدارات نقدية في المستعمرات، شبيهة للسابقةفي (بتولومية ـ عكا)، تحت حكم نيرون، وفي القيصرية (تحت حكم دوميسيان).

اعتباراً من حكم «كاليفالا» امتد ضرب العملة «الامبراطورية اليونانية الى عدد كبير من المدن، وهذه الظاهرة، ليست عامة بالكامل، وهي بطيئة في شمال سورية وفي فينيقية،

حيث كانت الاصدارات المستقلة تتابع فيها اكثر من القسم الجنوبي، الذي تضاعف فيه دور الضرب الجديدة، وكانت مدن الائتلاف العشر من بين الأوائل التي سكّت هذا النوع من العملة، وعلى العموم كانت هذه العملة تُؤرّخ وفقاً للعصر البومبي Pompéenne من ٦٤ - ٦٣ ق.م: مثل قنوات و Nysa-seythopolis منذ حكم «كاليغالا» - heppos- Gerasa- تحت حكم نيرون. وفيلادلفيا تحت حكم تيطس وبلّلا pella، تحت حكم دوميسيان - بينما Gadara، كانت تتابع الاصدارات العديدة. وأيضاً هناك دور سك أخرى في المناطق المجاورة (طبريا - سباستيه - جبا - نيابوليس - سيزارة - سيفُوريس)، افتتحت هي ايضاً دوراً لضرب العملة على طريقة الامبراطورية اليونانية تحت حكم كلود - ودوميسيان - أنفسهم. اما بالنسبة لعملات موقع «سيع». فليس من المستغرب أن يظهر، منذ تلك الفترة اعداد تستحق الذكر نسبياً، من القطع ذات الفئة (ثمانية قطع من المدينة القريبة جداً من «قنوات» اثنتان منها مؤرختان تحت حكم «كاليغالا» - أما الستة الباقية مؤرخة بعهد دوميسيان.

هناك فئة، ثالثة كبيرة من اصدارات ذلك العصر، وهي فئة (دور سك العملات الملكية التي بدأ تسلسلها في نهاية الحقبة السابقة. وهي من بين عملات موقع «سيع»، خير ماأعطي ملخصاً جميلاً يساير تقلبات النظم السياسية التي اعترت حوران في القرن الأول ق.م. والقرن الأول ب.م. ورغم الدور الذي استطاع ان يلعبه (زينودوردوسالسي)، فلم تر النور أيّة عملة تعود للأسرة الايطورية. فقط ظهرت بالمقابل، مجموعتان غير متساويتين بالاهمية هما العملات الهيرودية والعملات النبطية.

رغم ان منطقة «سيع» مثل باقي «حوران» كانت قد رضخت، احياناً، لحكم الأسرة

إن المهمّ من مجموع المسكوكات المكتشفة في الموقع الأثري، كانت من صنع المملكة النبطية. هذه الحصة تحتوي على ما لا يقل عن (١١٠) قطعة نقدية سليمة أو جزئية من العملات المعروفة أي ٣٧٪ من مجموع اللقى التي تمَّ العثور عليها حتى هذا اليوم. ان الثلاثة ملوك الذين حكموا اعتباراً من عام ٩ قبل الميلاد، مُمثلون بشكل غير متساوٍ وبصورة خاصةد بواسطة مسكوكاتهم البرونزية، علماً بأنهم جميعاً قاموا بسكّ دراخما من الفضة، وما يقارب من نصف القطع منسوبة الى «اريتاس الرابع» أي له وحده (٢٠ قطعة). وهو متضامن مع الملكة شوكيلات - Shuqailat الأولى من (١٥ قطعة نقدية). أما القطع النقدية الخاصة بالحكام التالين، فقد كانت اقل من ذلك: عشر قطع من «مليكوس الثاني» بالإشتراك مع «شوكيلات الثانية»، من عام ٤٠ الى عام ٧٠ ب.م. ثم (١١) من رابيل الثاني (٧٠ - ١٠٦ ب.م) ومع شويكيلات الثانية (٥ قطع) - ومن جميلات (٦ قطع) هذا التقسيم قد يكون لأول وهلة مفاجئاً. إلاّ أنه يشير على كل

حال، الى الكثرة النسبية للاصدارات النقدية «لأريتاس الرابع» بالنسبة للملوك النبطيين الآخرين في الوقت الذي به كانت المملكة قد كبرت منذ عصر (عبوداس obodas) الثالث نحو ٣٠ قبل الميلاد. وكانت تتضمن منطقة «بصرى حيث ان سكّ النقود العينية البرونزية النبطية، لايمكن أن يُلاقي في جنوب سورية وكامل قطاعات الأردن، مزاحمة لها بنفس الاهمية. فالحالة، على ما يبدو، تختلف جداً، تحت حكم خلفاء أريتاس الرابع، حيث توطدّت المراقبة الرومانية على تلك المناطق بصورة ثابتة، سواء مباشرة أوبواسطة الأسرة المالكة «الهيرودية»، وحتى ولادة الولاية العربية عام ١٠٦ ب.م.

٧ ـ السيطرة الرومانية: من القرن الثاني الى الرابع الميلادي

يمر عبر حوران، حدٌ مجهول، وغير معروف التفاصيل، يفصل بين الولايات السورية الجديدة، التي من ضمنها منطقة «قنوات»، واللقى النقدية لم تعطِ أية معلومات عن هذا التقسيم الاداري، ولا عن الاصلاحات اللاحقة التي قام بها «ستيموس ساويروس» حينما اتسعت العربية لتشمل حوران والجبل في عام ١٩٥، و«ديوكليسيان»، حينما توسعت العربية ايضاً نحو الشمال مكملةً ضمَّ بقية حوران واللجا، حوالي عام ٢٩٥.

منذ أوائل القرن الثاني، ومع نهاية حكم المملكة النبطية لم تعد في المنطقة أيّة إصدارات نقدية تعود للسلالة الملكية. بينما كان الازدهار والتطور الزراعي والتجاري في حوران، الذي وصل أوجه في هذاالعصر، كان بغرض استعمال النقود العينية الوفيرة numeraire، التي يمكن أن تؤخذ فكرة جزئية عنها من اللقى في «سيع». وبالنسبة لتداول الفضة، والذهب احياناً. لا نملك أي أدلّة. ولكن من المحتمل ان العملات، كما هو الحال، في المناطق الأخرى، من الشرق الأدنى، كانت تأتي من

جهة، من دور السك الامبراطورية الغربية أو من الشرق عدا سورية (مثل رومة ـ وقيصرية كابادوقية بصورة خاصة). ومن جهة أخرى، من معامل انطاكية. وقد حلّت دراخماتها الربعية للولاية محل دارخامات «صور» منذ القرن الأول. كما ان انطاكية استمرت بسك فئآت مهمة من الفضة (دراخمات رباعية) و(دراخمات عادية) حتى عصر غورديان الثالث، ثم انحصر العمل فيما بعد تحت حكم «فاليريان» في اصدار النقد النحاسي والبرونزي، ومن المناسب أن يشار في هذا الفصل، وفي زمن الولاية العربية الى وفرة سك دراخمات الفضة مع رسم «صورة رسم تراجان» مؤرخة عام ١٠٤ ـ ١١٧ب.م، فإن العديد من الأدلة، توجب الاعتقاد، بأن هذه العملات الوفيرة في بيوت المال (المربعات) وفي مامبسيس

المنسوبة تقليديا الى (قيصرية كبادوقية) قد سُكّت للتداول المحلي في دارسك في العربية[١٩]، من جهة أخرى، وخلال حكم «كركلا وماكرين» ،كان قد أشير الى حدود سلسلة من الفئات المختصرة، ولكن ضمن اصدارات وفيرة من الدراخمات الرباعية على غرار اصدارات انطاكية في ثلاث عشرة داراً للسك مهمة في الشمال وفي الساحل من سلوقية الى «غزة». أما الاصدارات النقدية الامبراطورية الأخرى، من المعدن الثمين كانت على العموم قليلة وناجمة عن ضرورات عسكرية. مثل مركز اصدار الدرهم الفضي الروماني في (Carrhes كارهس) بين عام ١٦٣ ـ ١٦٦ ب. م، أو الدرهم الذهبي (Ourei) لأورانس انطونين في حمص خلال أعوام ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ب. م).

يمكن تصنيف النقود العينية البرونزية الوفيرة المتنوعة جداً، حسب أهميتها، الى مجموعتين:

١ ـ الاصدارات البلدية المحلية ـ المستقلة ـ أو الامبراطورية اليونانية أو الاستعمارية. .

٢ ـ النقود الامبراطورية حاملة الكتابات اللاتينية المحلية أو المستوردة. ان اللقيا في موقع «سيع» تشهد جيداً بذلك التقسيم، وبذلك التطور التاريخي لهاتين الفئتين.

حتى منتصف القرن الثالث تقريباً، كانت الأغلبية الساحقة من العملات المتداولة، هي من جميع أنواع البرونز ومن نماذج مختلفة، وكانت تسكها الحواضر أو المدن التي سُميت مستعمرات رومانية، ان المسكوكات الامبراطورية حاملة الكتابات اللاتينية، بقيت نادرة نسبياً (Sesterces, asses et dupondi) غير متوفرة ابداً، على ما يعتقد في العقود الأولى للقرن الثاني الميلادي، كان هناك فقط عملتان من هذا النوع، كلاهما في عهد «تراجان» وقد اكتشفنا في موقع «سيع». كان الحجم الكبير للنقود العينية، في جميع التبديلات الجارية، يقدم من قبل دور السك المحلية، حيث كان باستطاعتها سك عدة أنواع من العملة، مثل الاصدارات الشبه مستقلة، حاملة حسب الكتابات اليونانية، التي كانت تنقد، دون الرجوع، الى السلطة الامبراطورية، وفقاً لما كان سائداً في القرن الثاني، في اثنتي عشرة داراً لسك العملة، خاصة في المدن الكبرى في الشمال والساحل، مثل «أرواد» حتى عام ١١٦ ـ أو صور حتى عام ١٩٥ وأيضاً في تدمر. والبعض من تلك الاصدارات ظهر منفرداً تحت حكم «تراجان» أو نحو نهاية القرن الثاني الميلادي، مثل: وضع بصرى في عام ١٨٢ ـ ١٨٣. ولكن الظاهرة التي تستحق الذكر والتي جرت خلال القرن الثاني هي تكاثر الاصدارات (الامبراطورية اليونانية) ان عدد المدن التي كانت خلال عهد (اسرة ساويروس) تسك العملة، حاملة الكتابات اليونانية مع صور ورسم الامبراطور تجاوز الثمانين. وكان اغلب تلك الاصدارات التي لا تُعتبر امتداداً لاصدارات القرن الأول، قد ابتدأت تحت حكم الانطونيين. ثم

وضعت لها حدود في عصر اسرة ساويروس، وانتهت تقريباً بالكامل خلال القرن الثالث. فيما بين حكم كراكلا (وغاليان gallien) وفي مجمل هذا الانتاج الضخم الذي كان يضم، بصورة خاصة، نماذجا من العيار الكبير والمتوسط، والذي غالباً ما كان من البرونز ذي الصفات العالية. كان التلاحم والتماسك مقصوداً، لأن العلاقة بالعملة الرومانية الامبراطورية كانت صعبة التفسير(٢٠).

في سورية الوسطى والجنوبية كلها. كانت الاصدارات تتضاعف، فدمشق التي استأنفتها تحت حكم «هدريان» تابعت السك حتى عصر «غاليان gallien» غزة (ولو كاد دي كريزورهواس gazaet leucade du Chrysorhoas) حتى عصر غودريان الثالث وسيزاره Césaèe وبانياس، وتدمر، حتى عصر «اسرة ساويروس». ومن بين ائتلاف المدن العشر، استأنفت «فيلادلفيا» اصداراتها تحت حكم هادريان، إن (كابيتالياس وأبيلا -Capitalias Abella افتتحا تلك الاصدارات تحت حكم «ماركوس اوريلوس» وأم القيس Dion تحت حكم كركلا - جميع تلك المدن، وأيضاً المجاورة لها، التي استمرت اصداراتها النقدية منذ القرن الأول، اوقفت تلك الاصدارات تحت حكم Elagabal أبلاجَبَل، أو غارديان الأول. وفي العربية اصدرت «درعا - بصرى - وبترا» عملات ضمن نفس هذه الازمنة، وهناك دور لسك العملة أقل أهمية دامت فترة أقصر مثل Esbous- Eboda- Charachmoba مأدبة Rabbathmoba . ويمكن تطبيق نفس الاستنتاج على القطاعات المجاورة لها. مثل: الجليل والسامرة واليهودية.

على الغالب، لا يوجد أي انقطاع، بين الاصدارات النقدية الامبراطورية اليونانية، وبين الاصدارات التي تحمل كتابات لاتينية، التي سكّتها نفس تلك المدن التي اصبحت فيها بعد مستعمرات رومانية، حكم هادريان وحكم فيليب العربي «عشرون» مدينة. ان اصدارات عملة للمستعمرات في منطقة بصرى، منذ حكم الكسندر ساويروس، وفيليب الأول، وفي دمشق وفيلوبوليس، كانت تخص حوران، بشكل خاص. اما لقى موقع «سيع» التي لا تشمل عملة المستعمرات، فقد اعطت فكرة موجزة عن تنوع البرونز، في البلديات مُثِلّتْ الاصدارات المحلية بعملة من قنوات يعود تاريخها الى حكم «كومود» Commode، وبأربعة عشر قطعة برونزية من «بصرى» في زمن «ماركوس أوريلوس»، من جهة أخرى، عثر على قطعة مستقلة في صور مؤرخة عام ١٤٩. وعلى قطعة نقدية أخرى (امبراطورية يونانية) في انطاكية من عهد فيليب الثاني.

اعتباراً من منتصف القرن الثاني كان يطرأ تغيير كثير على تقسيم النقود العينية شيئاً فشيئاً. تحول سك النقود الامبراطورية الى اصدارات محلية، غير أن دور السك البلدية

أوالخاصة بالمستعمرات اختفت أو تقلصت بأغلبتها تحت حكم (Elagabol ايلاجبل) اوحكم غارديـان الأول، وايضـاً في مدن الائتـلاف العشـر، وخـاصة قنوات والعربية وبترا ـ كما أن البعض من الدور لم يَدُمْ سكها سوى مدة قصيرة، مثل دار فيليوبولوليس التي لم تستمر الى ما بعـد حكم الملكـين (فيليب) بينما هناك دور أخرى استمرت في سورية الجنوبية وفي العربية، حتى عهد الملك «اوستيليان» (بصرى) وعهدي «فاليران وغاليان Gallien في درعا ـ بصرى).

تميز هذاالعصر بندرة البرونز رغم افتتاح دور سك امبراطورية جديدة في الشرق، في (سيـزيـك cyzique) تحت حكم كلود الثاني، وفي طرابس تحت حكم أورليان. ان التنقيبات في موقـع «سيـع» خلافـاً لعـدد من «اللقى» المكتشفـة في سورية الشمالية والساحلية. لم تعط سوى القليـل من المعلومـات خلال تداول العمـلات في المنتصف الثـاني من القـرن الثـالث ب. م. ـ ولم يتعدى مجموعها اربع نماذج (منها اثنان من عصر غاليان) غير أنها كانت تبين، بصورة خاصة، خلال القرن الرابع ب. م واثناء حكم قسطنطين وخلفائه المباشرين. كيف كانت العملة الرومانية غير ذات قيمة جوهرية، وكيف اختفت الاصدارات النقدية المحلية بصـورة نهائيـة. أمّـا نسـخ القطـع المؤرخـة في تلك الحقبة الزمنية والتي كانت على الغالب بحـالـة ممتـازة، كانت تُعـد ٢٤ قطعة في «سيع» (أي ٩٪ من المجموع) وهي تتضمن احدى المجمـوعـات الأفضـل منظراً في الموقع، لانها أتاحت تدوين أهمية دار السك في انطاكية التي امتدت اصدارتها الى زمن أبعد من اصدارات اسكندرية، واصدارات دور السك الأخرى الشـرقيـة. مثـل قسطنطينية ـ تسالونيكيا ـ سيزيك ـ نيكوميدي، ولكن هذا الاستنتاج يبدو مبتذلاً على النطاق السوري[٣١].

الخلاصة

في مثل هذه المقارنة للشروط العامة في تداول العملة في حوران، فإن الـ (٢٩٣) قطعة نقدية التي كان قد عثر عليها في «سيع»، برغم تفاهتها، فإنها تتيح استخلاص بعض النتائج المجملة. ان غيـاب قطـع الفضـة والذهب لا يشكل مفاجئة، في غمرة من عملات التنقيب

حيث يصادف فيها عادة، وفي كل عصر، الأفواج الأكثر رواجاً التي كان يتم تداولها من خلال المعاملات الصغيرة أو المتوسطة في الحياة اليومية. من جهة أخرى، وفيما عدا بعض العملات الرومانية الأحدث، كان تآكل اغلب القطع يُثبت، على مايبدو، التداول الطويل الأمد.

ان العدد الكبير من العملات المجزأة، والتي كانت تنحصر تقريباً بانصاف القطع أو أرباعها من العملات النبطية المسننة عمداً، تستحق أن يشار اليها. وهذه ليست ظاهرة وحيدة في سورية، ولا في العالم القديم ايضاً. وكانت تلك العادة، على مايبدو، تتجاوب مع سبل التجارة اليومية في زمن ما. وهنا، في النصف الثاني من القرن الأول ب. م. - أو في أوائل القرن الثاني، كانت القطع البرونزية المتداولة مهمة جداً للمشتريات الصغيرة، وحتى في عصر اقدم من ذلك بكثير، قسمت العملات حتى درجة الدراخما الفضية، كما يتبين ذلك في كنز بصرى، وكذلك، بدأ البرونز وكأنه مقبول كما هو، واستمر بالتداول، بالوقت الذي خلاله اصبحت بعض العملات مهترئة أو انقطع تداولها.

ان غياب العملات التي سبقت اصدارات «اللاجيد»، لاتتيح استخلاص أي نتائج حول الفتوحات القديمة المتتابعة على الموقع. لذلك لم يُنتظر أي رواج سوى للعملة الفضية، فيما عدا، على مايبدو، عصر الكسندر. وبالمقابل، فإن العدد الأكبر من القطع، كانت تحمل تاريخ حكم «فالانسيان» و«قسطنطين» الثاني، وكانت بحالة ممتازة من الجدّة. أما غياب العملات التي تحمل تواريخ سابقة لتاريخ العملات المذكورة اعلاه مباشرة، فهي تحمل، على ما يعتقد الأدلة على اهمال أو ترك الموقع أو ترك مواقع اخرى، كان قد جرى فيها التنقيب، غير أنه عثر فقط على قطعتين من العملة حديثتان جداً من العهد الأموي، ولكنهما بحالة اهتراء شديدة.

بين هذين الحدين، لا يمكننا إلّا أن نبدي دهشتنا من الاستمرارية في التقسيم التاريخي. وقد بدت جميع العصور، فيما عدا، القرن الأول قبل الميلاد، ممثلة هنا كما هي في العهد الهيلليني، حتى لو كانت العيّنة متواضعة. وكان يميزها ثلاث مجموعات مهمة: العملات الرومانية في القرن الرابع الميلادي (٩٪ من المجموع) عملات الملوك الانباط (٣٧٪) - وكميات ضخمة من القطع الصغيرة التي يبدو أسنادها أو تصنيفها صعباً. ان العملات البرونزية النبطية تشكل مجموعة كبيرة - مستمرةً - متجانسة، وان اهترائها وكثرة القطع الصغيرة المسنّنة (المثرمة) تؤكد النجاح والتداول الطويل الأمد لهذه العملات، في منطقة لعب فيها الدور التجاري والسياسي لهذا الشعب مجالاً عظيماً بلا شك. اما بالنسبة للقطع البرونزية الصغيرة جداً، والتي تشكل وحدها ثلث عدد العملات المكتشفة (١١٤ نسخة)، فإنها تبدو، من وجهة نظر تاريخية، مرتبطة بأواخر العملات النبطية. فجميعها

خالية من أي كتابة أو شرح ، وهي مزيّنة بنماذج خام ، خشنة ، غير معروفة على الغالب ، وعلى كل حال ، فيها بعض الاصالة الى حد ما (رأس مشطوب ـ عنقود عنب ـ كبش) . فالكبير منها لا يزيد قطره عن (أوبول) (وحدة يونانية قديمة) . ويكاد لا يمسك بين الأصابع . والمقروء منها يذكّر بالعملات الصغيرة البرونزية لمنطقة نفوذ البارث (Parthe) أو منطقة تدمر .

أليس استعمالها وايضاً دورها مشابهاً الى دور القطع النقدية الصغيرة النبطية ، التي كان من المحتمل ان تحلّ محلها؟ لو أن لقيً أخرى محلية ، لم تثبت الفرضية القائلة بأن الموضوع يدور هنا عن عملات اصدرتها بعض دور السك في حوران .

Chr Auge

ك . أوجيه

هوامش

١ ـ وايضاً قطع من البرونز المثقوب، وهي ادوات للعقود وللأساور، جلبت من حوران (راجع مجلة المسكوكات ١٩٦١ ص ٢٣.

٢ ـ IGCH رقم ١٤٨٢ ـ نشر من قبل س. م كراي C. M. Kroay وب. ر. س موري P. R. S Moorey.

٣ ـ مثلاً IGCH رقم ١٤٨٥ (سورية نحو ٣٨٠) ١٤٩١ (فينيقية أو فلسطين نحو ٣٥٠) ١٤٩٣ (قصر «نابا» سوريا الوسطى نحو ٣٤٠) ١٥٠٧ (ابو شوشة ـ اليهودية نحو ٣٣٠).

٤ ـ شلمبرجر (النقود اليونانية ٢٠٠٠) ٥٠٢ صفحة ٢٣ ـ ٢٤ فقرة ٦.

٥ ـ شلمبرجر ٥٠٢ox ص ٢٢ ـ ٢٤ ولكن كنز بصرى يعني نسخة من كل من (الارساليات) الأولى لصور (التي ستحمل تاريخ ٤٥٠ للميلاد) وسيكون هذا (مثقال مزدوج Sicles) انظر كراي ـ موراي. حاشية رقم ٢ ص ١٩١ رقم ٨٨.

٦ ـ انظر بالنسبة لهذه الفعالية J. Starkey بترا والانباط «V- SOB باريز ١٩٦٦ ـ Col ٩٠٣.

٧ ـ B. M. C فلسطين ص ١ ـ ٣٩.

٨ ـ IGCH رقم ١٥٠٧ ـ ١٥٢١.

٩ ـ IGCH رقم ١٥٨٤ ـ ١٥٩٣ و ١٦٠١ (H Seyrig) كنوز الشرق رقم ١٠ـ ١٢.

١٠ ـ H. S. M - E. t. Newell ص ٢١٤ ـ ٢٤٢.

١١ ـ E. t. Newell دور السك الاخيرة في عكا خلال عهد بطليموس وفي دمشق. N. N. M ٨٤ (نيويورك ١٩٣٩ صفحة ٤٤ ـ ٩٧).

١٢ ـ IGCH رقم حاشية ١٦٠٠ـ ١٦٣٤ ـ استمرار العملات الفضية البطليموسية في «فلسطين» وخاصة، الاردن، راجع مثلاً «كنز مأدبة» المدفون منذ حوالي عام ٤٤٦ ـ IGCH رقم ١٥٩٢.

١٣ ـ BMC غالاتيا صفحة (١ ـ ٢٥، ١ ـ ٢٧ L XXV , LXXVII) «نويل» دور السك السلوقية الاخيرة ص ٨٣ ـ ٨٤.

١٤ ـ IGCH الحواشي ١٦١٣ ـ ١٦١٥ ـ ١٦٢٠.

١٥ ـ IGCH حاشية رقم ١٦١٦ ـ ١٦٣١.

١٦ ـ لأجل هذه الحقبة الزمنية ـ لوحة المجموع لِـ «بابلون» S. W - J. Babelon ـ عملات SDB5 باريز ١٩٧٥ ـ Col ـ ١٣٤٦ ـ ١٣٧٥.

١٧ ـ راجع المؤلف الاصلي للسيد W. Wruck حول الولاية السورية خلال حكم اوغسطس وتراجان Stuttgart ١٩٣١.

١٨ ـ H. Seyring معابد وعبادات وتذكارات تاريخية لائتلاف المدن العشر في الآثار السورية السادسة باريز ١٩٦٦ ـ ص ٤٥ ـ ٤٩/ و Spjkerman سبيجكرمان ديكابوليس ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

١٩ ـ راجع بحث A. Negen وسبيجكرمان ائتلاف المدن العشر ص ٣٢ ـ ٣٤ حاشية ٤.

٢٠ ـ كامل هذه الحقبة الزمنية وما يتبعها، انظر Passim مؤلف J. P. Callu ـ السياسة النقدية للاباطرة الرومان من عام ٢٣٨ الى عام ٣١١ (باريز ١٩٦٩).

٢١ ـ عرض سريع لتلك العملات الصغيرة ـ C. Auge (بعض العملات الصغيرة جدا التي عثر عليها في «سيع» في سورية ـ الجنوبية ـ مذكرة الشركة الفرنسية حول المسكوكات ٣٧/ ٧ ـ تموز ١٩٨١ ـ ص ٨٢ ـ ٨٥ (pl ـ ٢ ـ ٤).

هوامش المترجم

*١ ـ غريب هذا الالحاح على وجود ممالك يهودية أو ملوك على الرغم من أن المصادر اليهودية القديمة كانت تؤكد أن هيرود وأسرته من بعده لم يكونوا سوى حكاماً وولاة عينتهم روما لادارة منطقة ما، معروفة في فلسطين، وكلفوا احياناً لمهمات خارج منطقتهم الى الشمال في سورية أو الى الشرق باتجاه البتراء، عندما تلاقي روما بعض الصعوبات في التعامل مع المملكة النبطية التي كانت قائمة من القرن الرابع قبل الميلاد في المنطقة الواقعة من قناة السويس غرباً وبادية الأردن شرقاً ومن سهول دمشق شمالاً وخليج العقبة جنوباً، وان ندرة وجود النقود الخاصة باسرة هيرود، تؤكد عدم التواجد الدائم اطلاقاً في سورية الجنوبية.

صدر عن الأهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د. محمد العودات و د. جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د. عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د. عبد الله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أناباز (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د. ميه الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيّم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	ترجمة عدنان بغجاتي
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سخريات صغيرة)	خطيب بدلة
١٨ ـ قدّاس من أجل فلاح اسباني (رواية)	رامون خ. سيندر، ترجمة عاصم الباشا
١٩ ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د. أحمد جاسم الحميدي
٢٠ ـ الذهب (قصة للأطفال)	يحيى الشيخ
٢١ ـ التلوث وحماية البيئة	د. محمد العودات
٢٢ ـ مسرح الريادة (دراسة)	عبد الفتاح قلعه جي
٢٣ ـ طبرصف والزينبية	عدنان عمامة
٢٤ ـ الكاتبات السوريات ١٨٩٣ ـ ١٩٨٧	مروان المصري
٢٥ ـ حطين	يوسف سامي اليوسف
٢٦ ـ الانتفاضة بالكاريكاتير	الأهالي
٢٧ ـ زوبُك (رواية)	عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبد اللي
٢٨ ـ الطفل والاحلام (دراسة)	د. عبد الرزاق جعفر
٢٩ ـ من قاموس التراث	هادي العلوي
٣٠ ـ الحب والظلال (رواية)	ايزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني
٣١ ـ دراسات في أدب عبد السلام العجيلي	مجموعة من الكتاب، تحرير: ابراهيم الجرادي
٣٢ ـ قيامة عبد القهار عبد السميع	حسن. م. يوسف
٣٣ ـ الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر	فريد جحا
٣٤ ـ أرق الليلة الفاصلة	منيف حوراني

٣٥ ـ النفق (رواية) — ارنستو ساباتو، ترجمة: عبد السلام عقيل

٣٦ ـ كيف تُكتب الرواية؟ — غابرييل غارسيا ماركيز ـ ترجمة صالح علماني

٣٧ ـ الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق — محمد الجبر

٣٨ ـ تسعة أشهر حتى الولادة — ترجمة غازي أبو عقل

٣٩ ـ مرايا صغيرة (شعر) — شيركو بيكه س

٤٠ ـ السواد (رواية) — حسن حميد

٤١ ـ الجغرافية السياسية والجغرافية الستراتيجية — أحمد عبد الكريم

٤٢ ـ السؤال الآخر — فاضل الربيعي

٤٣ ـ بم التعلل (شعر) — حميد العقابي

٤٤ ـ الشذوذ الجنسي — د. ناجي الجيوش

٤٥ ـ ليلة ناعمة (مجموعة قصصية) — دينو بوزاتي، ترجمة د. منذر عياشي

٤٦ ـ بين حدود النفي (شعر) — كريم ناصر

٤٧ ـ ارتقاء المجتمعات الشرقية — مجموعة من الباحثين السوفييت

تحت الطبع

ـ تفاح الشيطان (رواية) — احمد يوسف داود

ـ النقد الأدبي الحديث — سمر روحي الفيصل

ـ سوسيولوجيا الرواية — عبد الرزاق عيد

المعهد الفرنسي لعلم الآثار
في الشرق الأدنى
نشر ج. م. دانتزر
مكتبة الاستشراق لبول غونتر
باريس ١٩٨٥

INSTITUT FRANÇAIS
D'ORCHÉOLOGIE DU PROCHE
ORIENT
d: j. M. DETZERe
LIBRAIRIE ORIENTALIST PAUL
GEUTHNER
1985

INSTITUT FRANÇAIS D'ARCHÉOLOGIE DU PROCHE ORIENT
BEYROUTH - DAMAS - AMMAN
BIBLIOTHÈQUE ARCHÉOLOGIQUE ET HISTORIQUE — TOME CXXIV

HAURAN I

RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES SUR LA SYRIE DU SUD A L'ÉPOQUE HELLÉNISTIQUE ET ROMAINE

éd. J.-M. DENTZER

PREMIÈRE PARTIE

Ouvrage publié avec le concours
de la Direction Générale des Relations Culturelles Scientifiques et Techniques
et du Centre National de la Recherche Scientifique

PARIS
LIBRAIRIE ORIENTALISTE PAUL GEUTHNER
1985

